


2258.148
al-Basir
Fi al-adab al-'Abbasi

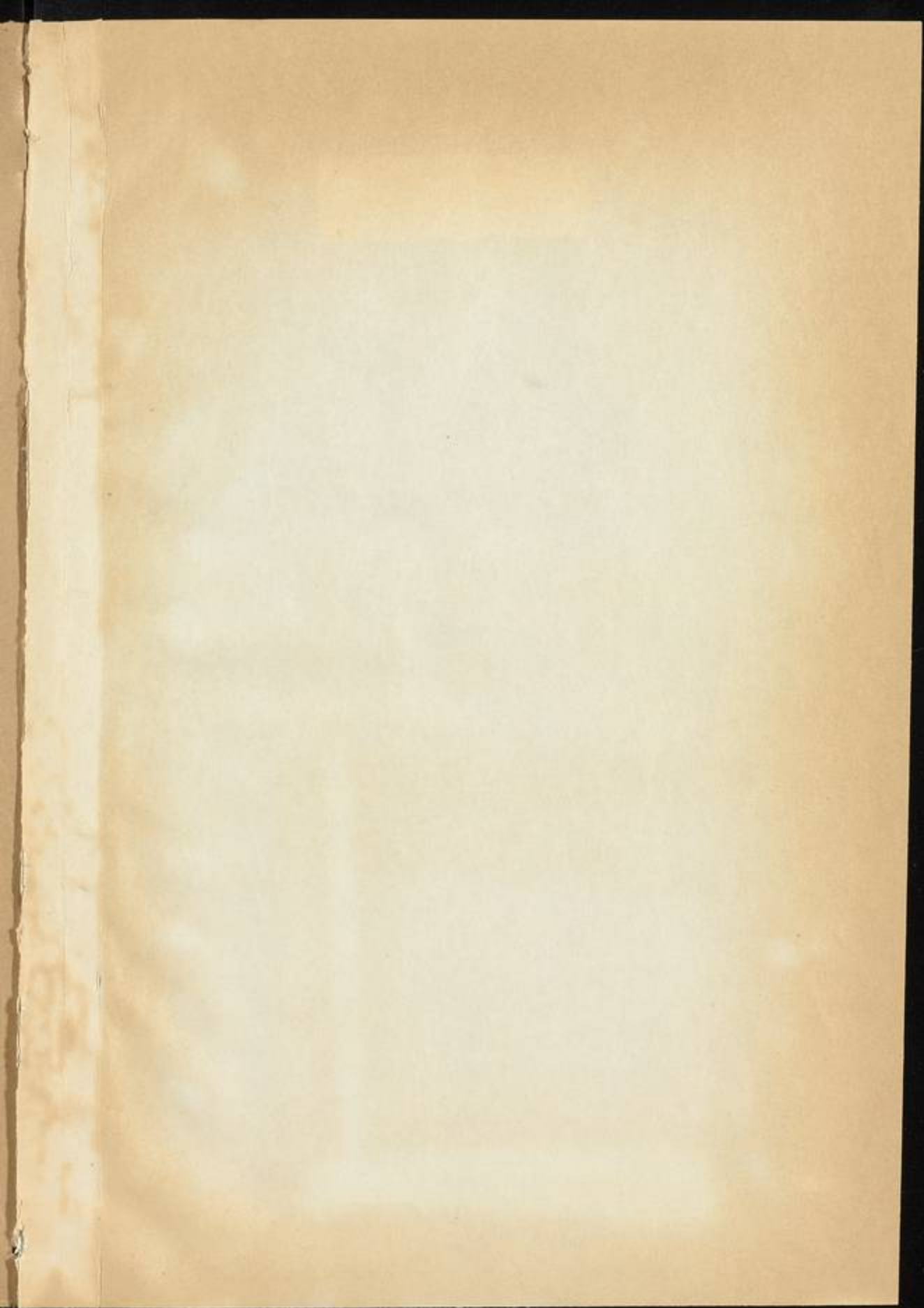
DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE
			

DUE

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY PAIR>



32101 031721184



محمد مهدي البصير

في الأدب العباسي

(الطبعة الثانية)

جميع الحقوق محفوظة لوزارة المعارف العراقية
وكل نسخة ليست مختومة بختمها تعد مزورة

مطبعة السعدي - بغداد

١٩٥٥



al-Baṣīr, Muḥammad Mahdī

محمد مهدي البصير

في الأدب العباسي

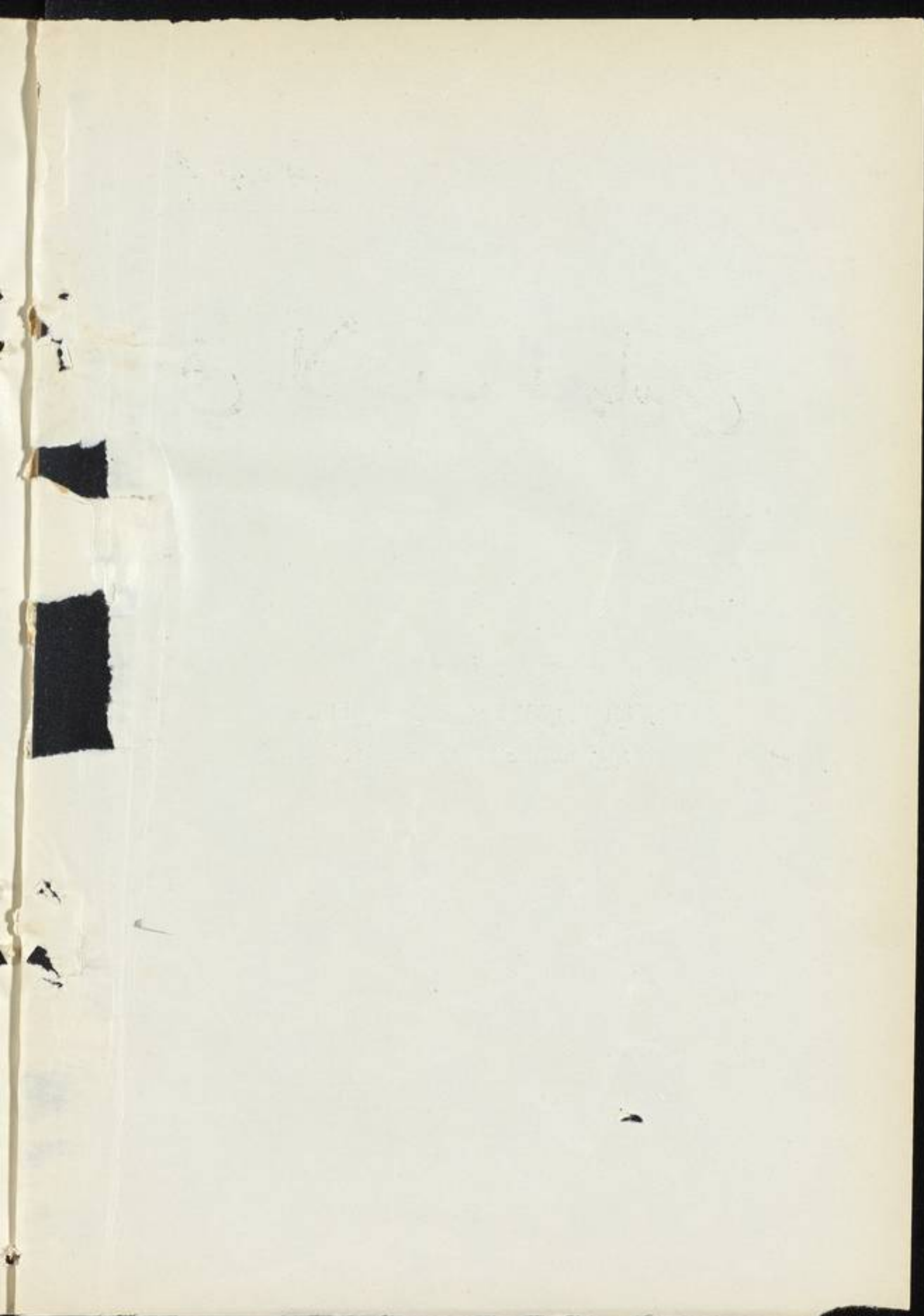
Fi al-ʿadab al-ʿAbbāsī

(الطبعة الثانية)

جميع الحقوق محفوظة لوزارة المعارف العراقية
وكل نسخة ليست محتومة بختمها تعد مزورة

مطبعة السعدي - بغداد

١٩٥٥



مقدمة

3-29-61

كان لصدور «عصر القرآن» أثره الحسن في تنفيذ المنهج الذي نسير عليه في دار المعلمين العالية ، فقد جتنبنا ما كنا نعاني من الصعوبات التي تنشأ عادة عن إتمام الدروس على الطلبة ، وأتاح لنا الوقت الكافي للقيام بكثير من العمل لم يكن القيام به ميسوراً فيما مضى .

وقد صارحتك في مقدمة «عصر القرآن» بأني لا أضع بين يديك موسوعة تستوعب أدب ذلك العصر درساً واستقصاءً وتستوفيه عرضاً وتسجيلاً ، وإنما أرجو أن أضع بين يديك مجموعة فصول تحتوي على المادة المقرر تدريسها في دار المعلمين العالية من أدب ذلك العصر وأصارحك الآن بأني لا أضع بين يديك موسوعة في الأدب العباسي العتيق ، وإنما أضع بين يديك سرفاً يحتوي على ما أتولى تدريسه من هذا الأدب .

على أي لا أظن ، من جهة أخرى ، أي أزوي عنك أكبر جزء من الأدب العباسي إذا كنت أحدثك عن ابن المقفع والجاحظ والخوازمي وبديع الزمان والهمداني والحري من الكتاب ، وعن بشار وأبي نواس وأبي تمام والبحري وابن الرومي وابن المعز والمتنبي وأبي فراس الحمداني والشريف الرضي ومهيار من الشعراء .

هذا إلى أي أحب أن ألفتك إلى اتباعي في تبويب هذا الكتاب طريقة غير الطريقة التي اتبعتها في تبويب عصر القرآن وسبب ذلك أن مجرى الأدب تغير كثيراً في هذا العصر ، فقد انقرضت المدارس الشعرية العتيقة التي يمتنع كل منها مذهباً خاصاً في صناعة القريض كمدسة أوس ومدسة آل ثابت ،

2258

148

واختلفت الطوائف الأدبية التي كان يجتمع كل منها حول مبدأ من المبادئ السياسية أو الاجتماعية أو الأدبية كشعراء العلويين وشعراء الخوارج وشعراء الغزل العفيف وشعراء الغزل الاباحي . وقام تمام ذلك كله بفرع الشخصيات الأدبية القوية المستقلة التي لا تنتمي إلى مدرسة ما كبشار وأبي تمام والمنتفي والشريف الرضي ، فهؤلاء كلهم شعراء كبار ، ولكن أحداً منهم لا ينتمي إلى مدرسة ذات طابع خاص . وقل مثل ذلك عن أكثر الكتاب كالجاحظ وأبي بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمداني ومع ذلك فقد رأيت أن أفرق بين الشعراء والكتّاب من ناحية التصنيف والتبويب ، فقسمت الكتّاب إلى قسمين يتألف أحدهما من الكتّاب المترسلين وثانيهما من كتّاب السجع والمنامات ، وأفردت لكل من هذين القسمين باباً خاصاً .

أما الشعراء ، فقد رأيت أن أجمع بينهم بطريق الزمن ، فدرست بشاراً وأبا نؤاس مثلاً على أنهما أكبر شعراء القرن الثاني للهجرة ، وأبا تمام والبحري وابن الرومي وابن المعتز على أنهم أكبر شعراء القرن الثالث للهجرة ، وهكذا . وشيء آخر أحب أن أقوله لك ، وهو أنني لم أخضع بحثي لطريقة عامة معينة وإنما عالجت كل موضوع بالشكل الذي بدا لي أنه يلائمه فقد أتحدث عن لغة المترجم وأسلوبه وقد لا أتحدث ، وقد أتحدث عن رأيه في الدين والسياسة وقد لا أتحدث ، كل ذلك تبعاً لطبيعة البحث ودرجة الحاجة ومبلغ الفائدة . وعلى الاجمال بذلت كل ما في وسعي لجعل هذه النصوص وافية بالغرض كفيلاً بما أهدف إليه من خدمة الأدب وتاريخه ، ومن الله التوفيق

محمد مهدي البصير

السبت ١١ أيلول ١٩٤٨

الباب الاول في الكُتَّاب المرسلين

تمهيد في تأثر النثر العباسي بمذاهب القرآن وأساليبه

ينقسم الكُتَّاب العباسيون من حيث مذاهبهم في الأداء وأساليبهم في الكتابة إلى معسكرين يتألف أحدهما من المرسلين وثانيهما من كُتَّاب السجع . والمرسلون هم الذين لا يلزمون السجع ولا يتقيدون بالأزدواج ولكنهم يرسلون أنفسهم على سجيتهما ويطلقون أئنة أقلامهم في ميادين الأبناء فتجول كما تشاء . وكُتَّاب السجع على التقيض من ذلك فإنهم يؤثرون أن تكون جملهم مقننة أو شبه مقننة وأريد بالمقننة تلك التي يلزم في اثنتين منها أو أكثر حرف واحد كما في قوله تعالى « ب س . إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم » فإن الميم الملازمة في آخر كل من هاتين الآيتين تجعل منها كلاماً مسجوعاً وبشبه المقننة تلك التي تشابه أواخرها في الوزن ولا يلزم في أواخرها حرف ما كما في قوله تعالى « ب س . إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة » فكلمتا واقعة . وكاذبة اللتان تختم بهما هاتان الآيتان تتفقان وزناً ولكنهما تختلفان في الحرف الآخر وهذا ما يسمى بالأزدواج .

وليس لأي من المعسكرين فضل الابتكار في شيء فقد سبق القرآن إلى كل هذا فالزم السجع وراعى هندسة الجمل ونظر إلى عدد الكلمات في عدد كبير من سوره وصرف النظر عن السجع وتحلل من قيوده وأهمل هندسة الجمل ولم ينظر إلى عدد الكلمات في عدد كبير آخر من سوره وقلده الراشدون وكبار الصحابة في خطبهم وكتبهم وقد فصلنا ذلك في النصلين الثاني والثالث من

الباب الأول من عصر القرآن . وإذا فليس لابن المقفع ولا لغيره من المترسلين وليس للصاحب بن عباد ولا لغيره من كتّاب السجع أن ينخروا بأنهم أصحاب مذاهب جديدة في صناعة الأنشاء لأنهم جميعاً متبعون غير مبتدعين ومقلدون غير مخترعين والقرآن هو أستاذهم وإمامهم الذي عنه أخذوا وعليه تخرجوا شاؤا أم أبوا .

نعم إن كتّاب الأسجاع تطرفوا في التزام مذهبهم ففرضوا السجع على أنفسهم سواء أكان سهلاً سمحاً مستساغاً أم نافرأً ألياً مستكراً وأفرطوا في استعمال المجانسات والمطابقات وما إليها من الزخارف البيانية التي سبق القرآن إلى استعمالها جميعاً ولكنه فعل ذلك باعتدال وبدون تكلف . وما أظن أن التطرف في اصطناع مذهب من المذاهب أو أسلوب من الأساليب يعد ابتكاراً .

وكتّاب الدولة العباسية من مترسلين وأصحاب سجع كثيرون جداً وقد كتبت الأسفار العديدة الضخمة في تاريخ حياتهم ودراسة آثارهم ولكني قد لا أخطيء إذا لاحظت أن ابن المقفع والجاحظ والخوارزمي والهمداني والحريزي أطولهم باعاً وأعلامهم كعباً في صناعة الانشاء على اختلاف طرقهم ومذاهبهم فيه أو من أطولهم باعاً وأعلامهم كعباً في هذه الصناعة على أقل تقدير وعلى عذا سأقتصر هنا على تراجع هؤلاء الخمسة ودراسة آثارهم مبتدئاً بابن المقفع كما يقتضي ذلك الترتيب الزمني .

الفصل الأول

ابن المقفع

أ - حياته : اسمه وكنيته ونسبه . سبب تلقيب والده بالمقفع . مولده . تعليمه .

ماتملمب فيه من اعمال . إسلامه . حقيقة . مقتله . أسبابه . عرض

قضيته على المنصور . سعي أبي أيوب المورياني في إهدار دمه .

ب - أخلاقه : طائفة من الأخبار التي تتعلق بها . رفضها . أثر الدعاية الشعبية في

صنع هذه الأخبار .

ج - آثاره : الأدب الصغير . حسناته وسيدئاته . الأدب الكبير . ما يستحسن منه

وما يعاب عليه . كلية ودمنة . أصله في السنسكريتية . تصرف ابن

المقفع في ترجمته . كيف أناقشه . محاسنه . مساوئه . فحاجة أحكامه

في كثير من القضايا التي يعالجها . تناقض ما ينطوي عليه من أقوال

واعمال . اشتماله على كلام لا معنى له مطلقاً . سوء تأليفه على أنه

كتاب . نظرة في رسالة الصحابة .

لغة ابن المقفع وأسلوبه :

غموضه . تكراره في غير ما مسوغ . إستعماله الألفاظ في غير

ما وضعت له . عجمة كثير من ألفاظه وتعابيرها .

د - لماذا أدرسه !؟

هـ - مصدر شهرته ..

و - خاتمة : الفصل في أمره .

أ - حياته :

هو رَوَازِبَة وكنيته أبو عمرو في المجوسية ، وعبدالله وكنيته أبو محمد في الاسلام . ووالده داؤويه وقيل المبارك ، ولعل المبارك لقب له . وهو من أهل جور ، التي ينسب إليها الورد الجوري ، إحدى مدن جنوبي فارس ، وله ولاد في بني الأهم بالبصرة ، وهم أهل فصاحة ولسن . ما المنفع فانه لقب أطلق عليه ، قيل في سبب تفضيحه به إنه كان عاملاً للحجاج على الخراج ، فأخلص شيئاً منه ، فصره الحجاج حتى تقمعت يده — أي تشنجت — فلنّب بالمنفع .

ومسقط رأس المترجم وتاريخ ولادته مجهولان . ولكن يغلب على الظن أنه ولد في البصرة نظراً لولاء أبيه في بني الأهم ، ويغلب على الظن كذلك أنه ولد في أوائل العقد التاسع من القرن الاول للهجرة لأنه كتب لعمر ابن هبيرة في كرمان ، وقد عزل عمر هذا عن العراق والمشرق سنة (١٠٥) للهجرة ، ومن المستبعد كثيراً أن يستخدم عمر صاحبنا ويأتمنه على اسراره ولما يبلغ الخامسة والعشرين . ويضيف الأستاذ محمد كرد علي صاحب هذا الغرض إلى ما تقدم أن كثرة إنتاج ابن المنفع تدل على أنه قتل وهو في نحو الستين من عمره . وقد قتل سنة (١٤٢) أو (١٤٣) للهجرة ،^١ وهو رأي معتول ايضاً .

وكما يجهل الرواة مسقط رأس عبدالله وتاريخ ولادته يجهلون كذلك أمر تربيته وتعليمه . ولكن يخيل إلي ان والده تولى ذلك منه ، فلتمنه حكم الفرس

وآدابهم وسيرهم واخبارهم ، وعامه الحساب وسائر ما يلزم لخدمة الديوان الذي يظهر أنه أعدّه له إعداداً محكماً . وسواء أكان والده هو الذي تولى أمر تربيته وتعليمه أم غيره فإنه مما لا شك فيه أن ثقافته فارسية بحتة ' ١ ' ، يدلك على ذلك رأيه في خدمة السلطان فإنه مما لا يتمول به رجل متأثر بالأدب العربي . وغلوّه في كل ما ذهب إليه ودعا الى العمل به ، ومن امثلة ذلك رأيه في الصديق والمرأة ، فإنه على جانب كبير من الغلو والاسراف ، ولغته التي طالما استعملت فيها الألفاظ للدلالة على غير ما وضعت له والتي تظهر فيها العجمة ظهوراً لا يقبل الجدل ، وسأشرح هذا شرحاً كافياً عند الكلام في لغته واسلوبه .

اما علاقته بأبي جاموس ثور الذي كان يقدم البصرة على آل سليمان بن علي فإنها ان صحت ، بعيدة كل البعد عن ان تكون ذات اثر قوي في تكوينه ، لأنها حدثت في دورٍ فضح فيه أدبه واستحكمت ثقافته . وانه لمن الغريب حقاً ان يذهب معظم مؤرخي أدبنا الى ان ابن المقفع اخذ النصيحة عن أبي جاموس ثور هذا في اثناء زيارته للبصرة ، كأن مشافهة اعرابي من حين لآخر تكفي لخلق رجل فصيح يترك الآثار التي تدرس على مر العصور والاجيال .

وكتب صاحبنا لجماعة من الولاة وكبار العمال في العهدين الاموي والعباسي ، منهم عمر بن هبيرة والمسيح بن حواري في العهد الأموي ، وسليمان وعيسى

« ١ » يرى بعض مؤرخي الأدب أنه حفظ القرآن وقرأ الشعر الجاهلي وعرف الشيء الكثير من خطب علي بن أبي طالب عليه السلام ، ولكن يجادل الى أن هذا الرأي مما يصعب اثباته ، لأن شيئاً مما من آثار ابن المقفع لا يدل دلالة واضحة على أنه ذو لادام قوي بالأدب العربي .

ابن علي بن عبدالله بن عباس في العهد العباسي . وعهد اليه اسماعيل بن علي تأديب
طائفة من اولاده .

وكان اسلامه على يد عيسى بن علي . وهنا لا بد ان نسأل : أكان اسلامه
حقيقية أم مجرد خدعة ؟

لا اريد ان اركن في الاجابة على هذا السؤال الى هذه الروايات العديدة
التي تتظاهر على اتهامه بالزندقة ، فنزعم إحداها انه عارض القرآن ، وتزعم اخرى
انه ترجم كتب زنادقة الفرس الى العربية عملاً على افساد المسلمين ، وتزعم ثالثة
انه سر بيت النار بعد اسلامه فتمثل بقول الأحوص :

يا بيت عانك الذي أتزلُّ حذر العدى وبه النواد موكل
أني لامحك الصدود وانني قسماً اليك مع الصدود لأميل

وتزعم رابعة انه كان صديق حماد عجرد ووالبة بن الحباب ومطيع بن
إياس وسائر اخوانهم من خلفاء الكوفة ، يسامرهم ويعاشرهم ويعاقرهم الخمر وكلهم
متمهم في دينه . لا اريد ان اركن الى هذه الروايات في الاجابة على سؤالي
الآنف ذكره لأنني اعلم ان الاتهام بالزندقة هو الستار البراق الذي كان يسد له
ولاية الامور في صدر الدولة العباسية على كل جريمة يحلو لهم اقرارها ، فكل
من خالفهم في السياسة او ابي شأن من الشؤون التي تهتمهم زنديق يجب قتله
ولا يحل الابقاء على حياته . وقد قتل عبدالله بن المقنع باشارة من المنصور او
بندسية من وزيره ابي ايوب المورياتي . إذ أن فهو زنديق ، وهو داعية مخيف
من دعاة الضلال والاحاد . ولسكني ، اذ اطرح هذه الروايات جانباً ، لا احفل
كثيراً باسلام الرجل ، اذ الغالب على ظني انه فكّر في مركزه فرأى ان ولاية
الامور يقدمونه ويثربونه ويحبونه ويعجبون به لا دبه ، ولكنهم لا يتجاوزون

به حدود الكتابة نظراً لجوسيته ، فلو اسلم كما اسلم آل برمك لأصبح من الممكن ان يكون وزيراً تفويض له امور المملكة او والياً تلقى له مقاليد الحكم في اقليم كبير ، وعلى هذا ترك دينه القديم وانتحل الاسلام . على انه من الممكن تماماً ان يكون اسلامه ثمرة تنكير شديد ونتيجة درس موفق . وقد قلت لك انه قتل باشارة من المنصور او بدسياسة من وزيره ابي ايوب المورياني ، فأروي لك الآن تفاصيل هذا الحادث .

ما كاد المنصور - ناتي خلفاء بني العباس - يرتقي عرش الخلافة سنة (١٣٦) للهجرة حتى نار عليه عمه عبدالله بن علي ، وكان هذا يأمل ان تؤول اليه الخلافة يوماً ما لأنه بطل معركة الزاب الناصلة . ولأنه قاطع دابر بني أمية في الشام . ولكن السفاح خيب أمه ، فقد عقد الخلافة لأخيه المنصور على ان يلبها عيسى بن موسى من بعده . وقد حدث هذه الخيبة بعبدالله الى شق عصا الطاعة والخروج على ابن اخيه المنصور ، ورماه هذا بأبي مسلم الخراساني فهزمه وقضى على فتنة . ولجأ عبدالله الى اخويه سليمان وعيسى اللذين كانا في البصرة ، وكان اولهما والياً عليها . فقبلاه ومنحاه حمايتها وطلبها الى المنصور ان يؤمنه فقبل ، ولكنها تشددا في الأمان خشية ان يغدر المنصور بأخيهما ، ودارت بينهما وبينه رسائل كثيرة بهذا الشأن . وأخيراً عهدا الى عبدالله بن المقفع كاتب عيسى بن علي ان يضع نص الأمان على ان يشدد فيه اعظم التشديد ويحتاط ما وسعه الاحتياط . فنكتب لها أماناً جاء فيه مايلي : « . . وان انا نلت عبدالله بن علي او احداً ممن اقدمه معه بصغير من المكروه او كبير ، او اوصلت الى احد منهم ضرراً سراً او علانية على الوجوه والأسباب كلها ، تصريحاً او كناية

او بحيلة من الحيل ، فأنا نفي " ١ " من محمد بن علي بن عبدالله ومولود لغير رشدة " ٢ " وقد حلّ لجميع أمة محمد خلعي وحربي والبراءة مني ، ولا بيعة لي في رقاب المسلمين ولا عهد ولا ذمة ، وقد وجب عليهم الخروج من طاعتي واعانة من ناواني من جميع الخلق ولا موالاته بيني وبين احد من المسلمين الخ " ٣ " * .

ونقلت هذه الصيغة على المنصور ولا سيما ما يتعلق منها بالبيعة ، وسأل عن كتابها فمئيل له : عبدالله بن المنزوع كاتب عيسى بن علي : فقال : « فما احد يكتمنيذيه ؟ » وسمم ابو الخصيب احد رجال حاشية المنصور هذه الكلمة فكتب بها الى سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب الذي خلف سليمان بن علي في ولاية البصرة عندما آوى اخاه عبدالله وكان سفيان هذا يعادي عبدالله ويتحين الفرص لانتك به لآحن قديمة بينهما ، منها ان المسيح بن حواري كان حاكماً لنيسابور وكان عبدالله على ديوانه ، حدث ان عُزل المسيح وعيّن سفيان المتقدم ذكره خاناً له ، فحاول المسيح اولاً ان يتخلص منه بالمال ، ثم ناجزه وفشل في هذا كله ، ولكن كانت معونة عبدالله له في تنفيذ محاولاته صادقة وفعالة . ومنها ان عبدالله كان يهزأ كثيراً بسفيان ويسأله عن الشيء بعد الشيء ، فاذا اجابه خطأه وسخر منه ، وبلغ من تحامله عليه ان شتم عرض أمه ذات يوم شتما قبيحاً ، ولهذا كان يتربص به الدوائر ليثار لثغره منه . ويظهر ان ابا الخصيب كان صديقاً له ، فهياً له هذه الفرصة الذهبية ليشفي غليله من المترجم . وفي ذات

« ١ » نفي : كفتي الولد ينفيه أبوه

« ٢ » لغير رشدة : أي ولد زنى .

« ٣ » الوزراء والكتاب للجيشياري الطبعة الأولى ص ١٠٤

« * » كانت نتيجة هذا التحفظ الشديد اهدار دم ابن المقفع ، أما عبدالله بن علي فقد قتله المنصور أشنع قتلة ، وذلك بأن سجنه في بيت بناه على أسس من الملح ثم ساط عليه الماء فدفن عبدالله تحت انقاضه .

يوم أرسل عيسى بن علي صاحب الترجمة برسالة الى سفيان ، فقال له انه يخافه على نفسه ، و اشار بارسال جعفر بن جبلة الكندي بدلا منه . فأصر عيسى على رأيه فلما منه ان سفيان لا ينال ابن المقفع بسوء ملكانه منه . واحتاط عبدالله لنفسه ، فأخذ جعفر المشار اليه وذهبا معاً الى سفيان . فلما صارا ببابه واعاماه مكنها اذن اولاً لجعفر ، ثم اذن بعد فترة وجيزة لعبدالله ، فلما سلك هذا سبيله اليه عدل به الى منصور لقي فيها حتفه .

والرواة مختلفون في كنيمة قتله ، ولا سبيل الى تحقيق شيء من اقوالهم في هذا الباب ولكن الذي لا نزاع فيه هو ان سفيان قتل عبدالله اشنع قتلة يتصورها بشر . ورفع عيسى بن علي قضية كاتبه الى المنصور ، فأرسل هذا الى البصرة من جاءه بسفيان مقيماً ، فلما قدم الكوفة لقي بعض أقاربه أبا أيوب المورياني وقالوا له : انهم يحملونه تبعة ما يصيب صاحبهم لأنه يتصدر على انقاذه . ولقيه سفيان فقال له مثل هذا . فخاف أبو أيوب مغبة هذا التهديد وسعى في اهدار دم ابن المقفع لدى المنصور فكان ذلك . وعلم نيسب أن أبا أيوب يعمل على اهدار دم كاتبه فكف عن المطالبة به . أما حماد مجرد وهو صديق حميم لابن المقفع فانه يقول ان أبا أيوب المورياني هو الذي دبر مقتل عبدالله بن المقفع لأنه كان يعرف اعجاب المنصور به واكباره لفضله وأدبه ويخشى ان يخلّاه يوماً ما في منصبه . وهكذا ذهب ذلك الكاتب المسكين فريسة الضغائن والاحقاد وضحية الدسائس والاعراض .

ب - أمثلة:

وكما تفنّن خصوم ابن المقفع في اختلاق الأكاذيب والصاقتها به من الناحية

الدينية تننن انصاره كذلك في اختلاق الأُكاذيب والتطويل والترميز بها له من
الناحية الأخلاقية . وما يريد ان أنفي انه كان « سرياً سخياً يطعم الطعام ويتسع
على كل من احتاج اليه » ولكنني أقف موقف الشاك المرتاب من هذه الأخبار
التي ترفعه الى مصاف أجواد الملوك والأمراء ، والتي أروي لك مثلاً منها فيما يلي :

زعموا أنه أفاد مالا لما كان يكتب لعمر بن هبيرة في كرمان ، فأبى عليه
طبعه ، إلا ان يجري على جماعة من اهل البصرة والكوفة مرتبات تتراوح بين
خمسمائة وألني درهم في كل شهر . ورووا ان عمارة بن حمزة الكاتب كان صديقاً
لابن المقفع ، فورد عليه في يوم من ايام اقامته بالكوفة كتاب من وكيله بالبصرة
يعلمه فيه ان ضيعة مجاورة لضيعة ، تباع ، وان ضيعة لا تصلح ان ملكها غيره ،
وان اهلها قد بذلوا له ثلاثين ألف درهم وانه ان لم يبتعها فالوجه ان يبيع
ضيعة . فقرأ عمارة الكاتب وابن المقفع عنده وقال : ما اعجب هذا ! وكيلنا يشير
علينا بالابتياح مع الاضافة والاملاق ، ونحن الى البيع احوج ، ثم كتب الى
وكيله يأمره ببيع ضيعة والانصراف إليه . فلم يقل ابن المقفع شيئاً . ولكنه
ذهب الى منزله وبعث سفتجة^١ الى الوكيل بثلاثين ألف درهم ، وكتب اليه
على لسان عمارة : « إني كنت قد كتبت اليك ببيع ضيعتي ، ثم حضرني مال
وقد أنفذت اليك سفتجة فابتع الضيعة المجاورة ولا تبع ضيعتي ، وأقم مكانك
وأنفذ الكتاب بالابتياح الى » . ووجه الكتاب اليه مع رسول خاص ، فورد
الكتاب على الوكيل وقد باع الضيعة ، فمسخ البيع وابتاع الضيعة المجاورة ،
وكتب الى عمارة يعلمه ذلك . فلما قرأ عمارة الكتاب عجب أشد العجب وسأل

« ١ » السفتجة : الحوالة .

عمرن حضره وقت ورود الكتاب وقراءته فقيل له ابن المقفع ، فعلم انه هو
الذي بعث بالمال وأمر بشراء الضيعة . وزار ابن المقفع عمارة بعد أيام فقال له :
« بعثت بتلك الثلاثين ألف درهم الى الوكيل وكنا اليها ها هنا أحوج » . فقال
له : « فإن عندنا فضلاً » . وبعث إليه بثلاثين ألفاً أخرى

وزعموا أن ابن المقفع حضر مجلس غناء كان فيه معن بن زائدة المشهور ،
فغنت جاريةً معناً فأعطاها ألف دينار ، وغنت أخرى عبدالله بن المقفع فأعطاها
مئة ألف درهم ، أي عشرة آلاف دينار ، فقال معن : « لله درّ النارسي ، فقد
برز علينا » . فواضح ان هذه الأخبار مما يصعب بل يستحيل تصديقه ، لأنها
لا تتفق وما نعرف من احوال ابن المقفع في كثير ولا قليل .

إننا نعلم أن والد المترجم كان عاملاً من عمال بني أمية على الخراج ، وانه
اختلس شيئاً من مال السلطان فضر به الوالي حتى تقطعت يده ، ونعلم كذلك أن المترجم
عمل كاتباً مرة ومؤدباً تارة طلباً للرزق ، ونعلم زيادة على ما تقدم انه صاحب لهو
وشراب . أفنتسح حال كاتب او مؤدب كثير النغمات لمثل هذا السكرم الفياض ؟؟
وإذا قيل انه من الجائز أن تكون له ثروة شخصية تمكنه من اغداق هذه العطايا
على الناس ، قلنا أفلا يكون خيراً له وأولي به أن يترك خدمة الدواوين وتعليم
الصبيان كائنة منزلة هؤلاء ما كانت ، وان يضع نفسه حيث وضعها الله بين أولي
الثراء الواسع والعطاء الجهم ؟؟ أليس من حقنا ان نلاحظ أن هذه الأخبار من
صنع دعاية شعوية مغرضة تريد أن تخلق من عبدالله بن المقفع خليفة محسناً في
صورة كاتب او ملكاً كريماً في مركز أديب .

حسب آثاره :

لأبن المقفع آثار عدة ، ذهب بعضها وبقي غير قليل منها . أما ما بقي فهو عبارة عن « الادب الصغير » و « الادب الكبير او الدرر اليتيمة » و « كليلة ودمنة » المعروف ورسائل أهمها « رسالة الصحابة » المشهورة ، وكلمات قصيرة لبعضها صبغة سياسية واجتماعية وبعضها شخصي بحت ، واحدئك فيما يلي عن هذه الآثار مبتدئاً بالادب الصغير وهو مجموعة عضات ونصائح نقلها المترجم عن الفارسية كما ينص على ذلك هو في مقدمتها واقتبس بعضها من الحديث النبوي وكلام الامام علي وقد أغفل الاشارة الى هذا وربما اضاف اليها شيئاً من عنده او حور جانباً منها تحويراً يتفق وطبيعة تفكيره ان صح هذا التعبير .

وليس من شك في ان الادب الصغير يحتوي على نصائح قيمة بعضها ديني وبعضها سياسي وبعضها اجتماعي . فمن ذلك نصيح المؤلف قارئه ان يقسم وقته اربعة اقسام بفرغ في احدها لدينه وفي الثاني لمحاسبة نفسه وفي الثالث لمجالسة اخوانه ومعاشرتهم وفي الرابع لما يحل ويجمل من متع الحياة ولذات العيش "١" . ومنه وصية المؤلف بالنظر الي ما قيل دون نظر الي من قال ، وهو يشبه الكلمة النافعة باللؤلؤة الثمينة يجب ان تلتقط حيناً وجدت . ومن هذا القبيل إفاضته في النهي ...

« ١ » على ان هذه النصيحة مأخوذة في أكثرها من قول الامام علي « المؤمن ثلاث ساعات ، فساعة يتاجي فيها ربه ، وساعة يرم معاشه ، وساعة يخفي بين نفسه وبين لذتها فيما يحل ويجمل .

نهج البلاغة ج ٢ ص ٢٩٩ طبع مطبعة دار الكتب الكبرى بمصر .

عن الكذب الذي هو في رأيه منشأ كل رذيلة ومصدر كل نقیصة . أما إذا كان القاري، من ذوي السلطان فإن ابن المقفع يوصيه في هذه الرسالة بانتخاب عماله انتخاباً حسناً وتزويدهم بالارشادات والایضاحات الكافية ومراقبة أعمالهم مراقبة دقيقة ومكافأة المحسن منهم على احسانه ومعاذبة المسيء على إساءته . وفي ثانيا الرسالة نصائح أخرى عديدة حسنة من هذا القبيل .

ولكن إلى جانب هذه النصائح الحسنة وصايا أخرى كثيرة أقل ما يقال فيها إنها على جانب كبير من الشذوذ والغرابة . فمن ذلك أن المؤلف يوصي قارئه أن لا يعتمد على نفسه في تثقيف عقله وتقويم أخلاقه وتوسيع دائرة معارفه ومداركه ، وأن يكمل هذا كله من أمره الى من يسميهم المؤلف بـ (ذوي الأبواب) ... وبأية طريقة ؟ !! ان المؤلف يطلب الى قارئه (أن يؤنس ذوي الأبواب بنفسه ويحرمهم عليها) أي أن يكون أضحوكة لهم وهم يعلمونه نظير هذا ويثقفونه ويبصرونه بما يهمه من أمور دينه ودنياه ، فهو يقول في ذلك : (وعلى العاقل أن يؤنس ذوي الأبواب بنفسه ويحرمهم عليها حتى يصيروا حراساً على سمعه وبصره ورأيه فيستقيم الى ذلك ويريح له قلبه ويعلم أنهم لا يغفلون عنه إذا هو غفل عن نفسه) "١" .

ومن هذا القبيل ما يوصي به المؤلف قارئه من أن يكون شديد الانقباض شديد التحفظ في صلاته مع العامة شديد الانبساط شديد الاسترسال في صلته مع الخاصة ، أي أنه يوصيه ان يكون دجالاً إذا لم أخطي، في فهم كلامه .

وأنا أروي لك كلامه في هذا الشأن بنصه لتفهيمه كما تشاء . قال : « وعلى العاقل ان يجعل الناس طبقتين متباينتين ويلبس لهم لباسين مختلفين ، فطبقة من العامة يلبس لهم لباس انقباض وانحجاز وتحرز وتحفظ في كل كلمة وخطوة ، وطبقة من الخاصة يخلع عندهم لباس التشدد ويلبس لباس الأئسة واللاطف والبذلة والمفاوضة ، ولا يدخل في هذه الطبقة إلا واحد من ألف » « ١ » « ٢ » . ومن هذه النصائح الشاذة ما يذهب إليه المؤلف من أن العاقل يذمغي أن يجنب عن إبداء رأيه إذا شعر أن أحداً لا يوافق عليه . وإليك ما يقوله في هذا الشأن : (وعلى العاقل أن يجنب عن الرأي الذي لا يجد عليه موافقاً وإن ظن أنه على اليقين) « ٣ »
ومن هذا القبيل تفريق المؤلف بين الدين والرأي واعتقاده بأنه ليس لأحد أن يفكر في أمر دينه وأن يكون له فيه رأياً وأن كل ما عليه في هذا الشأن هو أن يؤمن وكفى ، وهو يقول في هذا ما نصه : (فصل ما بين الدين والرأي أن الدين يسلم بالإيمان وأن الرأي يثبت بالخصومة) « ٤ » فن جعل الدين خصومة فقد جعل الدين رأياً ومن جعل الدين رأياً فقد صار شارعاً ومن كان هو يشرع لنفسه الدين فلا دين له) « ٥ » . ومن غريب أو فظيع ما يوصي به المؤلف قارئه

« ١ » رسائل البلغاء ص ١٩ — ٣٠ .

« ٢ » « ٣ » أما أن يكون للرجل عدد قليل من الاخوان يأنس بهم وبأنسون به ويطمئن اليهم ويطمئنون اليه فهذا طبيعي بل ضروري . ولكن الذي ننكره على ابن المقفع هو ما يوصي به من « انقباض وانحجاز وتحرز وتحفظ في كل كلمة وخطوة » بالنسبة الى العامة . اذ ان ذلك رياء ما بعده رياء .

« ٢ » المصدر نفسه ص ٣٠ .

« ٣ » أظن أن المؤلف يريد « بالخصومة » التحجيس ، وهو تعبير غريب .

« ٤ » المصدر نفسه ص ٢٨ .

هو أن يستمتع بما آتاه الله من خير دون أن يحفل بما يصيب غيره من شر ، فهو يقول في هذا ما نصه : (وأنفع العقل أن تحسن المعيشة فيما أوتيت من خير وألا تكثرت من الشر بما لا يصيبك) « ١ » .

ومن هذه العجائب التي يحفل بها الأدب الصغير استدلال المؤلف على عظم شأن الدين ببناء الجهال عليه ، استمع اليه يقول : « الدين أفضل المواهب التي وصلت من الله تعالى الى خلقه وأعظمها مننمة وأحمدها في كل حكمة . فقد بلغ من فضل الدين والحكمة أن مدحا على السنة الجهال على جهاتهم بهما وعمائم عنهما) « ٢ » ومنها كذلك اعتقاد الكتاب أن دين المرء لا يثبت على حاة واحدة وأنه زائد مرة وناقص تارة ، وهو يسجل هذا بقوله : لا يثبت دين المرء على حاة واحدة أبداً ولكنه لا يزال إما زائداً وإما ناقصاً) « ٣ » ولكن - إذا لم يحظي ، ظني - بأن شدوذ المؤلف في أدبه « الصغير » هذا يبلغ أشده في هذه الحكم الغالية التي يقول فيها : (من نزل به النقر والنزقة لم يجد بدأ من ترك الحياء ، ومن ذهب حياؤه ذهب سروره ، ومن ذهب سروره مقت ، ومن مقت أوذي ، ومن أوذي حزن ، ومن حزن ذهب عقله !!) « ٤ » * . وبعد ، أتصح هذه المقدمات وتلك النتائج في رأي أحد من الناس ؟ . أصحيح أن الأصل في الرجل المقير أن يكون رجلاً لا حياء له ؟ . وأن من لا حياء له لا سرور له ، وأن من لا سرور له ممقوت لدى الناس ؟ . أصحيح أن من حزن قلبه لأمر من

« ١ » المصدر نفسه ص ٤٢ .

« ٢ » رسائل البلغاء ص ٣٧ .

« ٣ » المصدر نفسه ص ٤٣ .

« ٤ » المصدر نفسه ص ٥٢ .

* « تخيل الى ان ابن المقفع يجا ي بكلامه هذا كلاماً بليغاً للامام علي هذا نصه « من كثر كلامه كثر خطؤه ومن كثر خطؤه قل حياؤه ومن قل حياؤه قل ورعه ومن قل ورعه مات قلبه ومن مات قلبه دخل النار » نهج البلاغة ج ٨٤ طبع لمطبعة العربية الكبرى بمصر . ولكن كم بين كلام الامام علي وهذر ابن المقفع من فرق .

الأمور ذهب عقلمه ؟ أليكتب هذا أم يقوله رجل يملك مثقال ذرة من العقل ؟ !
أنا لا أطلب الى ابن المقفع أن يصطنع منطق « ديكارت » في دراسة مشاكل
الكون ولا براعة « ستنال » في تحليل النفوس والعمول ولا لباقة « أناطول
فرانس » في معالجة شؤون السياسة والاجتماع . وكل ما أطلب اليه ، هو أن ينهم
الأشياء فهماً طبيعياً وأن يحكم عليها أحكاماً تتفق ومنطق القرن الثاني للهجرة
أو منطق أي قرن من القرون . أفتراني واجداً عنده ما أطلب ؟ ؟

أما الأدب الكبير أو « الدرّة اليتيمة » فإنه صورة مكبرة للادب الصغير
في محاسنه ومساوئه وكونه منقولاً على الاكثر عن اللغة الفارسية ومثأراً
بنفكير ابن المقفع في مواطن عديدة .

فمن محاسنه أنه يوصي بالاعتدال في كل شيء ، ولا يرى بأساً في الاستزادة
من كريم الخصال كالشجاعة والسخاء ويوصي بأوفاء للتديق والمبالغة في
إكرامه ومواساته إن نزلت به نائبة من نوائب الزمن ، ومن طريف ما يوصي
به المؤلف في هذا الكتاب التمسك بأدب الحديث ، فهو يدعوك الى أن تصفي
لمن يحدثك وأن تحترس من أية بادرة تدل على انك عالم بما يقول او راغب في
مقاطعته الي غير ذلك مما يقتضيه ادب الحديث . اما اذا كنت ذا ولاية فإن
المقفع يوصيك ان تتحرز من المدح لأن حب الثناء موطن ضعف كبير في ولاية
الأمور قد يؤدي بهم الى الاخلال بواجباتهم والتقصير في إنجاز أعمالهم على
آتم وجه . هذا الى انه يعرضهم الي سخرية الساخرين وغيبة المغتابين واعمل
أتم نصيحة يسديها اليك المؤلف ، اذا كنت من ولاية الأمور ، قوله :

(لتكن حاجتك في الولاية الى ثلاث خصال ، رضى ربك ورضى سلطانك إن كان فوقك ورضى صالح من تلي عليه) «١» . ولا يفوتني ان اروي لك قوله في كبح جماح الغضب : (استعن بالصمت على اثناء الغضب) «٢» . وقوله في الدعوة الى الاحتراس من مصائب الزمن ومكاييد الناس : (الضعيف المحترس من العداوة اقرب الى السلامة من القوي المغتر) «٣» .

ولكن الى جانب هذه الأقوال الحكيمة اقوال اخرى لا ابالغ اذا قلت انها سقيمة . منها قول الكاتب منوهاً بالقدماء في مقدمة كتابه هذا : (وجدنا الناس قبلنا كانوا اعظم اجساداً واوفر مع اجسادهم احلاماً واشد قوة واحسن بقوتهم للأمر اتقاناً واطول اعماراً وافضل بأعمارهم للأشياء اختباراً . فكان صاحب الدين منهم ابلغ في امر الدين علماً وعملاً من صاحب الدين منا) «٤» . وكان صاحب الدنيا على مثل ذلك من البلاغة والفضل ، ووجدناهم لم يرضوا بما فازوا به من الفضل لأنفسهم حتى اشركونا معهم فيما ادركوا من علم الأولى والآخرة فكتبوا به الكتب الباقية وكفونا مؤنة التجارب والفتن) «٥» . وقوله في الدعوة الى مسامرة الحكام : (اياك ان يقع في قلبك تعنب على الوالي او استزادة له ، فانه ان أنست ان يقع في قلبك بدا

« ١ » رسائل البلغاء ص ٦٠

« ٢ » المصدر نفسه ص ١٩ .

« ٣ » المصدر نفسه ص ١٢٠

« ٤ » كان هؤلاء القدماء الذين يتألف ابن المقفع في اضرأهم ويفضل صاحب الدين منهم على صاحب الدين من معاصريه مجوساً ، فكيف يفضلهم ابن المقفع من الناحية الدينية على معاصريه وم مسلمون ؟

« ٥ » رسائل البلغاء ص ٥٥

في وجهك ان كنت حليماً وبدا علي لسانك ان كنت سفيهاً) «١» وقوله في الموضوع نفسه : (ولا تعدن شتم الوالي شتماً ولا اغلاظه اغلاظاً فان ربح العز قد تبسط اللسان بألفاظ في غير سخط ولا بأس) «٢» وقوله : (ذلل نفسك بالصبر علي جار السوء وعشير السوء وجليس السوء فان ذلك ما لا يكاد يخطئك) «٣» وقوله : (ووطن نفسك علي اذنه لا سبيل لك الي قطيعة اخيك وان ظهر لك منه ما تكره ، فانه ليس كالمرأة التي تطلتها اذا شئت . ولكنه عرضك ومروءتك فانما مروءة الرجل اخوانه واخذانه) «٤» وقوله : (ومن تمام حسن الخلق والأدب ان تسخو نفسك لأخيك بما اتحل من كلامك ورأيك) «٥» وقوله : (اذا كانت لك عند احد صنيعة أو كان لك عليه طول فالتمس احياء ذلك باماتته وتعظيمه بالتصغير له) «٦» . فواضح ان المثال الاول يكشف عن سداجة منقطعة النظر في عبادة القديم وتعظيم القدماء والتعويل عليهم في كل شيء والنزول عن كل ما يلزم الرجل العامل من درس وتفكير واختبار ، لأن القدماء فعلوا من ذلك ما يكتمهم ويكفي من يأتي بعدهم وان الأمثلة الثاني والثالث والرابع دعوة الى عبودية تشمز منها النفوس وتتشعر الجلود ، وان المثال الخامس يقضي باحلال صلة الرجل بصديقه فوق كل شيء

« ١ » المصدر نفسه ص ٧٣

« ٢ » المصدر نفسه ص ٧٤

« ٣ » رسائل البلغاء ص ٩٢

« ٤ » المصدر نفسه ص ٨٨

« ٥ » المصدر نفسه ص ٨٣

« ٦ » المصدر نفسه ص ٩١

وصلته زوجته دون كل شيء . وهذا ما لا يقول به عاقل مطلقاً ، وأن المثال السادس تمرين على الضعة ونصيحة باصفاء الاخوان من أراذل الناس ، وأن المثال السابع حث على التواضع المكذوب والكرم المصطنع وحض على اقتصاص الثناء والاطراء بالمكر والحيلة . وفي الكتاب نصائح اخرى كثيرة توصي بالتقليد والخنوع والجن والعبودية والشعوذة وما الى ذلك رأيت ان اضرب عنها صنفاً .

أما كليلة ودمنة ، وهو خير ما نقل ابن المقفع عن الفارسية الى العربية ، فإنه مجموعة قصص وحكايات وضع معظمها على ألسن الطيور والبهائم ما أظن ان لغة تخلو من امثالها . وما أحسب ان له اصلاً في السنسكريتية كما زعم ابن المقفع وغيره من مترجميه لأنه لو كان كذلك لحفظته لنا خزائن الملوك التي قيل انها كانت تحتفظ به كما لو كانت كزاً من أعين الكنوز ، أو لأشارت اليه المصادر السنسكريتية القديمة على أقل تقدير اشارة واضحة ، ولكن شيئاً من هذا لم يكن . وأكبر ظني ان برزويه مندوب كسرى أنوشروان الى الهند ترجم لسيدة قصصاً متفرقة في اللغة السنسكريتية جمعها هو في كتاب أطلق عليه هذا الاسم .

وقد تصرف ابن المقفع في قصص كليلة ودمنة تصرفاً أفسدها وذهب بما فيها من لطف وسذاجة . ولا أدل على ذلك من هذا النزعة القنبرية القوية التي لا تكاد تخلو منها قصة من الفصوص والتي لا يمكن أن توجد فيما يخيل إلي على

الأقل إلا عند غلاة الفدريين من المسلمين^١ . ومن تلكم الاشارات التي لا تخص الى الصلاة والصوم وما يجري مجراها من الأمور الاسلامية الصرفة^٢ .

وما يريد ان أعرض لباب « الفحص عن أمر دمنة » فان الرواة متفقون على أنها من وضع ابن المقفع ، ولكنني سأحدثك عن أبواب الكتاب الأخرى وهي : باب الاسد والثور ، وباب الحماسة المطبوقة ، وباب البوم والغربان ، وباب القرد والغيلم ، وباب الناسك وابن عرس ، وباب الجرذ والسنور ، وباب الملك والطائر فزة ، وباب الأسد وابن آوى ، وباب بلاذ وإيلاذ وإيراخت ، وباب اللبيرة والأسوار والشعير ، وباب الناسك والضيف ، وباب السائح والصائغ ، وباب ابن الملك واصحابه . وباب الحماسة والثعلب ومالك الحزين .

وما أريد ان أناقش كلية ودمنة على انه كتاب من كتب القرن العشرين سواء من حيث مقاصده واغراضه ام من حيث تبويبه وترتيبه ، كما انه لا ينبغي ان افعل ذلك ، ولكنني سأناقشه على انه كتاب كتب قبل بضعة وعشرين قرناً ، فأقول : إنه يحتوي في بعض أبوابه على حكم رائعة وقصص طريفة وحكايات مستلحة ، إلا انه في مجمره اقرب الى السخف والسذاجة منه الى اي شيء آخر . وأبرز مساوئه في زعمي أربع وهي :

« ١ » اعل قصة ابن الملك واصحابه أشد قصص كلية ودمنة ايماناً بالقدر وأحرصها على التمسك به والاذعان له .

« ٢ » من أمثلة ذلك قول شترية لدمنة عندما جاء ليفسد ما بينه وبين الاسد : « من التمس الرخص من الاخوان عند المشاورة ومن الاطباء عند المرض ومن الفقهاء عند التهمة أخطأ مَنافع الرأي وازداد فيما وقع فيه من ذلك تورطاً » — كلية ودمنة الطبعة السادسة بمصر ص ٢١٧ — ومن هذا القبيل قول شترية لدمنة في المقام نفسه : « ليس للمصلي في صلاته ولا للمتصدق في صدقته ولا للورع في ورعه من الأجر ما المجاهد عن نفسه اذا كانت مجاهدته على الحق » — المصدر نفسه ص ٢٢٦ .

- ١ — فحاجة أحكامه في كثير من القضايا التي يعالجها .
- ٢ — تناقض ما ينطوي عليه من أقوال وأعمال تناقضاً عجيباً .
- ٣ — اشتماله على كلام لا معنى له مطلقاً .
- ٤ — سوء تأليفه على أنه كتاب .

وأول ما يلنت نظرك فيه فحاجة أحكامه ، فهو يبدأ باب الأسد والثور ، وهو أول الأبواب واكبرها ، بتصمة التاجر الذي يعظ أبناءه بقوله : « يا بني ، ان صاحب الدنيا ^١ يطلب ثلاثة أمور لن يدركها إلا بأربعة أشياء . أما الثلاثة التي يطلب فالسعة في الرزق والمنزلة في الناس والزاد للآخرة ، وأما الأربعة التي يحتاج إليها في درك هذه الثلاثة ، فالكسب المال من أحسن وجه يكون ثم حسن القيام على ما اكتسب منه ثم استثماره ثم انفاقه فيما يصلح المعيشة ويرضي الأهل والايخوان فيعود عليه نفعه في الآخرة . فمن ضيع شيئاً من هذه الأموال لم يدرك ما اراد من حاجته ^٢ » . وواضح ان كلام هذا التاجر المتفلسف غير صحيح ، فان صاحب الدنيا او الرجل العامل لا يطلب السعة في الرزق والمنزلة في الناس والزاد للآخرة غُيب . ولكنه يطلب أموراً اخرى كثيرة لا ينبغي ان يحفلها رجل يقتبس الفلاسفة نصائحهم وتعاليمهم . انه يطلب العافية ويطلب المعرفة للمعرفة ، ويطلب تحقيق المثل السامية ، ويطلب اللذة المادية ، ويطلب سعة الرزق والمنزلة في الناس والزاد للآخرة . على ان هذه

« ١ » يراد بصاحب الدنيا هنا « الرجل العامل » ولو كان المراد الرجل انهمك بجمع المال والسعي الى الجاه وما الى ذلك لما أشار التاجر المتفلسف في وصيته الى الزاد للآخرة .

« ٢ » كناية ودمنة الطبعة الخامسة بمصر ص ١٦٩ .

المقاصد الثلاثة التي ذكرها التاجر المتفلسف لا تتحقق بكسب المال وحسن تديره
واستثماره وانفاقه في وجوه البر والاحسان فقط كما يقول وإنما تتحقق بالعلم
وبالعقل وبالخلق وبالمال .

ومما هو جدير بالملاحظة هو ان كسب المال من أفضل الوجوه وانفاقه
في افضلها أمر لا يصعب على كثير ممن لا يؤمنون بالآخرة ، فما رأي المؤلف او
المترجم في هذا الشأن .

وشيء آخر لا بد من ملاحظته وهو ان سعة الرزق لا تعني أي شيء سوى
كسب المال وحسن تديره واستثماره ؛ أفتكفون سعة الرزق غاية ووسيلة في
وقت واحد ؟!

اذالم يخطيء ظني فان أقل ما يمكن ان يقال في هذه الوصية إنها كلام
لا يشف عن رجاحة عقل ولا يدل على غزارة علم .

وأنت لا تترك هذه الموعظة الزائفة وتتقدم قليلاً في قراءة الكتاب حتى
تواجهك قصة الرجل الذي لم يفلت من الذئب حتى وقع في وادٍ غمره سيل ، ولم
ينج من الغرق حتى وجد نفسه أمام جماعة من اللصوص عندهم تاجر يريدون
قتله واقتسام أمواله ، ولم يهرب من هؤلاء حتى استند الى حائط دفن تحت
أنقاضه . لقد وقعت عند هذه النصة طويلاً وتأملتها ملياً فلم أفهم غرض المؤلف
منها ، أيريد ان نلغى عمولتنا ونعطل قوراننا ونزل عن هممنا وعزائمنا ؟ أيريد ان
نترك ممارسة الخطوب ومناهضة الأيام وان نترك الحوادث تفعل فينا ما تشاء ؟!

ان قصة اخرى في الباب نفسه تنصح بغير ذلك ، وهي قصة السمكات الثلاث اللاتي نجت احداهن بعبور الغدير الذي تسبح فيه الى نهر يجاوره عندما سمعت الصيادين يتواعدان بالرجوع الى الغدير وصيد ما فيه من السمك ، ونجت الثانية منهن باصطنائها مظهر الميت الذي أدى الى انتقالها وطرحها على ضفة الغدير حيث استطاعت التسلل الى النهر ، وبقيت الثالثة وهي أقلهن حيلة في مكانها حيث وقعت في شباك الصيادين .

الواقع ان غرض المؤلف من هذه الفصص المتضاربة والحكايات المتناقضة في أغراضها ومغازيها صعب الادراك عسير الفهم ، ومن مواطن زلل كلية ودمنة الحكم في باب الناسك وابن عرس بالطيش والتسرع والحق على الناسك الذي تمنى ان يكون حمل زوجته ذكراً ووعد ان يختار له اسماً لطيفاً ومؤدباً ماهراً ، مع انه لم يسرف في أمنية ولم يفعل في أمل . ومن هذا القبيل اعتقاد^١ المؤلف ان الحلم عماد السياسة وقوام الملك ، والذي أعرفه ويعرفه الناس جميعاً هو ان العدل أساس الملك وملاك الحكم . وصحيح ان الحلم خلة لا يستغني عنها السياسي الحكيم : ولكن الحكمة قد تقتضي استعمال الحزم بدلاً منه في كثير من الأحيان .

وما يصح في هذه الاحكام يصح في قول المؤلف على لسان دمثة « في الرجل الماضل المروءة » : (انه لا يرى إلا في مكانين ولا يليق به غيرها ، إما

« ١ » أنظر باب بلاذ وايلاذ وايراخت من ٣٨٠ كلية ودمنة طبعة مصر الخامسة .

مع الملوك مكرماً او مع النساك متبتلاً ، كالنيل انما جماله وبهاؤه في مكانين ،
إما في البرية وحشياً او مركباً للعلوك^١ . فلست أدري لماذا لا يرى الرجل
« الفاضل المروءة » عالماً باحثاً مع العلماء ، او أديباً فاضلاً مع الأدباء أو طبيباً حاذقاً
مع الاطباء ، او والياً حازماً مع الولاة أو قاضياً عادلاً مع الفضاة .

الحق ان منطق كلية ودمنة في كثير من أحكامه منطق غير مأوف . أضف
الى ما تقدم ان أقوال ممثلي أدوار هذا الكتاب واعمالهم تتناقض تناقضاً عجيباً ،
فشترية في حوارها مع دمنة عندما يأتي لا فساد ما بينه وبين الأسد لبيب ناقب
الفكر حاضر الذهن وافر العلم ، يضرب الأمثال لصحبة السلطان ووسائل
أعوانه ، ويأتي بالتشايه البديعة في أثناء ذلك^٢ ، ولكنه يعجز عن ان يقول
لدمنة كلمة واحدة يبدي فيها شكوكه بأقواله نظراً لما بينه وبين الأسد من
كريم الصحبة ووطيد العلاقة وجميل الثقة . والغراب يذكر اليوم عند الكراكي
بكل ما يسيء الى سمعته ويحط من قدره ويحذرهن مغبة تملكه عليهن تحذيراً
شديداً ، ولكنه لا يلبث أن يقول هن : ولكنكن اذا أردتن تملكه عليكن
بصورة اسمية فلا بأس ، مع انهن لو فعلن ذلك لكن كن يضع اصبعه في فم
الحية على ان يحترس من ان تلدغه ، وبلاذ يسجد لحكيم مملكته كباريوس ، اي
أنه رجل وثني ، ولكنه يحمد الله تعالى على ان تداركه برحمته فعصمه من الاصفاء
لنصيحة البراهمة والعمل بها ، وإيراخت زوجة بلاذ تفعل فعلمه فتسجد له

« ١ » كلية ودمنة ص ١٨ طبعة مصر الخامسة .

« ٢ » مثال ذلك أن شترية يشبه نفسه في ركونه الى صحبة الأسد « بالتملة التي تجلس
على نور النيلوفر » مستطية ربحه وطعمه ، ولكنه متى جاء الليل التف عليها تخنقها .

عندما يعفو عنها كما لو كان ربهما ، ولكنها لا تلبث ان تحمد الله على ان نجاها
من القتل كما لو كانت مسامة خالصة الاسلام صادقة الايمان ، وهكذا ...

وأغرب من هذا ان الاسناف يبلغ بمؤلف كليلة ودمنة أن يأتي بكلام
لا معنى له مطلقاً : هذا بلاذ ، احد ملوك الهند يغضب على زوجته إيراخت لأنها
كسرت صحن الأرز على رأسه وخلطت دمه بالأرز في أثناء مشاجرة حادة ،
ويأمر وزيره إيلاذ بقتلها ، وينهب بها هذا على ان يقتلها ، ثم انه ، أي بلاذ ،
يندم على اصدار هذا الأمر ويسأل وزيره إيلاذ : أقتل إيراخت حقاً ؟ فيجيبه
بكلام يدل على انه فعل ذلك ، وهنا يدور بينهما الحوار التالي : « قال الملك :
لقد أفسدت أمري وشددت حزني بقتل إيراخت . قال إيلاذ : اثنان ينبغي
لها أن يحزنا : الذي يعمل الأثم في كل يوم . والذي لا يعمل خيراً قط ، لان
فرحها في الدنيا ونعيمها قليل ، وندامتها إذ يماينان الجزاء طويلة لا يستطيع
إحصاؤها . قال الملك : ان رأيت إيراخت حية لا أحزن على شيء أبداً . قال
إيلاذ : اثنان لا ينبغي لها ان يحزنا المجتهد في البر كل يوم والذي لم يأثم قط .
قال الملك : ما أنا بناسط الى ايراخت اكثر مما نظرت . قال ايلاذ : اثنان
لا ينظران ، الأعمى والذي لا عقل له ، وكما ان الأعمى لا ينظر السماء ونجومها
وأرضها ولا ينظر القرب والبعد كذلك الذي لا عقل له لا يعرف الحسن من القبيح
ولا المحسن من المسيء . قال الملك : لو رأيت ايراخت لاشتد فرحي . قال ايلاذ :
اثنان هما الفرحان البصير والعالم ، فكما ان البصير يبصر أمور العالم وما فيه من
الزيادة والقصان والقريب والبعيد فكذلك العالم يبصر البر والأثم ويعرف عمل

الآخرة ويتبين له نجاته ويهتدى الى صراط مستقيم . قال الملك : ينبغي لنا ان
تبتاعد منك يا ايلاذ وتأخذ الحذر ونلزم الاتقاء . قال ايلاذ : اثنان ينبغي ان
يتبتاعد منهما ، الذى يقول لابر ولا إثم ولا عقاب ولا ثواب ولا شيء عليّ بما أنا
فيه ، والذى لا يكاد يصرف بصره عما ليس له بمحرم ولا أذنه عن استماع السوء
ولا قلبه عما هم به نفسه من الأثم والحرص . قال الملك : صارت يدي من
ايراخت صغراً . قال ايلاذ : ثلاثة اشياء أصنمار ، النهر الذى ليس فيه ماء
والأرض التى ليس فيها ملك ، والمرأة التى ليس لها بعل . قال الملك : اذك
يا ايلاذ لتلقى عليّ الجواب . قال ايلاذ : ثلاثة يلتمون الجواب ، الملك الذى يعطي
من خزائنه والمرأة المهداة الى من تهوى من ذوى الحسب ، والرجل العالم
الموفق للخير « ١ » .

أفترى ان بين أجوبة هذا الوزير المخبول وبين أقوال ملكه صلة ما ؟ أترى
ان كتاباً له مثل مكانة كلية ودمنة يمكن ان يحتوى على مثل هذا الكلام ؟
وأخير أترى أنه من العدل ان يتقاضى النقاد القدماء والمحدثون عن ورود مثل
هذا الكلام فى كلية ودمنة ؟

هذا من حيث الأساس . أما من حيث الشكل ، فأول ما يلزم الانتباه من
أمر الكتاب هو انه منفرغ بشكل حكاية واحدة ، ذلك ان ديشليم الملك
يطلب الى بيدبا الفيلسوف (ان يضرب له مثل المتحايين يقطع بينهما الكذب المحتمل

« ١ » أنظر باب بلاذ وايلاذ وايراخت ص ٣٩٦ - ٩٨ من كتاب كلية ودمنة
الطبعة الخامسة بمصر .

حتى يحملها على العداوة والبغضاء) فيحدثه يبدأ حديث الاسد والثور وسمي
دمنة بينهما، وهو حديث طويل ممل فيه مئة حكاية وحكاية لاعلاقة لها
بالموضوع. ولكنه لا يكاد ينتهي من هذا الحديث حتى يقول له ديشليم:
« قد سمعت مثل المتحابين كيف قطع بينا الكذوب والى ماذا صار عاقبة
أمره من بعد ذلك، فحدثني ان رأيت عن اخوان الصفاء كيف ابتدء
تواصلهم ويستمتع بعضهم ببعض» فيحدثه يبدأ حديث الحمامة والظبي والجرذ
والغراب الذين قدّر لهم أن يتبادلوا اصدق عواطف الاخوان والصفاء، وهو
حديث طويل أيضاً، ولا يترغ يبدأ منه حتى يقول له ديشليم: « قد سمعت
مثل اخوان الصفاء وتمامهم، فاضرب لي مثل العبد الذي لا ينبغي ان يفتخر
به وان أظهر تضرعاً وطلباً» فيحدثه يبدأ حديث البوم والغراب وهكذا.
وكان من السهل ان يصنف يبدأ قصصه ونوادره ومواظبه اصنافاً
مختلفة وان يملأها في شكل احاديث متسلسلة يُقدم كلاً منها في مجلس او سهرة كما
هي الحالة في ألف ليلة وليلة. ولكنه عمد الى هذا الاسلوب الممل لسبب غير
مفهوم، اللهم إلا ان يكون جهاه بأبسط طرق التأليف وأساليبه.

وليس هذا كل شيء، بل ان المؤلف يستطرد استطرادات كثيرة لاجابة
به اليها مطلقاً ويقحم القصص على حديثه اقحاماً. فمن ذلك استطراده الى قصة
وكيل البحر مع الطيطوى، تلك القصة التي ضربها دمنة مثلاً لانتصار الضعيف
على القوى بفضل حيلته. ان هذه القصة زائدة لأنه ليس من مصلحة دمنة ان

يعمن في تحذير شتربة صولة الاسد الى حد ضرب الأمثال له في هذا الموضوع
ولأن شتربة لا يستضعف الاسد ولا يستهين بقدرته على البطش ، وقل مثل
ذلك عن حكاية الأرنب الذي ادعى انه من رعايا القمر بغية الفاء الذعر في
قلب النمل ، لان الغراب لم يكن بحاجة الى هذه الحكاية كما انه لم يكن من المنطق
في شيء أن يشير على الكراكي بتمليك اليوم عليهن تمليكا صوريا بعد ان ندد به
أشد تنديد وذمه أقبح ذم . وبعد ان أشار على الكراكي بالابتعاد عنه ما استطعن
الى ذلك سبيلاً .

ومن هذه القصص الزائدة قصة رؤيا ايلاذ وتفسير البراهمة لها واستيلاء بلاذ
من ذلك التفسير ومن مطالب البراهمة الجنوبية التي بذت على ذلك التفسير .

ان يبدو يريد ان يذكر لدبشليم حلم بلاذ عن زوجته إيراخت وصفحه
عن اساءتها المنكرة اليه ، وهذا لا يستدعي ذكر رؤيا التي تقدمت لها
الاشارة وما استدعت من تفسير ومطالب كلها شذوذ وغرابة . هذا الى
أن صمغ ارجل عن زوجته لا ينبغي أن يتخذ مثلاً لمعالجة الامور بالرفق واللين .
وفي الكتاب مواطن ضعف أخرى كثيرة لا يتسع لذكرها هذا المقام .

وتسألني رأبي في رسالة الصحابة فأقول لك : انها عبارة عن تقرير يظهر
انه رفع لأبي جعفر المصور يحتوي على تواصي حسنة ولصائح نافعة تتعلق
بتثقيف الجند وتعيين مواعيد ثابتة لدفع أرزاقه ، وتنظيم الفضاء وما الى ذلك ،
ليس لدى ما أقوله بشأنها من حيث المقاصد والأفكار ، ولكنني أزعم أنها مثل

تقي رداة اللغة وعجمة الأسلوب ، وسأروى لك مثلاً منها عند الكلام في لغة
ابن المقفع وأسلوبه .

اغز المترجم وأسلوبه :

وقد مر بك من كلام ابن المقفع ما يمكنك من تكوين فكرة ما عن لغته
وأسلوبه ، ولكن يخيل إليّ أنه من المنهك بل من الضروري ان أقف عند لغة
الرجل وأسلوبه وقمة خاصة ، أتبين فيها خصائصهما وأتعرّف مشخصاتهما وفي زعمي
أنه يمتاز من هذه الناحية بالغموض والتكرار بلا مسوغ واستعمال الألفاظ في
غير ما وضعت له وعجمة كثير من الألفاظ والتعابير شأنه في ذلك شأن سلته
وأستاذه عبدالمجيد بن يحيى الكاتب ، ولك أن تتصفح كتبه ورسائله لتجد
فيها البرهان الفاطح والحجة الدامغة على صحة ما أقول . ها هو ذا ابن المقفع
يتحدث في الأدب الصغير عن قدرة الله ، ويحاول الاستدلال على وجوده بما
أبدع من خلق السموات والأرض وهو موضوع عالج القرآن وحكام صدر
الاسلام ولا سيما علي بن أبي طالب « ع س » في خطبه مراراً لا تحصى فيقول :
« مما يدل على معرفة الله وهو سبب الايمان أن وكّل بالغيّب لكل ظاهر من
الدنيا صغيراً وكبيراً عيناً فهو يصرّفه ويحرّكه »^١ « أفترى أن هذه الجملة تدل
دلالة واضحة على العكسة التي تقدمت لها الاشارة ؟ إنني لا أرى ذلك .

ومن أمثلة الجملة السالف ذكرها في الأدب الصغير هذه الحكمة الرائعة ؟ ...
« اذا تخالجتك الأمور فاستقلّ أعظمها خطراً ، فإن لم يستبن ذلك فأرجاها دركاً ،
فان اشتبه ذلك فأجدرها أن لا يكون له مرجوع حين تولي فرصته »^٢ .

« ١ » رسائل البلاء ص ٣٩ طبع مطبعة دارالكتب العربية الكبرى سنة ١٩١٣ .

« ٢ » المصدر نفسه ص ٢٣ .

الواقع أني عاجز عن فهم هذه الحكمة أشد العجز . أليكون ابن المفجع قد دعا في هذه الكلمة الى استصغار عظام الأمور والاستهانة بجسام الخطوب ؟ إنه يقرر عكس هذا في مكان آخر من الأدب الصغير وذلك حيث يقول : « وعلى العاقل ان لا يستصغر شيئاً من الخطأ في الرأي والزلل في العلم والافعال في الأمور ، فان من استصغر الصغير أو شك ان يجمع اليه صغيراً وصغيراً ، فاذا الصغير كبير . وإنما هي تلم يثامها العجز والتضييع . فاذا لم تسد أو شكت ان تنمجر بما لا يطاق ، ولم نر شيئاً قط قد أتى إلا من قبل الصغير المهاون به ! »^١ . أفينقض صاحبنا كلامه بكلامه ويضرب رأيه برأيه ؟ ثم ما معنى « أن نستقل من الأمور اذا اشتبهت أجدرها ان لا يكون له مرجوع حين تولي فرصته » ؟ . اذا لم يخطيء ظني فان هذه الجملة ايضاً غاية في الغموض والابهام ، ومثل هذا يقال في العبارة الآتية وهي : « حاز الخير رجلا ن سعيد ومرجوا فاسعيد النالج والمرجو من لم يخضم والنالج الصالح ما دام في قيد الحياة وتعرض الفتن في محاصرة الخصما ، من الأهوا ، والأعداء ، »^٢ . فقد أعملت فكري في هذه العبارة وحاولت مراراً عديدة ان أفهمها على وجه معقول أو شبه معقول فلم يتيسر لي ذلك .

وكما يكرر عبد الحميد كلامه على الغرض الواحد في الرسالة الواحدة يفعل تلميذه وخليفته ابن المفجع ذلك بمقياس واسع فيكرر في كتاب ما قاة في كتاب آخر ويكرر في الكتاب نفسه ما سبق له ان قاله فيه . وربما فعل ذلك دون

« ١ » المصدر نفسه ص ٣٠

« ٢ » المصدر نفسه ص ٤٧ .

تغيير مهم في الألفاظ ، مثال ذلك انه يقول في الأدب الصغير هذه الكلمة التي قلت لك إنه سرقها من الامام علي « وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً على نفسه ان لا يشغله شغل عن أربع ساعات ، ساعة يرفع فيها حاجته الى ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يفضي فيها الى اخوانه وثقاته الذين يصدقونه عن عيوبه وينصحونه في أمره ، وساعة يخلي فيها بين نفسه وبين لذتها مما يحل ويجمل . فإن هذه الساعة عون على الساعات الأخر ، وان استجمام القلوب وتوديعها زيادة قوة لها وفضل بـلغة ١ » . ولكنه لا يفرغ من اسداء هذه النصيحة المسروقة حتى يختصرها ويحذف منها الاستراحة الى الاخوان والاطمئنان الى ثقات الاصحاب ويفرغ ما بقي منها في شكل آخر مأخوذ ايضاً من الامام علي فيقول : « وعلى العاقل ان لا يكون راغباً إلا في احدى ثلاث خصال : تزود لمعاد أو مرممة ٢ » لمعاش او لذة في غير محرم ٣ » ، ولكن هذه الصيغة للفكرة مقبسة من الامام علي الذي يقول « وليس للعاقل ان يكون شاخصاً إلا في ثلاث ، مرممة لمعاش او حظوة في معاد او لذة في غير محرم ٤ » . ويقول في الأدب الصغير ايضاً وهو من شر كلامه : « وعلى العاقل ان يجعل الناس طبقتين متباينتين ويلبس لهم لباسين مختلفين طبقة من العامة يلبس لهم لباس انقباض وانحجاز وتحرز وتحفظ في كل كلمة وخطوة ، وطبقة من الخاصة يخلع عندهم لباس التشدد ويلبس لباس الأنسة والطف والبذلة والمفاوضة ٥ » . وتحول له اعادة هذه النصيحة فيعيدها في الأدب الكبير بنصها تقريباً حيث يقول : « إلبس للناس لباسين ليس للعاقل بد منها ولا عيش ولا مروءة إلا بهما لباس انقباض واحتجاز تلبسه للعامة فلا

١ « رسائل البلاغ ، ص ١٩ »

٢ « المرممة ؛ ما يكفي في المعاش

٣ « المصدر نفسه ص ٢٩ »

٤ « نهج البلاغة ج ٢ ص ٢٩٩ طبع المطبعة العربية الكبرى بمصر

٥ « المصدر نفسه ص ٢٩ »

تَلَمِينٌ إِلَّا مَتَحْنِظاً مَتَشَدِداً مَتَحَرِزاً مَسْتَعِداً ، ولباس انبساط واستئناس تلبسه
للخاصة من الثقات فتتلقاها بنات صدرك وتمضي اليهم بموضوع حديثك وتضع
عنك مؤونة الحذر والتحفظ «^١» . ومن هذا الفييل قوله في الادب الكبير أو
الدرة اليتيمة موصياً بأدب الحديث : « تعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام .
ومن حسن الاستماع إمهال المتكلم حتى يتمضي حديثه وقلة التناث الى الجواب
والاقبال بالوجه والنظر الى المتكلم والوعي لما يقول «^٢» ، وإعادته مضمون هذه
الكلمة في نفس الكتاب بالجملة المنككة التالية وهي : « ومن الأخلاق السيئة
على كل حال مغالبة الرجل على كلامه والاعتراض فيه ، والقطع فيه «^٣» ومثل هذا
كثير أكتفي منه بما تقدم إيراده تجنباً للاطالة والاملال .

أما استعمال الألفاظ في غير ما وضمت له فانه شائع في آثار ابن المنعم ،
من أمثلة ذلك قوله : « لا تمكن أهل البلاء من التذلل ولا تمكن من سواهم
من الاجترار عليهم والعيب لهم «^٤» ، يريد : لا تحمل أهل البلاء على التذلل
ولا تجرى عليهم احداً من الناس . وقوله في الأدب الكبير أيضاً : « لا تحضرن
عند الوالي كلاماً لا يعني ولا يؤمر بحضوره إلا لعناية به «^٥» ، يريد ،
لا تسمع الوالي كلاماً لا يعنيه ولا يرغب بسماعه . وقوله في باب البوم والغراب
من كيلة ودمنة مشيراً الى الميل الذي خشي صولة النمر : « وشرط ان لا يمود

١ . « المصدر نفسه ص ٦٠ »

٢ « رسائل البلغاء ص ١١٠ »

٣ « المصدر نفسه ص ١٠١ — ١٠٠ »

٤ « المصدر نفسه ص ٦١ »

٥ « المصدر نفسه ص ٧٤ »

الى مثل ذلك « ١ » ، يريد : وقطع على نفسه عهداً أن لا يعود الى مثل ذلك .
وقوله في باب الناسك وابن عرس اثناء إشارة الناسك الى ابنه الذي لا يزال
جمالاً : « أختار له أحسن الأسماء وأحضر له سائر الأدباء » « ٢ » ، يريد :
وأؤدبه أحسن تأديب ، او انتخب له أحسن المؤدبين .

وليس من شك في أن ما سقته من أمثلة غموض ابن المتنوع واستعماله
الألفاظ في غير ما وضعت له دليل لا ينقض على تمكن العجمة من لسانه
وغلبتها على طبعه ، ومع ذلك أحب ان اروي لك طائفة اخرى من تعابيره
الأعجمية الصرف ، فمن ذلك قوله في رسالة الصحابة : « إن بالناس من
الاستخراج * » والنساذ ما قد علم به امير المؤمنين « ٣ » ، وقوله في نفس
الرسالة : « واذا كان ذلك لم يتمدر أهل النساذ على تريبص الأمور » « ٤ » .
وقوله فيها أيضاً : « فيكان الناس فيما احتبسنا به عنهم من الاخاء على صننين ،
فصنف عذرونا بالتحبس للتخير اذا كان التخير من شأنهم وصنف هم ذوو
سرعة الى الاخاء » « ٥ » فما لا شك فيه ان هذا الاستخراج في الناس وذلك
التريبص بالأمور الى التحبس للتخير مما لا يجري به قلم عربي أو مستعرب طويل

« ١ » كاتبة ودمنة ص ٣١١ طبعة مصر الخامسة

« ٢ » المصدر نفسه ص ٣٢٥ .

« ٣ » رسائل البلغاء ص ١٣٠

« * » أحب أن أنه القاريء الى أني سأضع تحت كل كلمة يبدو لي انها أعجمية كهذه
خطاً يجذب الانتباه اليها بسهولة وقد فلتت مثل ذلك في التنبه الى مكان العجمة من رسائل
عبدالمجيد في عصر القرآن .

« ٤ » رسائل البلغاء ص ١٠٣ .

« ٥ » المصدر نفسه ص ١٣٧

الباع راسخ القدم في لغة الضاد .

د — لماذا أدرسه ؟ !

ستقول : وإذا كان هذا رأيك في ابن المقفع فلماذا تدرسه وتؤرخه وتعنى بأثاره هذه العناية البالغة ؟ وأجيب بأني مضطر الى هذا لأنه ليس في مقدور كاتب ان يؤرخ صناعة الانشاء في صدر الدولة العباسية دون ان يتحدث عن ابن المقفع ويبيدي رأيه فيه . وهناك سبب وجيه آخر يحدوني للكتابة عنه وهو رغبتني في ان يعرف الناس حقيقته ويتبينوا حظه من التفكير السليم والانشاء النصيح فقد مضى نحو من اثني عشر قرناً والناس يعدونه حجة في البيان وإماماً في صناعة الانشاء ومثلاً في سعة المعارف وسمو الادراك ، ولا ينبغي ان تستمر هذه الهرطقة او الضلالة الأدبية الى الأبد .

ه — مصدر شهرته

بقي ان نعرف مصدر شهرة الرجل ، وعندني ان الدماية الشعبية التي خلقت من عبد الحميد بن يحيى على جمود ذهنه وخمود قريحته وتمكن العجمة من طبعه ولسانه عاملاً من اعلام التفكير وإماماً في صناعة الانشاء العربي ، هي التي خلقت من ابن المقفع آية من آيات التبوغ والعبقرية وحجة في الافصاح والابانة ومفخرة من مفاخر الأدب العربي ، وأعانها على بلوغ هذا الغرض ضعف النقد بل انعدامه في الغالب عندنا وجود مؤرخي أدبنا ورغبتهم في الموافقة والمسالملة كائنة نتيجة ذلك ما كانت .

و — خاتمه : الفصل في امره

أما بعد فانه اذا كان ما رويت من أقوال ابن المقفع في هذا الفصل

صحيحاً؛ وإذا كان فهمي لهذه الأقوال صحيحاً كذلك ، فأني لا أسرف على نفسي إذا زعمت ان رديء الرجل أكثر من جيده وغثه أكثر من سمينه وأنه ينقل النفيس والخسيس من آثار لغته الى اللغة العربية دون نقد ولا تمييز ، وأنه الى التبشير برذائل الأخلاق كالجبين والضراعة والرياء، والأناينة والشعوذة وما الى ذلك من ذميم الصفات ، والى السخف والسذاجة في فهم حقائق الحياة والاجتماع، والى الاضطراب والتناقض في سرد مقاصده وأغراضه ، والى الغموض والركاكة والمعجمة في لغته وأسلوبه ، أقرب منه الى أي شيء آخر .

الفصل الثاني

أبو عثمان الأمازي

أ — حياته : اسمه وكنيته ونسبه . مولده . سبب تغميئه بالجاحظ . ما حرمته الطبيعية وما جادت به عليه . دراسته . أساتذته . شغفه بالقراءة . اشتغاله بالتأليف . جماله كتبه على من سبقه من مشاهير الكتاب . نجاحه في هذه الحياة . ذبوع شهرته . اتصاله بالمأمون . توليه زعامة ديوان رسائله . استقالته . ما دعا إليها . اتصاله بمحمد بن عبد الملك الزيت . محنته عند الفتك به . اتصاله بأحمد بن أبي دؤاد وابنه أبي الوليد . اتصاله بالفتح بن خافان . مثوله بين يدي المتوكل . شيخوخته ومرضه . وفاته .

ب — صفاته : حدة ذكائه . غزارة حفظه . نوادره . قلة مبالاته بالدين .

ج — آثاره : تقسيمها الى أقسام ثلاثة . ميزة كل من هذه الأقسام . ما لكتبه من محاسن ومساوي ، على العموم . مساوئها — غلبة الفوضى عليها . شيوع البذاءة فيها . قلة نصيدها من التثبت . محاسنها . احتواء الحيوان على بحوث علمية مهمة . اشتمال البيان والتبيين . والحيوان أيضاً على معلومات أدبية واسعة . اختراء . فن المنامة . لغته وأسلوبه : إطالته . إكثاره من الجمل المترادفة . قلة عنايته بهذيب كلامه . فصاحته . سماحة طبعه . خلو آثاره من النكلف . كثرة استشاده بالقرآن والحديث والشعر .

د — عذره فيما يؤاخذ فيه من هنات .

هـ — مثل من مختار كلامه : شعره (هامش)

و — خاتمة : مقارنة بينه وبين عبدالله بن المنعم .

أما الآن ، فسأحدثك عن كاتب لعل الدعاية لم تعبت بتاريخه عنها بتاريخ ابن المقفع ، ولم تصرف في التهليل والتكبير له امرافها في التهليل والتكبير لابن المقفع ، هذا الكاتب هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكنتار بالنسب كما يقول هو "١" وبأولاء ، كما يقول خصومه "٢" الذين يزعمون أن جده محبوباً سليل عبد أسود يدعى فزارة كان جلالاً لعمرو بن قلع الكنتاني . على أننا إذا أخذنا بهذه الرواية فإذ لا معدى لنا من التسليم بأن محبوباً جد الجاحظ ولد أو نشأ أو عاش على أقل تقدير في بيئة عربية خالصة ، وإن بحراً والده ولد ونشأ وعاش في بيئة عربية خالصة كذلك . ومعنى هذا ان « البودقة » العربية صهرت المترجم إن كان أصله حبشياً كما يزعم خصومه حتى أحالته عربياً خالصاً . أضف الى ذلك أن ثقافته عربية بحتة كما سيحي . وإذن فهو عربي صميم بأدبه إذا لم يكن عربياً صميماً بنسبه .

وقد ولد في البصرة في أوائل سنة خمسين ومئة للهجرة كما يقول هو في رواية ذكرها ياقوت . ولكن الشائع بين الرواة أنه ولد في اواخر العقد

« ١ » أكد الجاحظ أنه كنتاني صلية في كلمة ظريفة ختم بها رسالته التي كتبها في مدح النبيذ للحسن بن وهب هذه هي : « وأنا رجل من بني كنانة وللخليفة قرابة ولي فيها شفعة وم بعد جنس وعصبة فأقل ما أصنع ان أكثر لي منه « أي من النبيذ » أن أطلب الملك وأقل ما يصنعون بي أن اتقى من الأرض » - رسائل الجاحظ طبعة السندوني ص ٩١ .

« ٢ » ممن شك في عروبة الجاحظ أو طعن بها في أيام حياته الجاز الذي هجاه بقوله :
قال عمرو مفاخرأ نحن قوم من العرب
قلت في طاعة لربك أبلت ذا النسب

« معجم الأدباء ج ١٦ ص ٨٣ طبعة مصر »

السادس من القرن الثاني للهجرة . ومصدر شيوع هذا القول أنهم يجمعون على أنه توفي سنة خمس وخمسين ومئتين للهجرة وأنهم يختلفون في مقدار عمره فيزعمون مرة أنه عمر ستاً وتسعين سنة وتارة نيفاً وتسعين وطوراً نيفاً وثمانين وحيناً نيفاً وسبعين ، ولا يبلغون به المئة على كل حال مع ان الاختلاف في تقدير عمر الرجل لا يصلح مطلقاً لأن يكون مصدراً لتعيين سنة ميلاده بصورة تفريبيه .

وكان دميم الخليفة قصير القامة جاحظ العينين ، أي ناتئها ، وقد لقب « بالجاحظ » و « الحدقي » لهذا السبب . إلا أن الله منحه قلباً ذكياً وذهناً وقادراً عوضه بهما عما فاته من حسن الخليفة وجمال الصورة وعما فاته من رغد العيش وسعة الحال أيضاً ، فقد نشأ فقيراً معدماً . روي أنه كان في وقت ما يبيع الخبز والسك في البصرة ، ولكنه نشأ محباً للعلم مغرمًا بالأدب كلغماً بالدرس فاستقصى علوم عصره أو أكثرها درساً وبحثاً . درس العربية وعلومها والدين وما يتصل به ودرس الفلسفة والمنطق والرياضيات والطبيعات . أخذ اللغة وعلومها عن الأصمعي وأبي عبيدة وأبي زيد الانصاري والأخفش الأكبر وأخذ الحكمة والكلام عن إبراهيم بن سيار المعروف بالنظام ، ولزم المربد وشافه الاعراب الذين كانوا يندون الى البصرة وجالسهم وتأثر بهم ، وقرأ ما شاء الله ان يقرأ مما ألف في العربية وما نقل إليها في مختلف العلوم والفنون .

ولم تكن حاله بالطبع تتسع لشراء كل ما يحتاج إليه من الكتب ، فكان يستأجر حوانيت الوراقين (أي الكتبيين) ليبيت فيها وليتمكن من قراءة

ما يجب أن يقرأ من الكتب .

وما كان ليقرأ دون أن يكتب ليقرأ الساس ، فألف الكتب العديدة ونحلها مشاهير الكتاب كعبدالله بن المفضل وسهل بن هارون وغيرهما . وقد نجح في استعمال هذه الطريقة فراجت كتبه وأقبل عليها الناس وتداولوها ورضوا عنها ، فلما رأى ذلك تبناها وجهر بأنه واضعها ، فعلا قدره وسمت منزلته . ووقع كتابه (الامامة في حجج الراوندية) ، وهم فرقة من شيعة بني العباس ، في يد المأمون فأحاله الى رجل من أفراد حاشيته يعرف (باليزيدي) وأمره ان يقرأه ويصفه له ، فقرأه وأثنى عليه عنده ، وآنسذقرأ المأمون الكتاب ووقع من نفسه موقعا حسنا ، فاستقدم الجاحظ وأعرب له عن إعجابه به وإكباره له ثم ولاته رئاسة ديوان رسائله ، وأثار هذا حسد سهل بن هارون كاتب المأمون إذذاك ، فقال : ان ثبت الجاحظ في هذا الديوان أقل نجم الكتاب . ولكنه لم يحتفظ بهذا المنصب سوى ثلاثة أيام استقال بعدها فقبلت استقالته . والمعروف انه استقال بسبب خفة روحه وسماجة منظره اللتين لا تتفقان وخطورة منصبه . ولكن أكان يجهل هذا قبل تعيينه أم كان المأمون غير عالم به ؟

أما إنه ليخيَّل إلي أن تصریح سهل بن هارون المتقدم ذكره هو الذي دفعه الى الاستقالة . فأكبر الظن أنه رأى فيه نذيراً بدسائس ومؤامرات خطيرة

بدأت خيوطها تحاك من حوله فأثر السلامة ورغب في الانسحاب .

ولكن حضور الجاحظ الى بغداد وغشيانه أندية عظامها وعلمائها وأدبائها
مكناه من الاتصال بزمرة من أقطاب السياسة والعلم والأدب في مقدمتها محمد
ابن عبد الملك الزيات . فلما صار هذا وزيراً للمعتمد قرب السكائب ورفع من شأنه
وأغدق عليه العطاء ، فاستمتع بلذات العيش وقام ببعض الأسفار التي قد تكون
ذات صبغة علمية ، فزار دمشق وأنطاكية ومصر على قول . وكافأ ابن الزيات
على أياضه البيض باهداء أجل كتبه إليه وهو « الحيوان » فأثابه عليه الوزير
بخمسة آلاف دينار .

ولكن لم تكن هذه السعادة لتدوم لاجاحظ بقية حياته دون ان يعترضها
ما ينغصها ويكدر صفاءها أو يحيلها تعاسة وشقاء في وقت من الأوقات . فقد
كانت بين محمد بن عبد الملك مقرب المترجم وحاميه وبين أحمد بن أبي دؤاد قاضي
المعتمد فالواتق فالتوكل في أوائل خلافته مشادة عنيفة وكان صاحبنا طبعاً في
جانب الوزير ، فلما آلت الخلافة الى المتوكل على الله وكان يبغض الزيات
بغضاً شديداً فعدّ به وقتله هرب الجاحظ واختفى عن الأنظار فطلبه رجال
أحمد بن أبي دؤاد قاضي المتوكل وموضع ثقته وشريكه في كثير من أعماله ،
وظفروا به وأحضره الى مجلس سيدهم على أسوأ حال ، فقد كان مغلول اليدين
مقيد الرجلين ليس عليه سوى قميص خلق ، فقرعه القاضي تقريراً شديداً ووصفه

بنسكان الجليل والخبث بل الدماق والسكر . فطالبه أبو عثمان بما يليق بالكريم
من الصنح اذا قدر . وكأنَّ القاضي كان ينتظر هذا منه ليصنح عنه ويفر له
بل ليهيئ السبيل لاتخاذ صدقاً محبباً وعشيراً مقرباً ، ففك قيده وأمر بأخذه
الى الحمام وحمل سفظ ثياب إليه . فلما أصلح من شأنه دخل عليه فاستقباه بلطف
وبشاشة وأحلّه صدر مجلسه ، وقال له تلك الكلمة الشهيرة : « والآن هات حديثك
يا أبا عثمان » ، وصار الجاحظ سمي ابن أبي دؤاد وعشيرته يمدحه ويناديه
ويأكل على مائدته ويأخذ عطاياه .

وكما خلد أبو عثمان علاقته بمحمد بن عبد الملك الزيات بكتاب (الحيوان)
خلد علاقته بأحمد بن أبي دؤاد (بالبيان والتبيين) . ولم يقصّر القاضي في
تقدير الكتاب فقد أناب المؤلف بخمسة آلاف دينار . وكأنه أراد باعطاء
هذا المقدر من المال أن لا تقل مكانأته على (البيان والتبيين) عن مكافأة ابن
الزيات على كتاب (الحيوان) ولم يمحض على علاقة الجاحظ بابن أبي دؤاد
سوى سنة واحدة حتى فلج هذا وخاله في منصبه ابنه محمد المكنى بأبي
الوليد ، فانتزع اليه الجاحظ انتزاعه لأبيه ، ولكنه لم يكن أهلاً لمنصبه
فغضب عليه المتوكل بعد مدة قصيرة لكثرة شكوى الناس منه وأمر بعزله
ومصادرة أمواله ، ولكن الجاحظ لم يعدم من يقر به ويعطف عليه ويمجبه
به من ولاة الأمور ، فقد اتصل بالفتح بن خاقان وتودد اليه وقدم له كتاباً

ورسائل منها رسالة أسماها « مناقب الترك وعمامة جند الخلافة » . وتقول رواية ان المتوكل على الله استدعى الجاحظ ليعهد اليه تأديب بعض ولده ، فلما رآه استبشع منظره فأمر له بعشرة آلاف درهم وصرفه^١ .

وطالت حياة أبي عثمان ، وانابت جسمه الأمراض فأصيب بالفالج والنقرس^٢ ولزم بيته في البصرة . وكان الأدباء يختلمون اليه من حين لآخر ليعربوا له عن شعورهم الطيب نحو . وليستمعوا بحديثه العذب وفكاهته الحلوة التي لم تفارقه حتى آخر أيام حياته . وتوفاه الله في المحرم من سنة خمس وخمسين ومئتين للهجرة ، وقيل ان الكتب سقطت عليه فمات تحتها فاذا صح ذلك فإنه يكون شهيد الكتب التي وقف عليها عقله وقلبه ونشاطه معظم أيام حياته .

ب - صفاته :

أما صفات الجاحظ فأهمها حدة الذكاء وقوة الحافظة وخفة الروح ورقة الدين . فأما ذكاؤه فإنه يتجلى في كنبه ورسائله التي تعد بالمئات ، ويتجلى في نكته اللاذعة ونوادره المستظرفة ، ويتجلى قبل كل شيء في خطته الدقيقة المحكمة التي رسمها للاستيلاء على عقول معاصريه وعلى عقول من يأتي بعدهم . ذلك أنه عرف نوع الأدب الذي يعجبهم ويلأم أذواقهم ومشاربهم والكتب التي

« ١ » وفیات الأعيان ج ١ ص ٣٨٨ طبع المطبعة الميمنية بمصر .

« ٢ » النقرس علة تصيب مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين شديدة الشبه بداء المفاصل

ترضيههم وتستهوي أفئدتهم ، فقدم لهم الأدب المطلوب ، أدب الفكاهة والتسلية
وأدب النادرة والنكتة وأدب الحديث والاستطراد ، الأدب الذي لا رابط له
ولا ضابط ، وألف لهم الكتب التي تمثل هذا الأدب وتجمع شوارده وتنتظم
قصصه ونوادره وفوائده أيضاً ، فأعجبوا به أيما إعجاب وتنافسوا في اقتناء
كتبه ورسائله تنافساً ما عليه من مزيد . وكما تمثل كتب الجاحظ حدة ذكائه
والمعيتة تمثل كذلك سعة حفظه وقوته وغزارته ، ذلك أنه كان يملأها إملاءً
ويسوقها في شكل أحاديث متتابعة آخذ بعضها برقاب بعض منعمة بالشواهد
التي يدل سياق إيرادها على أنها وردت عنواً ورويت في غير عنا ، ولا تكلف ،
وما أظنني بحاجة الى الذنوبه بنوادير المترجم فقد تناوأتها الكذب وتحدث بها
الناس في كل زمان وفي كل مكان ، ومع ذلك أروي لك منها النادرة التالية
على سبيل التذكير .

طلب أحدهم الى الجاحظ أن يكتب كتاب توصية الى صديق له برجل
لا يعرفه فكتب إليه : (هذا كتاب مع من لا أعرفه وقد كلني فيه من لا أوجب
حرمته فان قضيت حاجته لم أحمدك وإن رددته لم أذمك .) وفض الوسيط
كتاب الجاحظ ليطلع على ما فيه ، فلما قرأه عاد اليه ، فلما رآه علم أنه فتح
الكتاب ، فقال له : (علمت أنك أنكرت الكتاب ، وإنما هذه علامة بيني وبين
الرجل فيمن أعطني به) . وانك لنستطيع أن ندين أثر النادرة في تكوين
مكانة الجاحظ اذا قلت لك ان هذه النكتة كانت سبب اتصاله بالفتح بن خاتان ،
فند أنارت إعجاب الوزير بالكاتب وحملته على الاهتمام به والعطف عليه .

ولكن ، ما دين الرجل : أهو مسلم صادق ، أم زنديق مارق ، أم بين بين
أي أنه مسلم قليل التمسك بمبادئ دينه وتعاليمه ؟

يه تمد خصومه انه زنديق مارق ويرمونه بترك الصلاة ووضع الاحاديث
وما الى ذلك من المنكرات . وقد لا يكون في هذا شيء من الغلو والاسراف ،
لذالواقع أنه رجل ظرف لا رجل دين ، كما يرى أحمد بن أبي دؤاد ، وصاحب
فكاهة لا صاحب نزاهة يهيمه أن تكثر روايته وتشيع نوادره ويقبل الناس على
حديثه ، ولا يهيمه ان يكون ما حدثهم به صحيحاً أو غير صحيح .

حدث عن نفسه أنه نسي كنيته ثلاثة أيام ، ولم يجد بداً من ان يسأل أهله
عنها ففعل " . وأحسب ان نسياناً كهذا لا يمكن ان يحدث لرجل له سعة حفظ
الجاحظ وقوة ذاكرته وان النظر والرغبة في رواية نادرة من أغرب نوادر
النسيان هما اللذان رفعاها الى اختلاف هذه النصة .

وروى ، أعني الجاحظ ، أن مولى فصيحاً كان يختلف إليه ، فقال له ذات
يوم ما مضمرة : انك من النصاحة بحيث تستطيع ان تنتسب الى أبة قبيلة
شدت من العرب . ون ان ينكر عليك ذلك أحد لفصاحتك . ونزل المولى على
نصيحته فلقق له نسباً وحفظه اياه ، فلما حفظه جيداً ، قال له : (والآن
لا تنه علينا) فأجابته : (سبحان الله ، إن فعلت ذلك فأنا اذن عي) " .
وهو — ان كان صادقاً في هذا فإنه يسجل على نفسه انه يختلق الأناساب ويشجع

« ١ » معجم الأدباء ج ٦ ص ٧٥ طبعة مصر .

« ٢ » المصدر نفسه ج ١٦ ص ٩٤ .

على الكذب ، وإن كان كاذباً فإنه يقيم البرهان على أنه يستبيح الكذب ويمارسه فيما يروي من أخبار وقصص . وليس هذا كل شيء ، بل إنه كثيراً ما قال الشيء وضده وأيد الرأي وتقيضه . وصحيح أن مدحه الكتاب وذمه لهم وإطراءه الورأقين ومقتته إياهم واستحسانه التبيذ واستهجانه له وما يجري هذا المجرى من متناقضاته ضرب من العبث البريء . إلا أن خذلانه علي بن أبي طالب « ع س » في دفاعه عن العثمانية^١ خذلاناً شديداً وخذلانه أبا بكر وعمر (رضي الله عنهما) في دفاعه عن العباسية^٢ خذلاناً أشد عمل أقل ما يقال فيه إنه استخفاف بالدين وتهاون شديد بمقام كبار الصحابة .

ستقول : وما رأيك بهذه القدمات الدعائية وهذه البسملات وتلك الحمدلات التي تواجها في كل كلمة يكتبها الجاحظ وفي كل فصل يجرده ؟ وأجيب بأنها ستار يرخيه المؤلف على دخيلة نفسه وحقيقة تفكيره لا أكثر ولا أقل . على أني أحب أن أقول لك ان دينه لا يؤثر مطلقاً في قيمته الأدبية ولا يغير من رأيي فيه من حيث هو كاتب ومؤلف . وان الذي حدا بي للكلام على دينه هو الرغبة في استيفاء البحث عن شؤونه وأحواله .

ح - آتاه :

قلت لك إن الجاحظ سبر غور عصره وعرف ميول أبنائه وأهواءهم وأذواقهم ، فقدم لهم الأدب الذي يشتهونه ويحبونه وألف لهم الكتب التي

« ١ » رسائل الجاحظ طبعة السندوبي ص : - ١٢ .

« ٢ » رسائل الجاحظ طبعة السندوبي ص ٣٠٠ - ٣٠٣ .

يرضونها ويعجبون بها . وأقول الآن إن هذه الكتب يمكن أن تقسم الى ثلاثة أقسام .

فأما القسم الأول فإنه عبارة عن رسائل مختصرة أو مقالات مطولة يجهد فيها المؤلف شيئاً من الأشياء أو عملاً من الأعمال أو مذهباً دينياً أو سياسياً أو اجتماعياً أو يستنكره ويندده به . ومن هذا القبيل « دفاعه عن العثمانية » و « دفاعه عن العباسية » وما كتبه في « النساء » عامة و « القيان » خاصة وفي « النبيذ » مدحاً وذمماً وما الى ذلك .

وأما القسم الثاني ، فإنه يتألف من أسفار قصص ونوادر ونكت وأضاحيك، منها « اللصوص » و « البخلاء » و « الصرحاء والهجناء » و « مفاخرة السودان الحمران » وما جرى هذا المجرى .

وأما القسم الثالث فإنه يجمع الجدل الى الفكاهة والدرس الى الدعاية . وأكبر كتب هذا القسم « الحيوان » و « البيان والتبيين » وهما أكبر كتب الجاحظ على الإطلاق وأكثرها فائدة . ولكتب الجاحظ هذه مساويء عديدة ومحاسن عديدة كذلك . فمن أبرز مساوئها غلبة الاستطراد عليها غلبة يختلط معها الخابل بالنابل والغث بالسمين والرديء بالجيد ، فإذا حدثك الجاحظ عن مسألة نحوية مثلاً فإنه لا يلبث ان ينتقل منها الى حادثة تاريخية على أن يتحول عن هذه الى مسألة دينية مستطرداً بعد ذلك الى نادرة أدبية وهكذا .

وعلة ذلك ان الجاحظ يكتب كما يتحدث ، ويتحدث تبعاً لتوارد الخواطر على نفسه والأفكار على ذهنه دون ان يخضع هذه الخواطر وتلك الأفكار لنوع

من المناسبة ملحوظ . وانه لمن الحق أن تقرر أنه لم يفعل هذا جهلاً بالترتيب
وعجزاً عن التنسيق والتنظيم ، وان كان قد سجل على نفسه في مقدمة الجزء
الثاني من البيان والتبيين أنه عاجز عن تنظيم أفكاره وآرائه والسيطرة على قامه ،
فما أحسبه فعل ذلك إلا تواضعاً وانما فعله عن تفكير وعمد ، فإنه يقول لك
بصريح العبارة وفي أما كن كثيرة من كتبه : ان الفاريء كالسامع يعتره الملل
ويدب اليه السأم اذا طال عليه الحديث ، وانه ليس ثمة شيء أضمن لدوام اقباله
واستمرار نشاطه من تنويع الحديث له أنواعاً وتلويحه ألواناً .

ويظهر أن الجاحظ يعبر بهذا عن رأي معاصريه من علماء وأدباء وشعراء ،
فأنت تعلم أنه قدّم كتاب « الحيوان » وفيه من صنوف الاستطراد ما لا يكاد
يصدقه العقل الى محمد بن عبد الملك الزيت وهو من أفضل رجال عصره وأكثرهم
علماً وأغزرهم أدباً وأوفرهم عقلاً وأقدرهم على النقد والتمييز فقبله منه وأجازه
عليه دون ان يلتفت نظره الى زيادة أو تقيصة فيه . وتعلم أيضاً أنه قدّم البيان
والتبيين وهو لا يقل عن سابقه ولو عا بالاستطراد والانتقال من بحث الى آخر دون
أن تكون بينهما صلة ما الى أحمد بن أبي دؤاد الذي تزعم القضاء في الدولة
العباسية مدة من الزمن فقبله منه كذلك وأجازه عليه ، ولم يعبه في شيء .

ومعنى ذلك أن طريقة الجاحظ في الاستطراد والانتقال من موضوع الى
آخر دون ان تكون بينهما علاقة كانت محببة الى كبر الفراء في ذلك العصر
أثيرة عندهم^١ . ولكن اذا كانت الفوضى في الأدب مما ينتسيفه أو يكلف به

« ١ » مما يدل على هذا أيضاً قول أبي تمام واصفاً إحدى مدائح محمد بن عبد الملك

الزيات :

الجد والجزل في توشيح لحنها والنبل والسخف والأشجاء والطرب

أبناء القرن الثالث للهجرة فإنها مما يباه أبناء القرن الرابع عشر كل الأبناء ويرفضونه أشد الرفض . ومن مساويء هذه الكتب اقدم المؤلف على أيراد نكت ونوادير بذيئه جداً ، وما كان له - وهو المفكر المتكلم المتعسف - أن ينجح الى المجون ويركن الى بذيء القول وفاحشه بحجة الاستجمام وراحة العقل والنفس ، فان للاستجمام أدباً ولا راحة العقل والنفس حدوداً ، وأشهد أن الجاحظ قد سخر من هذا الأدب وتجاوز تلك الحدود في مؤلفاته مراراً كثيرة ولا سيما في كتاب « الحيوان » الذي كان عليه ان يتحاشى فيه وحده على الأقل هذا النوع من الدعابة المستهجنة لأنه كتاب جد ودرس وكتاب عظة وعبرة كما يقول المؤلف ، غايته الدلالة على حكمة الله وبيان درجة ابداعه في خلقه ، ولكن هيهات ، ما كان الجاحظ ليتغلب على طبعه ويسيطر على نزعاته ويكف من بوادر عبثه ومجونه ، أما رأس هذه المساويء فهو عدم التثبت في رواية الحوادث والأخبار أو قل خلق بعضها خلفاً وافتعاله افتعالاً . ومصدر ذلك ان المؤلف صاحب عبث ومجون ، يهمله ان يهزل وان يضحك الناس كائنة وسيلة ذلك ما كانت . وقد رأيت عند الكلام على أخلاقه أنه يكذب ويحمل غيره على الكذب . ورجل هذا شأنه لا يمكن ان يملك على الثقة بما يقول والاطمئنان الى ما يكتب .

ومع ذلك يخيل اليّ ان (الحيوان) و (البيان والتبيين) لا يحتويان الا على القليل جداً مما لا يمكن الاطمئنان اليه ، لأنها كتباً لرجلين من أقطاب الحركة العقلية في القرن الثالث للهجرة . ولكن أليس الى جانب هذه المساويء

محاسن جديرة بالذكري؟

بلى ، ان هناك لمحاسن تستوقف نظر الباحث وتستعري انتباه الناقد واهتمامه . ففي الحيوان مثلاً بحوث علمية مفيدة تدل على ثقافة واسعة وخبرة طويلة وجهد عظيم على البحث والدرس . ولك ان تتصفح هذا الكتاب لتتبين ان الجاحظ لم يقصر في دراسة أي حيوان تصدى الى درسه . اقرأ ما كتب عن الأفعى والعنبر والحمام والديك والكلب وغير ذلك من صنوف الحيوان ، تجد أنه وفي كلاً من هذه المخلوقات حقه ولم يفادر صغيرة ولا كبيرة تتعلق به إلا احصاها ، وهو اذ يتحدثك بما وصل الى علمه من شؤون هذه الحيوانات لا يؤمن به ايمان « العجائز والباعة » على حد قوله ، ولكنه يبحث ويمحص ويناقش ويجادل وينفض ويرم حتى ينتهي الى الحقيقة العلمية الثابتة . وفي (البيان والتبيين) بل وفي (الحيوان) ايضاً طائفة كبرى من شعر وخبر وحكمة ومثل وعظة تمثل حياة العرب الأدبية والاجتماعية قبل الاسلام وبمده يعسر جداً ان تجدها في أي مكان آخر . وقد كتب كل ذلك بلغة متينة سلسلة واسلوب قوي سمح لا اثر فيه للتكلف . أفترى ان ذلك شيء يستهان به ؟

ولكن هل استحدث الجاحظ نوعاً جديداً من الأدب ؟

اذا لم يخطيء ظني فانه اول من صنع المقامة في الأدب العربي ، إذ لا جدال في ان رسالته التي يتحدث فيها عن صنائع القواد مقامة رائعة يديرها بطلان هما الجاحظ والمعتصم ، وموضوعها سياسي خطير لأنها تهدف الى تقديس سياسة المعتصم في اختيار قواده من بين الخياطين والخبازين والطباخين وأمثالهم من

ارهب الحرف والأعمال التي لا تتطلب تضافه سامية ومدارك ممتازة^١. وإذا كان بطلا هذه المقامة حقيقيين ولم يكونا خياليين كأبي الفتح الاسكندر في مقامات الهمداني وأبي زيد السروجي في مقامات الحريري، فإن حوادثها خيالية دون أدنى ريب، فما أشك في أن الجاحظ لم يدخل على المعتصم ولم يتحدث إليه هذا الحديث الطويل عن اللسان ومزايه وعن ضرورة تعدد مناحي التضافه الشخصية وفي أنه لم يشر إلى صنائع قواده قبل أن يكونوا قواداً هذه الاشارة العابثة الماجنة، وما أشك كذلك في أن المعتصم لم يسمع هذا الحديث ولم يوافق على شيء منه ولم يأمر مؤدب أولاده بتعليمهم جميع العلوم المعروفة في عصره. وإذن فالرسالة خيالية، وإذن فهي مقامة رائعة. واذن فالجاحظ صاحب أول مقامة في الأدب العربي وكم كنت أود أن أروي لك هذه المقامة لولا أن ما فيها من عبث ومجون لا يسمح بذلك، ولكنك تستطيع أن تقرأها في (رسائل الجاحظ) وهي مطبوعة متداولة.

اقتره وألموه :

وقد حدثتك عما يمتاز به أسلوب الجاحظ من الاستطراد والبذاءة عند الكلام على محاسن كتبه ومساوئها ولكن هذا غير كافٍ لمعرفة أسلوب الرجل ولا بد لي من أن أفرد كلمة خاصة في هذا الفصل للفتنه وأسلوبه. وأنا فاعل ذلك.

« ١ » المعروف أن بديع الزمان الهمداني هو الذي ابتكر فن المقامة في الادب العربي وقد افرد أبو اسحق الحصري في القول بأن بديع الزمان الهمداني قد عارض بمقاماته أحاديث ابن دريد التي رواها الثعالبي في أماليه « زهر الآداب ج ١ ص ٣٠٧ الطبعة الأولى ». وقد توفى ابن دريد هذا سنة ٣٢١ للهجرة، وأنا أزعج أن الجاحظ هو الذي ابتكر فن المقامة في الادب العربي وأن احداً اليها لم يسبقه.

فأقول : انه مطيل الى درجة قد تبعث على الملل ، مكثر من ايراد الجمل المتشابهة التي ربما أغنى بعضها عن بعض ، قليل التهذيب او قل عديمه لكلامه .
الا انه فصيح اللفظ متين العبارة بعيد عن التكلف كثير الاستشهاد بالقرآن والحديث والشعر .

فمن الغريب حقاً ان الجاحظ وهو الكاتب الذي يحرص على رضى القارىء كل الحرص ويبدل كل ما في وسعه في سبيل استبقاء نشاطه واستمرار اقباله يطيل الى درجة لا يجد معها القارىء مفرأ من السأم . وتضطره هذه الاطالة الى ان يبدىء ويعيد في غير موجب ولا مسوغ وان يأتي بالجمل الفارغة التي لا فائدة فيها ولا طائل تحتمها . خذ مثلاً على ذلك انه يصف التبيذ ويعدد فوائده وفضائله فيقول : « لاين التبيذ اذا تمشى في عظامك والتبس بأجزائك ودب في جناذك منحك صدق الحس وفراغ النفس وجعلك رضى البال خليّ الذرع قليل الشواغل قرير العين واسع الصدر فسيح الهم^١ » .

ثم إنه لا يلبث ان يكرر هذا الوصف فيقول : (ولو لم يكن من أياذيه ومننه ومن جميل آلائه ونعمه ، الا انك ما دمت تمزجه بروحك وتزواج بينه وبين دمك ، فقد أعفناك من الجد ونصبه وحسن اليك المزاج والفكاهة وبغض اليك الاستفصاء والمحاولة وأزال عنك تعقد الحشمة وكدّ الرودة وصار يومه جمالا لا أيام الفسك^٢) . ولا يلبث ان يكرر هذا الوصف في مكان آخر من الرسالة ولكن باختصار في هذه المرة فيقول : (ان كنت جذلان كان

« ١ » رسائل الجاحظ طبعة السندوني ص ٢٨٨

« ٢ » المصدر نفسه ص ٢٨٨ .

باراً بك ، وان كنت ذا هم نفاه عنك) «١» . وواضح ان هذا تكرار
لا فائدة فيه ولا مبرر له ، ومن هذا القبيل قوله في مخاطبة رجل يظهر انه
عاب كتبه خاصة والكتب عامة : (فعبت الكتاب ونعم الذخر والعقدة هو
ونعم الجليس والعدو ونعم الذرة والزهره ونعم المشتغل والحرفة ونعم الانيس
ساعة الوحدة ونعم المعرفة ببلاد العربية ونعم القرين والدخيل ونعم الوزير
والنزيل) «٢» . وبعد ان يفيض في وصف فوائد الكتاب وصفاً يغلب على
ظني انه اقرب الى السمسطة منه الى أي شيء آخر يعود الى تعداد صفاته التي
سبق ذكرها فيقول : وعبت الكتاب ولا اعلم جاراً أبرُّ ولا خليطاً انصف
ولا رفيقاً اطوع ولا معاملاً اخضع ولا صاحباً اظهر كفاية ولا اقل جناية
ولا اقل امالاً وابرماً ولا اجل اخلاقاً ولا اقل خلافاً واجراماً ولا اقل غيبة
ولا ابعد من عضية «٣» ولا اكثر اعجوبة وتصرفاً ولا اقل تصلماً وتكلاماً
ولا ابعد من سراء ولا اترك لشغب ولا ازهد في جدال ولا اكف عن قتال
من كتاب) «٤» . ويستمر في رصف هذه الجمل المتشابهة والفقر المتماثلة الفارغة
فيقول : (ولا اعلم قريناً احسن مؤاخاة ولا اعجل مكافاة ولا احضر
معوونة ولا اخف مؤونة ولا شجرة اطول عمراً ولا اجمع امراً ولا اطيب
ثمرة ولا اقرب مجتنى ولا اسرع ادراكاً ولا اوجد في كل ابان من

« ١ » رسائل الجاحظ طبعة السندوبي ص ٢٨٩

« ٢ » الحيوان ج ١ ص ٣٨ طبعة مصطفى الباني الحلبي الأولى

« ٣ » العضية : البهتان والكلام القبيح .

« ٤ » الحيوان ج ١ ص ٤١

كتاب . (١) ومثل هذا كثير في كتبه ورسائله . اضيف الى ذلك ان لغته لا تخلو من هنات وشطحات مصدرها قلة عنايته بهذيب كلامه وتنقيحه ، فمن ذلك قوله : (فبأى شيء بلغت الافهام واوضحت عن المعنى ؟) (٢) اذ الصواب : (واوضحت المعنى) لأن فعل (أوضح) يتعدى بدون واسطة . وقوله : (وهم الذين جلوا بكلامهم الأَبصار العليّة) (٣) فقد كان الصواب ان يقول (البصائر العليّة) . وقوله مشيراً الى خطب العرب وكونها تنقسم الى طوال وقصار : (ووجدنا عند القصار اكثر رواة العلم الى حفظها أسرع) (٤) اذ الصواب ان يقول (ووجدنا اكثر رواة العلم أسرع الى حفظ القصار) . وفي الامكان اعطاء امثلة اخرى لهذه الهنات ، ولكن ليس من الضروري احصاؤها جميعاً .

بيد أنه ان كان في اسلوب الجاحظ ولغته كل هذه المساويء ، فإنه من ناحية اخرى مطبوع علي الكلام سمح الخاطر فياض البديهة لا يلزم سجعاً ولا يتكلف ازدواجاً ولا يستكره جناساً ولا طبائياً ولا تشبيهاً ولا يحكك ولا ينقح ولا يضع جملة مكان جملة ولفظاً مكان آخر وانما يأخذ من الكلام ما تجود به قريحته السمحة عفواً وتفتتح عنه بديهته المواتية طوعاً ويصرفه في أغراضه المتنوعة ومقاصده المتعددة ومذاهبه المتشعبة كما يشاء . ومن خصائصه الحسنة كثرة الاستشهاد بالقرآن والحديث والشعر ، فما يكاد يتحدث اليك عن شأن من

١ « المصدر نفسه ج ١ ص ٢٤ »

٢ « البيان والتبيين ج ١ ص ٤٣ طبعة مطبعة الفتوح الأدبية بمصر .

٣ « المصدر نفسه ج ٢ ص ٢ »

٤ « البيان والتبيين ج ٢ ص ٣ طبعة مطبعة الفتوح الأدبية بمصر .

الشؤون أو غرض من الاغراض حتى تنثال الشواهد عليه اثباتاً وتزدحم الأمثلة في حديثه ازدحاماً . ولا غرابة في ذلك فإن حافظته العجيبة وضعت يده على كنوز اللغة العربية ويسرت له من الاحاطة بالأدب العربي على اختلاف أنواعه ما لا يتيسر الا لأفذاذ الرواة والحفاظ .

ر - عزره فيما يؤمنز فيه منه هفتات :

وقد تقدمت كتب أبي عثمان تقدماً صارماً غنياً وحاسبته حساباً لا هوادة فيه ولا لين . ولكن لا بد لي من ان أنصفه وان أعدل في الحكم عليه ، وذلك بأن أسجل انه معذور في كثير مما آخذته فيه . فان الكتب التي تقدمتها انما كانت كتب شيخ مهتم بلغ من العمر عتياً وانتابت جسمه العليل فأصاب الفالج نصفه والتقرس نصفه الآخر . وكان من الحق ان يستريح في هذه الفترة من حياته استراحة تامة ، ولكنه اضطر الى مواصلة جهاده اضطراراً وارغم على متابعة عمله المتعب الشاق ارغاماً . فقد فرغ من وضع (الحيوان) بعد ان تجاوز السبعين ، ومن وضع (البيان والتبيين) بعد ان تجاوز الثمانين . ومن لا يسامح في ضعف اتاجه اذا بلغ هذه السن ؟ !

ستقول ومن اضطره الى مواصلة جهاده هذا ؟ وأجيب : أكان عليه اذن أن ينهي حياته كما بدأها خاملاً وان يخرج من الدنيا كما دخلها فقيراً معدماً ؟ وليس هو المعاتب اذا كان الزمان لم يرأته والحظ لم يبتسم له الا في ايام شيخوخته ومرضه .

هـ - مثل مهر مختار كلامه :

والآن ، وقد أدت الجاحظ وبرأته وتقدته وقرظته أحب ان اروي لك مثلاً من كلامه الذي يمثل لغته واسلوبه ورأيه في صناعة الانشاء وتأليف الكتب الى حد لا بأس به . قال يشرح مذهبه في الكتابة مستطرداً : وليس ينبغي لكتب الآداب والرياضيات أن تحمل أصحابها على الجد الصرف وعلى العقل المحض وعلى الحق المروعى والمعاني الصعبة التي تستكد النفوس وتستترغ الجهور وللصبر غاية وللإحتمال نهاية ، ولا بأس بأن يكون الكتاب موشحاً ببعض الهزل ، على ان الكتاب اذا كثر هزله سخف ، كما انه اذا كثر جدته ثقل . ولا بد للكتاب من ان يكون فيه بعض ما ينشط القاريء وينفي النعاس عن المستمع « ١ » .

وقال يصف الكلام البليغ : « بسم الله الرحمن الرحيم — قال علي بن أبي طالب عليه الصلاة والسلام : (قيمة كل انسان ما يحسن) فلو لم تقف من هذا الكتاب إلا على هذه الكلمة لوجدناها كافية شافية ومجزية مغنية ، بل لوجدناها فاضلة على الكفاية وغير مقصورة عن الغاية ، وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ومعناه في ظاهر لفظه . وكان الله عز وجل قد ألبسه من الجلالة وغشاه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه وتقوى قائله . فاذا كان المعنى شريفاً واللائظ بليغاً وكان صحيح الطبع بعيداً من الاستكراه ومزهاً عن الاختلال مصوناً عن التكلف صنع في القلب صنيع الغيث في التربة الكريمة ومتى فصلت الكلمة على هذه الشريطة ونفذت من قائلها على هذه الصفة أصحابها الله من التوفيق ومنحها من التأييد ما لا يمتنع من تعظيمها به صدور الجبارة ولا

يذهل عن فهمها عقول الجبهة . وقد قال عامر بن عبد القيس « الكلمة اذا خرجت من القلب وقعت في القلب ، واذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان »^١ . وقال يحدد صفات الكاتب : « ينبغي للكاتب ان يكون رقيق حواشي اللسان عذب ينابيع البيان ، اذا حاور سدد سهم الصواب الى غرض المعنى ، لا يكلم العامة بكلام الخاصة ولا الخاصة بكلام العامة »^٢ . وقال في فصل من رسالته في النساء : « وقد علم الشاعر وعرف الواصف أن الجارية النائمة الحسن أحسن من الظبية وأحسن من البقرة وأحسن من كل شيء تشبهه به . ولكنهم اذا أرادوا القول شبهوها بأحسن ما يجدون ، ويقول بعضهم : كأنها الشمس ، وكأنها القمر ، والشمس وان كانت بهية فأما هي شيء واحد وفي وجه الجارية الحسناء وخلقتها ضروب من الحسن الغريب والتركيب العجيب . ومن يشك ان عين المرأة الحسناء أحسن من عين البقرة وان جيدها أحسن من جيد الظبية والأمر فيما بينهما متفاوت . ولكنهم لو لم يفعلوا هذا وشبهه لم تظهر بلاغتهم وفطنتهم »^٣

« ١ » البيان والتبيين ج ١ ص ٤٧ طبعة مطبعة الفتوح الأدبية بمصر

« ٢ » معجم الأدباء ج ١٦ ص ٨٧ طبعة مصر

« ٣ » رسائل الجاحظ ص ١٧٤ طبعة السندوني .

في هذه التبذة من كلام الجاحظ دليل واضح على مكانة الشاعرية من طبعه ؛ وأحب بهذه المناسبة أن أذكر أن له شعراً لا بأس به ، روى ياقوت مثلاً عديدة منه . وأنا أروي لك هنا بعض هذه المثل . قال الجاحظ :

غذاء العلم والرأي المصيب	يطيب العيش أنت تلقى حليماً
وفضل العلم يعرفه الأرب	ليكشف عنك حيلة كل رب
وداء البخل ليس له طيب	سقام الحرص ليس له شفاء

وقال — والبيتان من ظريف شعره — :

في خضاب الرأس مستمتع	ان حال لون الرأس عن لونه
فما الذي بختاله الأصلع ؟	هب من له شيب له حيلة

وقال محذراً من الأصدقاء: «إحذر من تأمن كأنك حذر ممن تخاف»^١.

و - مقارنة بينه وبين غيره الله به المقفع:

بقي ان نقارن بينه وبين من سبقه وعاصره من كبار الكتاب . ولا سبيل الى عقد مقارنة بينه وبين سهل بن هارون ، لأن ما بلغنا من آثار هذا لا يسمح بعقد مقارنة بينه وبين كاتب له مثل غزارة انتاج الجاحظ وتعدد آثاره . ولكننا نستطيع ان نقارن بينه وبين ابن المقفع ، وما أشك في أنه أصبح تكبيراً وأفصح تعبيراً وأمتن لغة وأقوى أسلوباً مئة مرة من ابن المقفع . ففي أي كتب الجاحظ تقرأ كلمة كتلك التي يقرر فيها عبدالله أن من لا مال له لا حياء له ومن لا حياء له لا سرور له ومن لا سرور له لا عقل له . . . الى آخر ما هنالك من أمثال هذه الترهات ؟ وفي أي رسائل الجاحظ تجد نصيحة كتلك التي ينصحك فيها عبدالله — ان كنت عاقلاً بالطبع — (أن تؤنس ذوي الالباب وتجرهم على نفسك) ؟ . حتى يصيروا حراساً على سمعك وبصرك ورأيك ، فتستقيم الى ذلك وتريح له قلبك وتعلم انهم لا يغفلون عنك اذا أنت غفلت عن نفسك) . وفي أي أحاديث الجاحظ تجد وصية كتلك التي يحضك فيها ابن المقفع على ان تكون عبداً في قرارة نفسك وأعماق ضميرك لأولئك الذين يملكون مقاليد الحكم ليتصدقوا

— وقال في أحد عظهائه عصره :

وعهدي به والله يصلح أمره
فلا جعل الله الولاية سبية
فقد جهوده بالسؤال وقد أبى
به الحمد الا أن يلج ويستشري

« ١ » معجم الأدباء ج ١٦ ص ٨٤ طبعة مصر .

عليك بالمال والجاه ؟

وقد أحصيتُ على الجاحظ هئاتٍ عديدةً في لغته وأسلوبه ، ولو كني لا أعرف له عبارة يبلغ منها السخف مبلغه من قول ابن المقفع : « اذا تخالجتك الأمور فاستقل أعظمها خطراً ، فان لم يستبن ذلك فأرجاها دركاً ، فان اشتبه ذلك فأجدرها ان لا يكون له مرجوع حين تولي فرصته » . وقوله : « ان بالناس من الاستخراج والفساد ما قد علم أمير المؤمنين . وقد ضربت لك الأمثال على سوء لغة ابن المقفع ورداءة أسلوبه في فصل سابق من هذا الكتاب ولا داعي الى التكرار .

الحق ان الجاحظ شيخ صناعة الانشاء في العصر العباسي الأول وإمام المترسلين فيه ، وأرف أحداً من كتابه الذين قرأنا أخبارهم وعرفنا آثارهم لا يستطيع ان يزاوجه في مركزه هذا او ينافسه .

الباب الثاني

في كتب السماع والمقامات

الفصل الاول

أبو بكر الخوارزمي

أ — حياته : اسمه ونسبه . نسبته الى طبرستان وخوارزم . مولده . نشأته ودراسته . أسفاره . فوائدها الأدبية والمادية . اتصاله بسيف الدولة . عودته الى المشرق . تطوافه في حواضره وأقاليمه . في بخارى . في نيسابور . في سجستان . في غرستان . في نيسابور ثانية . عند الصاحب بن عباد بأصبهان . تقديم ابن عباد إياه الى عضد الدولة . رحلته الى شيراز . نجاحها . عودته الى نيسابور . ابتسام الحياة له فيها . منح عضد الدولة إياه مرتباً ثابتاً . نعمته على ملوك خراسان زلفاً للبوهميين . ماجنت عليه هذه النعمة . التجاؤء الى الصاحب بن عباد . عودته الى نيسابور بفضل أبي الحسن المزني . ابتسام الحياة له فيها مرة أخرى . وفاته سببها .

ب — صفاته : حيويته . حفظه . خبث لسانه . نكرانه الجميل . بخله . رأي فريق من شعراء عصره فيه .

ج — آثاره : ١ — نثره : غلبة الروح الشعري عليه . خصائصه الفنية . بعض هناته . أثر الروح الفارسي فيه . بعض ما يمثل هذا الروح . مثل من كلامه المختار . رسالة له كتبها الى تلميذ له مكابرة كلمة له في وصف الشعراء . من رسالة له كتب بها الى مسكويه وقد تزوجت أمه .

٢ — شعره : مثل منه .

د — خاتمة : غلبة النثر على أدبه .

١ - هبائه :

حدثتك في الباب السابق عن شيخي الترسلي في الانشاء وهما عبدالله بن المقفع والجاحظ ، وأحدثك في هذا الباب عن أكبر كتاب الاسجاع والمقامات وهم أبو بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمداني والحريري . وأبدأ بالخوارزمي لأنه أقدم الثلاثة في الترتيب الزمني فأقول :

هو محمد بن عباس الخوارزمي أو الطبري ، والأولى أشهر . وقد نسب الرجل الى طبرستان لأن أصله منها ، والى خوارزم لأنه ولد ونشأ فيها على رواية (اليتيمة) . أما صاحب (الوفيات) فيقول : انه نسب الى طبرستان لأن أمه منها ، والى خوارزم لأن أباه من هذه المدينة . ويضيف ابن خلكان الى ذلك ان المترجم ابن أخت أبي جعفر محمد بن جرير الطبري صاحب التاريخ المشهور ، وليس بين أيدينا من المصادر التاريخية ما يمكننا من ترجيح أحد القولين . ولكن مهما يكن من شيء فان الرجل نسب الى طبرستان فعرف بالطبري ونسب الى خوارزم فعرف بالخوارزمي بل لقد اتخذت له نسبة مركبة من هاتين النسبتين فقبل « الطبرخزي » أو « الطبرخزمي » .

وقد ولد في خوارزم سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة للهجرة ، ونشأ حيث ولد وتلقى علومه وفنونه . ولسنا نعرف لسوء الحظ أحداً من أساتذته ، ولكننا نعلم إجمالاً أنه كان محباً للعلم شغوفاً بالدرس ، وأنه كان على جانب كبير من غزارة العلم ووفرة الأدب عندما برح مسقط رأسه خوارزم في ريعان صباه ولكنه لم يفتقر عن طلب العلم في اثناء تجواله الواسع ، فقد اتصل بكثير من علماء

فارس والعراق والشام وأخذ عنهم ، كما أنه خرَّج كثيراً من أولي الأدب والفضل .
وقد اتصل بسيف الدولة الحمداني بحلب ومدحه فأكرم وفادته وأحسن صلته . ثم
عاد ادراجه إلى المشرق فقصد بخارى وعرف بها أبا علي البلغمي ، ولكن سرعان
ما ساءت علاقته به فهجاه بقوله :

إن ذا البلغمي والغين عين وهو عار على الزمان وشين

إن يكن جاهلاً بخفي حنين فهو الخف والزمان حنين

ثم رحل إلى نيسابور واتصل فيها بجماعة من الكبراء عرفوا فضله وأحسنوا
معاشرته ، أكبرهم الأمير أبو نصر أحمد بن علي الميكالي ، ثم ترك نيسابور إلى
سجستان ومدح واليها طاهر بن محمد فقبل هذا مدحته وأجازه عليها . ولكنه
لم يلبث أن أغضب الوالي فسجنه وطال مكثه في السجن وساءت حاله كثيراً ،
فبعث إلى أبي نصر أحمد بن علي الميكالي بتقصيدة مطولة يشكو فيها حاله ويصور
يؤسه وشقاءه يقول فيها :

كتابي أبا نصر إليك وحالي كحال فريس في مخالب ضيغم

أرق من الشكوى وأدجى من النوى وأضعف من قلب المحب المتيغم

غدوت أبا جوع ولست بصائم ورحت أبا عرى ولست بمحرم

وقعت بمنخ الخوف في يد طاهر وقوع سليك في حبائل خنعم^١

وأفرج عنه ، فذهب إلى غرستان ، ولم يكن واليها عند حسن ظنه به فهجاه
بمقطعات عدة . وهنا أدرك ضرورة العودة إلى نيسابور التي راج فيها أدبه

« ١ » يشير إلى وقوع سليك بن السليكة العديء المشهور في أسر أنس بن مالك الخنعمي .

وطاب عيشه فترة من الزمن فعاد إليها . ووفد منها على الصاحب بن عباد بأصبهان ، فاستحسنه هذا الاستحسان كله وقربه التقريب كله ، وأغدق عليه الهبات جرياً على مألوف عاداته مع أولي الأدب والفضل . ولم تقف رعايته لأبي بكر عند هذا الحد ، بل انه زوده برسالة الى عضد الدولة ، وكان يومئذ بشيراز ، كانت سبب حظوته عنده وفوزه لديه . ويظهر أن نيسابور كانت أحب المدن التي زارها إليه وأطيبها أثراً في نفسه . فعاد إليها من شيراز واستوطنها واقنى بها ضياعاً كثيرة وأقام فيها على خير حال . ثم وفد على عضد الدولة مرة أخرى ممتدحاً إياه ، فأجزل عطيته وفرض له مرتباً سنوياً يحمل إليه في دار اقامته بنيسابور . فطابت حياته وعلت كلمته وسمت منزلته ، وفرغ للاستمتاع بما أوتي من نعمة العلم ونعمة المال ؛ فكان على حد قول الثعالي : « يقسم أيامه بين مجالس الانس ومجالس الدرس » . ولكنه كان شديد التعصب لآل بويه شديد النفمة على ملوك خراسان . وبلغ أحد وزرائهم « أبا الحسن القبي » أنه هجاه فكتب الى عامله بنيسابور يأمره بحبسه ومصادرة أمواله ، فحبس وفرضت عليه غرامة قدرها مئة ألف درهم فدفع بعضها وهو في السجن ، وأرسل مخموراً الى بيته فاحتال على حراسه وألهام بالطعام والشراب ، وفرّ متكرراً الى الصاحب بن عباد ، وكان يومئذ في جرجان ، فخماه وأكرم مثواه . ولم يزل عنده قرير العين ناعم البال الى أن قتل أبو الحسن القبي وخلفه في منصبه أبو الحسن المزني ، وكان هذا من محبي أبي بكر وعشاق فضله وأدبه . فاستدعاه إليه وأعرب له عن عظيم إعجاب به وتقديره له ، وكتب الى نيسابور برد ما أخذ من ماله إليه فكان ذلك .

وسعدت أيامه بنيسابور مرة أخرى فكان موضع التجارة والاعظام في هذه
الحاضرة يحترمه حکامها ويحبه سراتها وأشرفها فلم يزل على هذا الى أن أبتلى
بزيارة أحمد بن الحسين (بديع الزمان الهمداني) لنيسابور ومساجلته له ، تلك
المساجلة التي أدت الى انحطاط قدره وخمول ذكره والتي سنذكرها في ترجمة
البديع ان شاء الله ، فرض لشدة ما أصابه من ذل الهزيمة ومرارة الانكسار .
ومات في شوال من سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة للهجرة . وراثه الهمداني بأبيات
يقول فيها :

يقولون أنت به شامت فقلت الثرى بفم الشامت
دعرت على معاداته ولا متدارك للنائمات

ب - صماء :

لم يدرس مؤرخو الرجل خصاله وخلالله ولم يدونوا ما له وما عليه في هذا
الباب اللهم الا ما ورد عرضاً في اثناء الكلام عنه . ولكننا اذا رجعنا الى اخباره
وآثاره علمنا منها انه كان عاني الهمة شديد المراس قوي العزيمة غزير الحفظ طويل
اللسان منكرراً للجميل بخيلاً الى ابعد حدود البخل . وليس من العسير أن نقيم
البرهان على ما له من مضاء العزيمة وعلو الهمة ، فقد برح مستط رأسه خوارزم
وهو في ريعان الصبا ، فما زال يطوف في الآفاق ويجوب البلاد من المشرق الى
المغرب وبالعكس يطلب العلم وينشد الأرب ويبعث عن المال والجاه والشهرة حتى
ظفر من كل ذلك بالشيء الكثير . ولا يشك أحد من معاصريه في أنه آية في
الحفظ ، وهم يتناقلون في هذا الشأن حكاية خلاصتها أن أبا بكر لما وقف على

باب الصباح بن عباد قال لآذنه : قل له في الباب أديب يريد الدخول عليك .
وأدى الآذن الرسالة ، فقال له الصباح : قل له ، قد أزلت نفسي أن لا يدخل
عليّ من الأديب . إلا من يروي عشرين ألف بيت من شعر العرب . وابلغ الآذن
جواب سيده أبا بكر فقال له : قل له هذا القدر من شعر الرجال أم من
شعر النساء ؟ ! .

وما أريد أن اقبل هذه الرواية فإنها ظاهرة التكلف والافتعال . ولكني
استنتج منها أن حافظة أبي بكر كانت من القوة بحيث حملت معاصريه على أن
يفسجوا حولها الأساطير .

بيد أنه كان طويل اللسان خبيث الهجاء هجا كثيراً من الولاة والأمراء
بعد ما مدحهم والنس عظيمهم وطلب معروفهم . ولم يكن هؤلاء من رحابة الصدر
وكرم الخلق بحيث يسامحونه ويصنمخون عن زلاته دائماً فبس وصدورت
أمواله مراراً عديدة . بل لقد فكر بعض عمال خراسان بتقطع لسانه جزاء
تطاوله على ملوك ذلك الاقليم . وإذا صح ما رواه ابن خلكان من أنه هجا الصباح
بن عباد بهذين البيتين :

لا تحمدن ابن عباد وإن هطلت يدها بالجود حتى أخجل الديما
فإنها خطرات من وساوسه يمطي ويمنع لا بخلا ولا كرماً^١

« ١ » لم يفت ابن خلكان أن يذكر أنه قرأ هذين البيتين ومعها بيت ثالث في معجم
الشعراء للهرزباني لمعاوية بن سفيان المعروف بأبي القاسم الأعمى في الحسن بن سهل وهذه
هي رواية المعجم .

لا تحمدن حناً بالجود إن هطلت كفاه شزراً ولا تدممه إن رزما
فليس يمنع إقصاء على نسب ولا يجود لفضل الحمد معتماً -

أقول : اذا صح ذلك فإنه يكون من نكرات الجميل وكفران المعروف بحيث يستحق ما رواه ابن خلكان ايضاً من تعقيب الصاحب بن عباد على وفاته ، وهو قوله :

أقول لركب من خراسان قافل أمات خوارزميكم ؟ قيل لي : نعم
فقلت : اكتبوا بالجلس من فوق قبره ألا لعن الرحمن من كفر النعم

وكان الى هذا بخيلاً شديد البخل ، ولو لم يقع له في هذا الباب الا رفضه ملتبس بديع الزمان الهمذاني لكفى . فقد قدم هذا نيسابور وهو في حال يرثى لها ، فكتب إليه كتاباً نقيساً ورقيقاً جداً يستضيفه فيه فأعاره أذنأ صماء وزوى وجهه عنه وقد اعرب بعض معاصري ابى بكر من الشعراء عن رأيهم فيه ، فقال ابو سعيد احمد بن شهيد الخوارزمي ايضاً :

ابو بكر له ادب وفضل
مودته إذا دامت لخل
ولكن لا يدوم على الوفاء
فن وقت الصباح الى المساء
وقال آخر :

مات ابو بكر وكان امراً
ولم يكن حرأً ولكنه
ادم في آدابه العسر
كان امير المنطق الحرأً

- لكنها خطرات من وساوسه
ولكنه - أي ابن خلكان - أكد انه رأى البيتين منسويين للخوارزمي في الصاحب
ابن عباد في مجاميع طائفة من الأدباء .
يعطى ويمنع لا بخلا ولا كرماً

١ - ثره : لابي بكر ديوان رسائل ومقدار لا بأس به من الشعر يدل كل منها على توفد ذهن وسعة خيال وقوة عارضة ولطافة اسلوب . والذي يهمننا الآن هو ديوان رسائله ، وقد طبع هذا في مصر سنة ١٣١٢ للهجرة طبعة لا بأس بها . وأنت إذا تصفحت هذا المجموع رأيت انه في مقاصده واغراضه وفي اخيلته وخواطره اشبه بديوان شعر منشور . ذلك انك تنتقل فيه من مديح الى هجاء ومن تهنئة الى رثاء . ومن استعطاف الى عتاب . ومعلوم ان هذه هي أهم أبواب القريض في زمن المؤلف على انه لا يخلو من عظات ونصائح ذات طابع اجتماعي كنتك التي ينحى فيها أبو بكر باللائمة على تلميذه مكابر ، ولكن هذه قليلة جداً .

أما من حيث اللغة والأسلوب فإنه فصيح اللفظ متين السبك حافل بازخارف البيانية كالجناس والطباق والاستعارة والتشبيه وما الى ذلك ، جم الأسجاع عامر بالازدواج دون ان يخلو من كلام مرسل . وهذا على الرغم من زعم المؤلف في رسالة كتبها الى أحد أساتذته أنه صاحب رسل ، إذ الصحيح أنه شديد الالتزام للسجع والازدواج ولكنه من علو الكعب في صناعة الانشاء بحيث يخيّل لك أنه يرسل نفسه على سجيّتها ولا يستكره شيئاً من هذه الزخارف البيانية التي تحفل بها رسائله وإنما ينطق بها عفواً وتجري على لسانه طوعاً .

على أن لغة الرجل وأسلوبه لا يخلوان من هنات وهفوات منها قوله :

« واستحالت تلك المواهب وهي مصائب ”١“. » إذ الصواب (واستحالت تلك المواهب مصائب) . وقوله في رثاء شاب : « وفقد الشباب الطري أكثر جزعاً ”٢“. » إذ الصواب (وفقد الشباب الطري أدعى الى الجزع) . وقوله : « ثم يعود العاقل منهم لما يرفو به الخرق ويرتق به الفتق فيقبل الزلة » ”٣“. » إذ الصواب (فيقبل العذر أو يصفح عن الزلة) . وقوله في رثاء أيام خلت : « أكلت الوجع وشربت الجرع » ”٤“. » فلا جدال في أن المجازين الذين تنطوي عليهما هاتان الجملتان مما يعجه السمع ولا يرتاح له الطبع بيد أنه من الحق ان نلاحظ ان هذه الهنات وتلك الهفوات ليست كثيرة في كتب الرجل .

ولكن هل في هذه الكتب ما يذكر بفارسية الكاتب ؟ نعم ؛ ان غلوه يضطرك في كثير من الأحيان الى التفكير بأنك إنما تقرأ كاتباً فارسياً يطيب له ان يخلق من الدررة قفراً ومن القطرة بحراً . وقد يعجبك ان أقتطف لك مثلاً من كلامه الذي يمثل غلوه ، اسمع قوله في وصف بستانه الذي يصغر من شأنه لسبب ما : « ببيعة طولها باع وعرضها ذراع ، أعني باع البقة وذراع الدررة ، وأقل من لا وأصغر من الجزء الذي لا يتجزأ ، لو طارت عليها ذبابة لغطتها أو دخلتها نملة لسدتها ، تسمى بالمسعط ”٥“ صباحاً وتنكث بالخلال ”٦“ مساءً ، أشجارها

« ١ » رسائل الخوارزمي طبعة معرسة ١٣١٢ هـ ص ٣

« ٢ » المصدر نفسه ص ٢

« ٣ » المصدر نفسه ص ١٤

« ٤ » المصدر نفسه ص ١٧

« ٥ » المسعط : ما يجعل فيه السعوط يجب في الاف

« ٦ » الخلال : ما تخلل به الاسنان

مئة إلا تسعة وتسعين وأنهاها خمسون إلا تسعة وأربعين «^١». وقوله في وصف قصيدة بعث بها إليه أحد تلاميذه «وردت القصيدة الغراء بل الدرّة العذراء بل الهدية العظيمة بل الشمسة الكريمة بل الياقوتة اليتيمة بل فريدة الدر بل غرة الغر بل شمس الكرام وغريبة الأيام بل الخطاب الجزل والمنطق الفصل بل الحسن والاحسان بل التبيين والبيان بل واحدة الفصائد وخاتمة القلائد وآبدة الأوابد بل أميرة النظم والنثر بل ملكة الرجز والشعر بل حسنة الألسن ونزهة القلوب والأعين بل بستان الأفكار وجلاء الإبصار بل روح المعاني والمباني وهيكل الأوزان والنوافي بل عقيلة الدهر ونادرة العصر وعمرة العمر وبيضة العمر وترياق القلب بل ملابس تاج الفخر ومورثي كثر الذخر لا بل ليسة القدر فأنها خير من ألف شهر وهذه خير من ألف بيت شعر ، ولم أعن البيت الموزون إنما أردت البيت المسكون ... الخ «^٢» .

فأكبر الظن أنك توافقني على ان كاتباً عربياً لا يبلغ في تصغير ما يريد تصغيره وتعظيم ما يريد تعظيمه ما بلغه أبو بكر في تصغير شأن بستانه وتعظيم شأن قصيدة تلميذه ، فقد غلا في كلا الأمرين غلواً لا يستسيغه ذوق كاتب عربي ، اللهم إلا ان يكون قد تأثر بمخالطة الفرس ومعاشرتهم وبدراسة أدبهم وتذوقه تأثراً كبيراً . ومع ذلك ففي إمكاننا أن نقرر ان للخوارزمي رسائل بليغة تلذ قراءتها وتميد روايتها ، اليك منها هذه الرسالة التي كتب بها الى

« ١ » المصدر نفسه ص ٨

« ٢ » المصدر نفسه ص ٧٣ .

تلميذ له بلغه أنه كابر في مناظرة فجعل الباطل حقاً والحق باطلاً :

« بلغني أنك ناظرت ، فلما توجهت عليك الحجة كابرته ، ولما وضع نير^١ »
الحق على عنقك ضجرت وتضاجرت . وقد كنت أحسب أنك أعرف بالحق من
أن تعمقه ، وأهيب لحجاب العدل والانصاف من أن تشقه ، كأنك لم تعلم أن
لسان الضجر ناطق بالعجز وان وجه الظلم مبرقع بالقبح ، وانك اذا استدركت
على نقد الصيارفة وتتبع خطأ الحكماء والفلاسفة فقد طرقت الى عيبك لعائبك
ونصرت عدوك على صاحبك ، وقد عجبت من حسن ظنك بك وأنت انسان ،
والله المستعان . »^٢

وهذه التنبذة التي يصف بها الشعراء والتي أقتطفها لك من رسالة تقدم
بعضها^٣ :

« وإني لشاعر اذا أحس من لسانه بسطة ، ووجد في خاطره فضلة ، وأصاب
من القول جريانا ، ووجد ميدانا قال ما وجدت بيانا ، وما ظنك بقوم الاقتصاد
محمود إلا منهم ، والكذب مذموم إلا فيهم ، اذا ذموا تلبسوا واذا مدحوا
سلبوا ، واذا رضوا رفعوا الوضع ، واذا غضبوا وضعوا الرضيع ، واذا أقرؤا
على أنفسهم بالكبائر لم يلزمهم حد ، ولم تمتد اليهم بالعموية يد . غنيهم
لا يصادر^٤ ، وفقيرهم لا يحتقر ، وشيخهم يوقر ، وحدثهم لا يستصغر ،

« . » النير : هو الحشبة التي توضع على عنق الثور وهو مستعمل هنا على سبيل المجاز

« . » رسائل الخولزمي طبعة مصر سنة ١٣١٢ هـ ص ٨

« . » كان ما تقدم من هذه الرسالة وصف البستان

« : » لا يصح هذا بالنسبة للبحثي . فقد صودرت أمواله واستردت منه عطايا الخلفاء
في أيام الفتى والاضطرابات التي تلت مصرع المعتز

وسهامهم تنفذ في الأعراس ، اذا نبت السهام عن الأغراض ، وتصل الى البعيد
كما تصل الى القريب ، شهادتهم مقبولة ولان لم ينطق بها سجل ، ولم يشهد بها
عدل ، وسرقتهم مغفورة وان جاوزت ربع دينار ، أو بلغت ألف قنطار^١ ،
إن باعوا المغشوش لم يرد عليهم وان صارموا الصديق لم يستوحش منهم ، بل
ما ظنك بقوم هم صيارفة أخلاق الرجال وسماسة التقص والكمال ، بل ما ظنك
بقوم اسمهم ناطق بالفضل ، واسم صناعتهم مشتق من العقل^٢ بل ما ظنك
بقوم هم أمراء الكلام يقصرون طويله ويخففون ثقيله ويقصرون ممدوده ، ولم
لا أقول ما ظنك بقوم يتبعهم الغاوون وفي كل واديهيمون ويقولون ما لا
يفعلون ،^٣ .

وهذه القطعة التي أوردها لك من رسالة كتب بها الى مسكويه وقد
تزوجت أمه :

« العاقل ، أعزك الله تعالى ، لا يرى المحنة اذا تحطت دينه محنة ، ولا يرى
النعمة اذا تعلق بذنب خطيئة نعمة ، ولا يريد الشرف إلا بالتقوى . ولا يرى
الضعة الا ما وضع من رتبته في الدار الأخرى ، وبلغني ما اختارته الوالدة صانها
الله تعالى فحمدت الله تعالى الذي رزقك والدأ لا يلزمك حق أبوته ، ووعدك

« ١ » سرقات الشعراء مغفورة اذا كانت أدبية « وهذا لا يخلو من تحفظ » فتم
يحاسبون عليها حساباً أدبياً أيضاً أما اذا كانت مادية فتم يعاقبون عليها كما يعاقب اي
فرد من الافراد اذا سرق .

« ٢ » يشير أبو بكر بهذا الى ما تنس عليه معاجم اللغة من ان كلمة « شعر » تعني « علماً »
و « فطنة » و « عقلاً » .

« ٣ » رسائل الخوارزمي طبعة مصر سنة ١٣٠١ هـ ص ٨

أخاً لا يحملك حق أخوته . وقد كنت أسأل الله تعالى أن يبارك لك في حياتها
والآن أسأله ان يجعل لك بوفاتها « ١ » .

٢ — شعره : وشعر أبي بكر لا يقل عن نثره لطف خيال ورقة شعور
وجمال لغة وصفاء أسلوب . ولكن الناس تواضعوا قديماً وحديثاً على اعتباره
كاتباً أكبر منه شاعراً ، وناثراً أبلغ منه ناظماً ، وأحسب أنهم على حق في هذا
إذا استثنينا صفحات قليلة جداً من شعره . **أومها** يكن من شيء ، فقد جاريت
الناس في أمره ، فدرسته على انه كاتب ، ولكنني أروي لك مثلاً من شعره دون
درس ولا تحليل . قال يصف ليلة سعيدة :

وكم ليلة لا أعلم الدهرَ طيبها مخافة ان يقتصَّ مني لها الدهر
سهاد ولكن دونه كل رقدة وليل ولكن دون إشراقه الفجر
وقال متغزلاً :

واقعد ذكركم والنجوم كأنها درر على أرض من الفيروز ج
يامعن من خلل السحاب كأنها شرر تطاير في دخان العرفج "٢"
والأفق أحلك من خواطر كاسب بالشعر يستجدي اللثام ويرنجبي
فزجت دمعي بالدماء ولم أكن صرف الهوى والعهد إن لم أمزج

وقال يهجو بني العباس لاسرافهم في منح الالقاب لمن يستحق ومن
لا يستحق :

« ١ » المصدر نفسه ص ١٠٢ . ولا بن العميد كتاب في مثل هذا الغرض لم يبلغ فيه
شأواً أبي بكر .
« ٢ » العرفج : شجر .

مالي رأيت بني العباس قد فتحوا
ولقبوا رجلاً لو عاش أولهم
قلّ الدراهم في كنفّي خليفتنا
من الكنى ومن الألقاب أبوأبا
ما كان يرضى به للحش «١» بوأبا
هذا فأنفق في الأقسام ألقابا
وقال في الفقر والغنى :

ولقد بلوت الاصدقاء فلم
وكذاك لم أر في العدا أحداً
أر فيهم أوفى من الوفر
أنكى لمن عادى من الفقر

وقال يرثي صديقاً قديماً انقلبت صداقته له عداوة :

صديق قد فقدناه قديم
مصاب وهو عند الناس نعمى
تهنيني الأنام به ولكن
وسيف قد ضربت به مزاراً
فلما أن تغلّل ظلت أبكي
ومن عجب الليالي أن خصمي
وأن النصف من عيني جمود
إذا سفحت عليه دموع عيني
وشكل قد وجدناه جديد
ونحس وهو عند الناس عيد
تعزيني المواقف والمعهود
فن ضرباته بي لي شهود
وعندي منه بعد دمّ جسيد «٢»
يبيد وأن حزني لا يبيد
وأن النصف من قلبي جليد
نهاها الهجر منه والصدود

وقال يرثي أبا الحسن المحتسبي :

وصاحب لي لو حلّت رزيتة
بالطير ما هتفت يوماً على فن

« ١ » في القاموس : الحش مثلثة المخرج ، لأنهم كانوا يقضون حوائجهم في البساتين .

« ٢ » جسيد : يابس .

عاشرته عشرة لو أنها وقعت
بين الضحى والدجى سارا على سنن
حتى اذا نلت سؤلي من مواهبه
وصادني بشباك الوصل والمنن
شكته بعد ما سارت محاسنه
في العظم واللحم سير الماء في الغصن

وقال مضمناً قول زهير بن أبي سلمى « ومن لا يظلم الناس يظلم » ، وهو
معروف بتضمينه شعره أحياناً أو أشطراً أو بعض أشطر من اقوال من تقدمه
من الشعراء :

عذيري من ضحك غدا سبب البكا
ومن جنة قد أوقعت في جهنم
لأنك لا تروين بيتاً لشاعر
سوى بيت من لم يظلم الناس يظلم

د- هانئ :

الواقع ان أبا بكر الخوارزمي شاعر في مشوره كما انه شاعر في منظومه
وان ثره في معانيه ومبانيه صورة طبق الاصل من شعره ولكنه يدرس
ويؤرخ على انه كاتب لأنه عدل بالثر عن طريق الترسل الذي نهجه ابن المقفع
ثم الجاحظ من بعده الى السجع . ولم يكن السجع طبعاً من صنع الخوارزمي .
فأنت تعلم ان القرآن يحتوي على شيء كثير منه ، وان خطب الراشدين وعهودهم
ورسائلهم تحتوي على شيء كثير منه كذلك . ولكن الخوارزمي فضله على
غيره من انواع الكلام والتمه وتقيداً به في معظم رسائله ، وشايه في ذلك
جماعة من كتاب القرن الرابع للهجرة بقصد او بدون قصد ، فصار كأنه صاحب
طريقة جديدة في صناعة الانشاء . وبذلك شغل في تاريخ الأدب العربي
مكاناً لا يمكن تجاهله .

الفصل الثاني

بربع الزمان الهمذاني

أ — حياته : اسمه ونسبه وكنيته ولقبه . مولده . نشأته وتعليمه . أسفاره .
غرضه منها . عند صاحب بن عباد . مع الاسماعيلية في جرجان .
ما حدث له في طريق نيسابور . تودده الى ابي بكر الخوارزمي
وفشله في ذلك . تناظرها او تهاوتها في دار نقيب نيسابور .
اصلاح ذات بينها . تجدد الخصومة بينها على يد الوزير ابي
القاسم . اندحار الخوارزمي . سوء حال الهمذاني في نيسابور .
خروجه منها . تطوافه في خراسان وما وراء النهر . نجاحه . مقامه
في هراة . زواجه . ابتسام الحياة له . وفاته .

ب — صفاته : ما يجمع بينه وبين الخوارزمي من سمات وصفات . ما يمتاز به .
رأؤه بعض ما يمثله . بذائه . كرمه .

ج — آثاره : مميزات الفنية . بعض ما يعاب عليها . مثل منها . نبذ من رسالة
يطري فيها العرب ويندد بالمجوس . نبذة في وصف الكتاب
رسالة الى سائل ألحف في التماس صلته . مثل من وصيته . مقاماته .
نظرة فيها . مثل منها .

شعره : مثل منه

د — خاتمة : الفصل بين الخوارزمي والهمذاني

اخصب قريحة واوسع خيالاً واقوى عارضة واكرم خلقاً ايضاً من ابى بكر الخوارزمي خصمه او وارث مكانته وشهرته في عالم صناعة الانشاء احمد ابن الحسين بن يحيى التغلبي المكنى بأبي الفضل والملقب بيديع الزمان الهمداني وبالحافظ لسعة حفظه .

ولد في همدان حيث تقيم اسرته سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة للهجرة ، وبها نشأ وتلقى علومه . وليس من شك في انه درس على اساتذة عديدين ، ولكننا لا نعرف من اساتذته سوى رجلين ، وهما احمد بن الحسين المعروف بابن فارس صاحب الجمل في اللغة وعيسى بن هشام الأخباري الذي نحلّه فيما بعد مقاماته الآتية ذكرها . ويقول الرواة إنه استنجد علم استاذه ابن فارس وما ذلك عليه بعسير . وخرج من همدان سنة ثمانين وثلاثمائة للهجرة يطلب المال والجاه والصيت الذائع والشهرة الواسعة ومن يدرى لعله كان يحلم بأكثر من ذلك ، فإنه يقول خلف بن أحمد والي سجستان في رسالة . « فما ازمنجني عن همدان فقر ولا جوع وعري ، ولا ساقني الى سجستان طمع في شبع وري » ، وإنما محوم حول المراد :

ولو ان ما اسعى لأدنى معيشة كدثاني ولم اطلب قليل من المال

لا يكثر الأمير علي من خلعه وصلاته ، فوالله لو علمت ان قصارى أمري سجستان أليها ، ضياعها أقتنيها . وغلمانها اشتريها ، واموالها أتسع فيها ولا مطعم في زيادة ، لآثرت الزهد على الطلب »^١ .

« ١ » رسائل الهمداني طبعة مطبعة هندية ١٣١٥ ص ١٦٣

وواضح ان من يقول هذا لا ينوى ان يكتبني بالدنانير والخلع وبالصيد
المدوّي والشهرة البعيدة المدى . وليس الهذاني اول اديب ينتجع الملوك
والأمراء بالمديح ويخفي في نفسه اطعاً واسعة ترمي الى اقتناص الحكم واغتصاب
الملك والسلطان ، فتمد سبقه المتنبي الى مثل هذا ، وفي فوضى ذلك الزمان
واضطراب احواله ما يسمح لأمثال ذينك الأديبين الشجاعين باضمار مثل
تلك المطامع .

ومهما يكن من شيء ، فقد بدأ بديع الزمان تطوافه بزيارة الصاحب بن عباد
فراجت عنده سوقه ونفقت بضاعته ، ولكنه ما عم ان تركه الى جرجان حيث
اتصل بدعاة الاستماعيلية ولا سيما بأبي سعد محمد بن منصور . وكان هذا رجلاً
فاضلاً ومفضلاً ايضاً ، فأكرم وقادة البديع وغمره بالهبات . ولكن لم يطل
الوقت حتى يرح صاحبنا جرجان الى نيسابور احدي عواصم العلم والأدب في
ذلك العصر . وهنا خافه الحظ ، فقد خرجت عليه عصابة من قطاع الطريق سلبته
كل ما كان معه من نقود وخلع . ولم يرو احد من المؤرخين هذه الحادثة .
ولكن الهذاني يشير اليها في احدى رسائله الى ابي بكر الخوارزمي كما سترى .
ووصل نيسابور وهو بالحالة التي اشرنا اليها ، فرأى ان يستعين بالخوارزمي على
ما ألم به من بؤس وشقاء فكتب اليه رسالة رقيقة هذا نصها :

• أنا لقرب الأستاذ اطال الله بقاءه (كما طرب الذشوان ما لت به الخمر)
ومن الارتياح لانفائه (كما انتفض العصفور بلله العطر) ومن الامتزاج بولائه
(كما التفت الصبء والبارد العذب) ومن الاتهاج بمرآه (كما اهز تحت البارح

الفن الرطب) . فكيف نشاط الأستاذ لصديق طوى إليه ما بين قضيتي العراق
وخراسان ، بل ما بين عتبي نيسابور وجرجان ؟ وكيف اهتزازه لضيف في
بردة جمال وجلدة جمال ؟

رثَّ الشمائل منهج^١ الأنواب بكرت عليه مغيرة الأعراب
كهلل وريعة بن مكدم وعينه بن الحارث بن شهاب

وهو أيده الله ولي إناعاه بانفاذ غلامه إلى مستقرّي لأفني إليه بسرّي
ان شاء الله . « ٢ » .

وكان من واجب الخوارزمي أن يكون عند حسن ظن البديع به ، ولكنه
لم يكن كذلك لضيق نظره ونقص مروءته ومع ذلك فقد زاره الهمذاني ،
ولكنه تمادى في تقصيره نحوه فاستقبله استقبالا فائرا كما يتبين من رسالة
يبحث بها إليه البديع . وهنادارت بين الرجلين رسائل هي الى السخف أقرب
منها الى أي شيء آخر . فقد كان الهمذاني يعاتب الخوارزمي على عدم استقباله
إياه بلطف وبشاشة ، ويقارن بين مسلكه في قرى الضيف وبين مسلك العرب
في هذا الشأن . وكان الخوارزمي يمتدح عما وقع له بأنه فعل كل ما في طوقه
وبذل كل ما في وسعه في اكرام البديع . ثم بدا للمترجم ان يناظر الخوارزمي
ويساجله في كل ما يتشدد به من سعة حفظ ووفرة علم وحضور بديهة ، وشجعة
على ذلك نمر من علماء نيسابور وأدبائها كانوا مستوحشين من الخوارزمي .

١ « منهج : من أنهج انبوب ، خلق وبلي .

٢ « رسائل الهمذاني طبعة مطبعة هندية سنة ١٣١٥ هـ من ٨ - ومعجم الأدباء لياقوت

فعمد أبو علي نقيب الأشراف في نيسابور مجلساً لهذا الغرض ، ودعا الخوارزمي
فترفع عن الحضور ، ولكن النقيب ألح ، وبعث الى أبي بكر مركباً فلم يجد بداً
من تلبية الدعوة وحضر المجلس ومعه عدد كبير من تلاميذه . وعرض عليه
الهمداني أن يناظره في أي فن من فنون الأدب أراد ، فاختر الخوارزمي المباحة
« أي المسابقة في سرعة الخاطر » . ورضي الهمداني بذلك ، ونظم أبياتاً مدح
فيها النقيب وندد بالخوارزمي ، مطلقاً :

الشعر أصعب مذهباً ومضاعداً من أن يكون مطيعه في فكه

فرد عليه الخوارزمي بأبيات من نفس العروض والقافية « لم يخرجها من
غلافها » . ثم اقترح عليها النقيب أن يقول شيئاً على غرار قافية المتنبي
التي مطلقاً :

أرق على أرقٍ ومثل يأرق وجوى يزيد وعبرة تترقق

فنظم أبو بكر أبياتاً أقل ما يقال فيها إنها لا تستحق الذكر ، وأجابه الهمداني
بأبيات لا أمرق اذا قلت لك انها على جانب كبير من البذاءة وسوء الأدب .
واعترض الخوارزمي على بيت من أبيات البديع فأجابه الهمداني جواباً لا أثر فيه
للمجاملة^١ . وعاود النقيب الكرة ، فاقترح على الشاعرين المتساجلين أن ينسجا
على منوال قصيدة أخرى للمتنبي مطلقاً :

« ١ » اعترض الخوارزمي على حرف الهمداني كلمة « أحق » في قوله :

« يا أحقاً وكفالك تلك فضيحة جريت نار معرني هل تحرق »

فقال له الهمداني : « لا تزال نصفك حتى ينصرف وتنعرف » معجم الأديباء ج ٢

ص ١٧٦ طبعة مصر .

أهلاً بدار سبائك أعيدتها أبعد ما بان عنك خردها

فقال البديع :

يا نعمة لا تزال تجردها ومنة لا تزال تكندها

فأنكر الخوارزمي استعمال « كَدَدَ » بمعنى « كَفَّرَ » وخطأه الحاضرون مذكرين إياه قوله تعالى « ان الإنسان لربه لكنود ». وتقدم الليل ، ومال النعاس بالرؤوس ، فأوى المجتمعون الى مضاجع أعدت لهم في دار النقيب ، فلما أصبحوا تفرقوا : وبعضهم يقضي بغلبة البديع والبعض الآخر بغلبة أبي بكر . وسمى أهل الخير لاصلاح ذات بين الأديبين ، ونزل الهمداني على رغبة هؤلاء فاعتذر الى أبي بكر وسأله الغفران قائلاً : « ان الصغو بعد الكدر والصحر بعد المطر » . وقبل أبو بكر عنده ورجاه ان يقضي سحابة نهاره عنده ففعل . ولكن الوزير أبا القاسم أبي الا ان يلمح الفتنة بين الرجلين من جديد ، فعقد في داره مجلساً كبيراً حضره فقهاء نيسابور وأباؤها وفتح باب المساجلة بين الخوارزمي واهمداني مرة أخرى وكانت مہاترات وكانت مشاتعات انتهت بغلبة البديع على الخوارزمي غلبة تامة . وانك لتستطيع ان تثبين غرض الوزير أبي القاسم من هذا الاجتماع اذا علمت انه قال للبديع في ختام المساجلة « ملكت فأسجج » وهي كلمة قالتها عائشة للإمام علي (رض) عند ما ظفر بها يوم البصرة .

وأمنع البديع بعد هذا في هجو أبي بكر ، فهجاه بشعره ونثره واصفاً إياه بما فيه وبما ليس فيه من العيوب والنقائص . ذلكم هو حديث البديع مع الخوارزمي

بإيجاز . ولكن كيف كانت حال الأول بنيسابور من الناحية المادية ؟

لا يقول مؤرخو الأدب لنا شيئاً في هذا الصدد ، ولكن البديع يقول لنا : ان فضلاء نيسابور كانوا يحبونه ولكنهم لا يعينونه ، حتى لقد اضطر للاستجداء إبقاءً على رمة استمع اليه يتحدث عن هذا في رسالة كتبها الى الشيخ العميد يسأله عملاً يقتات به :

« أنا أطال الله بقاء الشيخ العميد مع أحرار نيسابور في صنعة لا فيها أمان ولا عنها أمان ، وشيمة ليست بي تناط ولا عني تماط ، وحرفة لا فيها أمان ولا عني تزال ، وهي الكدية التي علي تبعها وليست لي منفعتها . فهل للشيخ أن يطف بصنيعته لطفاً يحط عنه درن العار وسمه التكب والافتنار ، ليخف على القلوب ظله ويرتفع عن الأحرار كذمه ، ولا يثقل على الأجهان شخصه باتمام ما كان عرضه عليه من أشغاله ليلحق بأذياله ، وليستفيد من خلاله فيكون قد صان الفضل عن ابتذاله والأدب عن اذلاله واشترى حسن الثناء بجاهه كما يشتريه بماله . وللشيخ العميد فيما يجب به صنيعته عن وعد يعتمده ووفاء يتلوما يعده ، عالي رأيه ان شاء الله . »^١

وما من أحد يجهل أن الهمذاني أملى في نيسابور أربعاً مائة مقامة في الكدية نحلها أبا الفتح الأسكندري . وعندني أن أبا الفتح الأسكندري هو أبو الفضل الهمذاني نفسه . وأن الأيام العصيبة التي مرت به في نيسابور هي التي أوحث اليه هذه المقامات بيد أنه استطاع بعد لأي أن يفلت من مخالب النفاق التي

« ١ » رسائل الهمذاني طبعة مطبعة هندية سنة ١٣١٥ هـ ص ١٠٢ .

كانت آخذة بخناقه في نيسابور ، وربما كانت ذلك على يد عدنان بن محمد رئيس (هراة) . فأتنا نجد للهمذاني رسالة يشكو فيها إليه سوء مقامه بنيسابور ويقول له انه (بعث إليه بما عنده وهو المدحة) وبقي عليه هو الآخر (ان يبعث بما عنده وهو المنحة) .

ومهما يكن من شيء فقد ترك الهمذاني نيسابور غير آسف عليها ، وزار سجستان وخراسان ومدح كثيراً من الأمراء والكبراء ، فظفر بالمال الكثير والجاه العريض . وفي رسالة كتبها الى عمه ما يدل على أنه تقرب من بعض الملوك فعلت منزلته وعظمت ثروته . ولكننا لا نعرف لسوء الحظ ذلك الملك ولا نعلم كيف ومتى ظفر بعظمه واستولى على قلبه . وقد لا يخلو من فائدة ان أقتطف لك شيئاً من هذه الرسالة رغبة في استقصاء حال الرجل على قدر المستطاع قال :

« إني في بلاد وان لم يكن لأهلها تميز ، فأنا بينهم عزيز ، يعظموني تقليداً ويروني فريداً ، والمال يجري فيضاً ولكني لا أبلعه ريقاً ولا آلوه تريقاً . فهو يأتي مدأً ويذهب جزراً ، والسلطان مقبل غاية الاقبال بالجاه والمال » « ١ » .

ها هي ذي الدنيا اذن تبسم للهمذاني وتقبل عليه الاقبال كله في ظل ملك كريم يكبر فضله ويعجب بأدبه ويفتح له أبواب قلبه وخزائنه على السواء . ولكن الهمذاني يحدثنا في رسالة اخرى عن غضبة ملك تنذره بزوال نعمته بل

« ١ » رسائل الهمذاني طبعة مطبعة هندية سنة ١٣١٥ ص ١٥٢

بدنو منيته ولسنا نعلم أهذا الملك الساخط المنذر بأويل والبيور هو نفس الملك
المنعم المحسن الذي تقدمت الإشارة إليه أم غيره ؟..

وعلى كل حال ألقى الهمداني عصا تسياره في هراة إحدى مدن خراسان
واقبني بها ضياعاً فاخرة وأصهر الى أبي علي الحسين بن محمد الخشنامي أحد
فضلاء هذه المدينة ، فاطمأنت به الدار وطاب له المقام وعاش عيشة هنيئة مدة
من الزمن . بيد ان هذه السعادة لم تطل . فتمد فارق الدنيا في الحادي عشر
من جمادى الاولى سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة للهجرة ولم يجاوز الأربعين إلا
قليلاً . ويقال انه جن في أواخر أيامه ، ويقال كذلك انه مات مسموماً ،
وقد دفن في حالة اغماء شديد فأفاق في قبره وسمع يستنجد ويستغيث ، وكشف
عنه القبر فوجد ميتاً وقد انحرف عن مكانه وقبض على لحيته .

ب - صفاته :

بين الخوارزمي والهمداني وجوه شبه عدة من حيث السمات والصفات ،
فكلاهما طالب مال وجاه وصيت ، وكلاهما رحالة مغامر حقق عن طريق الرحالة
والمغامرة شيئاً غير قليل من مطامعه وآماله ، وكلاهما عظيم الحفظ الى درجة
تبث على الاستغراب ، وكلاهما سليط اللسان كثير السباب . ولكن الهمداني
يمتاز بكثرة التصنع وشدة الأتمة وبشيء آخر هو الرغبة الصادقة في اصطناع
المعروف . وقد حدثتك بشيء من التفصيل عن سجايا الخوارزمي في فصل
سابق فأحدثك الآن بشيء من التفصيل كذلك عن سجايا الهمداني .

ويؤسفي ان أقول لك انه شديد الرياء كثير التصنع يقول بلسانه ما ليس

بقلبه فيعلم الحب وهو يكتم البغض ، ويظهر الرضا وهو يضم السخط ، ولا أدل على ذلك من هذه الأشواق الحارة التي يتحدث بها الى الخوارزمي «^١» بعد أن أبى هذا أن يسعفه ويقدم له معونته . ولم يكن الخوارزمي من الغفلة بحيث يصدق هذه الأشواق ، فمد طالبه ان يكف عن مؤاخذته ويمسك عن معاتبته إن كان صادقاً في أشواقه «^٢» .

وبلغ من تكلف الرجل وتغييره حقائق الأشياء ان نحل أباه عدة رسائل زعم انه كتب بها اليه ليقول الناس ان والده صاحب يد طولى في صناعة الانشاء «^٣» .

وكما يسرف الهمداني على نفسه في الرياء والتصنع يسرف على نفسه كذلك في ثلب الناس والنيل من أقدارهم . وما أظنني أغلو اذا قلت لك ان كثيراً من رسائله في العتاب تعيد الى الذكرة أهاجبي جرير والفرزدق والأخطل «^٤» . وفي الواقع ان الخوارزمي خبيث اللسان مر الهجاء ، إلا انه يتحاشى استعمال الألفاظ البذيئة التي يحظر الأدب استعمالها بيدنا لا يرى الهمداني شيئاً يمنعه من استعمال أي لفظ . بيد أنه سريع الخاطر قوي الحافظة الى درجة لا تكاد تصدق

« ١ » معجم الأديب ج ٢ ص ١٩١ — ٩٢ . طبعة مصر .

« ٢ » المصدر نفسه ص ١٩٤ .

« ٣ » من هذه الرسائل المنجولة التي حملها بديع الزمان على أبيه اذا صح ما يقول جامع رسائله قوله : « الأبو باطلها حق والبنوة حقها باطل . ولو علمت أن مناظرة الوالد بالحجة عقوق ومجاهرته بالشبهة فسوق لم تلقني بأبر من القبول وأحسن من ترك الفضول . »

رسائل الهمداني طبعة مطبعة هندية سنة ١٣١٥ هـ ص ٢٦٩ .

« ٤ » انظر رسائل الهمداني ص ٨٧ و ٨٨ و ١٤٣ و ١٩٥ وغيرها كثير .

فصاحب اليتيمة ، وهو رجل يعرفه معرفة شخصية ، يقول عنه في هذا الشأن ما نصه تقريباً ، انه يرتجل النصيدة البليغة ويحبر الرسالة الجيدة على ريق لا يبلعه ونفس لا يقطعه ، ويستمع النصيدة التي تتألف من خمسين بيتاً مرة واحدة فيعيدها دون ان يحزم منها حرفاً ، وينظر في الأوراق العديدة التي لم يرها قط نظرة واحدة فهذا ما تحتويه هذا « ١ » .

وغني عن البيان أنني أروي هذه الأقوال بتحفظ . ولكنني أستدل منها على أن حظ المترجم من سرعة الخاطر وقوة الحافظة عظيم وليس هذا كل شيء ، فان صاحبنا شديد الألفة شديد الحرص على كرامته شديد الاعتدال بنضاله وأدبه ، وربما كان هذا هو السبب في كونه كبير البرم بأصدقائه من السراة والتبلاء ، كثير العتب على إخوانه . وهو لا ينكر معروف ذوى المعروف منهم ، ولكنه لا يسمح لأحد مها كان أن يجرح كبرياهه أو يغض من شأنه ، أو أن لا يوفيه حقه أو ما تصبو اليه نفسه من التجارة والاحترام . وأشرف خصاله دن شك رغبته الأكيدة في اصطناع المعروف ، وقد رأيت أنه يقول لعمه في رسالة كتب بها اليه : « المال يأتي مدأً ويذهب جزراً ، وأنا لا ابلعه ريناً ولا آلوم تمربقاً » . وما أريد أن أصدق أن إنساناً يطلب المال كما يطلبه الهمذاني ويلقى في سبيل تحصيله ما يلقي من صهاب ومشاق ، يفرقه بهذه السهولة ، ولكنني لا أشك في أنه كان يستخدم نموده في سبيل مصالح الناس الى أبعد حدٍ مستطاع ، ويبدل شفاعته لكل من احتاج اليها . وفي رسائله العديدة التي يشفع فيها لدى أولياء .

الأُمور للناس أفراداً وجماعات خير شاهد على ذلك^{١٢} .

→ آ : ٥ :

لهمذاني رسائل ومقامات وديوان شعر طبعت كلها وأعيد طبع بعضها .
وأتحدث هنا عن رسائله ومقاماته على أن أتبع هذا طائفة من شعره دون
درس ولا نقد ، لأنني أدرسه وأؤرخه على أنه كاتب لا شاعر ، وإن كان شعره
خليقاً بالنقد جديراً بالدرس لمئاته وجودته .

وأنت إذا تأملت رسائل المترجم رأيت أنها عبارة عن قصائد منشورة
لاشتمالها على المديح والرثاء والعتاب والهجاء وغير ذلك من أبواب الشعر القديم .
وهي من هذه الناحية تشبه رسائل الخوارزمي كما تشبهها في اصطناع السجع
وإثارة الازدواج دون إخلال بنصاحة اللفظ ومتانة التعبير وصفاء الדיباجة
على العموم . ولكنها تمتاز بكثرة الاستشهاد بالشعر والأتیان بالجميل المترارفة التي
يشبه بعضها بعضاً ويعني بعضها عن بعض ، وبالزخرفة البيانية التي يعنى
بها المترجم على اختلاف أنواعها عناية صادقة والتي يضحّي أحياناً في سبيلها
بسلامة أدائه وصفاء ديباجته وجلال مقاصده وأغراضه كما في قوله عن العرب
لأنهم « ألقى وألطف وأحصى وأحصف » . فإن المعنى المعقول الوحيد الذي
يمكن أن يحمل عليه قوله « ألقى » هو أنهم أكثر التجاء إلى
الصخور والكهوف ، وهو مما لا يحسد عليه جيل من الناس . أما قوله أنهم
« أحصى » فإنه منقوض بالبدهة إذا كان يعنى أنهم أعرف بالحساب وتدبير

١ « انظر رسائل الهذاني ١٤٥ و ١٢٦ - ١٤٧ و ١٤٨ وغيرها .

أمور الدواوين . اذ من المعلوم أن العرب اعتمدوا في صدر دولتهم على الروم
والفرس والقبط في تدبير أمور الحساب . وأكبر ظني أن الجناس وحده هو
الذي حدا بالهمذاني الى تركيب هاتين الجملتين .

على أن في لغة الهمذاني وأسلوبه هذات أخرى لا بد من مؤاخذته عليها .
منها استعمال الألفاظ البذيئة التي لا يبيح الأدب استعمالها . وما أظن أنه
كان سيء الأدب ولكني أظن أن حدة مزاجه "١" هي التي كانت تدفعه الى
استعمال هذه الألفاظ ، فلا يحتاط ولا يتحفظ . ومنها تحميل اللفظة أكثر مما
تستطيع ، أو قل غموضه الشديد في بعض الاحيان . ومن الأمثلة على ذلك
قوله : « ورد للخوارزمي كتاب يتقلب فيه على جنب الحر . » "٢" وقوله :
« احتكنا الى الحجارة والتعبير نصف التجارة » "٣" وقوله : « أنا أخطب
الشيخ الامام والكلام معجون والحديث شجون . » "٤" اذ ما معنى « يتقلب
على جنب الحر » ؟ وما معنى « احتكنا الى الحجارة والتعبير نصف التجارة » ؟
وما معنى « الكلام معجون » ؟ ! الواقع أن الهمذاني كان في غنى عن أمثال
هذه التعابير .

ومنها الامعان في تكلف السجع الى درجة تبعث على النفور والاشمئزاز .
ومن الأمثلة على ذلك قوله : « مد لها اللحظ فلم يحظ ، وهذا ابن عباد شد لها

« ١ » وصف الهمذاني نفسه في رسالة فقال انه « ناري المزاج ضيف البنية يابس المعظام

حاد الطبع . » - رسائل الهمذاني ص ٩٨

« ٢ » رسائل الهمذاني ص ١٢٢ طبعة مطبعة هندية بمصر سنة ١٣١٥ هـ

« ٣ » المصدر نفسه ص ١٣٤ .

« ٤ » المصدر نفسه ص ١٥٣

الرحل فلم يحل « وقوله : « هذا والرحيل غدا وان رغم أنف أبي الدرداء وقرت
عيون الأعداء وعلا نسي الصعداء وانطوى القلب على الدا »^١»

ولكن من الانصاف أن نقرر أن هذه الهزات قليلة في آثاره، وأنه في
الغالب فصيح اللغة نقي الديداجمة متين التأليف . وهو كذلك في رسائله وفي
أكثر مقاماته على حد سواء . وهالك من رسائله ومقاماته ما يفي بتأييد
هذا الزعم قال من رسالة يندد فيها بعبد من أعياد المجوس وينخر بالعرب :

« نحن أطال الله بقاء الشيخ اذا تكلمنا في فضل العرب على العجم وعلى
سائر الأمم أردنا بالفضل ما أحاطت به الجلود ولم تنكر أن تكون أمة أحسن
من العرب ملابس وأنعم منها مطاعم وأكثر ذخائر وأبسط ممالك وأعمر مساكن
ولكننا نقول : العرب أوفى وأوفر وأوقى وأوفر وأنكى وأنكر وأعلى وأعلم
وأحلى وأحلم وأقوى وأقوم وأبلى وأبلغ وأشجى وأشجع وأسمى وأسمح
وأعطى وأعطف وأطى والطف وأحصى وأحصف وأتقى وآثق ولا ينكر
ذلك إلا وقح وتبح ولا يجوده إلا نزل نمر . وإنما قدم الله تعالى ملك العجم
ليحتج عليها وإنما أخرج ملك العرب ليحتج بها . »^٢ ومنها : « ان عيد
الوقود لعيد إفك وان شعار النار لشعار شرك وما أنزل الله بالسدق^٣
سلطانا ولا شرف نيزوزاً ولا مهرجاناً وإنما صب الله سيوف العرب على

« ١ » رسائل المحدثاني طبعة مطبعة هندية ١٣١٥ هـ ص ٢٠٠

« ٢ » المصدر نفسه ص ٦٩ .

« ٣ » عبد السدق أحد أعياد الفرس الكبرى وهي النيروز والمهرجان وهو ، وقد اعتاد
الفرس القدماء أن يشعلوا فيه نيراناً كثيرة تقديساً لأسطورة من الاساطير .

فروق^١ "العجم لما كره من أديانها وسخط من نيرانها واورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم حين مقت فعالهم . وان أنصف الشيخ الرئيس أيام الله لديه وجدها كلها أعياداً ضاحكة المباسم ظاهرة المواسم فلا وقدت نار المجوس والله ما أقول ذلك الا غيراً على نعمته وشققة على خطته . . « ٢ » .

وقال من رسالة كتب بها الى أبي نصر بن المرزبان :

« كنت - أطال الله بقاء سيدي ومولاي - في قديم الزمان أتمنى للكتاب الخير وأسأل الله أن يدر عليهم أخلاف الرزق ويمد لهم أكتاف العيش ويوطئهم أعراف المجد ويؤتيهم أصناف النضل ويركبهم أكتاف العز . وقصاراي أن أرغب الى الله تعالى في أن لا يزيلهم فوق الكفاية ولا يمد لهم في جبل الرعاية . فشد ما يطغون لانهمة بناولنهما والدرجة يعملونها وسرعان ما ينظرون من عال بما ينظمون من حال ويجمعون من مال وتنسبهم أيام اللدونه أوقات الخشونة وأزمان العذوبة ساعات الصعوبة . وللكتاب مزية في هذا الباب . فبيناهم في العطلة اخوان كما انتظم السمط ، وفي العزلة أعوان كما انترج المشط ، حتى لحظهم الجد لحظة حمقاء بمنشور عمالة . أو صك جماعة ، فيعود عامر ودهم خرابا ، وينقلب شراب عهدهم سرايا . فاعلت أمورهم حتى اسبلت ستورهم ، ولا غلت قدورهم الا خلت بدورهم . ولا اتسعت دورهم الا ضاقت صدورهم ، ولا أوقدت نارهم الا انطفأ نورهم ، ولا زاد مالهم الا نقص معروفهم ، ولا ورمت أكياسهم

« ١ » الفروق : جمع فرق ، وهو هنا وسط الرأس .

« ٢ » رسائل الهذلي ص ١٧٠ طبعة مطبعة هندية سنة ١٣١٥ هـ .

إلا ورمت أنوفهم ، ولا تبلجت عناقهم الا فطعت أخلاقهم ، ولا صلحت أحوالهم
الا فسدت أفعالهم ، ولا حسنت حالهم الا قبحت خلالهم ، ولا فاض جاههم الا
غاضت مياههم ، ولا لانت برودهم الا صلبت خدودهم ، ولا علت جدودهم الا
سفل جودهم ، ولا طالت أيديهم الا قصرت أيانهم »^١ .

وقال يخاطب مستميجاً عاوده مراراً :

« عافاك الله ، مثل الانسان في الاحسان ، مثل الأشجار في الإعمار .
سبيل من أتى بالحسنة أن يرفه الى السنة . وأنا كما ذكرت لا أملك عضوين من
جسدي ، وهما فؤادي ويدي . أما الفؤاد فيعلق بالوفود ، وأما اليد فتولع
بالجود ، ولكن هذا الخلق النفيس لا يساعده الكيس ، وهذا الطبع الكريم
ليس يحتمله الغريم . ولا قرابة بين الأدب والذهب فلم جمعت بينهما . والأدب
لا يمكن ثرده في قصعة ولا صرفة في ثمن سلعة . ولي مع الأدب نادرة : جهدت
في هذه الأيام بالطباخ أن يطبخ من جيمية الشماخ لونا فلم يفعل ، وبالقصاب
أن يسمع أدب الكتاب فلم يقبل . واحتيج في البيت الى شيء من الزيت ،
فأشدت شديداً من شعر الكميت ، ألفاً ومئتي بيت ، فلم يغن . ولو وقعت أرجوزة
العجاج في توابل السكياج ما عدتها عندي . ولكن ليست نفع ، فما أصنع ؟ !
فان كنت تحسب اختلافك إلي افضالا علي ، فراحتي أن لا تطرق ساحتي ،
وفرجي في أن لا تجي . والسلام »^٢

« ١ » رسائل الهمداني طبعة مطبعة هندية سنة ١٣٥٥ هـ ص ٩٣ - ٩١

« ٢ » المصدر نفسه ص ١٣٦

وقال في وصيته :

« أوصى اذا جاءه الحق وأشخصه الأمر وجدَّ به الجدَّ وتوفاه الموت ،
أن لا تعمد عليه مناحة ولا يلطم خدَّ ولا يحمش وجهه ولا يذشر شعر ولا يمزق
ثوب ولا يشق جيب ولا يهال نفع ولا يرفع صوت ولا يدعى ويل ولا يسود
باب ولا يخرق متاع ولا يقلع غرس ولا يهدم بناء ولا يطرُق الشيطان اليه طريقاً
ولا يمثل له أمراً . فمن فعل ذلك فليس من الله تعالى في حل ولا من الميت في
حل . وإنما يفعل ذلك من لا يرى الحياة عارية ولا يرى العارية مردودة ومن
علم أن الدنيا دار جهاز وأن الموت جسر جواز استشعره قبل حلوله ولم يرعه
وقت نزوله . وأن يكتمن في ثلاثة أبواب بيض قباطى لا سرف فيها . وخرج
على من يتولى أمره أن يترننه ثوب خيلاء مطرّزاً أو معلماً أو إبريسماً أو مفسرجاً
بذهب انه لمحتاج أن يستكين ويتشبه بالمساكين . فمن بدله بعد ما سمعه فأنما
إثمه على الذين يبسدون . ان الله سميع عليم . وأن يتولى الصلاة عليه أصحاب
الحديث وأهل السنة ، وأن يلحد ولا يبنى عليه . ولا تشهد النساء فيحملهن
على الصراخ والعيول . » « ١ »

وكلام الهمداني المختار في رسائله كثير ، أكتفي منه بهذا المنمدار رغبة

في الإيجاز .

أما مقاماته فأنها مجموعة حكايات كثرتها الكبرى في الكدية تتخللها نكت
وطرائف أدبية وفوائد لغوية معظمها مرذول وقليل منها مقبول . وقد قلت

لك عند الاشارة اليها بصدد اقامة المؤلف في نيسابور ان بطلها أبو الفتح الاسكندري وهو عندي أبو الفضل بديع الزمان الهمذاني نفسه . وأحسب أني اقت البرهان على هذا عندما تحدثت اليك عن ايام الضيق والضنك التي مرت به في نيسابور وقلت لك ايضاً ان راويتها عيسى بن هشام وهو رجل خيالي نحله المؤلف اسم أستاذه الذي روى عنه الأخبار . والآن إليك هذه المقامة الموسومة بالقزوينية والتي يخيل إلي أنها من اقل مقامات المؤلف خسةً وأولاهها بالقبول ان صح هذا التعبير . قال :

« حدثنا عيسى بن هشام قال : غزوت الثغر بقزوين ، سنة خمس وسبعين ، في من غزاه . فما أجزنا حرناً ، الا هبطنا بطناً . حتى وقف السير بنا على بعض قراها . فمالت الهاجرة بنا الى ظل اثلاث في حجرتها عين كلسان الشمعة ، أصفى من الدمعة ، أسيح في ارضراض سيح التضناض . فلبنا من الطعام ما نلنا ، ثم ملنا الى الظل فتملنا . فما ملكنا النوم حتى سمنا صوتاً أنكر من صوت الحمار ، ورجماً اضعف من رجح الحوار . يشنعها صوت طبل كأنه خارج من ماضي أسد ، فذاد عن القوم رائد النوم . وفتحت التوأمتين اليه ، وقد حالت الأشجار دونه ، واصغيت فاذا هو يقول على ائناح الطبول :

أدعو الى الله فهل من مجيب	الى ذرى رجب ومرعى خصب
وجنة عالية ما تبي	قطوفها دائية ما تفيب
يا قوم اني رجس تائب	من بلد الكبر وأمرى عجيب
إنك آمنت فكم ليل	جحدت ربي وأنت المريب

يارب خـزير تمشـته
ثم هداني الله واتـشني
فظلت أخني الدين في أسرتي
أسجد لآلات حذار العدي
وأسأل الله اذا جزني
ربي كما انك أنفـذتني
ثم اتخذت الليل لي مركباً
فقدك من سيرتي في ليلـة
حتى اذا جزت بلاد العدا
فملت اذلاح شعار الهدى
ومسكر أحرزت منه النصيب
من ذلة الكفر اجتهاد المصيب
وأبـد الله بقلب منيب
ولا أرى الكعبة خوف الرقيب
ليل وأضـان يوم عصيب
فنجـني ، إني فيهم غريب
وما سوى العزم أمامي جريب
يكاد رأس الطفل فيها يشيب
الى حمى الدين نفضت الوجيب
نصر من الله وفتح قريب

فلما بلغ هذا البيت قال : يا قوم وطئت داركم بمزم لا العشق ساقه ، ولا
الفر ساقه . وقد تركت وراء ظهري حدائق وأعشابا وكواعب اترابا ، وخيلاً
مسومة وقناظير متنطرة ، وعدة وعديدا ومراكب وعبيدا ، وخرجت خروج
الحية من جحره وبرزت بروز الطائر من وكـره ، مؤثراً ديني على دنياي ،
جامعاً يمتاي الى يسراي ، واصلاً سيرتي بسراي . فلو دفعت النار بشرارها ،
ورميتم الروم بحجارها واعتموني على غزوها مساعدة واسماداً ومرافدة وارفاناً ،
ولا شطط فكل على قدر قدرته وحسب ثروته ، ولا استكثر البذرة واقبل
الذرة ولا ارد التمرة ، ولكل منى سهران ، سهم اذلقه للاق ، وآخر افوقه بالدعاء
وارشق به ابواب السماء عن قوس الظامساء . قال عيسى بن هشام : فاستنزني

رائع ألفاظه . ونظوت جلياب النوم وعدوت الى القوم . فاذا والله شيخنا أبو
الفتح الاسكندري بسيف قد شهره وزى قد نكره . فلما رأني غمز إلي بعينه
وقال . رحم الله من أحسن عشرته وملك نفسه وأعاتنا بفاضل ذيله ، وقسم لنا
من نياله . ثم أخذ ما أخذ . وخلوت به فقلت أ أنت من أولاد بنات الروم ؟ فقال :

أنا حالي مع الزما ن كحالي مع النسب
نسي في يد الزما ن إذا سامه انقلب
أنا أمسي من النبيط وأضحى من العرب

سُمره :

أما شعر الهمذاني فإنه يشبه ثمره من حيث مقاصده وأغراضه ، أعني أنه
شخصي بحث يدور حول المديح والزنا والهجاء والعتاب وما الى ذلك . ولكنه
يقل عنه بعض الشيء من حيث لغته وأسلوبه . إليك منه هذه الأرجوزة
في المديح :

يا آل عصم أنتم أولو العِصم^١ لم تؤسموا إلا بئيران الكرم
طابت مبانكم وطبتم لا جرم يا سادة السيف وأرباب القلم
تهمي سجاياكم بعقيان ودم أنتم فصاح ما خلا في لا ولم
الجار والعرض لديكم في حرم والمسال للآمال نهب مقتسم
أنتم أسود المجد لا أسد الأجم يا سيداً نيط له بيت القدم
بالعمد الأطول والفرع الأشم هل لك أن تعقد في بحر الشيم

« ١ » العِصم : كعنب جمع عصمة وهي المنعة .

عارفة تضرم ناراً في علم
أما وإنعامك إنه قسم
إنك في الناس كبره في سقم
وبعد ما بين الموالي والخدم
ولا امرؤ كحاتم وإن حتم

ويقصر الشكر عليها؟ قل نعم
وتغر مجدٍ عن معاليك ابتسم
يا فرق ما بين الوجود والعدم
ما أحد كهاشم. وإن هشتم
ليس الحدوث في المعالي كالقدم

وهذه الأبيات في ذم الزمان :

قبحاً لهذا الزمان ما أربه
ماذا عليه من الكرام فما
ألم يجد في سواهم سعة
لا يعرف الضيف أين منزله
مالي أرى الحرّ ذاهباً دمه

في عمل لا يلوح لي سببه
تظهر إلا عليهم نوبه
من يسوى برأسه ذنبه
ولا يرى المجد أين منقلبه
ولا أرى النذل ذاهباً ذهبه

وهذين البيتين في الزمن أيضاً :

إنما الدهر عدوٌ ولمن أصغى نصيح
ولسان الدهر بالوعظ لواعيه فصيح

د - هانئ :

إذا لم يخطيء ظني فإن الهمداني أطول باعاً وأعلى كعباً من الخوارزمي في
صناعة الانشاء . ولكن الخوارزمي أنفذ بصراً وأثبت يداً منه في معالجة
القرىض .

أما مقامات الهمداني فإنها جنائية لا تغتفر على الأدب العربي ذلك انه خلق فيها

أدب الشحاذة خلقاً وأنشأه أنشأه . ولم يخل الأدب العربي من الشحاذة لسوء
الحظ على السن الشعراء المدأحين ولكنها ظهرت في هذه المرة بأبشع صورها
واقبيح أشكالها وأخس طرقها وأساليبها .

سامح الله الهمذاني ، فإنه أساء إلى الأدب بمقاماته أكثر مما أحسن
بشعره ورسائله .

الفصل الثالث

الحبري

أ - حياته : اسمه ونسبه وكنيته ولقبه . مولده . نشأته وتعليمه . ما شغل من مناصب الحكومة . أقوال الرواة في مقاماته . وفاته .

ب - صفاته : ما ساء منها وما حسن .

ج - آثاره : مجمل القول فيها . مقاماته . روايتها . خاصته . بطلها . مميزاته . تنازعها وتصايفها . تقليدها عيسى بن هشام وأبا الفتح الاسكندري . حظوة هذه المقامات الكبرى عند القدماء . أهليتها لهذه الخطوة . قيمتها بالقياس الى العصر الحديث . اشتغالها على معلومات أدبية وتاريخية واجتماعية مهمة .

فته وأسلوبه : مساوئها . ميله الى استعمال الغريب . استعماله ألفاظاً في غير ما وضعت له نحتة ألفاظاً على غير القياس . تنافر بعض كلامه وضعف تأليفه . فشله احياناً في استعمال المحسنات البيانية . محاسنه . فصاحته وجودة تأليفه على العموم . معرفته بموسيقى الجملة . خصائصها عنده . تأثيره بالسور الحكيمية من القرآن . ما يستحسن من مقاماته في هذا العصر . مثل منها . المقامة الحرامية .

د - خاتمة : الحبري والتاريخ .

١ - مبانء :

أما فارس حلبة المقامات الذي لا يشق له غبار فهو القاسم بن علي بن محمد ابن عثمان البصري الحرامي ، نسبة الى بنى حرام قوم من العرب . والمسكنى بأبي محمد ، ومحمد هذا كبير ولديه اللذين يشير اليهما ابن خلكان ، والملقب بالحريري نسبة الى بيع الحرير او صنعه .

ولد سنة ست واربعين وأربعمائة لهجرة في المشان (بفتح الميم) بليدة بقرب البصرة كثيرة النخل سيئة المناخ . ونشأ بالبصرة وفيها أخذ الأءب عن أبي القاسم الفضل بن محمد القصباني البصري . وكان صاحب الخبر "١" في ديوان الخلافة بالبصرة ، وقد احتفظ أولاده وأحفاده بهذا المنصب من بعده أجيالاً متعاقبة فيما يقول العماد في (الخريدة)

وتأريخ الرجل انما هو تأريخ مقاماته . إذ كل ما يتحدث به الرواة عنه أو جلته لا يعدوان يكون اجابة عن أحد هذه الاسئلة الثلاث ، لمن كتبت المقامات : ومن راويتها الحارث بن همّام : ومن بطلها أبو زيد السروجي : ... وقد فصل ابن خلكان في الاجابة عن السؤال الاول ، إذ قال لنا انه اطلع في القاهرة على نسخة من المقامات كتبت بخط المؤلف نفسه مكتوب على ظهرها بخط المؤلف أيضاً « انه صنفها للوزير جمال الدين عميد الدولة أبي علي الحسن بن أبي العز علي بن صدقة وزير المسترشد » "٢" ، وبهذا لم يبق محل

« ١ » هكذا في معجم الأءباء . ولم أجد تفسيراً شافياً لهذه الجملة . بيد أنه من المحتمل أن يكون « صاحب الخبر » مدير قلم الاستخبارات في زماننا أو من يشبهه .

« ٢ » وفيات الأءبيان ج ١ ص ٤٢٠

للنظر في هذه الروايات العديدة المتضاربة التي تتحدث عن صلة المقامات الموهومة بثرف الدين أنوشروان وزير المسترشد أو السلطان مسعود السلجوقي وفصل ابن خلكان كذلك في الإجابة عن السؤال الثاني فقال إن الحارث ابن همام هو الحريري نفسه . وأضاف إلى ذلك أن هذه التسمية مأخوذة من قول النبي (ع س) « كلّم حارث وكلّم همّام » أي كلّم كاسب وكلّم شديد الاهتمام بأمور معيشتة ، لأن الحارث هو الكاسب والهمّام هو الرجل الكثير الاهتمام بما يعنيه^١ .

أما أبو زيد السروجي فإن الرواة يختلفون في أمره . فمنهم من يزعم أنه شحاذ فضيخ دخل مسجد بني حرام في البصرة وزعم أن الروم أسروا ولدآله ، وسأل الناس فديته ، فسألوه عن كنيته ، فقال أنه يكنى أبا زيد ، وعن بلده ، فقال أنه سروج . ومنهم من يزعم أنه تلميذ من تلاميذ الحريري اسمه المطهر ابن سلام في رواية ابن خلكان ، وسلام « بالتشديد » في رواية ياقوت . وتذهب هذه الرواية إلى أبعد من هذا فتقول ؟ إن المطهر هذا شرب الخمر ذات يوم وبلغ أستاذه الحريري خبره فكتب إليه :

أبا زيد اعلم أن من شرب الطلا	تدأس ، فأفهم سرّ قولي المهذب
ومن قبل سميت المطهر ، والفقى	يصدق بالأفعال تسمية الأب
فلا تحسها كما تكون مطهراً	وإلا فغير ذلك الاسم واشرب

وتقول هذه الرواية إن الأبيات المذكورة فعلت فعلها في نفس المطهر . فحاش

الى استاذة حافياً وييده مصحف فأقسم به ان لا يعود الى شرب مسكر فقال له
الحريري : « ولا تحاضر من يشرب »^(١) .

وأحسب ان تناقض هاتين الروايتين المتعلقتين بأبي زيد السروجي يشعر
بأنهما مكذوبتان ، وأن أبا زيد رجل خيالي لا وجود له . ومما يقوي هذا الظن
سكوت الحريري عنه في مقدمة مقاماته سكوتاً تاماً .

وليس هذا كل ما لفق حول المقامات من الكذب . بل ان هناك أكذوبة
أخرى تناقلها الرواة على أنها حقيقة واقعة ، خلاصتها : ان الحريري كتب في
البصرة عشر مقامات ، وقيل أربعين مقامة ، وقدم بها بغداد . فلما عرضها على
أدبائها وذوى الفضل فيها شكوا في نسبتها اليه . فقالوا مرة انها من صنع رجل
مغربي من اهل النضل مات في البصرة واستولى الحريري على أوراقه . وقالوا
تارة : انه ، اى الحريري وجد هذه المقامات في حقيبة اشتراها من عصابة
أخذتها فيما أخذت من بعض المسافرين . وكان من نتائج هذا التشكك بدعوى
الحريري أن امتحن في صناعة الانشاء ففشل في الامتحان وان شاعراً يعرف
بابن جكيننا هجا الحريري بسبب فشله فقال :

شيخ لنا من ربيعة الفرس^(٢) يفتف عشونه من الهوس

أنطقه الله بالمشاف كما رماه وسط الديوان بالخرس

وأنت اذا رجعت الى خطبة المقامات رأيت ان الحريري يقول : إن مشبراً

« ١ » معجم الأدباء ج ١٦ ص ٢٧٢ طبعة مصر .

« ٢ » كان الحريري ينتسب الى ربيعة القبيلة المشهورة ، ويظهر ان هذا أمر مشكوك
فيه عند الرواة .

« إشارته حكم وطاعته غم » أشار عليه بإنشاء مقامات يتلو فيها تلو البديع ومعنى هذا ان المقامات اقترحت عليه اقتراحاً ، وانه لم يتقدم بصنع شيء منها من تلقاء نفسه ، وان الذي اقترحها عليه رجل نافذ الكلمة مسموع الاشارة ، وهذا الرجل هو بالطبع جمال الدين الذي تقدم ذكره . وواضح ان هذا يناقض الاكذوبة التي تقدمت خلاصتها مناقضة تامة .

وتوفي المترجم عام ٥١٦ للهجرة .

ب - صفاته :

يتحدث الرواة عن صفات المترجم فيقولون : انه بخيل قصير القامة دميم المنظر قدر الملبس رثاً الهيئة . وهم يحدثونا ان رجلاً سمع بفضله ولم يعرفه عن كئيب جلس الية ذات يوم ليأخذ عنه ، فلما رآه استصغره وازدرى هيئته ومنظره . وشعر الحريري بدبيب هذا الشعور في نفسه ، فلما استملاه أملى عليه هذين البيتين :

ما أنت أول سار غره قر ورائد أعجبه خضرة الدمن
فاختر لنفسك غيري إنني رجل مثل المعيدي ، فاسمع بي ولا ترني

فجبل الرجل وقام . وليس ما تقدم من عيوب الحريري كل ما ابتلاه الله به ، بل انه كان مبتلياً بنتف عشونته . وقد زعموا أن أحد ولادة البصرة نهاء عن هذا وتوعده عليه ، فامتنع عن إتيانه مدة من الزمن ، ولكنه فاه عنده ذات يوم بكلام بليغ أعجب به اعجاباً شديداً فسأله حاجة يقضيها له تقديرأ لذلك الكلام فما كان منه إلا ان سأله الاذن له بنتف لحيته ، فضحك

وأذن له .

ولكن أليس الى جانب هذه المساوي محاسن ترفع من قدر الرجل وتعلي منزلته ؟؟ بلى انه لذكي القلب متوقد الذهن واسع الخيال خصب القريحة كثير الحفظ غزير الاطلاع . وفي آثاره عامة ومقاماته خاصة ادلة لا تنقض على صحة جميع هذه الأقوال .

م - آثاره .

للحريري آثار عدة منها « درة الغواص في أوهام الخواص » وهو كتاب نبت فيه الى كثير من الأغلاط اللغوية التي يرتكبها حملة الأقلام من معاصريه . ومنها منظومة في النحو اسمها (ملحة الإعراب) ، ومنها ديوان شعر يحتوي على غير ما ورد في المقامات من شعره . وخير آثاره دون شك وأكبرها شأناً وأشيعها ذكراً مقاماته التي تناقلها الناس في مشارق العالم الاسلامي ومغاربه وتدارسوها جيلاً بعد جيل . وهي عبارة عن مجموعة أقاصيص تقصر غالباً وتطول أحياناً يرويها الحارث بن هشام عن أبي زيد السروجي ، كما يروي عيسى ابن هشام مقامات الهمداني عن أبي الفتح الاسكندري . فأما الحارث بن هشام فهو رحالة يجوب البلاد ويطوف الآفاق متجراً مرة ومتزهاً تارة . وأما أبو زيد السروجي فإنه شحاذ كثير الطمع شديد الجشع^١ ، إلا أنه فصيح اللسان قوى الجنان واسع الحيلة ، وهو يفتن في السكدية افتناناً ويستنبط منها ضروباً وألواناً فيسلك اليها مرة طريق الوعظ ويتذرع لها حيناً بنشر الفوائد

« ١ » تستني المقامتان التصيية والغراية من هذا الحسم .

وتقييد الشوارد في الأدب واللغة ، ويتوصل اليها حيناً عن طريق مخاصمته زوجته ويبيعه أحد اولاده وربما ندب زوجته للقيام بها نيابة عنه . ولعل أغرب ما توصل به أبو زيد الى المال حراسة القوافل من أذى اللصوص وشر قطاع الطرق ، ولكن بأية وسيلة ؟ ! . بانشاء الدعوات وتلاوة الصلوات .

والحارث ابن همام يعاتب أبا زيد على كثير من أقواله وأعماله ويؤنبه على اقتناص المال بالمكر والحيلة ولكنه ينتهي معه دائماً او غالباً الى صلح ، بل والى صداقة وإعجاب . وأبو زيد في عمله وأدبه وشجاعته ودنائه ولصوصيته صورة صادقة من أبي الفتح الاسكندري ، كذلك الحارث بن همام في كثرة أسفاره وطول تجواله وضعف ذاكرته وبلادة طبعه "١" صورة صادقة أيضاً من عيسى بن هشام . بيد ان أبا زيد يختم حياته بتوبة صادقة تغسل عاره وتخط عنه أوزاره بينما يستمر أبو الفتح الاسكندري في ارتكاب جرائمه وآثامه حتى الموت . وقد رزقت مقامات الحريري حظوة كبرى فتأقفاها الناس في حياة المؤلف وبعد مماته وتدارسوها بعناية واتقان .

قال جابر بن هبة الله : قرأت على الحريري مقاماته سنة أربع عشرة وخمسة فلما انتهيت الى قوله في المقامة الكوفية :

يا أهل ذا المغنى وقيم شرا
ولا لقيم ما بقيتم ضرا

١٢ « يستحق الحارث بن همام أن يوصف بضعف الذاكرة وبلادة الطبع لأنه لا يعرف أبا زيد عندما يلتقي به الا بعد جهد ومشقة على كثرة ما يلتقي به وعذره - ان كان له في هذا عذر - هو انه مضطر الى ان يعيد الى الأذهان أبا الفتح الاسكندري في كل ما له من محاسن ومساوي . »

قد دفع الليل الذي اكفها إلى ذراكم شعناً مغبراً

وضعت سهواً (سغباً معترًا) مكان (شعناً مغبراً). فصمت الحريري برهة
ثم قال والله لقد أجدت في التصحيف فإنه أجود. فرب شعث مغبر غير محتاج،
والسغب المعتر موضع الحاجة. ولولا أني قد كتبت خطي إلى هذا اليوم على
سبعائة نسخة قرأت عليّ لغيرت الشعث بالسغب والمغبر بالمعتر. «١»

وقيل لعلي بن الحسن الشيمي الحلي أحد كبار القرن السادس عشر للهجرة
وأدبائه، وكان كثير الإعجاب بنفسه شديد الاعتداد بفضله وأدبه: «لم لا
تجاري الحريري بمقامات نخل بها ذكره وتقضي على شهرته؟» فقال: «لقد
جربت هذا ثلاث مرات فنشلت، وما أظن أن الله خلقني إلا لظهار فضل
الحريري» «٢».

وليس هذا كل شيء، فقد غني العلماء بشرح هذه المقامات فشرحوها
شروحاً لا تحصى بعضها مطول، وبعضها مختصر أهمها شروح الشريشي والعكبري
والزيدي. وجارها فريق كبير من حملة الأقلام أشهرهم الزمخشري الذي
حلف بالله أنها حرية أن تكتب بالذهب «٣»، والشيخ ناصيف اليازجي وأبو
الثناء الألويسي.

«١» معجم الأدباء ج ١٦ ص ٢٦٦ طبعة مصر.

«٢» المصدر نفسه ص ٢٦٧.

«٣» فعل الزمخشري هذا في أبيات هذه هي:

أقسم بالله وآياته	ومشعر الحج وميقاته
أن الحريري حري بأن	نكتب بالتبسر مقاماته
معجزة تعجز كل الوري	ولو سروا في ضوء مشكاته

ولكن ، أكانت هذه المقامات أهلاً لهذه الخطوة ؟!

كان القدماء منذ القرن الخامس للهجرة ، وهو بداية انحطاط في تاريخ الأدب العربي ، يريدون من الكاتب أن يكون فصيح اللفظ متين التعبير ماهراً في استعمال المحسنات البيانية جيد الحفظ لمتن اللغة . وكانوا يفهمون الأدب على أنه وسيلة حسنة لترويح النفس وتزجية الفراغ لما فيه من نكت وحكايات ونوادر . وليس من شك في أن الحريري جهيد من جهاذة اللغة وإمام من أئمة الانشاء ، يعرف كيف يلعب بالألفاظ وكيف يحمل القارئ على الإعجاب بمهارته المائقة في الانشاء وعلمه الواسع باللغة . هذا الى أن بطله أبا زيد مثل في غرابة النادرة وبرعة النكتة . وإذن فلا عجب أن تكون مقاماته متعة القارئ ، وبغية الباحث وضالة المتأدب يقرأها الجميع فيجدون فيها ما يطلبون ويظنون منها بما يشتهون .

بقي ان نتأل ما قيمة هذه المقامات بالقياس إلينا نحن أبناء هذا القرن ؟

الواقع أنها تحتوي على معلومات أدبية واجتماعية وتاريخية كثيرة لا يستغني عن معرفتها مؤرخ الأدب العربي في القرنين الخامس والسادس للهجرة . فأنت تفهم من المقامة المغربية مثلاً كيف يتحلّق الشيوخ بعد فراغهم من الصلوات وكيف يتساجون وفي ماذا يتناجون . وتفهم من المقامة القطيعية^١ كيف يخرج ظرفاء بغداد في أيام الربيع الى أرباض مدينتهم . وكيف يستمتعون بلذات الشراب والسمع وكيف يتحدّثون ، وفي ماذا يتحدّثون اثناء ذلك .

« ١ » نسبة الى « قطيعة الربيع » بحلة معروفة في بغداد .

وتعلم من المقامة الواسطية كيف كانت تقام حفلات الزواج وكيف تلقى خطب النكاح في ذلك العصر ، بل تعلم منها أن (البنج) الذي يظن كثير من الناس أنه من مستحذات هذا العصر كان معروفاً باسمه ومسماه على عهد المؤلف . وتعلم من المقامة الدمشقية أن ولاة الأمور في أيام الحريري كانوا عاجزين عن تأمين السبل وحماية القوافل التي تقطع الصحراء بين دمشق وبغداد ، وأن هذه القوافل كانت تسير بحراسة زعماء القبائل نظير جعله تدفعه لهم . وتعلم من المقامة الصنعانية^١ أن الوعاظ في ذلك الزمان أو فريقاً منهم على الأقل يحتالون على الناس فيحثونهم على الزهد ويدعونهم الى التقشف والنسك ، ولكنهم يفعلون في خلواتهم كل ما ينكرون ، ويستبيحون كل ما يحرمون ، وهكذا .

وتحتوى كذلك . أى المقامات - على لطائف وطرائف وفوائد أدبية ولغوية كثيرة .

لغته وأسلوبه :

وتسألني رأيي في لغة الحريري وأسلوبه ، فأقول لك : إنها على جانب كبير من الجمال والروعة . وليس معنى هذا أنها مبرءان من كل عيب مزهان عن كل نقص كما كان يظن القدماء . كلا فأنت تجد في ثنايا مقاماته اللفظ الغريب الذي يعجبه السمع وينفر منه الطبع كما في قوله « يا يلا مع القاع ويرامع البقاع »^٢ . أى يا أشباه السراب وأمثال الحجارة البيضاء . وكما في قوله : « ثم انه جلس

١ « نسبة الى صنعاء وهو اشتقاق على غير قياس .

٢ « مقامات الحريري من ١٩٦ طبعة مصر سنة ١٩٢٥ .

مُحَقَّقُونَ قِيَامًا وَأَجْرٌ نَشَمُّ مَقْفَقِيمًا^١، أي جلس منحنيًا منضماً بعضه الى بعض -
وتجد فيها الانظ المشتعمل في غير ما وضع له كما في قوله : « فلما خشعت الأصوات
والتأم الانصات^٢ » فكلمة (التأم) وهي تعني (اجتمع) مستعملة هنا في
غير ما وضعت له ؛ ولو استعمل الحريري مكانها كلمة (تم) لصحَّت جملته وكانت
وافية بالغرض . وكما في قوله : « فعبجت إليه لأسبك سرَّ جوهره^٣ » ، فكلمة
(أسبك) مستعملة هنا في غير ما وضعت له ، وكان الصواب أن تحمل محلها كلمة
(لأتبين) أو (لأجتلي) وكما في قوله : « فسولت لي النفس المضأة والشهوة
المذلة المزلة أن نادمت الأبطال وعاطيت الأبطال^٤ » فكلمة (أبطال) مستعملة
هنا في غير ما وضعت له ، لأن النديم يوصف بالظرف ورقة الحديث وجمال العشرة
ولا يوصف بالبطولة . بل تجد فيها الانظ المنحوت على غير قياس كما في قوله :
« فعبجت إلى سرحة كثيفة الأغصان وريقة الأفنان لأغور تحتها الى المغيربان^٥ »
فكلمة (مغيربان) تصغير للمغرب على غير قياس ، هذا فضلاً عن أن (القبيلة)
وهي المقصودة بقوله (لأغور) لا تدوم الى المغرب عادة . وتجد فيها الكلام
المتنافر الضعيف التأليف كما في قوله : « أما بعد أن سحتم حتمي لأجل سحتمي^٦ »
يريد أما بعد أن غمطتم حتمي ورمتهم سحتمي . وتجد فيها الاستمارة غير الموفقة

« ١ » مقامات الحريري ص ٣٥٣ طبعة مصر سنة ١٩٢٥

« ٢ » المصدر نفسه ص ٢٠٣

« ٣ » المصدر نفسه ص ٣٨٤

« ٤ » المصدر نفسه ص ٥٦٣

« ٥ » المصدر نفسه ص ٢٧٣

« ٦ » المصدر نفسه ص ٢١٨

كما في قوله : « وهم يتعاطون كأس المنافة »^١ ولو وضع (محادثة) موضع (منافة) لحسنت الاستعارة واستقامت الجملة . وهناك مواطن ضعف أخرى كثيرة في هذه المقامات وليس من الضروري احصاؤها جميعاً .

ولكنك تستطيع ان تقرر رغم كل ذلك أن الحريري على العموم ، بل في الكثرة الكبرى من مقاماته منشىء فصيح اللفظ شديد الأسر حسن التأليف بديع الجرس يجيد اختيار الألفاظ وتأليفها وهندسة الجمل وتقطيعها . بل لعلي أستطيع أن أزعم أنه من أعرف كتاب العرب القدماء بالجملة الموسيقية ، وهي عنده قصيرة محكمة السبك لا يتجاوز عدد كلماتها الخمس ، شديدة الشبه بما قبلها وما بعدها . ويخيل إلي أن الحريري من هذه الناحية عظيم التأثير بالسور المنكية من القرآن حيث يغلب السجع ويراعى الازدواج مراعاةً كاملة ، وحيث تتألف الآية الواحدة من أصغر عدد ممكن من الكلمات ، كما في قوله تعالى : (بسم) « والضحى ، والليل إذا سجدى ، ما ودعك ربك وما قلى » وكما في قوله (بسم) « الرحمن ، علم القرآن ، خلق الانسان ، علّمه البيان » .

ولقد كانت هذه المقامات كلها خلال تسعة قرون تقريباً المثل الأعلى في بداعة الأداء وبراعة الانشاء وفي ظرافة المبنى ورشاقة المعنى . أما اليوم فقد فقدت أكثرها هذه المنزلة ، ولم يعد لها سوى قيمة تاريخية صرف . بيد أنه من الحق ان نلاحظ أنه لا يزال بينها عدد يسير تليذ قراءته وتفيد دراسته . من هذا القبيل المقامات الفرائية والنصيبيية والبكرية والبصرية والحرامية . وأروي

تلك فيما يلي هذه الأخيرة على سبيل المثال ، لأنها في ظني خير ما تحسن روايته
من هذه المقامات قال الحريري .

« روى الحرث بن همام عن أبي زيد السروجي قال : ما زلت منذ رحلت
عذسي ، وارتحلت عن عرسي وغرسي ، أحن الى عيان البصرة ، حنين المظلوم
الى النصره ، لما اجتمع عليه أرباب الدراية ، وأصحاب الرواية ، من خصائص
معالمها وعاماتها ، وما أثر مشاهدتها وشهادتها ، وأسأل الله أن يوطئني ثراها ،
لأفوز بمراسمها ، وأن يمطيني قراها^١ . لا أفترى قراها^٢ ، فلما أحلنيها الحظ ،
وسرح لي فيها اللحظ .

رأيت بها ما يملأ العين قرّةً ويسلي عن الأوطان كل غريب

فغلاست^٣ في بعض الأيام ، حين نصل خضاب الظلام وهتف أبو
المنذر^٤ بالنوآم ، لأخطو في خططها ، وأقضي الوطر من توسطها ، فأداني
الاختراق في مسالكها ، والانصلات في سككها ، الى محلة موسومة بالاحترام
منسوبة الى بني حرام ، ذات مساجد مشهودة ، وحياض موزودة ، ومبارك
وثيقة ، ومغان أنيقة ، وخصائص أثيرة ، ومزايا كثيرة .

بها ما شئت من دين ودنيا وجيران تنافوا في المعاني

« ١ » قراها : ظهرها .

« ٢ » أفترى « هنا » : اتبع . وقرى : جمع قرية .

« ٣ » غلس : خرج في الغلس وهو آخر ظلمة الليل .

« ٤ » أبو المنذر : كنية الديك .

فشفوف بآيات المشاني ومفتون برنات المثاني^١
ومضطلع بتلخيص المعاني ومطلّع إلى تخليص عاب
وكم من قاريء فيها وقار وأضراً بالجفون وبالجمان^٢
وكم من معلمٍ للعلم فيها ونادٍ للندى حلو المجاني
ومغنى لا تزال تُقن فيه أغاريد الغواني والأغاني^٣
فصل إن شئت فيها من يصلي وإما شئت فادن من الذنان
ودونك صحبة الأكياس فيها أو الكاسات منطلق العنان

قال فبينما أنا أنفض^٤ طرقها ، واستشف روتقها ، إذ لمحت عند دلوک
براح^٥ ، وإظلال الرواح^٦ ، مسجداً مشتهراً بطرائفه ، مزدهراً بطوائفه ،
وقد أجري أهله ذكر حروف البذل ، وجروا في حلبة الجدل ، فمجت نحوهم ،
لاستمطر نوهم ، لا لأقتبس نحوهم ، فلم يك إلا كتمبسة العجلان^٧ ، حتى
ارتفعت الأصوات بالأذان ، ثم رَف التآذين بروز الإمام ، فأغمدت ظبي

« ١ » المقصود « بمثاني » الأولى : سورة الفاتحة أو مادون المثني آية من القرآن
و « بمثاني » الثانية ما قتل من أوتار العود على قوتين وفي القاموس المثاني : من أوتار
العود الذي بعد الاول .

« ٢ » قار : مضيف .

« ٣ » قن : أي تسمع من الغنة وهي الصوت من الخيشوم .

« ٤ » انفض طرقها : أتبعها .

« ٥ » دلوک الشمس : دنوها الى الغروب وبراح : كحذاء علم على الشمس .

« ٦ » اظلال الرواح : مجيء العشي .

« ٧ » تبسة العجلان : مثل في السرعة .

السكلام ، وحلت الحُبِّي « ١ » للقيام ، وشغلنا بالفتوت ، عن استمداد الفتوت ،
وبالسجود ، عن استئزال الجود ، ولما قضي الفرض ، وكاد الجمع ينمض ، انبرى
من الجماعة ، كهل حلو البراعة ، له مع السميت الحسن ، ذلاقة اللسان ، وفصاحة
الحسن « ٢ » ، وقال يا جبرتي ، الذين اصطفتيهم على أغصان شجرتي ، وجعلت
خطتهم دار هجرتي ، واتخذتهم كرشبي وعيبيتي « ٣ » وأعددتهم لمحضري وغيبيتي
أما تعلمون أن لبوس الصدق أبهى الملابس الآخرة ، وأن فضوح الدنيا أهون
من فضوح الآخرة ، وأن الدين إحماض النصيحة ، والإرشاد عنوان العقيدة
الصحيحة ، وأن المستشار مؤتمن ، والمسترشد بالنتصح قن ، وأن أخاك هو الذي
عذلك ، لا الذي عذرك ، وصديقك من صدقك ، لا من صدقك ، فتمال له
الحاضرون أيها الخلل الودود ، والخذن المودود ، ما سرّ كلامك الملمغز ، وما شرح
خطابك الموجز ، وما الذي تبغية منا لينجز ، فوالذي حباننا بمحبتك ، وجعلنا
من صفوة أحببتك ، ما نألوك نصحاً ، ولا ندخر عنك نضحا « ٤ » ، فقال جزيتم
خيرا ، ووقيتم ضيرا ، فانكم ممن لا يشقى بهم جليس ، ولا يصدر عنهم تلبيس ،
ولا يخيب فيهم مظنون ، ولا يطوى دونهم مكنون ، وسأبشكم ما حاك « ٥ » في
صدري ، وأستفتيكم فيما عيل فيه صبري ، إعلموا أي كنت عند صلود

« ١ » الحبي : جمع حبوة وهي جمع الرجل بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها .

« ٢ » المراد بالحسن هنا : الحسن البصري .

« ٣ » كرشبي وعيبيتي : أي أهلي وعمل سري .

« ٤ » نضحاً : أي عطاء .

« ٥ » حاك في صدره : أتر وثبت فيه .

الزند^١ وصدود الجذ . أخلصت مع الله نية العقد ، وأعطيته صفقة العهد ،
 على أن لا أسبأ^٢ مداما ، ولا أعقر نداي ، ولا أحسي قهوة ولا أكتسي
 نشوة^٣ ، فسوّلت لي النفس المضلة ، والشهوة المذمومة المزلّة ، أن نامت
 الأبطال^٤ ، وعاطيت الأبطال^٥ ، وأضعت الوقر ، وأرتضعت العقار ،
 وامتنطيت مطا الكميّ^٦ ، وتناست التوبة تناسي الميت ، ثم لم أفنع بهاتيكم
 المرّة ، في طاعة أبي مرّة ، حتى عكمت على الخندريس ، في يوم الخميس وبت
 صريع الصبها ، في الليلة الغراء^٧ ، وها أنا بادي السكّابة ، لرفض الإنابة ،
 نامي الندامة . لوصل المدامة ، شديد الاشفاق . من نقض الميثاق ، معترف
 الاسراف . في عب^٨ السلاف .

فيا قوم هل كثارة تعرفونها تباعد من ذنبي وتدني إلى ربي
 قال أبو زيد : فاما حلّ الأنشودة فثقه^٩ . وقضى الوطر من اشتكاه بثه .

« ١ » صلود الزند : عدم خروج النار منه مع القدح ، ويستعمل كناية عن الفقر .

« ٢ » أسبأ مداماً : أشترى خمرأ ، ومنه سميت المدام سيئة .

« ٣ » يقول شراح المقامات في تفسير هذه الجملة : لا أكتسي نشوة ، اي لا اتلبس
 بسكر . وعندني ان هذا تعسف في التفسير والتأويل ، والصواب ان كلمة اكتسي مستعملة
 هنا في غير ما وضعت له .

« ٤ » سبق أن نهبت الى ان كلمة « ابطال » مستعملة هنا استعمالا غير صحيح .

« ٥ » الأبطال هنا : الأقداح .

« ٦ » المطا : الظم ، والسكيّ : من اسماء الخمر .

« ٧ » الليلة الغراء : أي الليلة البيضاء وهي ليلة الجمعة وقد سميت بذلك لما لها من الفضل .

« ٨ » العب : الشرب بلا تنفس او بغير مص .

« ٩ » الأنشودة : العقدة غير المحسكة .

ناجتني نفسي : يا أبا زيد . هذه نهزة صيد . فشمّر عن يدي وأيد (١) . فانهضت
من مجثمي انهاض الشهم (٢) . وانخرطت من الصف انخرط السهم . وقلت :

أياها الأروع الذي	فاق مجدداً وسوددا
والذي يبتغي الرشا	د لينجو به غدا
إن عندي علاج ما	بت منه مسهدا
فاستمعها عجيبه	غادرتني ملددا (٣)
أنا من ساكني سرو	ج ذوي الدين والهدى
كنت ذا ثروة بها	ومطاعاً مسوداً
مرابهي مألّف الضيو	ف ومالي لهم سدى
أشترى الحمد باللهي	وأقي العرض بالجددا
لا أبالي بمتغس	طاح في البذل والندى
أوقد النار باليفنا	ع اذا التمس أخذنا
ويراني المؤمنو	ن ملاذاً ومقصدا
لم يشم بارقي صد	فانثني يشتكي الصدا
لا ولا رام قابس	قدح زندي فأصلدا
طلما ساعد الزما	ن فأصبحت مسعدا
ففضى الله أن	يغير ما كان عودا

« ١ » الأيد : القوة

« ٢ » الشهم : الذكي الحديد الفؤاد

« ٣ » ملدداً : مستعملاً ليدي وهما صفحتا العنق ، اي متلفتاً يميناً وشمالاً من الخوف

بوءاً الروم أرضنا بعد ضغنٍ تولدنا
فاستباحوا حريم من صادفوه موحدنا
وحووا كل ما استسر بها لي وما بدا
فتطوحت في البلا د طريداً مشرداً
أجتدي الناس بعدما كنت من قبل مجتدي
وترى بي خصاصة أتمنى لها الردي
والبلاء الذي به شمل أنسى تبدداً
استبأ ابنتي التي أسروها لتفتدي
فاستبين محنتي ومدَّ إلى نصرتي يدا
وأجرني من الزما ن فقد جار واعتدي
وأعني على فكا لك ابنتي من يد العدا
فبذا تنمحي المآ ثم عمَّن تمرذا
وبه تقبل الإنا به ممن ترهددا
وهو كفارة لمن زاغ من بعد ما اهتدي
ولئن قت منشداً فلقد فهت مرشدا
فقبل النصح والهدا ية واشكر لمن هدى
واسمح الآن بالذي يتسنى لتحمدا

قال أبو زيد فلما أتممت هذرمتي (١) ، واوهم المسؤول صدق كلمتي ، أغواه

القرم^١ الى الكرم بمواساتي ، ورغبه الكلف بحمل الكلف في مقاساتي ، فرضخ
لي على الحائرة^٢ ، ونضخ^٣ لي بالعدة الوافرة ، فانقلبت الى وكري فرحاً
بنجح مكري ، وقد حصلت من صوغ المكيدة ، على صوغ الثريدة ، ووصلت
من حوك القصيدة ، إلى لوك العصيدة قال الحرث بن همام فقلت له سبجان من
أبدعك ، فما أعظم خدعك ، وأجبت بدعك ، فاستغرب^٤ في الضحك ثم
أنشد درن مرتبك :

عش بالخداع فأنت في دهر بنوه كأسد يديشه^٥
وأدر قناة المكر حتى تستدير رحي المعيشة
وصيد النور فان تعذر صيدها فافتع بريشه
واجن الثمار فان تمتك فرض نمسك بالحشيشه
وأرح فؤادك إن نسا دهر من العكر المطيشه
فتغاير الأحداث يؤذن باستحالة كل عيشه

ر - فاعز :

ليس هناك شك في أن نجم الحريري قد أفل الآن ، وأن أحداً لا يسترشد
به اليوم في سبل البيان ومذاهب الانشاء . ولكن من العدل أن لا ننسى أن
نجمه بقي ساطعاً في سماء الأدب العربي نحواً من تسعة قرون .

-
- « ١ » القرم : شهوة اللحم ، والمراد به هنا حب الجود وأحساب أنه اسراف في التجوز .
« ٢ » رضخ لي : أعطاني عطاء قليلاً . على الحفرة : أي في أول الأمر .
« ٣ » نضخ : فاض ، يقول : ووعدي بالعطاء الجم .
« ٤ » استغرب في الضحك : أفرط ونجاوز الحد فيه .
« ٥ » يديشه : مأسدة قيل أنها في اليمن .

الباب الثالث

في شعر الأقرن الثاني للهجرة

تمهيد في الشعر العباسي وتأثره بالشعر الجاهلي

قلت لك في مسهل هذا الكتاب إن الكتاب العباسيين من حيث مذاهبهم في الكتابة وأساليبهم في الأداء عيال على القرآن عنه أخذوا وبه تخرجوا وأقول لك الآن إن الشعراء العباسيين من حيث مذاهبهم في النظم وبالأضافة إلى كثير من مقاصدهم وأغراضهم عيال على الشعر الجاهلي به يتأثرون وعلى منواله ينسجون. وإثبات هذا أمر غير عسير فأنت تستطيع أن ترجم إلى ديوان أي شاعر عباسي لتبين أنه ينمولى القصيدة على روي واحد وفي عروض واحد ويتطرق فيها إلى المواضيع المخزنة التي لا صلة بينها مطلقاً فمن نسيب إلى نحر إلى مديح إلى غير ذلك مما هو معروف وهو يفعل هذا كله متأثراً بطريقة امرئ القيس وغيره من الشعراء الجاهليين في تأليف القصيدة وحشر المقاصد والأغراض في طياتها حشراً. وليس هذا كل شيء بل إنه كثيراً ما ينتحل أخيلة أولئك الشعراء وخواطرهم في بكاء الأطلال ورناء الديار ووصف حل الأجناب وترحلهم وظلمهم وإقامتهم وفي تصوير كرم المدوح وشممه وشجاعته وبراعته وصراخه وفصاحته. ومع ذلك حذار أن تذهب إلى أن الشعراء العباسيين لم يتأثروا بالثقافة العباسية ولم يصنعوا شيئاً من أحوال الدولة التي نشأوا في كنفها وعاشوا في ظلها وتأثروا بارتقائها وانحطاطها وضعفها

وقوتها إذ الواقع أنهم كانوا على الضد من ذلك فقد تأثروا بعلوم عصرهم ومعارفه ووصفوا حروبه وسياسته وصوروا حضارته وعمرانه ولكنهم فعلوا هذا كله في حدود التقاليد الأدبية الموروثة وطبقاً للأساليب العامة المتبعة فاحترموا وحدة العروض والروى احتراماً لا داعي له وجمعوا بين المواضيع المختلفة في القصيدة الواحدة ووقفوا على الأطلال الدارسة والآثار الطامسة في ربوع لم يعرفوها إلا بالسمع وقمات لا مبرر لها ألبتة وبذلك جمعوا بين القديم والحديث والابتكار والتقليد جمعاً لا يجيزه تفكير سديد ولا ذوق سليم فتطور أدبهم على مر الأيام ولم يتعرض إلى انقلاب مع أنه كان شديد الحاجة إلى انقلاب جارف محكم الخطط ثابت الأسس واضح الغايات .

وقد وصف بشار بن برد وأبو نواس بأنهما مجددان للقريض العربي . يتفق على ذلك الرواة والنقاد القدماء ، يأخذ به كثير من النقاد المعاصرين وأحاول فيما يلي أن أدرس حياة هذين الشاعرين وأن أتبين مخلصاً مقدار ما أدخل من الإصلاح على القريض العربي وأبدأ ببشار لأنه أقدم الرجلين .

الفصل الاول

بشار بهر برد

١ - حياته :

نسبه . ولاؤه ، عتقه ، مولده ، بركته . كنيته ولقبه ، لماذا لقب بالمرعش . نشأته ، نبوغه . ذبوع شهرته ، خشية الناس إياه . حبه لعبدة ، حبه غيرها من النساء . ثقافته ومعتقده ، سادس ستة ، شعوبيته صلته بيني أمية . صلته بيني العباس : غضب المهدي عليه ، سببه ، هجاؤه المهدي . وفاته . تناقض أقوال الرواة فيها ، فرح الناس بموته ، حكايان لها مغزى .

٢ - صفاته :

تصوير الأصمعي إياه ، مجونه ، ظرفه ، سرعة جوابه ، قدرته على ارتجال الشعر ، خوفه من الهجاء ، كرمه ، بره بأهله ، وفاؤه لأصدقائه .

٣ - شعره : كثرته .

غزله : خلوه من العواطف الصادقة ، أصالته مظاهرها ، مثل منه . مديحه : اعتداله . مثل منه ، هجاؤه بذاءته وصرامته ، مخافة الناس إياه ، جزع الأخفش منه . ميميته في هجاء المنصور ، تقدها ، لماذا أوترها بالنقد . رثاؤه : ثقافته . نغره : غرابته ، مثل منه . حكمه : المبتكر منها والمقتبس ، مثل من كل منهما ، مكان الصديق في هذه الحكم ، تغيره .

٤ - خاتمة :

مقارنة بين بشار والحطيئة وجريير ، فيم يفضلانه وفيم يفضلهما . هل كان مجدداً ؟ نفي هذا الزعم .

أ - هياتر :

كان عبد الله بن المقفع رأس مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية من الكتاب أما رأس مخضرمي الدولتين من الشعراء غير مدافع فهو بشار بن برد . وللرجل نسب طويل يختلف فيه الرواة لا أحدثك عنه بشيء لا في أعتمده أنه من وحي خيال الشاعر — فقد كان على ضعة مولده وخمول نسبه — يود أن يوهم الناس وبوهم نفسه أيضاً أنه سليل أسرة لها في فارس ما لآل ساسان من علو المنزلة وسمو الكلمة وضخامة الملك والسلطان :

وربذي تاج كريم الجدى كآل كسرى وكآل برد

كما كان على قبح صورته وبشاعة منظره يود أن يوهم الناس وبوهم نفسه أيضاً أنه جميل الصورة رشيق القوام لطيف الهندام يفتن ألباب النساء ويأسر قلوبهن بماله من صباحة الوجه وملاحة الفدى ، وبلغ من اطمئنانه الى هذه الدعاوى الموهومة أن جهر بها أمام الخليفة المهدي فقد حدثت راويته يحيى بن الجوف العبدي أن المهدي قال له فيمن تعتد يا بشار فأجابته أما اللسان والزى فمريان وأما الأصل فعجمي كما قلت في شعري يا أمير المؤمنين :

ونبت قوم بهم جنسة	يقولون من ذا وكنت العلم
ألا أيها السائل جاهداً	ليعرفني أنا أنف الكرم
نت في الكرام بنى عامر	فروعي وأصلي قريش المعجم
فاني لأغني متمام الفتى	وأصبي الفتاة فما تعصم

وكان أبو دلامة الشاعر الظريف حاضراً فقال له : « كلالوجحك أقبح من

ذلك ووجهي مع وجهك^١ وأحسب أن هذا رد فعل نفسي شديد يساعد على نمو الخيال الشعري مساعدة كبرى يقع فيه من يبلغ حداً بعيداً من خلة من الخلال المذمومة من الشعراء فإذا كان جباناً مسرفاً في الجبن ظن أنه شجاع وإذا كان بخيلاً مسرفاً في البخل ظن أنه كريم وإذا كان قبيحاً مسرفاً في القبح ظن أنه جميل ومن أمثلة ذلك أن حسان بن ثابت شاعر الرسول (ص) كان جباناً مسرفاً في الجبن ولكنه كان يخضب عنقه^٢ « ليكون كأنه أسد والغ في الدم » ومع أنه لم ينف بين يدي النبي موقفاً حريماً واحداً لم يحجم عن الشاهد بين يديه :

وقد غدوت أمام القوم منتطقاً بأبيض مثل لون الملح قطاع

فلم يتالك (ص) عن الابتسام . وقل مثل ذلك عن الفرزدق فإنه كان جباناً ولكنه كان كثير التحدث عن شجاعته يلقى الأسود والذئاب فتراجع أمامه ويلقى بعضها حتمه على بده . وكان كثير عزة آخر من تحترمه امرأة وتمجبه به لشدة حمته وقصر قامته وقبح صورته ولكنه كان يوهن نفسه أنه أثير عند النساء كبير في أعينهن يقمن له اجلالاً إذا حضر ويتحاشين الكلام والضحك بحضرة :

وكنت إذا ماجئت أجلن مجلسي وأظهرن مني هية لآجها

يحاذرن مني غيرة قد عرفها قديماً فما يضحكن إلا تبسما

وأعود الى بشار فأقول ان أباه برداً فارسي من طخارستان قيل

« ١ » الأغانى ج ٣ ص ٢٩ طبعة مطبعة التقدم بمصر .

« ٢ » العنقة : شعيرات بين الشفة السفلى والذقن .

إنه كان مملوكاً لخيرة القشيرية زوجة المهلب بن أبي صفرة وكان يعمل في ضيعة لها في البصرة اسمها « خيرفان » مع عبيد لها وإماء فوهبته خيرة بعد أن زوجته لصديقة لها من بني عقيل وولدت له امرأته وهو في ملكها بشاراً فأعتقته العميلية^١ وقيل انه — أعني برداً — كان مولى أم الظباء العميلية السدوسية وقد ادعى بشار لهذا أنه مولى بني عقيل^٢ « وفي رواية أن رجلاً من أولاد بشار اسمه حمدان كان قصاراً أكد ولاء جده لبني عقيل » وتروى في ولاء بشار أخبار أخرى منها أن بشاراً وأمها كانا لرجل من الأزدي فزوج امرأة من بني عقيل فأصدقها فيما أصدقها بشاراً وأمها وكان بشار ولدأ مكنوفاً فأعتقته العميلية^٣ ومنها أن أم بشار باعته من أم الظباء السدوسية زوجة أوس بن ثعلبة بدينارين فأعتقته أم الظباء سخاءاً وكرماً^٤ وأنت تستطيع أن تشك في هذه الأخبار كلها أو أكثرها وأن ترفضها كلها أو أكثرها إذا شئت ولكن شيئاً واحداً لا تستطيع أن ترفضه ولا تستطيع أن تشك فيه وهو أن بشاراً من أصل فارسي وأنه نشأ في أحضان الرق والولاء عند العرب وأن أسياده من هؤلاء أنعموا عليه بالعتق فصار حراً بعد أن كان عبداً .

ويتحدث الرواة بأن بشاراً كان شديد الاعتزاز بهذا الولاء مدة من الزمن وفي شعره ما يدل على هذا دلالة صادقة ولسكنه أثر الركون إلى الشعوبية متأثراً

« ١ » الأغانى ج ٣ ص ٢ طبعة مطبعة التقدم بمصر .

« ٢ » المصدر نفسه ج ٣ ص ٢٠

« ٣ » المصدر نفسه ج ٣ ص ٢٠

« ٤ » المصدر نفسه ج ٣ ص ٢١

بما يجري حوله من مناقشات ومناقشات بين العرب والموالي في البصرة وسأعود إلى الكلام على شعوبيته في مكان آخر من هذا الفصل .

لم يعين الرواة مولد بشار ولكنهم تحدثوا عن تاريخ وفاته ومقدار عمره واختلفوا فيها فقالوا مرة ان وفاته كانت سنة ١٦٧ هـ^١ وقالوا تارة إنها كانت سنة ١٦٨ هـ^٢ . وقالوا في مقدار عمره حيناً انه ناهز الستين^٣ وطوراً انه يزيد على السبعين^٤ وأوثة انه يزيد على التسعين^٥ وأحسب أنه لم يجاوز السبعين أو أنه لم يبلغها فإنه يقول في قصيدة مدح بها المهدي مشيراً الى اقلعه عن التشبيب بالنساء عملاً بنصيحة الخليفة العباسي :

وأخرجني من وزر خمسين حجة فتي هاشمي يقشعر من الوزر

فاذا فرضنا أن هذه الخمسين حجة تبتدىء ببلوغه الحلم فإنه يكون وقت نظمه هذه القصيدة في نحو الخامسة والستين من عمره وقد قبل بعدها بمدة قصيرة قد لا تتجاوز السنة وعلى هذا لا يكون قد بلغ السبعين عندما وافاه أجله .

وولد بشار في البصرة أو في أحد أرباضها مكينوف البصر فلم ير من

« ١ » وفيات الأعيان ج ١ ص ٨٩ طبعة المطبعة الميمنية بمصر ١٣١٠

« ٢ » الأغاني ج ٣ ص ٧٠ طبعة المطبعة التقدم بمصر

« ٣ » الأغاني ج ٣ ص ٦٩

« ٤ » الأغاني ج ٣ ص ٧٠

« ٥ » وفيات الأعيان ج ١ ص ٨٩

الدينيا شيئاً . ومع هذه النكبة التي صبت على رأسه في بدء حياته كانت ولادته مبعث خير وبركة لأسرته فيما يظن والده الذي كان في ذلك التاريخ طياً ناكاً وكان دخله من هذا العمل قليلاً لا يكفيه فلما ولد له بشار برك الله في رزقه فلم يحل عليه الحول حتى جمع مائتي درهم فكان يذكر هذا وينوه به عندما يتحدث عن ابنه الميمون^١ .

وكان بشار يكنى بأبي معاذ وأكبر الظن أنه كني بهذا عند ما كبر ونبه شأنه . ويلقب بالمرعث ويقال انه لقب بهذا لقوله :

قال ريم مرعث	ساحر الطرف والنظر
لست والله نائلي	قلت أو يغلب القدر
أنت ان رمت وصلنا	فانج هل تدرك القمر ^٢

وقيل بل انه لقب بهذا لأنه كان يلبس قميصاً له جيبان جيب عن يمينه وجيب عن شماله فإذا أراد لبسه ضمه عليه من غير أن يدخل رأسه فيه وإذا أراد نزعها حل ازرارها وخرج منه فشبّهت تلك الجيوب بالرعاث لاسترسالها وتدليها ولقب من أجلها بالمرعث^٣ وهناك رواية تقول انه لقب بالمرعث لأنه كان يلبس في صغره رعائماً في أذنيه والرعاث جمع رعثة وهي القرطة وربما كانت هذه الرواية أقرب الروايات الثلاث الى الصحة وأولها بالقبول .

ونشأ صاحبنا نشأة متواضعة يغلب عليها الحمول والفقر ومن المحقق

« ١ » الأغانى ج ٣ ص ٥٦

« ٢ » الأغانى ج ٣ ص ٢٢

« ٣ » الأغانى ج ٣ ص ٢٢

أنه لم يرسل الى السكتاب ولم يعن بتربيته وتعليمه أحد^١ ولكنه عوض عن كل ما لحق به من فقد بصر وبشاعة صورة وضعة مولد ورقة حال بخيال خصب واحساس قوي وشعور فياض ولسان ذرب كما عوض الخطيئة عن كل ما لحق به من فقر وضعة نسب ودمامة منظر بأدبه وشاعريته قبل ١٥٠ سنة تقريباً . وقال بشار الشعر ولما يبلغ العاشرة وقد فسر وهو في تلك السن المبكرة فرأى أنه لن يحرز مالا ولن يصيب جاهاً الا اذا خافه الناس ولن يخافه الناس الا اذا سلط عليهم قوارص الهجاء . فخرى على سنة سلته الخطيئة وجرّد عليهم سيف لسانه البتار وأسمعهم في تنوهم وفي أحسابهم وأنسابهم ما يكرهون وفزع هؤلاء الى أبيه يشكونه اليه وأصغى الأب الساذج لشكواهم فأخذ يضرب ولده ضرباً مبرحاً وشق هذا على أم الغلام فقالت ذات يوم لأبيه : « كم تضرب هذا الصبي الضرب أما ترجمه » فقال لها : « بلى والله إني لأرجمه ولكنه يتعرض للناس فيشكونه إلي » وسمعه الصبي « نطمع فيه وقال له يا أبت ان هذا الذي يشكونه مني اليك هو قول الشعر واني ان ألمت عليه أغنيتك وسائر أهلي فان شكوتني اليك فقل لهم أليس الله يقول : « ليس على الأعمى حرج » .

وعاود بشار هجاء الناس فعاود هؤلاء شكواهم الى أبيه فقال لهم هذا ما قاله له بشار « فالنصفوا وهم يقولون فقه برد أغيظ لنا من شعر بشار »

« ١ » في خبر يذكره أبو الفرج : أن بشاراً يعزو أدبه وفصاحته الى نشأته في حجور ثمانين شيخاً من فصحاء بني عقيل ما فيهم احد يعرف كلمة من الخطأ ولو كانت مثل هذه النشأة بكفى خلق الأذباء الفصحاء من امثاله لخلق من اخويه بشر وبشير القصاين أذيين فصحين والواقع ان بشاراً كغيره من الشعراء النوابغ مدين بأدبه لقطرته قبل كل شيء على ان للبيئة اثرها . ولكنه يأتي دون شك بعد اثر الفطرة .

ولم يطل الوقت حتى ذاع صيت الشاعر الضرير وطارت شهرته في الآفاق فخشي الناس معرفة لسانه وتحاموا بهجاءه وافندوا أحسابهم وأعراضهم منه بأموالهم ويقول الرواة إن عمر بن هبيرة أول من منحه جائزة سنوية على مديحه أجازه على بائيته التي يمدحه فيها والتي منها قوله :

إذا الملك الجبار صعّر خده مشينا إليه بالسيوف نعابته

بعمرة آلاف درهم ومنذ ذلك الحين علا قدره — فيما يقول صاحب الأغاني — وارتفع ذكره . وكان إذا تأخرت عليه جوائز ممدوحية هددهم بالهجاء أو لندعهم به دون سابق انذار فيبادرون الى استرضائه ومضاعفة صلته والاعتذار اليه .

مدح عقبة بن سلم بأرجوزته التي مطلعها : « يا طلل الحمي بذات الصمد » فأثابه عليها بخمسين ألف درهم ولكن وكيله آخر دفع المبلغ اليه ثلاثة أيام فما كان من بشار الا أن أمر غلامه ان يكتب على باب عقبة هذا الانذار :

ما زال مامنيته من همي والوعد غم فأزح من غمي
ان لم ترد مدحي فراقب ذمي

فلما خرج عقبة من داره وقرأ ما كتبه بشار على بابه قال لخازنه أددت الى بشار ما أمرت به فأجابته « نحن مضيقون وغداً أحملها اليه » فقال له زد فيها عشرة آلاف درهم واحملها اليه في الحال .

وكان سهيل بن عمرو أحد أعيان قريش يهدي بشاراً قواصر من تمر في كل سنة فأبطأ عليه ذات سنة فكتب اليه بشار :

عمر كم ياسهيل دّر وهل يظ
مع بالدر من يدي تمتع "١"
فاحبني ياسهيل من ذلك التمر
مر نواة تكون قرطاً لبنتي

فبعث إليه سهيل بقواصر التمر وضاعها ملتصقاً منه ألا يضيف شيئاً إلى البيتين . وبهذه الطريقة عاش بشار مخشي الجانب مقضي الحاجة بل قل موفور الجاه والمال يلهو ويلعب ويستمتع بأطياب الحياة ويזורه الناس نساءً ورجالاً ليأخذوا عنه ويسمعوا منه ويشعروه احترامهم له ويتأنق في استقبالهم فيستقبلهم في مجلسين مختلفين أحدهما خاص بالصباح اسمه (البردان) وثانيها خاص بالمساء اسمه (الرقيق) .

وفي ذات يوم زاره فريق من النساء يلتمسن منه شيئاً من شعره يزينه جارية حسناء اسمها عبدة فتنته بصوتها الرخيم وحدثها العذب فبعث إليها مع غلامه رسالة غرامية قبلها بسرور ولسكنها لم تسعفه وإنما كانت تشييه على رسائله الرقيقة برسائل مائة فتشوق إليها وشبب بها مدة من الزمن حتى صارت بطلاة نسبيه وسأروي لك مثلاً من شعره فيها في مكان آخر من هذا الفصل .

وقد أحب بشار نساء عديدات غير عبدة وراسلهن وتغزلهن بعضهم معروف وبعضهن غير معروف . ومن المؤكد أن بشاراً لم يحمل بين جوانحه حباً طاهراً عنيفاً لعبدة ولا لغيرها من النساء وإنما كان يهوى النساء كما يهواهن أمهرو القيس وكما يهواهن عمر بن أبي ربيعة والفرزدق .

« ١ » المتع: السائل إذا أخف في المسألة . يقول بشار لسهيل أنت من السؤال المجنون في المسألة فكيف يطعم طمع بأخذ الدر منك .

وقد قلت لك إني أجزم بأن بشاراً لم يرسل إلى الكتّاب وأن أحداً لم يعن بتدريبه وتخريجه وإنما هو تلميذ طبعه وخرّيج فطرته وأقول لك الآن إنه طلب العلم عندما بلغ أشده وعمل على توسيع معارفه فنظر في أمر السكون ووجود الخالق والجبر وما إلى ذلك من العلوم الشائعة في عصره ويعده سعيد بن سلام أحد ستة كلهم اصحاب كلام وعم عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء وصالح بن عبد القدوس وعبد الكريم بن أبي العوجاء وجريير بن حازم الأزدي الذي كان يده نادياً لهذه الفئة وهو . فأما عمرو وواصل فصارا إلى الاعتزال وأما عبد الكريم وصالح فضححا التوبة وأما جريير بن حازم فدان ببعض خرافات الهند وأما بشار فقد شك وتخير . ومن شعره الذال على حيرته قوله :

طبعت على ماني غير مخير هو ابي ولو خيرت كنت المهذبا
أريد فلا أعطى وأعطى ولم أرد وقصر علمي أن أمال المنيا
فأصرف عن قصدي وعلمي مقصر وأمسي وما أعقبت إلا التمجيبا

ويعتقد الرواة أنه دان بالرجعة وكفر الأمة كلها بعد رسول الله وسئل عن رأيه في علي بن أبي طالب بهذه المناسبة فقال :

وما شر الثلاثة أم عمر بصاحبك الذي لا تصبحينا

ومما لاشك فيه ان بشاراً قال بتفضيل إبليس على آدم معللاً ذلك بأن الأول من نار والثاني من طين والنار خير من الطين لأنها مضيئة والطين مظلم :

الارض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار

وقد أحدث رأي بشار هذا ضجة عالية في الأوساط العلمية الدينية المعاصرة

فجعل عليه صديقه القديم واصل بن عطاء حملة شعواء وجاهر برغبته في قتله لولا
أنه يترفع عن الغيلة . ورد عليه صفوان الانصاري بقصيدة طويلة يشرح فيها
مزايا الأرض وأسباب تفضيلها على النار أروي لك منها هذه الأبيات القليلة
لطرافتها :

زعمت بأن النار أكرم عنصراً	وفي الارض تحيا بالحجارة والزند
ويخلق في أرحامها وأرومها	أعاجيب لا تحصى بخط ولا عقد
وفي القعر من لج البحار منافع	من اللؤلؤ المكنون والعنبر الورد
كذلك سر الارض في البحر كله	وفي الفيضة الغناء والجبل الصلد

وكما حاد بشار عن الهج القويم في الدين حاد كذلك عن الهج القويم
في السياسة ناعتنق الشعورية ودان يبغض العرب وانكر ولاءهم بمد أن ملا
الدنيا به نخرأ بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك فرس من في البصرة من الموالي
على مناهضة أسيادهم والخروج من طاعتهم وقد عاتبه أحد سراة البصرة في ذلك
فرد عليه رداً موجعاً وشم عرضه شتماً قبيحاً . على أي أرى في تمضيل
بشار إبليس على آدم وتمجيده النار لونهاً آخر من ألوان الشعورية . فأنت تعلم أن
النار معبودة الفرس القدماء ومعبودة من بقي منهم على المجوسية في ظل الاسلام
ومن أجل ذلك يخيل إلي أن مذهب بشار في تمديد النار سياسي أكثر
منه ديني .

ولم يمدح بشار أحداً من بني أمية - فيما أعلم - سوى سليمان بن هشام

بن عبد الملك الذي كان أميراً على « حران » مدحه بقصيدة يقول فيها :

وأجفان عيذها تجود وتسكب	وقائلة لي حين جد رحيلنا
وذلك شأو عن هواها مغرب	أغاد إلى حران في غير شيعه
وليس وراء ابن الخليفة مذهب (*)	فقلت لها كائنتمنى طلب الغنى

وأجاز سليمان بشاراً على مديحه بخمسة آلاف رهم فاستقلها ورها وهجا
سليمان وآل مروان فأطبته بهذه الايات التي أروىها كلها لا لبيان موقفه من
آل مروان فحسب بل لدلائها على أشياء عديدة من خصاله واحواله قال :

وإن أمس منقبض اليدين عن التدى	وعن العدو مخيس (١) الشيطان
فلقد أروح على اللئام مسلطاً	تلج القليل منعم الندمان
في ظل عيش عشيرة محمودة	تندى يدي ويخاف فرط لساني
أزمان خيبي الشباب مطاوع	وإذ الأمير علي من حران (٢)
ريم بأحوية العراق إذا بدا	برقت عليه أكلة المرجان
فاكحل بعبدة مقلتيك من القذى	وبوشك رؤيتها من الهملان
فلتقرب من تهوى وأنت متم	أشقى لدائك من بني مروان

ولم يفد بدار بمديحه على السمح ولا على المنصور من خلفاء بني العباس
بل لأنه هجا الثاني هجا مرأ بعيميته الآتي ذكرها . وذلك عندما ثار عليه إبراهيم

« * » أخذ أبو نواس معنى هذه الايات الثلاثة وحوره ليللا وزاد فيه في أياته
الشهورة التي يمدح بها الحبيب من قصيدة وهي :

تقول التي من بيتها خف مرصفي عزيز علينا أن نراك تسير .. الأيات
« ١ » الخيس هنا المذلل

« ٢ » هكذا في الاغانى ج ٣ ص ٥٦ طبعة مطبعة التقدم بمصر . وربما كان الصواب :

ازمان اسمع والشباب مطاوع

بن عبدالله بن الحسن بن علي ولكنه وفد على المهدي في أيام خلافته ورجا يزيد بن مزيد أحد رجال دولته أن يقدمه إليه فوعده يزيد ما أراد ولكنه مطله وأمعن في مطله فانتبهز روح بن حاتم - وكان قد زار بغداد - هذه الفرصة وقدم بشاراً إلى المهدي ون أن يسأله ذلك ودون أن يعلم به أيضاً .

فدخل على الخليفة العباسي وأنشده مدحة له كان قد أعدها فقبلها منه وأثابه عليها بعشرة آلاف درهم وخلع عليه خلعاً كثيرة واعطاه عبداً وقينة (١) وبقيت صلته بالناصر حسنة الى أن نظم أبياتاً في الغزل أحب أن أنزه عنها هذا الفصل بلغت المهدي وكان غيوراً شديد الغيرة على النساء فغضب ونهاه عن التشبيب بهن واطاع بشار اشارة الخليفة ونوه بذلك مراراً في شعره ولعل الأبيات التالية خير ما قال في هذا الباب وهي :

يا منظرأ حسناً رأيته	من وجه جارية فديته
بعثت إلي تسومني	برد الشباب وقد طويته
والله رب محمد	ما إن غدرت ولا نويته
أمسكت عنك وربما	عرض البلاء وما أبتغيته
إن الخليفة قد أبي	وإذا أبي شيئاً أبيتته
ومخضب رخص البنات	ن بكى علي وما بكيتته
ويشوقني بيت الحبيب إذا	أدكرت وأين بيتته ؟
حال الخليفة دونه	فصبرت عنه وما قليته

ونہانی الملك الہما
لا بل وفیت فلم أضع
وأنا الظل علی العدی
م عن النساء فما عصيته
عهداً ولا رأياً رأيتہ
وإذا غلا الحمد اشتریتہ

وأشد بشار المهدي هذه الأبيات في إحدى قدماته عليه وأتبعها مديحاً
لا تشبيب فيه خرمه مع ذلك ولم يعطه شيئاً. وشق هذا الحرمان على بشار
وقيل له إن المهدي لم يستجد شعرك فقال كلا والله لقد مدحته بشعر لو مدح
به الدهر لم يخش صرفه على أحد ولكننا نكذب في المدح فنكذب في الآمال.
ثم سولت له نفسه أن يهجو المهدي فقال فيه هجاء أقله هذان البيتان :

بني أمية هبوا طال نومكم
صاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا
إن الخليفة يعتموب بن داود
خليفة الله بين الزق والعود

وكان يعتموب بن داود وزير المهدي واجداً على بشار لأنه هجا أخاه صالحاً
الذي كان والياً على البصرة بقوله :

ثم حملوا فوق المنابر صالحاً
أخاك فضجت من أخيك المنابر

فاطلع الخليفة على هجاء بشار له وتميز هذا غيضاً ولكنه آثر الأناة
والتثبت . فطلب إلى وزيره أن يقيم البيعة على أن يشاراً هجاء بما أطلعه عليه فأقامها
وعند ذلك عقد المهدي النية على التسهيل بالشاعر تسكيلاً يقضي على حياته فكان
ذلك . وتختلف الروايات في كيفية تسكيل المهدي ببشار فزعم رواية أنه انحدر
إلى البصرة فلما بلغ البطيحة سمع أذاناً في وقت الضحى فأمر بالبحث عن
فعل هذا فإذا هو بشار فلما آتى به وكان سكران قال له يا زنديق أتلهو بالأذان في

غير وقت صلاة وأنت سكران والله لقد علمت أن غيرك لا يفعل هذا ثم أمر بضربه على صدر الحراقة فكان إذا أوجمه الضرب قال « حس » وهي كلمة تقال في الشيء إذا أوجع فقال أحد الحاضرين أنظريا أمير المؤمنين إلى زندقته يقول حس ولا يقول بسم الله فأجابه أطعمام هو فأسمي عليه ثم ترك بعد الضرب وقد أشفى على الموت فمات وسلمت جسده إلى أهله ، وتزعم أخرى أن يعقوب بن داود وشي ببشار في أثناء زيارة من زيارات المهدي للبصرة فأمر المهدي (صاحب الزنادقة) وهو عبد الجبار أو حمدويه أن يأخذ بشاراً ويحتفظ به فلما بلغ البطيخة عائداً إلى بغداد ذكره وأمر بضربه فضرب حتى أشرف على الموت . وتقول ثالثة إن المهدي أمر صاحب الزنادقة بضرب بشار في البصرة فمات من الضرب وفرح الناس بموته فحملوا إلى صاحب الزنادقة هدايا كثيرة .

والشيء المؤكد الذي يستخلص من هذه الروايات المتضاربة هو أن بشاراً مات بسبب ضربه ضرباً مبرحاً وأنه ضرب لزندقته في الظاهر ولهجائه المهدي في الحقيقة .

وهناك قصتان تملقان بوفاة بشار قد لا تخلو روايتهما من فائدة وطرافة تقول إحداهما إن المهدي لما قتل بشاراً أمر بتفتيش داره فوجد فيها « طوماراً فيه بسم الله الرحمن الرحيم إني أردت هجاء آل سليمان بن علي لبعثهم فذكرت قرابتهم من رسول الله (ص) فأمسكت عنهم إجلالاً له علي أي قد قلت فيهم :

دينار آل سليمان ودرهمهم كالبا بلين حنا باله ماريت
لا يبصران ولا يرجى لقاؤهما كما سمعت بهاروت وماروت

فلما قرأه المهدي بكى وندم على قتله وقال « لاجزى الله يعقوب بن داود
خيراً فإنه لما سجاه لبق عندي شهوداً على أنه زنديق فقتلته ثم ندمت حين لا
يعني الندم »^{١٢}

وتقول الأخرى إن المهدي لما قتل بشاراً وسلم جثته إلى أهله دفنه هوّلاً
بقرب حماد عجرد الذي كان يهاجيه في أيام حياته فوقف على قبرها بوهشام الباهلي
— وهو شاعر بصرى كان يهاجي بشاراً أيضاً : فقال :

قد تبسّع الأعمى قفاً عجرد	فأصبحت جارين في دار
قالت بقاع الأرض لا مرجحاً	بقرب حما وبشار
تجاوزا بعد تنائهما	ما أبغض الجار إلى الجار
صارا جميعاً في يدي مالك	في النار والكافر في النار ^{١٣}

ب - صفاء :

وصف الأصمعي بشاراً فقال : « كان بشار ضخماً عظيم الخلق والوجه
مجدوراً طويلاً جاحظ المقلتين قد تمشاهما لحم أحمر فكان أقبح الناس عمى
وأفظمهم منظرأ وكان إذا أراد أن يمشد صعق يديه (تنحنج) وبصق عن يمينه
وشماله ثم يمشد فيأتي بالعجب »^{١٤} وأنا أضيف إلى ما تقدم أنه كان ماجناً ظريفاً
فياض البديهة بالجواب الحاضر والشعر المرتجل شديد الإشفاق من الهجاء

« ١ » الأغانى ج ٣ ص ٧٠ طبعة مطبعة التقدم بمصر

« ٢ » المصدر نفسه ج ١٣ ص ٩٧

« ٣ » المصدر نفسه ج ٣ ص ٢٠

كريمًا متلافًا باراً بأهله وفيك لأصدقائه وخبار الرجل الدالة على مجونه كثيرة اليك
منها هذا الخبر وهو من قلها امعاناً في المجون روى أن سعد بن القعقاع كان
ينادم بشاراً فقال له ذات يوم ويحك يا أبا معاذ قد نسينا الناس الى الزندقة فهل
لك أن تخرج بنا الى الحج لنتفي هذه التهمة عنا قال نعم ما رأيت وخرجا الى
الحج فلما وصلا الى الكوفة ومرا بزراعة وهي محلة فيها ندم ابن النعمان على
العيام بهذه المجازفة فعال لبشار ويحك يا أبا معاذ ثلاثمائة فرسخ من هنا الى
مكة متى نقطعها مل بنا الى زراة نلهو ونلعب فاذا قعل الحاج عارضنا عم
بالفادسية وجززنا رؤوسنا فلم يشك الناس أنا جئنا من الحج فقال له بشار نعم
ما رأيت ولكني أخشى أن تفضحنا فوعده سعد أن يكتم سر هذه المغامرة ومالا
الى زراة فأقاما فيها يشربان وبلعبان فلما نزل الحاج الفادسية راجعا من مكة أخذوا
بعيرا ومحملاً وجزا رأسيها وأقبلا وتلماها الناس يهنؤنها فنكت ابن القعقاع
عهده بفضح سر بشار وسره بهذه الآيات :

ألم ترني وبشاراً حججنا	وكان الحج من خير التجارة
خرجنا طالبي سفر بعيد	فال بنا الطريق إلى زراة
فآب الناس قد حجوا وبروا	وأبنا موقرين من الخسارة ^١

قد تقول ولكن الأيكن أن يكون هذا الخبر مكذوباً وأجيب بأن
ذلك ممكن كل الامكان ولكنه على هذا منسجم وحياة بشار وسائر أخباره انسجاماً
تاماً. وظرف بشار معروف تدل عليه نكته الكثيرة اللاذعة ونوا ره العديدة الفكهة

التي تمثل حدة ذكائه وسرعة جوابه فمن هذه النوادر ما يروى من أن أحدهم قال له « إن الله لم يذهب بصر أحد إلا عوضه بشيء ما عوضك » قال « الطويل العريض » قال وما هو قال ألا أراك وأمثالك من الثملاء . ومنها جوابه ليزيد بن منصور الجعفي خال المهدي عندما سأله عن صناعته فقد قال له « أنتخب اللؤلؤ » وما أشك في أن المهدي استحسن هذا الجواب الظريف الاستحسان كله ولكنه تظاهر بحماية خاله فقال لبشار ويحك أنت تنادر على خالي فأجابه بشار « وما أصعب به يرى شيخاً أعمى يئس الخليفة شعراً ويسأله عن صناعته » .

ومن أجوبة بشار الظريف ما يروى من أنه قرض أبا النضر أحد شعراء زمانه فقال له هذا لعلك تحابيني يا أبا معاذ فأجابه (أنت أبقاك الله أهون علي من ذلك) وسرعة جواب بشار هذه تقودنا إلى الكلام عن قدرته على ارتجال الشعر فقد كان حاضر البديهة سريع الخاطر يقول الشعر متى أراد . وأخباره في هذا الباب كثيرة منها أن أبا الشمقمق شكك إليه الضيق ذات يوم فقال له والله يا أبا الشمقمق ما عندي شيء يغنيك ولكن قم معي إلى عقبة بن سلم ودخل الشاعران على الرجل وقرض بشار أبا الشمقمق وأثنى عليه فوهب له عقبة خمسمائة درهم فقال بشار على الفور :

يا واحد العرب الذي أمسى وليس له نظير
لو كان مثلك آخر ما كان في الدنيا فقير

ودعا عقبة هذا بشاراً وحماداً مجرداً واعشى باهامة ذات يوم فقال لهم: خطر

يبالي البارحة هذا المثل المعروف (ذهب الحمار يطلب قرنين فجاء بلا أذنين)
فاشتهيت أن ينظم شعراً فمن نظمته منكم فله خمسة آلاف درهم أما إذا لم تفعلوا
جلدت كلاً منكم خمسمائة جلدة فقال حماد أعز الله الأمير اجلنا شهراً وقال الأعشى
اجلنا اسبوعين وكان بشار ساكتاً فسأله عقبه أن يتكلم فقال له : أصلح الله
الأمير حضري في قصدك أبيات انشدها إذا أحببت قال قل فأنشده :

شط بسامى عاجل البين	وجاورت أسد بني القين
وردت الذنس لها رنة	كادت لها تذشق نصفين
با ابنة من لا أشتهي ذكره	أخشى عليه علق الشين
والله لو انك لا أتقي	عينك لقميلتك القين
طالبها ابني فراغت به	وعذت قلبي مع الدين
فصرت كالعير غدا طالباً	قرأ فلم يرجع بأذنين

ومن غريب صفات بشار انه كان شديد الاشناق من الهجاء يخافه ويتألم
له يحزع منه .

رى أنه لما سمع قول حماد مجرد فيه :

شبيهه الوجهه بالقرد إذا ما عمى القرد

بكي فتميل له أتبكي لهجاء فقال والله ما انكي من هجائه ولكن ابكي لأنه
يراني فيصنني ولا أراء فأصننه . وقد يكون في هذا الخبر شيء من المبالغة
ولكن إشفاق بشار من الهجاء أمر لاشك فيه . وكان شاعرنا برماً بالناس
يضيق بهم وينفر منهم ويعيب عليهم اقوالهم وافعالهم إلا أنه كان باراً بأهله

وفياً لأصدقائه . وليس هذا كل ما عنده من حميد الخلال بل إنه كان كريماً
متلافياً يذيق كل ما يصل إلى يده من المال وقدمه لك قوله «تددي يدي» وقوله:
« وإذا غلا الحمد اشتريته » ونحن نضيف الآن إلى هذا قوله من أبيات :
نارى محرقة ويدي واسع للمعتنين ومجاسي معمور

ج - شعره

في رواية أن بشاراً زعم أن له اثني عشر ألف أو ثلاثة عشر ألف بيت شعر
عين فقيل له إن هذا مالا يدعيه أحد فأجاب بأن له اثني عشرة ألف أو ثلاثة عشر
الف قصيدة فلعنها الله ولعن قائلها إن لم يكن في كل واحدة منها بيت عين واحد^١
وأحسب أن هذه الرواية مكذوبة أو أن بشاراً غلا غلوّاً فاحشاً في التحدث عن
كثرة إنتاجه فالتوا لوفرضنا أن بشاراً عاش سبعين عاماً وأنه كان يقول مائة قصيدة في
العام منذ أن بلغ العاشرة من سنه لما تجارز شعره نصف هذا المقدار الذي تقدمت
له الإشارة . هذا مع العلم بأن نظم مائة قصيدة في السنة أمر يصعب تصديقه
جداً اللهم الا اذا كان الشعر من نوع :

ألا يا عبثة الساعة أموت الساعة الساعة

فإن نظم مائة قصيدة في الأسبوع من هذا النوع من الشعر أمر لا يصعب
على أحد . وليس هذا ما يعنيه بشار إذا صح أنه صاحب الزعم المذكور .
والذي أراه أن شعر بشار كثير وأن كثرته الكبرى قد ضاعت أو اختفت في

في زاوية من زوايا دور الكتب^١ "الا أن البقية الباقية منه كافية لأن تمطينا فكرة لا بأس بها عنه وفي امكاننا أن ندرسه ونتبين أكثر خصائصه وبميزاته في ضوء هذه البقية الباقية .

وهو يتألف من الغزل والمديح والهجاء والزنا، والفخر والحكم . وأكثر ما وصلنا منه في الأبواب الثلاثة الأولى وهذا طبيعي لأن بشاراً صاحب مجون وتكسب بالشعر قبل كل شيء . .

غزله : وأحدثك أول ما أحدثك عن غزله فأزعم أنه لا يحتوي على ما يمكن أن يسمى عواطف غرامية صادقة ولكنه يحتوي على ما يمكن أن يسمى خواطر لطيفة وأخيلة طريفة ومعاني دقيقة أو غير دقيقة - ذلك أن بشاراً رجل شهوة وصاحب لذة يهيمه من المرأة جسمها ولا يهيمه عقلها ولا خلفها ولا أفعالها وهو يتودد إليها ويشبب بها طمعاً بقضاء أوطارده منها وإذن فلا بد له من أن يقول لها إنه يسهر الليل هياماً بها وشوقاً إليها وأنه يهندي بها ليل نهار وان الناس يلومونه في ذلك وأنهم يسرفون في هذا اللوم ولكنه يعيرهم أذنأ صماء ولا يحفل بلومهم كثيراً ولا قليلاً . وان الآلام برحت به فأوهنت قواه وأهكت جسمه حتى أنها - أي المرأة - لو توكأت عليه لانهدم مع انه على جانب غير قليل من ضخامة الجثة ومثانة البنية ، هو مضطر الى أن يقول لها هذا والا فأنها تذبذبه وتطرحة وتجرحه وعطنها وتمنعه وصلها ، وغني عن البيان أن هذه المعاني متداولة مألوفة قالها شعراء كثيرون

« ١ » قال طه حسين في الجزء الثاني من حديث الأربعماء صفحة ٢٥٩ طبعة الباني الحلبي :

« وقد حدثني قوم أن ديوان بشار موجود الآن في تونس أو في بلد غير تونس » .

قبل بشار فهل لهذا الشاعر الماجن المجيد غزل أصيل يمثل حياته ويصور مقاصده وأغراضه ولا يظهر فيه أثر الاقتباس والتقليد؟

بلا ان له لغزلاً أصيلاً لا يمثل الاحياة ولا يصور سوى مقاصده واغراضه، من أهمه هذه المقطوعات العديدة التي يصف فيها غرامه بعبدية وغيرها من النساء رغم فقدانه حاسة البصر ويتحدث عن قيام أذنه مقام عينه في تعرف معالم الجمال وتبين ملامح الصباحة والفتنة .

فأنت ءدما تقرأ هذا القسم من غزله مضطر الى أن تشعر في الحال أنك إنما تقرأ غزل عاشق ضرير بهمء أن يشارك ذوى الابصار في الاتصال بالنساء والظنر بعظهن والاستمتاع بتقربهن ويهمه أن يؤكد لهم أنه يعرف من الجمال ما يعرفون ويدرك منه ما يدركون وبالتالي يعشق منه ما يعشقهون ، بل انك مضطر عندما تقرأ هذا القسم من غزل بشار الى أن تشعر أنك إنما تقرأ غزل بشار نفسه لأن بشاراً في مجونه وقوة شعره وشدة حرصه على أن يظهر يظهر ذوى الأبصار في كل شيء نسيج وحده في الأدب العربي كله ومن طريق غزله في هذا الباب قوله :

يزهدني في حب عبدة معشر قلوبهم فيها مخالفة قلبي
فقلت دعوا قلبي وما اختار وارضى فبالقلب لبالعين يبصر ذو الحب
فما تبصر العينان في موضع الهوى ولا تسمع الأذن الا من القلب

وقوله :

قالوا بمن لا ترى تهذي فقلت لهم الأذن كالعين توفي القلب ما كانا

ما كنت أول مشغوف بجارية^١ يلقى بلقيانها روحاً وريحانها
ياقوم أذني لبعض الحي عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحياناً
وقوله :

وكاعب قالت لأتراها ياقوم ما أعجب هذا الضرب
هل يعشق الانسان من لا يرى؟ فقلت والدمع بعيني غزير
ان تك عيني لا ترى وجهها فلها قد صورت في الضمير
ومنه أي من غزل بشار الاصيل الذي يمثل حياته ويصور مفاسده
وأغراضه هذه القصائد والمقطوعات التي يتحدث فيها عن مغامراته الغرامية ويروي
ما يدور بينه وبين خليلاته من غزل وحوار كله عبث ومجون. وهو في هذا النوع
من غزله يعيد الى الذاكرة عهد عمر بن أبي ربيعة وان كان ما يروي له من الغزل
النصفي الاباحي قليلاً ولعل خير كلمة له في هذا الباب رائيته التي مطلعها:
فدلامي في خليلتي عمر واللوم في غير كفه ضجر

على أن غزل بشار الذي لا يمتاز بالتحدث عن الدور الذي تلعبه أذنه في
شؤونه الغرامية ولا يمتاز كذلك بالتحدث عن مغامراته ورواية ما يجري بينه
وبين خليلاته يمتاز في كثير من الأحيان بدقة معانيه وجمال أخيلته
ولطافة أسلوبه .

وما أظنك إلا موافقاً لي على هذا الزعم إذا قرأت قوله :
هل تعلمين وراء الحب منزلة تذي إليك فإن الحب أقصاني

« ١ » ويروي : « هل من دواء لمشغوف بجارية » .

وقوله :

أنا والله أشتهي سحر عيذك وأخشى مصارع العشاق

وقوله :

كأن فؤاده كرة تزي حذار البين لو نفع الحذار
كأن جنونه سمات بشوك فليس لنومه فيها قرار
أقول وليلتي تزداد طولاً أما ليل بدمهم نهار
جنت عيني عن التغميض حتى كأن جنونها عنها قصار

ففي هذه الأمثلة من غزل بشار من دقة المعنى وجمال الخيال ولطف الأسلوب
مالا يخفى على أحد .

مديحه : أما مديح بشار فانه في الغالب قريب إلى الاعتدال بعيد عن الغلو
والإسراف وهو يسلك فيه سبيل زهير بن أبي سلمى وتلميذه الحطيئة وكثير
في عرض فضائل الممدوح وأخلاقه . كما هي ووصفها ووصفاً يكاد يكون جافاً
لشدة قربه من الحقيفة وماذا تنكر من شاعر يتناول لممدوحه : إن الصلة
الوحيدة التي تجمع بينه وبينه هي « أنه عاف وهو جواد » وأنه إن أكرم
وفادته وأحسن صلته رزق عظيم الأجر وجريل الشكر وإلا فأن أرض الله
واسعة :

أخالد لم أخبط إليك بذمة سرور أتني عاف وأنت جواد
أخالد بين الأجر والحمد حاجتي فأيهما تأتي فأنت عماد
فإن تعطني أفرغ عليك مدائحي وإن تأب لم يضرب علي سداد

ركابي على حرف وقلبي مشيع
ومالي بأرض الباخلين بلاد
إذا أنكرتني بلدة أو نكرتها
خرجت مع البازي عليّ سواد

وماذا تنكر من شاعر يقول لممدوحه الذي أثناه على الأبيات السالف
ذكرها بأربعة آلاف دينار: أيها الجواد المفضل إن الحمد خالد والمال بائد
فاشتر الخالد بالبائد وإن الدنيا عارية فكل منها ماتشاء وأطعم منها ماتشاء
ولا تستبقها فإنها مردودة في يوم من الأيام :

أخالد إن الحمد يبقى لأهله
فأطعم وكل من عارة مستردة
جمالاً ولا تبقى الكنوز على الكد
ولا تبقيها إن العواري للرد

بل ماذا تنكر من شاعر يطري جواداً منحه ستين ألف درهم نظير
أبيات قليلة من المديح^١ فلا يزيد على أن يقول إنه لا يعطيك رغبة في الثناء
ولا رهبة من الهجاء وإنما يعطيك لأنه كريم يسره العطاء :

ليس يعطيك للرجاء وللخو
ف ولكن يلدطعم العطاء
على أن يشاراً قد يتغلغل في مديحه إلى أبعد من هذا فيأتي بالمعاني
الدقيقة التي لم يسبقه إليها سابق فيما أظن - على الأقل - والتي تبرأ من الغلو
والاسراف براءة تامة كما في قوله :

لمست بكفي كفه أبتغي الغنى
ولم أدر أن الجود من كفه يعدي
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى
أفدت وأعداني فأثلنت ماعندي

« ١ » حدث هذا لعقبة بن سلم عندما منحه بشار بأرجوزته التي مطلعها : « باطل الحى
بذات الصمد » والتي لم يتجاوز مديحه فيها خمسة وعشرين مصراعاً .

ولكنه لا يفعل هذا دائماً . على أنك قد تقول وكيف يبرأ هذان
البيتان من الغلو والافراق وأجيب بأن العطاء الكثير قد يحمل على الانفاق
الكثير وبهذا يُعدي خالد بشاراً بمرض السخاء فينفق كل ما يثبته به على
مدائحهم وقد قلت لك عند الكلام على أخلاق بشار إنه كان كريماً متلاًفاً .

هجاؤه : بيد أنه إن كان بشار معتدلاً في مديحه اعتدالاً لاشك فيه
فانه مسرف في هجائه إسرافاً لاشك فيه أيضاً وعلة ذلك أنه يرى أن الهجاء
يجب أن يكون موجعاً ليكون مخيفاً وليأتي بالنتيجة المقصودة وإلا فلأفائدة
في نظمه وقد قيل له : « إنك لكثير الهجاء » فأجاب « إني وجدت الهجاء
المؤلم آخذ بضعب الشاعر من المدح الرائع ومن أراد من الشعراء أن يكرم
في دهر الأئام فليستعد للفقر وإلا فليبالغ في الهجاء ليخاف فيعطى »^١ وصدق
ظن بشار فقد أخذ الهجاء بضعبه ورفع منزلته في عيون الناس بخافه الأمراء
والكبراء والعلماء وأكرمه كل فريق منهم بأسلوبه وعلى قدر طاقته بل
وفوق طاقته أحياناً . أكرمه الأمراء والكبراء بالهبات والجوائز السنية وأكرمه
العلماء بالتنويه بأدبه والاستشهاد بشعره ولم يفعلوا ذلك معه إلا خوفاً من هجائه
واققاء لمعة لسانه وقد مر بك ما يدل على مخافة العطاء إياه وإليك بعض ما يدل
على خوف العلماء منه .

حكي أن الأخفش طعن على بشار في قوله :

وأشار بالوجلي عليّ مشير

فالآن أقصر عن سمية باطلي

وفي قوله :

على الغزلى منى السلام فربما لهوت بها في ظل مرهومة زهر

وفي قوله في وصف سفينة :

تلاعب نينان البحور وربما رأيت نفوس القوم من جريها تجرى

وقال لم أسمع من الوجل والغزل فعلى ولم أسمع بنون ونينان فبلغ ذلك
بشاراً فقال ويلى على الفصارين متى كانت الفصاحة فيهم دعوني وإياه فبلغ ذلك
الأخفش فبكى وجزع فقيل له ما يبكيك؟ فقال ومالي لأبكي وقد وقعت في لسان
بشار الأعمى فذهب أصحابه إلى بشار واستوهبوه عرضه فوهبهم إياه بعد أن
وصفه بالآرم فكان الأخفش بعد ذلك يحتج بشعره في كتبه ليبلغه ذلك وليكف
شراءه وفي رواية أن سيوبه هو الذي ندد بأخطاء بشار السابق ذكرها لا الأخفش
فهجاه بما لا يسعنا ذكره فآعظ واعتبر وكان بعد ذلك يحتج بشعر بشار بدلاً من
أن ينتقده وينبهه إلى ما فيه من هنات وهفوات "١".

وقد رويت لك مثلاً قليلة مما يسمح الأدب بروايته من هجاء بشار وأروى
لك الآن قصيدة كاملة منه - أستغفر الله - فان القصيدة التي أريد أن أرويها
لا تشمل على الهجاء فحسب وإنما تشمل على المدح وعلى الحكم أيضاً . هذه القصيدة
التي أريد أن أرويها لك هي ميمية بشار التي هجا بها المنصور عندما نار عليه إبراهيم بن
عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب ومدح إبراهيم وجاء
في أثناء ذلك بحكم ونصائح ربما كانت من خير ما تفتقت قريحته عنه وقد قمت

فتنة إبراهيم وقتل نفاف الشاعر وجعل « أبا مسلم » مكان « أبي جعفر » في صدر القصيدة زاعماً أنه نظمها في هجاء الأول وهذا ما نجاه من فتك المنصور وإلا لضربت عنقه كما ضربت عنق إبراهيم وكما ضربت عنق أبي مسلم أيضاً . ومهما يكن من شيء فهذه هي القصيدة كما يروها أبو الفرج :

أبا جعفر ما طيب^١ عيش بدأ م ولا سالم عما قليل بسالم
على الملك الجبار يقتحم الردى ويصرعه في المأزق المتلاحم
كأنك لم تسمع بقتل متوج عظيم ولم تسمع بفتك الأعاجم
تقسم كسرى رهظه بسيوفهم وأمسى أبو العباس^٢ أحلام نائم
وقد كان لا يخشى انقلاب مكيدة

عليه ولا جريّ النحوس الأشائم
مقبياً على اللذات حتى بدت له وجوه المنايا حاسرات العائم
وقد ترد الأيام غراً وربها وردن كلوحاً باديات الشكائم
ومروان قد دارت على رأسه الرحي
وكان لما أجرمت نزر الجرائم

فأصبحت تجري سادراً في طريقهم
ولا تتقي أشسباه تلك النقائم
تجردت للإسلام تغفو سديله وتعري مطاه لليوث الضراغم
لما زلت حتى استنصر الدين أهله عليك فعاذوا بالسيوف الصوارم

« ١ » في الأغاني ج ٣ ص ٢٨ ما طول عيش وأظن أن الصحيح ما أُنبتناه .

« ٢ » المقصود بأبي العباس هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك .

فرم وزراً ينجيك يا ابن سلامة
لحى الله قوماً رأ سوك عليهم
أقول لبسام عليه جلالة
من الفاطميين الدعاة إلى الهدى
سراج لعين المستضيء وتارة
إذا بلغ الرأي المشورة فاستمن
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة
وما خير كف أمسك الغل أختها
وخل الهوينى للضعيف ولا تكن
وحارب إذا لم تعط إلا ظلامه

فلمت بناج من مضيم وضائم^١
ومازلت مرؤوساً خبيث المطاعم
غدا أريحياً عاشقاً للمكارم
جهاراً ومن يهديك مثل بن فاطم^٢
يكون ظلاماً للعدو المزاحم
برأي نصيح أو نصيحة حازم
فان الخوافي قوة للقوادم
وما خير سيف لم يؤيد بقائم
نؤوماً فان الحزم ليس بنائم
شبا الحرب خير من قبول المظالم

وأنت إذا تدرت هذه القصيدة رأيت أنها تنطوي على مغامز كثيرة ينبغي
أن يبرأ منها شعر شاعر فصيح مطبوع على الكلام مثل بشار . فقله في
البيت الثالث « ولم تسمع بفتك الأعاجم » حشو لا فائدة فيه ألجأته إليه
القافية إذ ما من أحد يزعم أن الأعاجم يمتازون بشيء في هذا الباب وقوله :
(فأصبحت تجري سادراً في طريقهم ولا تتقي أشباه تلك النقايم)

« ١ » غير بشار هذا البيت عندما زعم أنه نظم القصيدة في أبي مسلم الخراساني فوضع
وشبكة وهي أم أبي مسلم موضع سلامة أم المنصور .

« ٢ » المعروف بين الرواة أن بشاراً حذف هذا البيت من القصيدة عندما ألصقها بأبي
مسلم الخراساني لأنه لم يقدر على تغييره وأحسب أن تغييره أمر سهل اذ يكفي أن نضع
« الهاشميين » مكان « الفاطميين » و « هاشم » مكان « فاطم » لينتقل البيت من كونه
مديحاً لابراهيم العلوي الى كونه مديحاً للمنصور .

مغلوط لأن نعمة تجمع على نغم ولا تجمع مطلقاً على نقائم وكان في وسع بشار أن يتحاشى هذا الخطأ بوضع «عظائم» موضع «نقائم» إذ بذلك يستقيم المعنى كما يستقيم اللفظ . وقوله :

(أقول لبسام عليه جلالة غدا أريحياً عاشقاً للمكارم)

رديء أو قل هو أقرب إلى اهجاء منه إلى المدح لأن جملة « غدا أريحياً » تعني أنه كان غير أريحي فيما سلف من أيامه وهذا ما لا يريد بشار أن يقوله ولو وضع « طليق الحيا » أو « شريف السجايا » موضع غدا أريحياً لأمكنه تحاشي هذه السقطة ، وقوله :

(سراج لعين المستضيء ونارة يكون ظلاماً للمدو المزاحم)

رديء لأن تشبيه الممدوح بالظلام يشبه أن يكون هجاءً لامديحاً ولو وضع « شواظاً » موضع « ظلاماً » لاستقام له ما أراد من وصف ممدوحه بالهداية لأوليائه وشدة الوطأة على اعدائه دون أن يلجأ إلى تشبيهه بظلمة الليل .
وقوله :

(إذا بلغ الرأي المشورة فاسنن برأي نصيح أو نصيحة حازم)

مستهجن لاشتماله على ترديد لا محل له اذ المفروض في المستشار أن يكون حازماً أميناً مخلصاً والا لاداعي لاستشارته . ولو وضع بشار « ناقب الفكر حازماً » أو « صائب الرأي حازماً » موضع « أو نصيحة حازم » لسلم بيته من الهجئة .

وقوله :

(واخل الهوبنا للضعيف ولا تكن نؤوماً فان الحزم ليس بنائم)

سخيّف اذ من المعلوم جداً أن الحزم والنوم أو الاستغراق في النوم أمران متناقضان ، ويزداد شعورنا بسخف البيت اذا تذكرنا أن بشاراً يخاطب به نائراً كبيراً يرشح نفسه لنولي منصب الخلافة ، وقد أخذ السيد صالح القزويني أحد شعراء نهضة العراق الادبية في القرن التاسع عشر هذا المعنى فأودعه بيتاً لا أغلو مطلقاً اذا قلت لك انه يفضل بيت بشار مراراً عديدة وهو :

أمط عنك أبراد الكرى وامتط السرى فما في اغتنام المجد حظ لنائم

فأين قوله « فما في اغتنام المجد حظ لنائم » من قول بشار « ولا تكن
تؤوماً فان الحزم ليس بنائم » وفي قصيدة بشار مواطن ضعف أخرى عديدة أقل
خطراً من التي ذكرت رأيت أن أضرب عنها صفحاً .

وقد رويت هذه القصيدة كلها وآثرتها بالنقد لأنها أكبر قصيدة وصلتنا
من شعر بشار وأجمعها لأغراضه وأظهرها لعيوبه وسقطاته ولأن الرواة والنقاد
القدماء كانوا يعجبون بها إعجاباً شديداً فأبو عبيدة مثلاً يفضلها على ميميتي
جرير والفرزدق اللتين هما من عروضها وقافيتها ولأن النقاد المحدثين الذين كتبوا
عن بشار أظهروا رضاهم عنها واستحسانهم لها . وقد علت إعجاب القدماء بها
وعدم انتباههم إلى عيوبها بموافقتها هوى في نفوسهم — ذلك لأنها تعد بحق
ونبة جريئة في وجه طاغية أرهقهم بظلمه وأشقاهم بمعننه واستبداده هو أبو جعفر
المنصور ولكني لم أستطع أن أعلل رضاه المحدثين عنها وعدم انتباههم إلى
عيوبها بشيء .

على أنني لا أنفي أن القصيدة تشتمل على أبيات نبيسة حقاً ، منها هذان

البيتان :

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة
وما خير كف أمسك الغل أختها
فان الخوافي قوة للقوادم
وما خير سيف لم يؤيد بقائم
ومنها هذا البيت :

وحارب إذا لم تعط إلا ظلامه
وإن كان مثله كثيراً في القريض العربي .
شبا الحرب خير من قبول المظالم

رثاؤه : وما أحدثك بشيء عن رثاء بشار لأنه في زعمي تافه لا قيمة له .
وليس بشار أول شاعر ماجن ميت العاطفة متحجر الاحساس نزلت به المصائب
وفقد الأبناء والأحباب فلم يقل في ذلك كلاماً يشف عن لوعة صادقة ويدل على
إحساس متأثر .

نخره : ولكني أحدثك عن نخره وهو كثير وعجيب وموضع العجب منه أنه
لا يفادر صغيرة ولا كبيرة مما يفخر به الناس حتى يعرض لها ويسجلها ويستغلها
لمصلحة الشاعر . فبشار كما يصوره نخره أمير جليل ولد في أحضان الملك ونشأ في
في ظل النعيم والترف، له كل ما لا يفتقره الملوك النجباء من جمال وجلال وهيبة ووقار
وكرم وشجاعة وفصاحة ووسامة إلى غير ذلك مما يبهز ألباب الرجال ويسيل
لعاب ربات الحجال . وما أريد أن أنكر على بشار ذكاه ولا أدبه ولا فصاحته
ولا كرم طبعه ولكن يخل إلي أنه يسرف بعض الشيء في انتحال جميع ما ورد
ذكره من الصفات والمواهب العالية . وقد رويت لك في صدر هذا الفصل أبياتاً
له يفخر فيها بنسبه وشجاعته وجماله ورويت له كذلك في مكان آخر منه أبياتاً

يفخر فيها بكرمه ورأريحيته وأروي لك الآن مثلاً من نخره بأسياده من قيس
عيلان^١ الذي ينوه بعددهم وعُددهم في بأئيته الشهيرة التي يمدح بها عمر ابن
هبيرة ويتحدث عن الدور الحاسم الذي لعبوه تحت راية هذا القائد في دحر الضحاك
بن قيس وانصاره من الخوارج قال بشار :

رويد ^٢ تصاهل بالعراق جيانا	كأ نك بالضحاك قد قام نادبه
وسام لمروان ومن دونه الشجا	وهول كلج البحر جاشت غواربه
ركبنا له جبراً بكل مثقف	وأبيض تستقي الدماء مضاربه
وجيش كجنح الليل يزحف بالحصى ^٣	وبالشوك والخطى حمر تعالبه
غدونا له والشمس في خدر أمها	تطالعا والطل لم يجر ذاتبه
بضرب يذوق الموت من ذاق طعمه	وتدرك من نجى الفرار مثالبه
كأن مثار النقع فوق رؤوسنا	وأسيافنا ليل تهاوى كوا كبه
بعثنا لهم موت الفجاءة إتنا	بنوالموت خفاقاً علينا سبائبه ^٤
فراحوا فريق في الإيسار ومثله	قتيل ومثل لاذ بالبحر هاربه
إذا المالك الجبار صعر خده	مشينا اليه بالسيف نعاتبه

« ١ » قيس عيلان قبيلة كبرى من مضر منها بنو عقيل الذين نشأ الشاعر بين ظهرانيهم
في البصرة واتمى اليهم بالولاء .

« ٢ » إذا أريد التهديد برويد نصبت من غير تنوين .

« ٣ » الحصى هنا العدد الكثير .

« ٤ » خفاق : متحرك ، والسبائب : جمع سببه ، وهي شقة رقيقة من الكتان ، والمراد
بها هنا الراية يقول : نحن بنو الموت نخفق علينا راياته .

حكاه : أما حكم بشار فانها قليلة تأتي عرضا في أثناء المديح والهجاء والعتاب
ولكنها نفيسة رائعة وقد قال بعضها في مناسبات خاصة أوحثها اليه وأملتها عليه
فأجاد فيها اجادة تامة ومن هذا القبيل أبياته في (الشورى) فان سياسة أبي جعفر
الاستبدادية الغاشمة هي التي أملتها عليه املاءً وقال بعضها الآخر على سبيل
الإيفاء بما يجول في النفس من آراء وخواطر تحتشد في نفس الشاعر من حين
لآخر فتشوق طريقها الى شعره بمناسبة ربدون مناسبة ومن هذا القبيل قول بشار
في أرجوزته المعروفة :

وافق حظاً من سعى بمد ماضر أهل النوك ضعف الجد
الحر يلحى والعصى للعبد وليس للملحف مثل الرد
والنصف يكفيك من التعدي

فهذه الحكم لا ترمي الى معالجة حادث أو موضوع بعينه وإنما هي آراء
وملاحظات استمدها الشاعر من تجاربه واختبارات فأفرغها في هذا القالب
التعليمي . والادب العربي غني بأمثال هذه الحكم قبل بشار وبعده ومن أجل
هذا يخيل اليّ أنني لا أظلم بشاراً ولا أسوؤه اذا قررت أن أكثر حكاه غير
جديد فن المعلوم أنه أخذ قوله : الحر يلحى والعصى للعبد من قول أبي
الأَسود الدؤلي :

العبد يضرب بالعصا والحر تكفيه المقالة

وقوله :

خير اخوانك المشارك في المر وأين الشريك في المر أينا

من قول المرقيش :

أخوك الذي ان أجرضتك مامة من الدهر لم يبرح لها الدهر واجما

ولو شئت لأفضت في سرد الأمثلة حتى أرد أكثر حكم بشار الى أصول جاهلية أو اسلامية ولكن ما أنا بسبيل هذا الآن . على أي لا أميل الى القول ان بشار أخذ هذه الحكم ممن سبقه من الشعراء أخذاً ولكني أرجح أنها وردت على خاطره بسبب الظروف والأحوال التي أحاطت به كما وردت على خاطر من تقدمه من الشعراء . على أن هذا لا يعني أننا لا نجد لبشار كلمة أصيلة في هذا الضرب من الشعر فأكبر الظن أن شاعراً لم يسبقه الى قوله في الشورى :

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة فان الخوافي قوة للقوادم
وما خير كف أمسك الغل أختها وما خير سيف لم يؤيد بقائم^١

ولكن كم نعد من أمثال هذين البيتين في شعر بشار ؟

وللصديق في حكم صاحبنا مكان كبير فهو يوصي برعايته والمحافظة عليه ويدعو الى تقدير حسناته والصفح عن سيئاته ويحث على معاملته بكرم ورفق وتسامح ذلك لأنه يمتد أن البشر عرضة للخطأ قليلاً وكثيره وأنه لاغنى للإنسان عن الإنسان . وعلى هذا فخير للاخوان أن يتسامحوا في هفواتهم ويتبادلوا الصفح عن زلاتهم :

« ١ » من طريق ما يحكى في هذا الصدد أن الأصمعي قال لبشار : « يا أبا معاذ ، ان الناس يعجبون من أيساتك في المشورة » فقال له : « يا أبا سميد انت المشاور بين صواب يفوز بشمرته أو خطأ يشارك فيه » فأجابه الأصمعي : « أنت والله في قولك هذا أشعر عنك في شعرك » الأغانى ج ٣ ص ٢٩

إذا كنت في كل الأمور معاتباً
فعض واحداً أوصل أخاك فانه
صديقاً لم تلق الذي لاتعاتبه
مقارن ذنب مرة ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى
ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه

على أن بشاراً قد يشور على سياسته التقليدية هذه فيعلن سخطه على
الأخوان وشكته فيهم ونفوره منهم ويصفهم بأنهم أعداء منافقون وخصوم
مخادعون :

خير إخوانك المشارك في المرء
الذي إن شهدت سرّك في الحى وإن غبت كان أذنأ وعينا
مثل سر الياقوت ان مسه النار
أنت في معشر اذا غبت عنهم
واذا مارأوك قالوا جميعاً
ما أرى للأنام ودأً صحيحاً
وأين الشريك في المرء أيننا
جلاه البلاء فزداد زيننا
بدلوا كل مايزينك شينا
أنت من أكرم البرايا علينا
عاد كل الوداد زوراً ومينا

وغني عن البيان أن بشاراً لم يكن أول من خبر الناس فأساء الظن بهم ودعا
للاعراض عنهم والزهد بهم ولا آخره .

د - خاتمة : أما بعد فان بشاراً ثالث ثلاثة هم : الخطيئة ، وجري ، وهو ليست له
عفة هجاء الأول ولا صحة لغته وصفاء أسلوبه وليست له براعة الثاني في الرثاء
والعتاب ولا كثرة جيده في المدح والهجاء بل ولا رقة غزله وذلك على الرغم
مما رويت لك من روائع غزل بشار ، ولكن له ضعة نسب الرجلين وسعة

مطامعها وسمو مواهبها وقوة عارضتها وقدرتها على التكسب بالشعر على أنها
لا يرتفعان من ناحية أخرى الى ما عنده من أنفة وشمم من حيث هو رجل ومن
أمثال وحكم من حيث هو شاعر .

أما تجديده القريض العربي فإنه حديث خرافة قد لا يعدو أن يكون دعاية
شعبوية .

الفصل الثاني

أبو نواس

أ - حياته : اسمه ونسبه وكنيته . مولده . مسقط رأسه . نشأته ، في حانوت عطار . مع أدباء البصرة المجان ، مع والبة ، خروجه الى البادية ، عودته منها ، قموه الى البصرة ، تناقض أخباره فيها ، جد ولعب ، سفره الى بغداد ، خيبته فيها ، رحلته الى مصر ، نجاحها ، خاتمها السيئة ، عودته الى بغداد ، حبسه ، سببه ، الافراج عنه ، اتصاله بالأمين ، حظوته عنده ، أثره في سمعته ، دعوة الأمين اياه الى تحسين سلوكه ، طاعته في الظاهر ومخالفته في الباطن ، حبسه ثانية التفكير في قتله ، توبته في السجن ، شفاعة الفضل بن الربيع له اطلاقه ، ما يقال عن توبته خارج السجن ، وفاته ، سببها . تاريخها .

ب - صفاته : محاسنه ومساوئه .

ج - شعره : جمعه وطبعه ، أبواب ديوانه ، ماذا ندرس منه .

غزله : نصيبه من الاصاله ، مثل منه .

مديحه : تصديره ببيكاء الاطلال ووصف الناقة ، الجمع بين ماتقدم وبين الخمر في صدور مدائحه . قصيدة له في مدح الرشيد . بعض عيوب مديحه الأخرى ، غلوّه ، غموضه ، ركائته ، سرقاته ، مديحه الجيد ، ومثل منه .

هجاؤه : بذاته وصرامته ، سببه وغايته ، غلبة الفكاهة على بعضه ، مثل من هجائه الفكاهة .

خرياته : ما أضيف اليها من خريات الآخرين ، أثر الخمر في القريض العربي في شعر الأعشى في شعر طرفقة ، في شعر الأخطل ، في شعر الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، نسج ابي نواس على منوال من تقدمه من الشعراء في الخمر . مثل من خرياته ، بعض مجددي القريض العربي ، الفرق بينهم وبين أبي نواس .

د - خامته : الفصل في شاعرية ابي نواس وقدرته على التجديد

١ - حياته :

كان بشار حامل لواء الشعر في النصف الأول من القرن الثاني للهجرة . أما حامل هذا اللواء في النصف الثاني من القرن المذكور ، فهو فيما يعتقد الرواة ، ابو نواس : وهو الحسن بن هانئ ، وحسبك هذا من نسبه ، لأن الرواة يختلفون في جده فمنهم من يزعم أنه عبدالأول ، ومنهم من يزعم أنه الصباح . وإنه لغريب حقاً أن يختلف الرواة في جده الأول ثم يرتقون بنسبه إلى يعرب ابن قحطان ثم إلى نوح عليه السلام . وكان صاحبنا يكنى في أول امره بأبي علي ، إلا انه لما رغب في الانتساب إلى تميم وأن يكون من أبناء الفرزدق الشاعر اكتنى بأبي فراس وهي كنية الفرزدق ، تو كيداً لصلته به ، فلما أبت عليه تميم ذلك وتحول إلى اليمين أكتنى بأبي نواس مشتقاً هذه الكنية من اسم أحد ملوك اليمين (ذي نواس) ، وكان ملوك اليمين يسمون بالندوين فكان أحدهم يدعى (ذا زين) والثاني (ذا كلاع) والثالث (ذا جدن) وهكذا . ويقال إن استاذة خلف الأحمر الذي كان يحبه حباً جماً وهو ذو ولاء في اليمين هو الذي أشار عليه بأخذ كنية تدل على صلته الموهومة باليمين . وقيل إنه كني بأبي نواس لنوابتين كانتا تموسان « أي تتحركان على عاتقيه .

وكان هانئ والد الشاعر جندياً في جيش مروان بن محمد ، آخر خلفاء بني أمية . وأتفق أن ذهب (الوحدة) التي يعمل فيها الي الأهواز ، فعرف هناك (جلدان) - أي وردة البستان - والدة الشاعر ، وهي غاسلة صوف أو ناسجة جوارب

وأخراج ، فزوجها وأولدها عدة أولاد أحدهم صاحب الترجمة .

وليس من شك في أن ولادة الشاعر لم تسجل في حينها ، وليس من شك كذلك في أنها لم تلتفت انتباه أحد وهذا ما يفسر تضارب أقوال الرواة فيها إلى الحد الذي نراه . ولكن ربما كان أحق هذه الأقوال بالاعتبار قول الجاحظ : « أنا أسن من أبي نواس بسنة ، ولدت أول سنة خمسين ومائة وولد في آخرها »^١

ومسقط رأس الرجل موضع خلاف شديد أيضاً ، فقد قيل أنه ولد في الأهواز ، وقيل إنه ولد في البصرة ، وقيل إنه ولد في مكان آخر .

ولكن الرواة متفقون على أن والده مات وهو صغير فأسلمته أمه إلى عطار في البصرة يعمل في حانوته ليعمها على ما تقاسي من ضنك العيش وضيق ذات اليد . ولكنه كان يكره هذا العمل ويميل إلى رواية الشعر ودراسة الأدب ومجالسة الأدباء . فقاده ذلك إلى مصاحبة أدباء البصرة المجان ، فكان هؤلاء يقربونه ويستخدمونه ويأخذونه معهم كلما خرجوا إلى نزهة في ضواحي البصرة ويعطونه ديناراً نظير خدمته لهم .

وكان وهو في تلك السن المبكرة معجباً بشعر والبة بن الحباب الأسدي ، أحد مشاهير شعراء عصره الخلعاء ، ويود لو أتيح له الاتصال به والتخرج عليه . وقدم والبة البصرة في شأن من شؤونه وارادت الظروف أن يمر بالعطار الذي يعمل أبو نواس في حانوته فلفت انتباهه جمال الصبي وذكاؤه فقال له :

« ١ » معجم الأدباء ج ١٦ ص ٧٤ طبعة مصر .

« يا غلام إنني أرى فيك مخايل أرى ألا تضعها وستقول الشعر فاتبعني
أخرجك » . وسأله الغلام عن اسمه فأخبره به فقال له : والله إنني لفي
طلبك وقد أردت أن أخرج إلى الكوفة من أجلك . وذهب والبة بذلك
الصبي العائر الحظ ودر به على قرص الشعر ولكنه تقاضى ثمن ذلك منه غالياً
جداً ، فقد ربه أسوأ تربية ونشأه أرذل نشأة فخلق منه فتيً ماجناً
سكيراً مستهراً لا يتورع في إرضاء شهوة ولا يحجم عن إتيان منكر وما
كان له أن يكون أي شيء آخر وهو عشير حماد عجرد ومطيع ابن إلياس
ويحيى بن زيد وأضرابهم من زنادقة الكوفة وخلعائها .

وعندما بلغ ذلك الغلام سن الشباب رأى أن يستكمل ثقافته الأدبية
فاستأذن والبة بالخروج إلى البادية ليشافه الأعراب الفصحاء ويتزود بما
عندهم من شعر ولغة وخبر فأذن له . وقيل بل أرسله مع جماعة من بني
أسد إلى باديتهم حيث أمضى سنة كاملة عاد بعدها إلى الكوفة ثم قفل
راجعاً إلى البصرة .

وهنا تتناقض أخبار أبي نواس تناقضاً شديداً فتصوره لنا رجل جد
واجتهاد ودرس حيناً ، ورجل غرام ولهو ومغزلة حيناً آخر . فهي تقول
لنا من جهة إنه حذق القرآن على يعقوب الحضرمي حتى قال له « اذهب
فأنت أقرأ من في البصرة » ودرس الحديث على جماعة من كبار محدثي
البصرة منهم عبد الواحد ابن زيد العبدي ويحيى القطان وأزهر السمان
وأخذ الغريب عن أبي زيد الأنصاري والأخبار وأيام العرب عن أبي
عبيدة ودرس الشعر على خلف الأحمر وراجع نحو سيويه فتمكن منه .
ولكنها تقول لنا من جهة أخرى إنه عشق جارية حسناء لعبد الوهاب
الثقفي اسمها جذان فكان يلاحقها ويطاردها ويصف ما يجري لها في

شعره ويذيعه في الناس . فإذا حضرت حفلة عرس قارن بينها وبين العروس وفضلها عليها فتنةً وجمالاً وإذا حضرت مأتماً في دار أحد مواليها نظر إليها من نافذة مجاورة ووصفها وهي تلمم وتبكي وتنشج وهكذا .

والمضمون في شرح حديثه معها فيقولون لنا إن سيدتها (عمارة) زوجة عبدالوهاب الثقفي المذكور خرجت إلى الحج فأخذتها معها فما كان من أبي نواس إلا أن خرج حاجاً معها . وواضح أن رجلاً ينقطع إلى القرآن والحديث ويقبل على دراسة سائر العلوم المعروفة في عصره ذلك الأقبال الشديد - لا يملك من الوقت وفراغ البال ما يمكنه من تعقب الغيد الحسان وملاحقتهن ومطاردتهن والانتقال معهن من بلد إلى بلد . ولكن نقلة أخبار أبي نواس لا يرون بأساً في الجمع بين هاتين الحالتين المتعارضتين المتناقضتين .

ومهما يكن من شيء فقد غادر أبو نواس البصرة كارهاً لها بعد أن جاوز الثلاثين ونزل بغداد واتصل ببعض ولد المهدي ونادمهم ثم بالقاسم بن الرشيد ومدح الرشيد والعباس بن عبيدالله بن المنصور أحد كبار أمراء البيت العباسي وآل برمك وآل الربيع ولكن يخيل إليّ أنه لم يلق كبير حظوة عندهم . فليس في شعره ما يدل على أنه ظفر بالمال الكثير والجاه العريض عند ممدوحيه في بغداد جميعاً أو عند أحد منهم بل إن في شعره ما يدل على ضعة منزلته وضيق ذات يده دلالة قاطعة فانه يقول متغزلاً في صدر قصيدة يمدح بها العباس ابن الفضل بن الربيع :

أمشي إلى جنبها أضايقها ولم يكن في الطريق من ضيق

ويقول متبرماً بأصحابه :

(١) أريد قطعة قرطاس فمعجزني وجل صحتي أصحاب القراطيس

فما ظنك بهذا الشاعر الذي يضايق النساء في الطريق ولم يكن في الطريق من ضيق ويذكر هذا في شعره ؟ بل ما ظنك بهذا الشاعر الذي يريد قطعة قرطاس فمعجزه ؟ انه بأئس كل البؤس دون أدنى شك ، وضع المنزل كل الضعة دون أدنى شك أيضاً . وليس في هذا ما يدعو إلى الاستغراب فانه كان من شدة الغلوفي اللهو والاستهتار بالدين والأدب بحيث يعترف في صدر قصيدة يمدح بها الرشيد أنه باع ريطته وحذاءه واشترى بئسهما خمرًا :

(٢) فما رمته حتى أتى دون ما حوت يميني حتى ريطتي وحذائي

وما أريد أن أخلع على الرشيد رداء القداسة ولكني أستطيع أن أقرر بصورة جازمة أنه لم يكن من خطل الرأي وضعف السياسة بحيث يقرب شاعراً سكيراً خليعاً مستهتراً يعترف في صدر قصيدة يمدحه بها مثل هذا الاعتراف .

إذن فقد كان محروماً من عطف الرشيد محروماً من جوائزه إلا ما ندر . وصحيح أن آل الربيع كانوا يقربونه ويرفعون من شأنه ويجيزونه على مدائحهم ليتخذوا منه داعية لهم وليستعينوا به على الغض من البرامكة والظعن عليهم ، ولكن يظهر أن جوائزهم كانت أقل من أن تفي بنفقات مجالس الطرب التي يعقدها على الصراة أو في سوق الكرخ

(١) أظنه يشير بهذا إلى صاحبيه عمرو الوراق وإسماعيل القراطيسي .

(٢) الضمير في قوله : « فما رمته » عائد إلى « بيت العان » المذكور في

مع داود بن رزين وعمرو الوراق واسماعيل القراطيبي وغيرهم من
الخلعاء .

ولهذا صفت يده وسنت حاله في بغداد نعوّل على انتجاع
الخصيب والي مصر في مقر عمله وكان قد عرفه من قبل فند إليه الرحال
من بغداد ومدحه أول ما مدحه برائيته الشهيرة الي مطلعها :

أجارة بيتينا أبوك غيور وميسور مايرجى لديك عبير

والتي يقول فيها :

تقول التي من بيتها خبّ مركبي	عزيز علينا أن نراك تسير
أما دون مصر للغنى متطلّب	بابي إن أسباب الغنى لكثير
فقلت لها واستعجلتها بوادر	جرت فجرى في جريهن عبير
ذريتي أكثر حاسديك برحلة	الي بلد فيه الخصيب أمير
إذا لم تزر أرض الخصيب ركابنا	فأي فتى بعد الخصيب تزور

وقد أكرم الخصيب وفادته وأحسن صلته فبلغت جوائز له على عدة
مدائح ثلاثة آلاف دينار - فيما يقول الرواة - ولكنه أنفق جوائز الخصيب
كلها في وقت قصير وطلب المزيد كما كان يفعل مع مسدوحيه في
بغداد ، ورأى الخصيب أنه بلغ حدّ طاقته في إثابة أبي نواس على
مدائحه فرغب إليه أن يفارقه . وكانت هذه صدمة عنيقة فضت على آخر
أمل لأبي نواس في الثراء ورغد العيش . وذكر الشاعر بغداد وأيام
لهوه وطربه فيها . فتقطعت نفسه حسرة وألماً وعبراً عن تلك الحسرة
وذلك الألم بهذين البيتين اللذين يرويهما له المصريون دون غيرهم من
الناس وهما :

إذا ذكرت بغداد لي فكأنما تحرك في قلبي شبة مسان
وأوبه مشتاق بغير دراهم إلى أهله من أعظم الحدثن

وعاد الشاعر إلى بغداد صفر اليمين كما رحل عنها ، ولنا نعرف شيئاً واضحاً من تأريخه فيها بعد عودته من مصر بسوي أن الرشيد «حبسه لأنه هجا القبائل العدنانية عامة وقريش خاصة هجاء أسرف فيه الاسراف كله ، إليك منه هذه الأبيات التي يخيل إلي أنه لاحرج في روايتها :

إن قريشاً إذا هي انتسبت كان لنا الشطر من مناسبها
قام مهدي هاشم أم مو سي العير منا ففخر وسام بها (١)
إن فاخرتنا فلا افتخار لها إلا التجارات من مكاسبها
وإنها إن ذكرت مكرمة جاءت تجاراتها بغالبها

ولكنني أظن أن الرشيد حبس أبا نواس لسبب أعمق من هذا بكثير ألا وهو هجاؤه أخته العباسة أو هجاؤه بها هجاء قبيحاً تجده في الصفحة ١٤٤ من ديوانه طبعة المطبعة الحميدية بمصر سنة ١٤٢٢ هـ . وسواء أحبس الرشيد أبا نواس لأنه هجا العدنانيين عامة وقريش خاصة أم لأنه هجا أخته العباسة أو هجاء بها . فاني ألمح في أقدم أبي نواس على نظم هذه الأماجي رغبة شديدة في الانتحار فقد كسدت سوقه وساءت حاله في بغداد وقصد مصر « وهو يرجو اليسارة على يد الخصيب آخر الدهر » ولكنه رجع من مصر ومن الخصيب بخفي حنين - أستغفر الله -

(١) يريد أم المهدي ثالث خلفاء بني العباس لأنها بمنية مثله كما يزعم .

بل أنه رجع وحاله أسوء بكثير مما كانت عليه من قبل . واهم يكن ذلك
نتيجة شح الخصب فقد قلت لك أنه أعطاه ثلاثة آلاف دينار ولكنه كان
نتيجة عبث الشاعر وأسرافه فضاقت ذراعاً بهذه الحياة التي وصفها بقوله :

ولو أنني استزدتك فوق ما بي من البلوي لأعوزك المزيد
ولو عرضت على الموتى حياتي بعيش مثل عيشي لم يريدوا

وعول على الاتحار ليضع حداً لآلامه ولكنه لم يكن يملك الشجاعة
التي تمكنه من أن يتناول جرعة سم تقضي على حياته أو أن يفعل شيئاً
آخر من هذا القبيل . فرأى أن يتحدى الخليفة بهذه الأهاجي وكله يقين
أن الرشيد قتله لا محالة ولكن الرشيد خيب أمله فأمر بحبسه فقط ظناً
منه أن هذه العقوبة تكفي لتأديب شاعر بذيء اللسان سيء الأدب .
وأساء رجال السجن معاملة الشاعر فضاقت صدره ونفذ صبره واخذ يتضرع
ويستغيث بالرشيد والفضل بن الربيع وكل مقرب في القصر كبيراً كان
أم صغيراً فلم يصغ الي نداءه احد ولكن يظهر أنه كان كبير الأمل بعطف
الفضل ابن الربيع لكثرة مديحه اياه ومشايعته له في مناهضة البرامكة ولأنه
آخر الأمر يمني مثله فلما خيب هذا أمله ولم ينفع له عند الرشيد أو لم
تجد شفاعته له عنده صب عليه جام غضبه وهجاء اليمين التي يتسب
- أستغفر الله - بل ينتسبان اليها معاً بهذه الأبيات :

تلى مركبي مني السلام وبزتي وغدوات لهو قد فقدت مكاني
فلو أن خدني القريبين أبصرا خضوعي للسجان ما عرفاني

ولو أبصراني والقيود تقودني
لحي الله من أمسى يرشح نصره
ومالي وقحطاناً وبث مديحها
فان أمس لا تخشى لسيفي فتكة
ولني لأرجو أن أراك كجعفر
ومشي إلى البواب بالنجشان (١)
بفك أسير منه عند يمني
ونصبي لها نفسي بكل مكان
فلا تأمنن يا فضل فك لساني
ونصفاك فوق الجسر يقتسمان

والمعروف بين الرواة أن الرشيد لم يصفح عن أبي نواس ولم يعد إليه حرية وأن الأمين هو الذي فعل ذلك بعد وفاة والده وقد فعله تلبية لرجاء وزيره الفضل بن الربيع ولكن أبو نواس يقول لنا إن الرشيد غفر له وصفح عنه وأطلقه :

هذا أمير المؤمنين انتاشني
نفسى فداؤك يوم دابق منعماً
حرمت من لحمي عليك محللاً
والنفس بين مخنجر ومخنق (٢)
لولا عواطف حلمه لم أطلق
وجمعت من شتى إلى متفرق

وليس ثمة ما يدل على أن الرشيد حبس أبا نواس مرة أخرى ليتسنى التوفيق بين ما يقوله أبو نواس عن نفسه وبين ما يقوله الرواة عنه في هذا الشأن .

وتوفي الرشيد فخلفه ابنه الأمين وألقى بمقاليد وزارته أو قل مملكته إلى الفضل بن الربيع ورأى هذا أن يقرب شاعره وداعيته إلى

(١) النجشان : السوق الشديد .

(٢) انتاشني : انتذني ، ومخنجر : بلغ العنجرة ، ومخنق بلغ المخنق

يقول انتذني الرشيد من الموت عندما أوشكت نفسي أن تزهد .

الخليفة الجديد ففعل ، ومدح أبو نواس الأمين بميمته التي يقول فيها:
وتجشمت بي هول كل تنوفة هوجاء فيها جرأة إقدام
تذر المطي وراءها فكأنها صف تقدمهن وهي إمام
وإذا المطي بنا بلغن محمداً فظهورهن على الرجال حرام (١)

وأجزا الخليفة الشاعر على في مدحته بألف دينار ثم أمره بملازمة القصر
فكن شاعره المقدم ونديمه المقرب . وإذا صح ما رواه أبو الفرج
استطرادا في أخبار أبي العتاهية من أن أبا نواس رؤي (في نهر طابق)
جالساً ممدود الرجل وبنو هاشم وكبار القواد يمرون به ويسلمون عليه
فيرد عليهم السلام وهو جالس أقول إذا صح هذا وهو ما استبعده فينبغي
أن يكون قد حدث في أيام الأمين لأن الرشيد أكثر جدا وأشد حرماً
على وقار الخلافة من أن ينال شاعر ماجن كأبي نواس عنده مثل هذه
الخطوة .

ولكن لم تدم هذه السعادة طويلاً فما لبثت الفتنة أن نشبت بين الأمين
والمأمون والتمست العيوب والمطاعن للأول فكانت صلة أبي نواس من
أشدّها وقد وجد الفضل بن سهل في هذا المطلع :
ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر ولا نسقني سراً إذا أمكن الجهر
مسوغاً لنقض بعة الأمين وسبباً لإعلان الحرب عليه ، وبلغ الأمين

(١) من أغرب ما في هذه الابيات أن أبا نواس يزعم أنه تجشمت التناثف
أي التفار وأعمل المطي إلى الأمين مع أنه مقيم في بابه براوحه ويقاديه أضف
إلى ذلك أن الناقة لا توصف بالجرأة والاقدام وإنما توصف بشدة الأسر
وسرعة الجري وأن كلمة (اقدام) عطف على جرأة بدون واو مع أن هذه
لازمة في مثل هذا المقام .

(٢) الاغانى ج ٣ ص ١٥٦ طبعة مطبعة التقدم بمصر .

ذلك فغيسر مظاهر حياته وأمر نديمه وشاعره أن يفعل فعله .

فتظاهر هذا بالطاعة ووصف طاعته وتوبته وإفلاعه عن غوايته بهذا
الآبيات :

أعاذل أعتبت الامسام وأعتبنا	وأعربت عما في الضمير وأعربنا
وقلت لساقها أجزها فلم يكن	ليأبى أمير المؤمنين وأشربنا
فجوزها عني سلافاً ترى لها	إلى الأثق الأعالى شعاعاً مظنبا
إذا عب فيها شارب القوم خلاته	يقبل في داج من الليل كوكبا
ترى حيث ما كانت من البيت مشرقاً	وما لم تكن فيه من البيت مغربا
يدور بها ساق أغن ترى له	على مستدار الأذن صدغاً معقربا
سقامهم ومناني بعينه منية	فكانت الى قلبي ألد وأطيبا

وواضح أن هذه الآبيات لما فيها من وصف طريف للخمر وتشبيب
بالساقى أقرب للدلالة على الاصرار منها للدلالة على التوبة يؤكد هذا أن
أبا نواس لم يغير شيئاً من أحواله بل انه ذهب الى أبعد من ذلك فهجا
الأمين وسخر منه غير مره ولم يكن ذلك ليخفى على الأمين فعقد
النية على حبسه بل على قتله واتهز فرصة نظمه قصيدة في الفخر يقول فيها:

وقد زادني تيهاعلى الناس أنتي	أراني أغناهم وان كنت ذا فقر
ولو لم أنل فخراً لكان صيانتني	فمي عن سؤال الناس حسبي من الفخر
ولا يطمعن في ذاك مني طامع	ولا صاحب التاج المحجب بالقصر

فستدعاه ووبخه توبيخاً شديداً وكان عنده سليمان بن أبي جعفر

(١)
فزاد في الطين بلة وذلك بأن شهد على الشاعر أنه من كبار (الثوية)
وشهد الحاضرون بذلك فأمر الأمين بحبس الشاعر ويبدو من حسبه بهذه
الصورة أن خطبة مدبرة كانت مرسومة للايقاع به وهنا صحاح المترجم
من سكره فرأى أجنحة الموت ترفرف على رأسه وعاوده هلع المعتمد
ففرغ الى الأمين يستوهبه دمه ويسأله الابقاء على حياته .

بك أستجير من الردي متعوذاً من سطو باسك
وحياة رأسك لا أعو دلمثلها وحياة راسك
من ذا يكون أباً نوا سك ان قتلت أباً نواسك

ولم يعأ الأمين به ففرغ الى وزيره الفضل بن الربيع يستغيثه
ويستعطفه ويؤكد له أنه قد أفلح عن غوايته وتب توبة صادقة ويعزو اليه
الفضل في ذلك :

أنت يا ابن الربيع ألزمتني النسك وعودتيه والخير عاده
فارعوي باطلي وأقصر جهلي (٢) وتبدلت عفة وزهاده
لو تراني ذكرت بي الحسن الب ري في حسن سمته أو قتاده
المسابيح في ذراعي والمص حف في لبتي مكان القلاده
وإذا شئت أن تري طرفه تع جب منها مليحة مستفاده
فادع بي لاعدمت تقويم مثالي وتظن لموضع السجاده
ترإثراً من الصلاة بوجهي توقن النفس أنه من عباده

(١) الثوية : فرقة من المجوس تعبد النور والظلمة .

(٢) هكذا في الديوان وربما كان الصواب وأقصر جهلي .

لو رآه بعض المرائين يوماً
لاشتراه يعده للشهادة
ولقد طالما شقيت ولكن
أدركني على يدك السعادة

وغني عن البيان أن الفضل بن الربيع لم يكن لينخدع بهذا الكلام
المزخرف وما يجري مجراه مما كان يرسله إليه أبو نواس من سجنه
معلنًا توبته مؤكداً لإفلاعه عن مجونه وإسرافه على نفسه ولكنه شفع
بالشاعر رافة به ، أو طمعاً بمدحيه وقبلت شفاعته فخرج صاحبنا من السجن
بعد أن كان يخيل له أنه غير خارج منه إلا إلى القبر فكتب إلى أهله يقول:

اني أتيتكم من القبر والناس محبسون للحشر
لولا أبو العباس ما نظرت عيني إلى ولد(١) ولا وفر

ومعلوم أن المقطوعات التي كتب بها أبو نواس إلى الفضل بن الربيع

(١) يتحدث الرواة بأن أبا نواس كان كارهاً للزواج وإن أهله أرادوه عليه
فتزوج من جارية لم يقض معها يوماً كاملاً ولكن هذا البيت يدل دلالة قاطعة على
أنه متزوج وله اولاد وهناك شواهد أخرى عديدة من شعر الرجل تؤيد ما ذهبنا
إليه تأييداً قاطعاً منها قوله في ابنة له اسمها برة :

ألا ان بنتي بنت من لم ير ابنة
فيا بر بريني حياتي وإن أمث
فذاك ابن سوء لا يري لعشيرة
تحب أباها حب من لا أبا له
وقوله في قصيدة يمدح بها الخصب :

يا ابنتي ابشري بميرة مصر
انا في ذمة الخصب مقيم
وتمني وأسرفي في الاماني
حيث لا تعتدي صروف الزمان

وهناك شواهد أخرى على هذا رأيت ان اضرب عنها صنحاً رغبة في الإيجاز
ولكن ما تقدم ذكره كاف للبرهنة بصورة قاطعة على أن الرجل متزوج وله اولاد.
أما الرواية القائلة بعكس هذا فأحسب انها من صنع راوية لم يكن له المام كاف
بشعر أبي نواس

من سجن الأيمن معلناً فيها توبته وإفلاعه عن غوايته والتي رويت لك مثلاً منها لا يمكن أن تتخذ دليلاً على توبته لأنها لم تكتب إلا لحمل الوزير على التوسط في أمر الشاعر لدى الخليفة ومعلوم كذلك ان حياة أبي نواس بعد خروجه من سجن الأيمن لم تطل إلى درجة يمكن معها استكناه حقيقة أمره وعلى هذا يخيل الي أن توبته لم تكن سوى اسطورة من الأساطير الكثيرة التي حملت عليه وأنه مات دون أن يغير شيئاً من أحواله . أما شعره في الزهد فلا أريد أن أقول إنه منحول كله ولكني أظن أنه نظم بعضه في أيام فقره وضيق ذات يده إذ مامن شك في أنه خير للمفاسق المعدم أن يتحدث عن توبته ويتشدد بأنقطاعه الى ربه من أن يتحدث عن فجور وآثام لا يستطيع أن يأتي منها شيئاً .

بقي أن نعلم كيف لقي أبو نواس حتفه ومتى ؟

يتحدث الرواة عن سبب وفاة أبي نواس أحاديث شتى فيزعمون مرة أن آل نوبخت - وهم رهط من الفرس كانوا يكرهون الشاعر ويضيقون به لأنه يكرههم ويهجوهم - داسوا بطنه حتى مات . ويدعون ثارة أنه مازح علي بن أبي سهل النوبختي أيضاً فهجاء على سبيل المزاح بيت بذيء لم يحتمله له فضرب به الأرض وبرك على صدره يوسعه لكمأ ولطماً ودخل الناس بينهما فخلصوه منه ولكن أبو نواس مات بسبب هذه الحادثة بعد أيام . ويذكرون حيناً أنه - أعني أبا نواس - كان يهاجى زبوراً الكتب الشاعر فنحله هذا أحياناً في سبب الامام علي (عس) استحل بها آل نوبخت دمه . أما آل نوبخت فانهم ينكرون أن تكون لهم يد في القضاء على حياته ، ويؤكدون أن الخمرة هي التي قتله . وليس فيما بين أيرينا من المصادر التي تتحدث عن أبي نواس ما يحملنا على

ترجيح بعض هذه الأقوال على بعضها الآخر ولكن قد لا يعد أن يكون
أبو نواس فريسة حقد كان يكتنه له آل نوبخت .

وكما يختلف الرواة في سبب وفاة أبي نواس يختلفون كذلك في
تاريخها ولكنهم يضعونها على كل حال بين سنة خمس وتسعين ومائة
(١٩٥) وسنة مئتين (٢٠٠) وهكذا تنتهي حياة أبي نواس بغموض تام
كما ابتدأت بغموض تام .

ب - صفاته :

لا أحدثك طبعاً في هذا المكان عن خلاعة أبي نواس ومجونه فأنت
تعرف هذا كل المعرفة ولكنني أحدثك عن صفاته الأخرى . والظاهر
أنه كان « حسن الوجه رقيق اللون أبيض حلو السمائل ناعم الجسم وكان
في رأسه سماجة وتسقيط^(١) وكان ألثغ بالراء يجعلها غيناً وكان نحيفاً^(٢)
في حلقه بحة لا تفارقه » وهذا ما يقوله ابن منظور . أما أنا فأضيف
إلى ما تقدم أنه كان حوَّلاً قلباً كثير الطمع شديد الجشع منكراً
للجميل خبيث اللسان قليل الصبر خائر العزيمة .

حاول الاتصال بالعرب بكل وسيلة ممكنة سواء كان ذلك عن

(١) أي أن رأسه يشبه السقط .

(٢) أخبار أبي نواس ص ٦ .

طريق النسب أم عن طريق الولاية فانتسب مرة إلى تميم وتارة إلى حاء
وحكم من قبائل اليمن مریداً بذلك أن تكون له بالعرب علاقة كائنة
هذه العلاقة ما كنت ثم انقلب عليهم واعتنق مذهب الشعوبية فصار يسبهم
علانية ويتقصمهم جهراً • ومدح الرشيد والأمين والفضل بن الربيع
وابنه العباس ، والخصيب • وأخذ جوائزهم جميعاً وعاش بها مدة من
الزمن ونادم بعضهم وأكل على موائدهم أياماً كثيرة ثم هجأهم فاطبة
أقبح هجاء وذمهم أشنع ذم لأنهم لم يجعلوا مواردهم وقفاً على المهوه
وعبثه ، وسرفه ومجونه • وأقدم على هجاء قريش وفيها الملك والخلافة
وكان ينبغي أن يكون قد وطن نفسه على ما يفضي إليه ذلك الهجاء من
نتائج سيئة وعواقب وخيمة إلا أنه ما كاد يلقي في السجن حتى أخذ
يبكي ويتضرع ويستشفع بالكبير والصغير ملتتمساً الرأفة به والصفح عنه •
رحمه الله إنه كان كثير العيوب جم الهنات والسيئات •

ح - شعره :

لأبي نواس ديوان شعر ضخم جمعه راويته يحيى بن الفضل وأبو
بكر الصولي وعلي بن حمزة وحمزة بن الحسن الاصهاني وابن السكيت
وأبو سعيد السكري وتوزون الطبري - الذي لم يخلف أثراً آخر سواهم
على اختلاف في روايته وتبويبه وطبع مراراً عديدة في «فينا» و «مصر»
و «بيروت» • ولايشك أحد في أن هذا الديوان يحتوي على قصائد
ومقطوعات كثيرة ليست من نظم أبي نواس • ولكن يخيل إلي أن الذين
حملوا عليه الشعر كانوا من ذوي الخبرة الحسنة به وبمذاهب أصحابه

لأنهم حملوا على أبي نواس منه ما يتفق ومقاصده وأغراضه ويتلأم ولغته
وأسلوبه أيضاً . ولذلك كانت الكثرة الكبرى من الشعر المروي له
متجانسة منسجمة يمكن إلحاق بعضها ببعض وضم بعضها إلى بعض
سهولة .

يتألف ديوان أبي نواس من أحد عشر باباً في المديح والهجاء
والرثاء والعتاب والغزل المؤنث والغزل المذكر والخمر « وما جاء بينها
وبين المجون » والصيد والزهد والقائض وهي المساجلات التي جرت
بين الشاعر وبين معاصريه ومنافسيه من الشعراء وما أعدك أن أتحدث إليك
عن كل باب من أبواب هذا الديوان لاني لأجد كبير فائدة في الحديث
عن كثير من أبوابه فأنا لا أحدثك مثلاً عن زهدياته لاني أشك في نسبة
أكثرها إلى أبي نواس وهذا مع اعجابي بقوله :

وما الناس الا هالك وابن هالك وذو نسب في الهالكين عريق
إذا امتحن الدنيا ليب تكشفت له عن عدو في ثياب صديق

ولا أحدثك عن رثائه لأن معظمه خلو من المشاعر والانفعالات صفر
من الأحاسيس والعواطف وتقول لي إن أبياته في رثاء الأئمة لا تخلو
من حسرة مرة وأسف شديد وأجيب بأني أرتاب كثيراً في نسبة هذه
الأبيات إلى أبي نواس لأن ما جرى بينه وبين الأئمة في أواخر أيامه
لا يحمله على أن يتفجع لفقده ويأسى لمصرعه ولا أحدثك عن طردياته
لأنها في زعمي مجموعة كلام مكرر لا تكاد تلمس فيه أثراً للجمال
الفني . ولا أحدثك عن عتابه لأنه مجموعة كلام في الهجاء والفخر لا

يتخللها العتاب الا نادراً ولا أحدثك عن غزله المذكر لأن الركاكه غالبية عليه غلبة تامة . ولا أحدثك عما جاء بين الخمر والمجون لانه مما يجب أن ينزه عنه مثل هذا الفصل . ولا أحدثك أخيراً عن نقائضه لأن الكلام فيها يقودنا الى الاطالة على غير طائل ولكني سأحدثك عن غزله المؤنث ومدبحه وهجائه وخمرياته وفي هذا كفاية .

غزله :

وغزل أبي نواس كثير وهو يتحدث فيه عن صلاته العديدة بطائفة من النساء أو فل من القين اللواتي عرفهن في بغداد وغيرها فسحرته بجمالهن وأدبهن وقتته بغنائهن وظرفهن وانه لمن الغفلة أن نسأل : أكن أبو نواس مخلصاً في حبه لهؤلاء القيان ، صادقا في كلفه بهن ؟

فما كان لأبي نواس ، وهو هو في ايثاره المجون وركونه الى اللذة ليخلص في صباية أو يصدق في حب . وما كان هؤلاء القيان من عفة النفوس وطهارة الجيوب بحيث يلهمن حبا حقيقيا أو يوحين بعاطفة صادقة

ستقول وما رأيك في حبه لجنان التي تقدمت لها الاشارة والتي بلغ من كلفه بها أنه خرج معها من البصرة الى مكة ؟ وأجيب بأنه أحبها حب من يريد أن يقضي وطراً فلما عز عليه بلوغ ذلك الوطر شكا وتألم وألح في الشكوى وأسرف في التآلم حتى خيل لمن يقرأه أو يسمعه أنه محب مقيم وما هو من الحب الحقيقي في شيء . ولكن من الجائز أن يكون الشاعر الغزل كاذباً في غرامه مدعياً في حبه كما كان كثير عزة وكما كان الأحوص في غرامه المزعوم بأم جعفر وكما كان عمر بن أبي ربيعة نفسه في كثير من صلاته الموهومة . ولكنه يظل

مع ذلك قوي التسيب رائع التسيب لما يتضمن غزله من خواطر ومشاعر
لا تجدها في كلام غيره من الشعراء فهل كان أبو نواس من هذا النوع
في غزله على الأقل ؟ !

الواقع أنه لم يكن كذلك على الأكثر : ولك أن ترجع الى غزله
لتبين أنه إنما يتحدث في الغالب عن أشواق مضنية وآلام مبرحة ووعود
ممتولة وعهود منقوضة وشكاة خائبة ورسائل مردودة الى غير ذلك مما
تجده تقريباً في كل مكان . ومع هذا لا يخلو غزل أبي نواس من شذرات
أصيلة قالها في جنان إليك منها هذه الأبيات :

ياذا الذي عن جنان ظل يخبرنا	بالله قل وأعد يا طيب الخبر
قال اشتكتك وقلت ما ابتليت به	أراه من حيث ما أقبلت في أثري
ويعمل الطرف نحوي إن مررت به	حتى ليخجلني من حدة النظر
وإن وقفت له كيما يكلمني	في الموضع الخلو لم ينطق من الحصر
بما زال يفعل بي هذا ويدمنه	حتى لقد صار من همي ومن وطري

وهذه الأبيات :

إذا التقى في النوم طيفانا	عاد لنا الوصل كما كانا
يا قرّة العين فما بالناس	نشقى ويلتذ خيالنا
لو شئت إذ أحسنت لي في الكرى	أتممت إحسانك يقظانا
يا عاشقين اصطلحا في الكرى	وأصبحا غضبي وغضبانا
كذلك الأحلام غدارة	وربما تصدق أحياناً

وهذه الأبيات أيضاً :

دست له طيفها كيما تصالحه في النوم حين تأبى الصلح يقظنا
فلم يجد عند طيفي طيفها فرجاً ولا رثى لتشكّيه ولا ولانا
حسبت أن خيالي لا يكون لما أكون من أجله غضبان غضباناً
جنان لا تسأليني الصلح سرعة ذا فلم يكن هيئاً منك الذي كانا

فأكبر الظن أن الخوطر التي يتحدث عنها أبو نواس في هذه
المثل من غزله خواطره ، وأن الذكريات والآلام التي يصورها ذكرياته
وآلامه ، التي استمدها من حياته وإستفادها من مغمراته ولكن أمثال
هذه الصفحات الأصيلّة في غزله قليلة جداً .

مديحه : وقد أدهشك إذا قلت لك إن مديح أبي نواس أقل أصالة
وأكثر تقليداً من غزله وإنه صورة مصغرة من مديح زهير والحطيئة
والأعشى وأقول صورة مصغرة منه لأنه يمثل أخيلته وخواطره ومفاسده
وأغراضه ولا يمثل فصاحة لفته ومثانة أسلوبه . وأول شيء انكره على
مديح أبي نواس تصديره في كثير من الأحيان بكاء الأطلال أو وصف
الناقة أو بهما معاً .

إن شعراء المديح الجاهليين والمخضرمين والأمويين معذورون
إذا صدروا مدائحهم بكاء الأطلال لأن الأطلال محيطة بهم مائلة ،
أمام أعينهم أينما توجهوا ، وحيثما ساروا وهم معذورون كذلك إذا
صدروا مدائحهم بشيء من وصف الناقة لأن هذه تحتل مكاناً خطيراً
جداً في حياتهم وفي حياة مدوحهم على السواء .

أما أبو نواس فإنه غير معذور إذا صدر مدائح به هذه المقدمات العقيمة الفارغة لأنه يقيم في عاصمة الرشيد ويستمتع بما فيها من نعيم وترف ، ولأنه يختلف إلى أبواب ممدوحيه وينادم بعضهم ويسامرهم ويعاشرهم . ثم مالنا ولهذا كله أليس هو عدو البادية المدود الذي طالما هزأ بحياتها وسخر من أدبها وندد بشعرائها واحتقر عواطفهم وازدري أخيلتهم ومشاعرهم ؟ أليس هو القائل :

عاج الشقي على رسم يمانله	وعجت أسأل عن خمارة البلد
يبكي على طلل الماضين من أسد	لا در درك قل لي من بنو أسد
ومن تميم ومن قيس ولفئهما	ليس إلا عريب عند الله من أحد
لا جف دمع الذي يبكي على حجر	ولا صفا قلب من يصبو إلى وتد
كم بين ناعت خمر في دساكرها	وبين باك على نؤي ومنتضد

أيجمل به وهو الذي يقول هذا وعشرات في معناه ويتخذ - على تفاهته - مذهبا يمتاز به بين الشعراء أن يقول في صدر قصيدة يمدح بها الأمين :

يا دار ما فعلت بك الأيام ضمتك والايام ليس تضام

وأن يقول في صدر قصيدة يمدح بها الفضل بن يحيى البرمكي :

أربع البلى إن الخشوع لباد عليك وإني لم أخنك ودادي

ويقول في صدر قصيدة يمدح بها محمد بن الفضل بن الربيع :

لمن طلل لم أشجه وشجاني وهاج الهوي اوهاجه لأوان

أيجمل به وهو شاعر الحضارة فمما يزعم أن يعمد إلى الناقة وهي عماد الحياة في الصحراء وقوام المعيشة في البادية فيصفها في صدر عدد

كبير من مدائحه بمثل قوله من قصيدة يمدح بها الرشيد :

لما نزعت عن الغواية والصبأ وخذت بي الشدنية المدعان
سبط مشافرها دقيقتي خطمها وكان سائر خلقها بنيان
واحتازها لون جرى في جلدنا يقق كقرطاس الوليد هجان

ومثل قوله من قصيدة يمدح بها الفضل بن يحيى البرمكي :

سأرحل من قود المهاري شملة (١) مسخرة لا تستحث بحاد
مع الريح ما قامت وإن هي أعصفت تهوس برأس كالعلاة وهاد
فكم حطمت من جندل بمفازة وخاضت كتيار الفرات بواد

قد تقول إنه فعل ذلك إرضاءً لرغبات المحافظين من مدحويه وإيهاماً لهم بأنه محافظ مثلهم وأن ما يشاع عنه من الانهماك في وصف الخمر اقتراء محض . وأجيب بأن هذا غير صحيح لأنه يجمع بين بكاء الاطلاع ووصف الخمر تمهيداً للمديح في القصيدة الواحدة استمع الى هذه القصيدة التي يمدح بها الرشيد :

لقد طال في رسم الديار بكائي وقد طال تردادي بها وعتائي
كأنني مريع في الديار طريفة أراها أممي مسرة وورائي
فلما بدالي اليأس عدت نفاقي عن الدار واستولى علي عزائي
الي بيت حان لا تهسر كلابه ولا ينكرن طول ثوائي
فان تكن الصهباء أودت بتالدي فلم توقني أكرمتي وحيثائي
فما رمته حتى أتى دون ما حوت يميني حتى ريطني وخذائي

(١) الشملة : السريعة .

وكأس كمصباح السماء شربتها على قبلة أو موعد بقاءه
أنت دونها الأيام حتى كأنها تساقط نور من فوق سماء
ترى ضوءها من ظهر الكأس ساطعاً عليك ولو غطيتها بغطائه
تبارك من ساس الأمور بعلمه وفضل هاروناً على الخلفاء
نعيش بخير ما انطوينا على التقى وما ساس دنيانا أبو الامناء
إمام يخف الله حتى كأنه يؤمل رؤياه صباح مساء
أشم طوال الساعدين كأنهم يناط نجدا سيفه بلواء

على أني أحب أن أسألك أعتقد حقيقة أن الرشيد والأمين وآل
برهك وآل الربيع ومن لفت لفهم من الكبراء والعظماء كلهم محافظون
مترمتون وأن أبا نواس وحده مجدد حرّ العقل خفيف الظل ؟

انني اخالف في هذا مخالفة تامة ونأتي الآن الى مديح أبي نواس نفسه
فماذا نجد فيه ؟ إننا نجد فيه غلواً لا يستيغه عقل وغموضاً لا يهتدي إلى
ما وراءه فكر وسقطات بالغة منتهى السخف وسرقات لم يقدر فيها النجاح
للشاعر فمن أمثلة غلوه أبي نواس قوله في مدح الرشيد :

وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التي لم تخلق

ومن أمثلة مديح أبي نواس الغامض قوله في مدح العباس بن عبيدالله
ابن المنصور :

لا تعطى عنه مكرمة بربي وادٍ ولا خمرة
ذلّت تلك الفجاج له فهو مختار على بصره

تسبق التفريط رائده وكفاه العين من أثره

ومن سقطات أبي نواس الباغية منتهى السخف في مديحه قوله في مدح
الفضل بن يحيى البرمكي :

سأشكو إلى الفضل بن يحيى بن خالد هواك لعل الفضل يجمع بيننا
أمير رأيت المال في نعمائه ذليلاً مهين النفس بالضم موقنا

وللفضل صولات على صلب ماله ترى المال فيها بالمهانة مدعنا

وقوله في مدح العباس بن الفضل بن الربيع الذي كان يسأله
ويشاركه في فسوقه وفجوره وهو يصف في هذه الأبيات مسيره إليه على
متن ناقة نجبية سريعة السير :

وسبب قد علوت طامسه بناقة فوقه من النوق
كأنما رجلها قفا يدها رجل وليد يلهو بدبوق (١)
كأنما أسلمت قوائمها إذا مرتهن (٢) من مجانق
إلى امريء أم ماله أبداً تسعى بجيب في الناس منقوق

ومن مديح أبي نواس المسروق سرقة غير موقفة قوله :
فبئى لا تلوك الخمر شحمة ماله ولكن أباد عود وبواد
فإنه أخذه بعد أن أضاف إليه هذه « الشحمة » الدسمة من قول زهير

(١) الدبوق بفتح الدال لعبة .

(٢) مرى : جر .

ابن أبي سلمى :

أخو ثقة لا تتلف الخمر ماله ولكنه قد يتلف المال نائله

وقوله في نفس القصيدة :

فيوم لالحاق الفقير بذئ الغنى ويوم رقاب بوكرت بحصاد

فانه أخذه من قول جرير في مدح عبدالعزيز بن الوليد بن عبد الملك :

فيومان من عبدالعزيز تفاضلا ففي أي يوميه تلوم عواذله

فيوم تحوط المسلمين جياده ويوم عطاء ما تغب نوافله

وقد أخذ هذا المعنى من جرير قبل أبي نواس الحسين بن مطير أحد مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية فأفرعه في قالب أفضل من القالب الذي أفرغه به أبو نواس وذلك حيث يقول :

له يوم يؤس فيه للناس أبؤس ويوم نعيم فيه للناس أنعم

فيمطر يوم الجود من كفه الندى ويمطر يوم البأس من كفه الدم

فليس من شك في أن أبا نواس لم ينجح نجاح صاحبيه ولا سيما جرير في إبراز هذا المعنى اللطيف . ولكل ما ذكرنا من مساويء مديح أبي نواس أمثلة كثيرة يمكنك أن تراجعها في ديوانه .

على أنني لا أريد أن ابخس أبا نواس حقه او انكر محاسنه فإن له مدائح حسنة قليلة منها هذه الأبيات التي يمدح بها الفضل بن الربيع :

قولا لهارون إمام الهدى عند احتفال المجلس الحاشد

نصيحة الفضل وإشفاقه أخلى له وجهك من حاسد

لصادق الطاعة ديانها وواحد الغائب والشاهد
أنت على ما بك من قدرة فليست مثل الفضل بالواجد
أوجده الله فما مثله اطالب ذاك ولا زشد
وليس لله بمستكر أن يجمع العلم في واحد (١)

وهذه الايات التي يمدح بها الخصيب من قصيدة :

أنت الخصيب وهذه مصر فتدققاً فكلكما بحر
لا تقعدا بي عن مدى أملي شيئاً فما لكما به عذر
ويحق لي أن صرت بينكما ألا يحل بساحتي فقر

علي أنني أنك في صحة البيت الثاني من المثال الأول لاستعمال الشاعر
الافراد بدلا من التثنية في (اخلى) ولا أعبط أبا نواس على موقفه من
مدوحه في المثال الثاني . ولكن هذا لا يمنع أن يكون الكلام متيناً جزلاً .

هجاؤه : أصدق شعوراً وأخصب خيالا وأظرف لغة وأسلوباً من مديح

أبي نواس هجاؤه الذي لم ينبج من قوارصه أحد فقد طعن أبو نواس في
كل عرض وأساء إلى سمعة كل كريم . فتناول على الخلفاء والأمراء
والوزراء والعلماء والزعماء وعلى الشعوب والقبائل الاسلامية الكبرى
كالعدنانيين والقحطانيين وهذا فضلا عن الأدباء والشعراء والمغنين ومن
يجري مجراهم ممن يسهل على أبي نواس أن يلذعهم بقوارص هجائه متى

(١) تنقل الناس هذا البيت وحرّفوه بعض الشيء فوضعوا (ليس على الله) موضع
(وليس لله) وعندى ان التحريف أصح من الأصل واحسن .

أعجبه ذلك دون خوف ولا إشفاق • وقد يسبق إلى ظنك أن أبا نواس هجا ولاية الأمور في عصره لأنهم لم يقيموا العدل أو يعلموا على نشر العلم أو قصرُوا في حماية الثغور وتأمين السبل فأؤكد لك أنه لم يهج خليفة ولا أميراً ولا وزيراً ولا أي إنسان آخر إلا لسبب شخصي بحت وقد تدهشك سلاطة لسان أبي نواس هذه ولكن لا باعث على الدهشة فقد كان أبو نواس وضع الأصل وضع النشأة وضع المنزلة بسبب تهتكه وإسرافه على نفسه وكان مع ذلك يريد أن يخافه الناس وأن يتقوا شره ويجزلوا عطائه ويقضوا حوائجه ولا سبيل إلى ذلك إلا بالهجاء • وقد يماً فعل الحظيئة وجريه هذا ، ونهج بشار الذي أدركه أبو نواس وعاصره قليلاً سبيلهما فاتقى الناس شرهم وخشوا معرفة ألسنتهم وقبلوا مدائحهم وأحسنوا جوائزهم •

وهجاء أبي نواس صارم ثقيل الوطأة شديد النكاية بنديء العبارة في كثير من الأحيان ، ولكنه ظريف خفيف الروح لطيف الوقع - في غير نفس المهجو طبعاً - أحياناً كثيرة كذلك • وما أظنك تكلفني أن أروي لك شيئاً من هجائه الثقيل الصارم البديء فأروي لك مثلاً من النوع الثاني من هجائه • قال يهجو الفضل ولا أدري أهو الفضل بن يحيى البرمكي أم الفضل بن الربيع لأن الديوان لا يصرح بشيء من هذا :

رأيت الفضل مكتئباً يناغي الخبز والسمكا
فأسبل دمه لماً رأني قادمًا وبكى
فلما أن حلفت له بأني صائم ضحكا

وقال يهجو سعيد بن مسلم :

رغيف سعيد عنده عدل نفسه يقلّبه طوراً وطوراً يلاعبه
ويخرجه من كفه فيشمّه ويجلسه في حجره ويخاطبه
وإن جاءه المسكين يطلب فضله فقد ثكلته أمه وأقاربه
يكرّ عليه السوط من كل جانب وتكسر رجلاه وينتف شاربه

وقال يهجو اسماعيل النوبختي :

خبز إسماعيل كالوش ي إذا ما انشق يرفا
عجياً من أثر الصن عة فيه كيف يخفى
إن رفانك هذا أحذق الأمة كفا

وقال يهجو الخصيب الذي رفعه بمدححه إلى السماء :

خبز الخصيب معلق بالكوكب يحمى بكل مثقف ومشطب
جعل الطعام على بنيه محرماً قوتاً وحلله لمن لم يسغب
فإذا هم رأوا الرغيف تطربوا طرب الصيام إلى أذان المغرب

لعلك تلاحظ أنني رويت أكثر مما ينبغي من هججه أبي نواس فأحب
أن أقول لك إنني فعلت هذا على سبيل الانصاف للرجل لأن باب الهججه
في ديوانه يكاد يكون أغنى أبوابه بأمثال هذه الملح التي إن كانت إساءة
لا شك فيها إلى المهجّج فإنها إحسان لا شك فيه إلى الفن .

خمرياته : أبرع وأتقى ديباجة من كل ما تقدم من شعر أبي نواس
خمرياته التي طار ذكرها في الاتفاق والتي تعد بحق مظهر شاعريته

وترجمان شعوره ورمز حياته وأخلاقه • وليس من شك في أن الرواة أدخلوا فيها أقوال شعراء عديدين لم تسمح ظروفهم بذكر أسمائهم إلى جانب أقوالهم في الخمر بل لا أكاد أشك في أن أبا نواس نفسه سطا على أقوال بعض معاصريه في الخمر فادعأها لنفسه ودسها في شعره فأبو الفرج يحدثنا في الجزء ١٦ من كتابه عن غلام أبي نواس المعروف بالدعلجي أنه قال : « أنشدت يوماً بين يدي أبي نواس قوله :

يا شقيق النفس من حكم نمت عن عيني (١) ولم أنم

وكان قد سكر فقال : « أخبرك عن شيء على أن تكتمه قلت نعم قال أتدري من المعني بـ (٢) « يا شقيق النفس من حكم » قلت لا قال أنا والله المعني بذلك والشعر لوالبة بن الحباب قال وما علم بذلك غيرك

وأنت أعلم فما حدثت بهذا حتى مات ^(٣) وغنى عن البيان أن هذا الخبر يدل دلالة قاطعة على أن أبا نواس يبيح لنفسه أن يتحل شعر غيره إذا أعجبه ويذيعه في الناس على أنه له • وهناك أحاديث من هذا القبيل يتناقها الرواة عن سطو أبي نواس على كل قصيدة أو بيت أو معنى يعجبه من شعر صديقه وزميله في منادمة الخلفاء والوزراء الحسين بن الضحك الخليع لا مجال للأفاضة في ذكرها هنا ، وأحسبك توافقني على أن هذا يجعل تمحيص خمريات أبي نواس وتمييز صحيحها من منحولها من

(١) طبعا الصواب ليلى كما هو مشهور ولكنه مروى هكذا في عدا المكان من

الأغاني •

(٢) لا وجود لهذه الباء في الأغاني •

(٣) الأغاني ج ١٦ ص ١٤٣ •

الصعوبة بمكان وما أريد أن أبذل جهداً في سبيل تدليل هذه الصعوبة الكبرى لأنني لا أتوقع من ورائه كبير فائدة علي أن الذي يعنيني قبل كل شيء في الكلام على خمريات أبي نواس هو أن أتبين ما ذهب إليه بعض النقاد القدماء والمحدثين من أن أبا نواس مجدد في القريض العربي وأن خمرياته هي مظهر هذا التجديد .

كانت الخمر عند العرب منذ أقدم العصور كما كانت عند غيرهم من الأمم مصدر إلهام وإيحاء في الشعر يستوحىها شعراء اللهو شيئاً غير قليل من أخيلتهم وخواطرهم وأحاسيسهم ومشاعرهم . ولا نزاع في أن ما وصلنا من خمريات الأعرابي قليل جداً ولكنه على قلته دليل كاف على غرام هذا الشاعر بالخمر وحبها وبراعته في التحدث عنها . أليس هو القائل :

تريك القذى من فوقها وهي فوقه إذا ذاقها من ذاتها يتمطق

والقائل :

نازعتهم قصب الريحان متكناً وقهوة مزة (١) راووقها خضل
لا يستفيقون منها وهي راهنة (٢) إلا بهات وإن علّوا وإن نهلوا
يسعى بها ذو زجاجات له نطف (٣) مقلص أسفل السريال معتمل (٤)

(١) مزة : (بفتح الميم) لذيذة الطعم . والراووق : المصفاة .

(٢) راهنة : دائمة .

(٣) النطف : جمع نطفة (بفتح النون والطاء) وهي القرطة .

(٤) معتمل : دائب نشيط .

والقائل :

وكأس شربت على لذة وأخرى، تداويت منها بها

ففي هذه المثل القليلة دلالة كافية على عناية الشاعر الفائقة بالخمير
وعكوفه عليها وتغنيه بوصفها . وقد ذهب طرفه مذهبه في الولوج بها فجعلها
مظهر حيويته ومبعث لذته ورمز رجوليته بل لقد جهر أنه إنما يحيا لها
وللحرب والمرأة وأنه لولا هذه الثلاث لم يبق في الحياة ما يحبها إليه
أو يرغب فيها :

ولولا ثلاث هنّ من عيشة الفتى وجدك لم أحفل متى قام عودي

فمنهن سبقي العاذلات بشربة كميّت متى ما تعلّ بالماء تزبد

وكرّتي إذا ندى الصريخ محتباً (١) كسيد الغضا نبهته المتورد (٢)

وتقصير يوم الدجن (٣) والدجن معجب

بهكنة (٤) تحت الطراف (٥) المعبد

بل لقد ذهب طرفه إلى أبعد من هذا فنزل عن ثروته كلها ومكاته

في قومه في سبيل الخمر :

وما زال تشرابي الخمور ولذتي وبيعي وانفاقي طريقي ومتلدي

إلى أن تحامنتي العشيرة كلها فأفردت أفراد البعير المعبد (٦)

(١) محنّب : بعيد ما بين الرجلين وقيل غير ذلك .

(٢) متورد : متصد إلى ورود الماء .

(٣) الدجن : اكتساء السماء بالغيّم وقيل غير ذلك في معناه .

(٤) البهكنة : المرأة التامة الخلق .

(٥) الطراف : الخباء أو الخيمة .

(٦) المعبد : المطلي بالقطران لجربه

وأحب أن رجلا يضحي بشروته كلها ومكانته في سبيل الخمر
سكير عرييد بلغ الغاية في عبادة أم الخبائث وإحلالها المحل الذي
لا تستحقه في هذه الحياة • ولم يزل شعراء الخمر من العرب يتعاقبون
على نعتها والتشوق بشرها والتهاك في هذا السبيل حتى جاء الأخطل
فأحلها المكانة الأولى من شعره وكان بحق إمام وصاف الخمر في العصر
الأموي (١) وإنه لمن الصعب أن تفضل قصيدة ما في الخمر لاميته الشهيرة
التي يقول فيها :

تدب ديباً في العظام كأنه ديب نمل في نقا يتهيل

ولم يطل الوقت حتى ظهر الوليد بن يزيد بن عبد الملك فأعاد على
الناس عهد الأعتى وطرفة والأخطل بعكوفه على الخمر وتفنه في وصفها
وإجاداته إجمدة تامة في هذا الوصف، وكان هذا خاصة بسبب تحضره ورفه خياله
ودقة إحساسه إماماً لأبي نواس فيما يعتقد أبو الفرج فإنه يقول « وللوليد
في ذكر الخمر وصفها أشعر كثيرة قد أخذها الشعراء فأدخلوها في
أشعارهم سلخوا معانيها وأبو نواس خاصة فإنه سلخ معانية كلها وجعلها
في شعره فكرها في عدة مواضع منه ولولا كراهة التطويل لذكرتها هنا
على أنها تنبئ عن نفسها » (٢) •

أفصح بعد هذا أن تتخذ أبا نواس إماماً أو مجدداً للمقريظ العربي
من ناحية وصفه الخمر؟ • ولنأت الآن إلى خمريات الرجل فستعرض أهم
معانيها وأكثرها دوراناً على لسانه وهذه تلخص على وجه التقريب فيما
يأتي :

(١) سئل أبو نواس عن رأيه في الأخطل فقال : « امامي في الخمر »

(معاقد التنصيص ج ١ ص ٣٠ طبعة المطبعة البهية) •

(٢) الأغانى جزء ٦ ص ١٠٧ طبعة مطبعة التقدم بمصر •

إن الناس يلومون الشاعر في شربه الخمر ولكنهم مخطئون في هذا لأن لومهم إياه اغراء له فيها . وهم يقولون له انها حرام ولكنهم لا يعلمون أن الحرام يلائمه ويوافق طباعه وأخلاقه . والخمر فتاة كريمة ينبغي أن لا يخطبها إلا فتى كريم له مال وله حسب وعليه أن ينزل عن ماله كما ينزل عن حسبه في سبيل هذه الفتاة . والشاعر من ناحيته يغلي مهرها إلى حد يجعل معه ثمنها وزنها ذهباً . وهي قديمة خزنت حتى كاد القدم يأتي على حياتها ومكرمة لا تجلى إلا في أجمل الأباريق وأظرف الكؤوس على أنها متى جلست على الندمان هدبت طباعهم ولطفت أخلاقهم فأحالت البيخل منهم كريماً والجبان شجاعاً والقدم فصيحاً وهكذا . وأحسب أنك اذا تبعت هذه المعاني في أقوال شعراء الخمر الذين سبقو أبا نواس وجدت أنهم تداولوها وابتدلوها وأفرغوها في صور مختلفة وأشكال متعددة ، على أنني لا أريد أن أبخس أبا نواس شاعريته وبراعته في وصف الخمر بل إنني أعترف أنه أجاد في طائفة من خمرياته اجادة تامة وأنه من الحق على مؤرخ الأدب أن يلم بهذه النخبة من شعره وأن يتحدث عنها كثيراً أو قليلاً . وقد ضاق المقام عن أن أنقد أو احلل بعض هذه الخمريات فأكتفي برواية مثل منها على سبيل الانصاف لأبي نواس ، اسمع قوله :

ودار ندامى عطلوها وأدلجوا	بها أثر منهم جديد ودارس
مسابح من جبال الزقاق على الثرى	وأضغات ريحسان جنبي ويابس
حبست بها صحبي فجددت عهدهم	واني على أمثال تلك لحابس
ولم أدر منهم غير ما شهدت به	بشرقي ساباط الديار البابس

أقمنا بها يوماً ويومين بعده
تدور عاينا الراح في عسجدية
قرارتها كسرى وفي جنباتها
فللخمر مازرت عليه جيوبهم
ويوماً له يوم الترحل خامس
حببها بأنواع التصاوير فارس
مهياً تدربها بالقسي الفوارس
وللماء مدارت عليه القلائس

وقوله :

لاتبك ليلى ولا تطرب إلى هند (١)
كأنما إذا انحدرت في حلق شاربها
فالخمر ياقوتة والكأس لؤلؤة
تسقيك من يدها خمراً ومن فمها
لي نشوتان وللندمان واحدة
واشرب على الورد من حمراء كالورد
أجدته حمرتها في العين والخذ
في كف جارية مشوقة القد
خمراً فما لك من سكرين من بد
شيء خصصت به من بينهم وحدي

وقوله :

بنينا على كسرى سماء مدامة
فلورد في كسرى بن ساسان روحه
مكلمة حافاتها بنجوم
إذن لا صطفاني دون كل نديم

يبد أنني اروي لك هذه المثل من خمريات أبي نواس على أنها شعر
جيد لا على أنها شعر جديد فأنا مؤمن بأن أبا نواس لم يكن في يوم
من الأيام مجدداً وإنما كان مقلداً ماهراً سبقه الشعراء الى تمجيد

(١) أفهم ان ابا نواس ينهى عن بكاء الأطلال والوقوف على دمن الاحباب
وان كان قد فعل هذا مراراً كثيرة ولكني لا أفهم نهيته عن البكاء على
حبيبة مفارقة والطرب لذكراها ، ان في صدر هذا المطلع حملة شعواء مباشرة
على المرأة التي طالما أحبها او تظاهر بحبها وتغنى بحسنها ابو نواس .

الخمير والتنوية بشرها والتفنن في وصفها فمهدوا له السبيل وأقاموا عليها
المعالم الواضحة ، وأتى هو فسلكتها تابعاً لهم مسترشداً بهم يقتبس معانيهم
مرةً ويتوسع فيها تارة وينسج على منوالها طوراً • وعلى هذا فليس من
العدل ولا من الصواب في شيء أن نعدّه اماماً أو مجدداً •

إنك تستطيع أن تقول عن عمران بن حطان - على قلة شعره - انه
مجدد لأنه اتخذ الصدق له مذهباً في صناعة القريض حتى اذا فضل
رجلا شجاعاً على أسد واعتضت زوجته عليه في ذلك التفضيل دافع
عن نفسه بقوله : (إن مجزأة فتح بلدة والأسد لا يفتح بلدة) وتستطيع
أن تصف عمر بن أبي ربيعة بأنه مجدد لأنه وسع القصة الغرامية في
القريض العربي وأطالها وهذبها حتى أصبح من الحق أن يقال إنه
امام القصة الغرامية في القريض العربي بل تستطيع أن تقول عن كثير عزة
لأنه مجدد أيضاً لأنه كان صاحب مذهب خاص في المديح يحتم عليه ان
يصف ممدوحه بما فيه دون زيادة ولا نقصان حتى لقد مدح عبدالعزيز بن
مروان بالمنع لأنه كان يفعل هذا إذا اقتضاه الحزم •

تستطيع ان تعتبر هؤلاء كلهم مجددين لأنهم ذهبوا مذاهب جديدة
اصطنعوها وتقيدوا بها ولكنك لا تستطيع أن تعد أبا نواس مجدداً لأنه
لم يتكرر طريقة ولم يذهب مذهباً جديداً في صناعة القريض ولكنه قلّد
فأحسن التقليد واتبع فحذق الاتباع على أنه لم يكن على الدوام حاذقاً
محسناً في اتباعه وتقليده •

هـ - خاتمة :

أما أن أبا نواس شاعر مجيد في بعض ضروب الشعر فهذا ما لا شك فيه ، ولكنه لم يكن مجدداً في يوم من الأيام لأي نوع من أنواع القريض . على أنه لو أراد ذلك لما تهيأ له لأنه لم يكن من خصب الفريحة وسعة الخيال وعمق التفكير بحيث يستطيع أن يكون مجدداً لشيء من الأشياء أما هذه القصائد والمقطوعات الكثيرة التي تلخص في بضع كلمات وهي لا تتحدث عن الطلل وتحدث عن الخمر فإنها إن دلت على شيء فإنما تدل على ضعف خياله وتفاهة تفكيره لأن فيها من التكرار الممل لملاحظة سخيصة مبتذلة ما لا يتورط فيه شاعر يثق بنفسه ويؤمن بملكاته ومواهبه .

الباب الرابع

في شعراء القرن الثالث للهجرة

الفصل الأول

أبو نمام

- أ - حياته : اسمه وكنيته ونسبه . الشكوك في نسبه إلى طي . مناقشتها .
مولده . نشأته وتربيته . سفره إلى مصر . خيته فيه .
مبارحته مصر . علاقته بالمأمون . صلته بالمعتصم ووزرائه .
تطوافه في الآفاق . بعض ممدوحيه من الولاة والمواد .
كيف استقبل في البصرة . أثر أسفاره في شعره . تعيينه
والياً على بريد الموصل . وفاته .
- ب - صفاته : مجونه . تذييره . غلوه في الاستجداء . حبه الأسفار .
حدة ذكائه . قوة حافظته .
- ج - رأيه في الدين والسياسة : تشيعه . تذبذبه .
- د - شعره : ديوانه . أبوابه : فخره : موضوعاته . وصفه : مكان الطبيعة
منه . براعته في تصوير سائر الأشياء . رثاؤه : المطبوع
منه والمضوع . ميزة كل منهما . رثاؤه لأهل بيته وذوي
قرباه . مثل منه . مديحه : أكاذيبه . ما ينطوي عليه من حقائق
التاريخ . مصدر جماله . هجاؤه : صرايمته وبيداءته . مثل منه .
لغته وأسلوبه - أبرز ما فيهما من محاسن ومساوي .
- ه - خاتمة : ما يفيد وما لا يفيد من شعر أبي تمام .

أ - حياته

كانت الشعبية والخلاعة أبرز صفات القريض في القرن الثاني للهجرة أي في عهد بشار وأبي نواس . أما في القرن الثالث ولاسيما النصف الأول منه حيث يتعاقب أبو تمام والبحتري على زعامة الشعراء فقد خفت صوت الشعبية ولم تعد الخلاعة من أبرز صفات القريض . وحل محل هذين العنصرين -١- وصف سياسة الدولة وأعمالها في الداخل والخارج -٢- تصوير حياة القصور وما فيها من لهو ومرح وترف -٣- التحدث عن الطبيعة وما فيها من فتنة وجمال وسحر -٤- إطالة المرثي وتجويدها بشكل لم يسبق له نظير (١) . هذا إلى ارتقاء ملحوظ في لغة الشعراء وضاء غالب على أساليبهم وسرى هذه الخصائص ممثلة أصدق تمثيل في شعر كبار شعراء القرن الثالث للهجرة وهم أبو تمام والبحتري وابن الرومي وابن المعتز . وأبدأ بالحديث عن أولهم فأقول :

هو حبيب بن أوس ، وكنيته أبو تمام ، من طلي ، رطي . من أمهات القبائل اليمنية . ويعتقد الآمدي أنه دخيل في طلي وأنه من أصل رومي وأن اسم أبيه - وهو صاحب حانة - « تيودوس » فحرفه وجعله أوساً . ويذهب ابن خلكان مذهب الآمدي في هذا الشأن مع أن الآمدي شديد التحامل على أبي تمام . ولك أن تصفح كتابه (الموازنة بين أبي تمام والبحتري) لتلمس روح التحامل على المترجم في أماكن كثيرة منه . ويرى أكثر النقاد المحدثين - وفي مقدمتهم المستشرقون - رأي الآمدي وأبن خلكان .

(١) يستثنى من هذا شعر ابن المعتز لأنه لم يكن من شعراء الرثاء .

وعندي أنه لو كان أبو تمام من أصل رومي - كما يزعم الأمدى وابن خلكان وبعض النقاد المعاصرين - لكان من المعقول أن يفخر بهذا الأصل كما فخر به ابن الرومي ، لأنه نبغ في عصر غلبت عليه الثقافة اليونانية وراجت فيه ترجمة علوم اليونان وفلسفتهم إلى اللغة العربية رواجاً كبيراً . ولو كان أبو تمام من أصل رومي حقاً لما وسعه أن ينكر أصله ، وأهله أحياء يدينون بالمسيحية ويتكلمون اليونانية ويحملون السحنة (١) اليونانية في وجوههم ويعتفون الأخلاق والتقاليد اليونانية ، وصلته بهم قائمة مطردة ، فهو يقرع السن ندماً على مفارقتهم في لاميته التي يصف بها خبيته في مصر فيقول :

نأيت ، فلا مالا حويت ، ولم أقم
فأمتع ، إذ فجعت بالمال والأهل

ويشير إليهم في قصيدة مدح بها محمد بن عبد الملك الزيات بقوله :

قييل وأهل لم ألق مشوقهم لو شك النوى لإفوافاً كلا ولا (٢)
كأنهم كانوا لخفة وقتي معارف لي ، أو منزلي كان منزلا

ويشير إليهم كذلك في استذانه أبا سعيد الثغري بالانصراف بقوله :

فمن بالاذن على نازح
عن أهله ساعته دهر

وفي ديوانه مرتبة بليغة يجمع الرواة على أنه رثى بها أخاً له حضر وفاته . هذا إلى أن أبا الفرج الأصبهاني ينفي كل شبهة عن أصل أبي تمام فيقول إنه طائي صميم .

(١) السحنة : اللون والهيئة .

(٢) الوشك : القرب . الفواق : ما بين الحلبتين . كلا ولا . أي كقولهم

« لاحول ولا قوة الا بالله . »

إذا لم يخطيء ظني فإن الذين قالوا إن أبا تمام رجل واسع الرواية
غزير الحظ وهو يسرق محاسن الشعراء القدماء التي لم يطلع عليها أحد
غيره ويدسها في شعره فتكسبه ماله من جمال ورونق هم الذين قالوا إنه
سليل أسرة رومية .

وبعد ، فإن عقل أبي تمام - الذي يود بعض النقاد المحدثين أن
يقولوا إنه يوناني - عربي بحت لأن ثقافته عربية تماماً . والثقافة ،
كما تعلم ، هي التي تكون العقول وتوجه القرائح والافهام قبل أي
شيء آخر .

ومهما يكن من شيء ، فمؤرخو الأدب متفقون على أن صاحبنا ولد
في (جاسم) قرية من قرى دمشق . ولكنهم مختلفون في سنة ولادته ،
فقد قيل إنه ولد سنة (١٩٠) هـ وقيل انه ولد سنة (١٨٨) هـ وقيل انه
ولد سنة (١٧٢) هـ وأكبر الظن أن هذه الأخيرة أقرب الروايات إلى
الصحة ، وقد أخذنا بها الأستاذ بطرس البستاني في كتابه (أدباء العرب
في الأعصر العباسية) وبرهن على وجاهتها بقول أبي تمام في قصيدة
مدح بها الحسن بن سهل الذي وزر للمأمون من سنة (٢٠٢) هـ إلى
سنة (٢٠٣) هـ :

ست وعشرون تدعوني فأتبعها إلى المشيب ولم تظلم ولم تحب

ويلاحظ الأستاذ بطرس أنه لا مجال للقول ان أبا تمام مدح
الحسن ابن سهل بعد سنة (٢٠٣) هـ أي بعد تنحيته عن منصبه ، لأنه
لم يُنح عن الوزارة الا بسبب اختلال عقله هذا الى أنه من المرجح أن
يكون أبو تمام قد مدح الحسن بن سهل بهذه القصيدة قبل استيزاره لانه
ليس فيها ما يشير الى وزارته وعلى هذا يكون القول بأن أبا تمام ولد
سنة (١٧٢) هـ أقرب الأقوال إلى الصواب .

ولست نشأة ابي تمام اكثر وضوحاً من تاريخ ميلاده فقد قيل انه نشأ
بمصر ^(١١) وقيل بل إنه نشأ في دمشق حيث بدأ حياته عاملاً صغيراً في
حانوت حائك ^(١٢) وعندى انه نشأ في دمشق وانه رحل الى مصر عندما
بات في مقدوره ان يفعل ذلك . واكبر الغن انه قام بهذه الرحلة وهو
ابن سبع عشرة سنة . فقد اشار اليها في رائيته التي مدح بها أهل
البيت (عليهم السلام) بقوله .

وان نكيراً ان يضيق بمن له عشيرة مثلي او وسيلته مصر ^(١٣)

اما كونه ابن سبع عشرة سنة وقت نظمه هذه القصيدة فيدل عليه قوله فيها
وان الذي احذاني الشيب للذي رأيت ولم تكمل لي السبع والعشر ^(١٤)

ولا مجال للقول بأنه ذهب الى مصر في صجة ابيه فإنه يحمل نفسه تبعة
القيام بهذه الرحلة الفاشلة . حيث يقول :

نأيت فلا مالا حويت ولم أقم فأمتع إذ فجعتم بالمال والاهل

وحيث يقول في نفس القصيدة :

بخلت على عرضي بما فيه صونه رجاء اجثناء الجود من شجر البخل

وظاهر ان سبب رحيل ابي تمام عن الشام هو عدم تقدير مواطنيه
إياه حق قدره ، فقصده مصر ظناً منه أنه سيلقى فيها شيئاً غير قليل

(١) وفيات الاعيان ج١ ص١٢٣ طبع المطبعة الميمنية بمصر .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) فاعل يضيق هو الدهر المذكور في بيت سابق .

(٤) احذاني : اعطاني .

من العطف والتشجيع • ولكن الظروف شاعت أن تعاكسه في مصر كما
عاكسته في الشام ، فلم يلق في ولدي النيل ما كان يتوقع من تكريم
وترحيب • فشكا خيبة أمله وسوء مغبة عمله في لاميته التي تقدمت لها
الإشارة والتي أروي لك منها الآن هذه الأبيات :

لقد طلعت في وجه مصر بوجهه بلا طالع سعد ولا طائر سهل
وساوس آمالٍ ومذهب همة مخيمة بين المطية والرحل
وسورة علم لم تسدد فأصبحت وما يتمارى أنها سورة الجهل

وقد طال مكث أبي تمام بمصر على الرغم من أنه لم يجد فيها عملاً
سوى سقاية الماء في الجامع • فهو يحدثنا في لاميته التي تقدم بعضها أنه
قضى في مصر خمسة أعوام وبعض عام :

أخسة أحوال مضت لمغييه وشهران ، بل يومان تكل من التكل

وليس هناك ما يدل على أنه ترك مصر على أثر نظم هذه القصيدة ،
بيد أنه مما لا شك فيه أنه بدأ تطوافه في الآفاق وهو في عنفوان شبابه •
وقد قلت لك إنه مدح الحسن بن سهل وزير المأمون وهو في السادسة
والعشرين من عمره ، وأقول لك الآن إن هذا يعني أنه زار بغداد وغيرها
من الحواضر الإسلامية الكبرى وهو في تلك السن ، لأنه لو أرسل مدحته
إلى الحسن ابن سهل في البريد لجازف بالجائزة التي لولاها لما نظمت
القصيدة • والغريب أن أبا تمام لم يمدح المأمون مدة خلافته بأكثر من
قصائدين اثنتين • ولعل هذا ناشئ عن عدم اهتمام المأمون به •

ومهما يكن من شيء فقد سطع نجمه في أيام المعتصم الذي بلغ من
عنايته به أن أستصحبه في غزوة عمورية ثقة منه بقدرته على تصوير عظام
الأمور وجلال الأعمال ورغبة في تمكينه من وصف مواقفه الباسلة

المشرفة بشعره الخالد . ولقد صدق أبو تمام ظن خليفته به فوصف ظفروه
الباهر في عمورية ببائته الشهيرة التي تعد بحق غرة ديوانه . وله فيه عدا
هذه البائية سبع مدائح بليغة . وكانت منزلة أبي تمام عند محمد بن
عبد الملك الزيات وزير المعتصم وأحمد ابن أبي داود قاضي قضائه عظيمة
أيضاً . إلا أن هذا لم يمنعه من التطواف في الآفاق وانتجاع ولاية الأقاليم
وأمرء الثغور بالمديح . ولهذا التجوال في الأرض أسباب خلقية ونفسية
سأعرض لها عند الكلام على أخلاق المترجم . ومن قصدهم أبو تمام
بمديحه عبدالله بن طاهر في خراسان ، وخالد بن يزيد ابن يزيد في
أرمينية ، ومحمد بن يوسف المعروف بالثغري في الثغور - أستغفر الله -
بل إن الأخير هو الذي خطب مودة أبي تمام والتمس مديحه . ولم
يستقبل صاحبنا في بلد من البلدان بأسوأ مما استقبل به في البصرة ، فقد
كتب إليه شاعرها عبدالصمد المعروف بابن المعدل عندما بات على مقربة
منها هذه الأبيات :

أنت بين اثنتين تبرز لنا س وتلقاهم بوجه مذل
لست تفك راجياً لوصل من حبيب أو راغباً في نوال
أي ماء يبقى لوجهك هذا بين ذلّ الهوى وذلّ السؤال؟!!

فعدل عن قصده وقال : لقد استولى هذا على ما يليه ، فلنتركه
وشأنه . وقد انتهى تطواف أبي تمام بتعيينه والياً على بريد الموصل .
عينه والياً عليه الحسن بن وهب كاتم سر محمد بن عبد الملك الزيات ،
فقضى في هذا المنصب نحواً من سنتين . وتوفي في مقر عمله .

وكما يختلف الرواة في سنة مولده يختلفون كذلك في سنة وفاته .
فمن قائل إنه توفي سنة (٢٢٨) هـ ومن قائل انه توفي سنة (٢٣١) هـ ومن
قائل انه توفي سنة (٢٣٢) هـ ، وليس لدينا الآن ما يحملنا على ترجيح
أحد هذه الأقوال والشيء الذي لا نزاع فيه هو أن المترجم توفي في
خلافة الواثق ، لأنه مدحه وهناه بالخلافة ولم يفعل مثل ذلك مع المتوكل .
ومن المعلوم أن خلافة الواثق تمتد من سنة (٢٢٧) هـ الى سنة (٢٣٢) هـ .

ب - صفاته :

وأبرز صفات أبي تمام : المجون ، والتبذير ، والغلو في الاستجداء ،
وحب الأسفار ، وحدة الذكاء ، وقوة الحافظة .

بدأ أبو تمام حياته فقيراً معدماً ، ولكنه كان يشرب الخمر مع ذلك .
تدلنا على هذا لاميته التي شكها فيها خيبته في السفر إلى مصر والتي يقول
فيها :

وكأس كمعسول الأمانى شربتها ولكنها أجلت وقد شربت عقلي

وليس في ذلك ما يدعو إلى الاستغراب ، فكثير هم الفقراء الذين
يزيدون فقرهم بانفاق ثمن الخبز في سبيل « أم الخبائث » زاعمين انها
تسري عنهم أحزانهم وتسببهم همومهم . الا أن أبا تمام كان يسرف أحياناً
في استعمال الشراب فيشرب حتى يفقد صوابه ويحمل على أكتاف الرجال
إلى منزله . ويسأل في اليوم التالي عما جرى له في أثناء غلبة السكر على
عقله . ! ومن أصدق الشواهد على ذلك أبياته النونية التي كتب بها إلى

الحسن بن وهب على أثر حادثة من هذا القبيل ومطلعها :

أفيكم فتى حرّ فيخبرني عني ؟ بما شربت مشروبة الراح من ذهني ؟!

وكان الى هذا يتسرى الجوارى والغلمان مع أنه رب أسرة له زوجة وله أولاد . وكانت هذه الحياة المعقدة الماجنة تضطر أبا تمام إلى الانفاق الكثير ، فكان ينفق كل ما يصل اليه من جوائز ومدوحيه ويسألهم المزيد ، ويلحف في المسألة اذا هم أعاروه أذنأ صماء ومن الطبيعي أن ذلك يفضي الى نفورهم منه واعراضهم عنه وإلى معاتبته لهم في كثير الاحيان . ولك أن تتصفح باب العتاب في ديوانه لترى أنه عاتب أكثر مدوحية برأ به . وأشدهم عطفاً عليه . فقد عاتب عتاباً مرأ أبا دلف العجلي الذي أجازره على بائته التي مطلعها :

على مثلها من أربع وملاعب أذيلت مصونات الدموع السواكب

بخمسين ألف درهم . وعاتب احمد ابن أبي دؤاد الذي اضطر بعد منحه إياه الجوائز السنية الى أن يثيبه على مدامحه الأخيرة له بالشكر فقط وعاتب مراراً عديدة أبا سعيد الثغري الذي دعاه وهو نضو أسفار الى الإقامة في كنفه اعجاباً بشعره أو تكريماً له لأنه طمئ مثله ، وغمره بالعطاء حتى مدحه بتسع وعشرين قصيدة أكثرها من غرر شعره . وعندى أن الرسالة التي زعم أبو تمام أنها وردت عليه من أهله وجعلها سبباً لاستئذانه من أبي سعيد انما كانت مصطعة (١) . والحقيقة هي أن أبا تمام

(١) أشار أبو تمام الى هذه الرسالة ووصفها بالخطورة في أبيات كتب

بها الى ابي سعيد مطلعها :

ومن به يبتهج الشعر

يامن به يفتخر الفخر

أدرك نفور أبي سعيد منه وضيقة به فعول على مفارقتة بهذه الطريقة .

وليس من شك في أن الرجل مفلطح على المجازفة وحب التجوال في الآفاق تشهد بذلك أسفاره العديدة البعيدة المدى التي بدأها وهو ابن سبع عشرة سنة والتي قضت عليه أن يموت في دار غربة بعيدا عن أهله وإخوانه . إلا أنه يخيل اليّ أن حياة السرف التي كان يحيها والتي كانت تستدعي نفقات طائلة لا ينوء بعينها ممدوح مهما كثر ماله وغزر عطاؤه كانت عاملا قويا أيضاً في ركونه إلى الأسفار والتنقل من بلد إلى بلد رغبة في أن لا يثقل على أحد وعملا على أن لا يبرم به ممدوح ، وعلى هذا بنى بيتيه الشهيرين اللذين ان صحا على أحد فانما يصحان عليه وهما قوله :

وطول مقام المرء في الحي مخلوق لديجاجتيه ، فاعترب تتجدد
ألم تر أن الشمس زيدت محبة إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد؟!

بيد أنه كان حاضر البديهة سريع الخاطر حاد الفطنة حدة شديدة . قال له أبو العميش يوماً : « يا أبا تمام ، لم لا تقول ما يفهم؟! » فأجابه على الفور : وأنت ، لم لا تفهم ما يقال؟! » . وما أظنك تجهل نقد أبي اسحق الكندي الفيلسوف قوله في احمد بن المعتصم .

أقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس

وأجابته له على الفور بقوله :

لا تكروا ضربي له من دونه مثلا شروداً في الندى والبأس

فأله قد ضرب الأقل لنوره مثلا من المشكاة والنبراس

ومثل ذلك، أبي تمام في شدته وقوته، حفظه، قيل إنه كان يحفظ أربع عشرة ألف أرجوزة للمعرب عدا القصائد والمقطعات. وقد يكون في هذا شيء من المبالغة، إلا أننا نستطيع أن تبين منه إلى حد ما كثرة حفظ أبي تمام وغزارته. ومن يدري لعل « الحماسة » و « الاختيارات من شعر الفحول » و « فحول الشعراء » خير ما حفظ لا خير ما قرأ.

ح - مذهبه السياسي الديني !

ولكن، لأبي تمام رأي في السياسة؟ وبعبارة أخرى: أهو عبيسي أم علوي أم خزرجي!؟

إننا إذا سألنا شعره عن هذا أنبأنا أنه كان علوياً متطرفاً في فجر حياته إلا أنه لم يلبث أن عمد إلى الكتمان والمصانعة (فلبس لكل زمان لبوساً) وواجه كل فئة بالوجه الذي تقبله وتميل إليه. وقد سبق أن أشرت في هذا الفصل إلى رائيته التي مدح بها أهل البيت عليهم السلام وهو ابن سبع عشرة سنة.

وأضيف الآن إلى ما تقدم أن هذه القصيدة تتضمن بحثاً مسهباً لموقف جمهور المسلمين من أهل البيت وفي اعتقاد المترجم أن كثرة المسلمين لم تحفظ عهد الرسول في آله ولم ترع حقه في ولده فسلبتهم حقهم وأحلت غيرهم محلهم من الأمر والنهي، بل إنها فعلت بهم « أفيعيل أدناها الخيانة والغدر ». ويحدثنا هذا الغلام أنه ربما سهر الليل حتى

الصباح مفكراً في أمر الناس متأملاً في انحرافهم عن جادة الصواب باحثاً عن الوسائل التي تمكنه من إرشادهم وهدايتهم والخروج بهم من الظلمات إلى النور . ولكنه ينتهي إلى القول بأنه إذا كان الوحي لم يهدمهم سواء السبيل فما عسى أن يضع الشعر؟! إلا أن هذه الحدة في الرأي خفت كثيراً مع الزمان حتى أصبح أبو تمام علوياً مع العلويين وعباسياً مع العباسيين . فهو يقول مثلاً في مديح محمد ابن عبد الملك الزيات العلوي برأيه العباسي بعمله :

وزير حق ، ووالي شرطة ، ورجا ديوان ملك ، و (شيعي) ، ومحتسب

ويقول في أبي سعيد الثغري العباسي برأيه وعمله على السواء :

فلو صح قول الجعفرية بالذي تنص من الاتهام خلناك ملهما

وهكذا يتطور رأي أبي تمام في الدين والسياسة كما يتطور كل شيء في حياته الأدبية والمادية .

د - شعره :

لأبي تمام ديوان ضخم طبع في بيروت ومصر عدة مطبعات يحتوي على الغزل والمديح والفخر والوصف والرثاء والعتاب والهجاء والوعظ . وما أريد أن أقف عند غزل أبي تمام لأنه لا يمثل شعوراً حقيقياً أو عاطفة صادقة ، وهو إن مثل شيئاً فإنما هو العبت والمجون وما أريد كذلك أن أقف عند عتابه أو وعظه لأنه ليس في هذين البابين ما يستوقف الباحث . ولكنني سأتحدث إليك عن ابواب ديوانه الأخرى مبتدئاً بفخره

لأنه أقل متعة وفائدة من غيره فيما أظن .

فخره : يعالج أبو تمام في فخره أربعة مواضع لا يكاد يتعداها الى غيرها هي : شعره ، وأسفاره ، وأخلاقه ، ونسبه فكثيرا ما باهى بروائعه وبدائعه ووصفها بأنها (شديدة الأسر) (سالمة من الألقواء (١) والسناد (٢)) (منزهة عن السقط) (مكرمة عن المعنى المعاد (٣)) وهو يشبهها (بالوشي المنمنم) مرة و(بالدر المطلي بالشدرد) قارة ، وينعتها (بالسحر الحلال) ، ويعدها أحيانا طعنات نافذة وضربات قاصمة . وعلى الجملة دي خبير ما نفتقت عنه قرائح الشعراء ونظقت به ألسنتهم . ومن جميل فخره في هذا الباب قوله :

خذها مغربة في الأرض آسفةً بكل فهم غريب حين تعترب
من كل قافية فيها اذا احتيت من كل ما يشتهيه المدنف الوصب
الجد والهزل في توسيع لحمها

والنبل والسخف والأشجن والطرب

لا يستقى من حفير الكتب رونقها ولم تزل تسقي من بحرها الكتب

(١) الألقواء : هو المخالفة بين القوافي من حيث الاعراب .

(٢) السناد : هو اختلاف ما قبل الروي من حرف .

(٣) يخيل اليّ أن أبا تمام يغلو في هذا بعض الشيء . اذ الواقع أنه مولع بالتكرار ولعاً شديداً . فقد كرر وصف بكاء زوجته لسفره وتعزيتة اياها تكراراً يبعث على السأم . وكرر كذلك وصف مواقف أبي سعيد الثوري في فتنة بابك الخرمي تكراراً مملاً وربما كرر طرق الموضوع الواحد في القصيدة الواحدة ومن أمثلة ذلك وصفه نعمة المعتصم عند الافشين ، ونفاق هذا في اظهاره الاسلام وامراره الكفر في رائيته الشهيرة مرتين تفني اولاهما عن الذنوب تماماً .

حسية في صميم المدح منصبها إذ أكثر الشعر ملقى ماله حسب

وأما أسفاره فأنها تلعب دوراً خطيراً في فخره وهذا على الرغم من أنها كانت مبعث شقائه ومثار شكاته في كثير من الأحيان وهو يفخر بها لأنه يعتبرها رمز نشاطه ومظهر حيويته ودليل مضاء عزيمته وعلو همته ، وهي من هذه الناحية مبعث فخر كما يظن لولا أنها كانت دائماً وسيلة للاستجداء وسبباً للتكسب بالمديح . والغريب أن أبا تمام لا يتكرر شيئاً في هذا الضرب من الفخر على شدة ولعه به وإنما يقلد على الدوام تلك الصورة الجميلة التي رسمها أبو نواس لنفسه ولزوجته في رائيته التي مطلعها (أجارة بيتينا أبوك غيور . . الخ) والتي لم يتكرها أبو نواس بدوره وإنما اقتبسها من بشار وقد أشرت الى ذلك عند الكلام على حياة بشار . ولكنه هذبها وحسنها فكان أحق بها منه واليك مثلاً من فخر أبي تمام بأسفاره ، قال :

خذي عبرات عينك عن زماعي وصوني ما أذلت من القناع
أقلي ، قد أضاق بكالكِ ذرعي وما ضاقت بنزلة ذراعي
آآفة النجيب كم افتراق ألم ، فكان داعية اجتماع
ولست فرحة الأوبان إلا لموقوفٍ علي ترح الوداع

وأكثر ما يلفت نظر أبي تمام من أخلاقه صبره وعلو همته ، فهو يفخر بهما دائماً . وعندني أنه صادق في هذا الفخر كل الصدق ، فلو لم يكن عالي الهمة لما هجر وطنه دمشق طلباً للرزق وهو غلام لم يشتد ساعده بعد ولم يقو على مقارعة الخطوب ، ولو لم يكن على جانب كبير

من الصبر ورباطة الجأش لما صبر على مكابدة تلك الاهوال التي كانت
تقاذفه من مصر الى بغداد الى أرمينية الى خراسان الى غيرها من بلاد الله
الواسعة . ومن طريف فخره بماله من عالي الهمة قوله :

أبدت أسي أن رأيتي مجلس القصب وآل ما كان من عجب إلى عجب (١)
ست وعشرون تدعوني فأتبعها إلى المشيب ولم تظلم ولم تحب (٢)
يومي من الدهر مثل الدهر مشتهر عزمًا وحزمًا وساعي منه كالحق (٣)
فأصغري أن شيئاً لاح بي حدثاً وأكبري أنني في المهد لم أشب
فلا يؤرقك إيماض القتير به فإن ذلك ابتسام الرأي والآدب (٤)

أما في الصبر فحسبي أن أروي لك قوله :

إذا أناخ عليّ الدهر كلكله قرأه صبراً وعزمًا مني الكرم (٥)
وإن علتني من أزماته ظلم صبرت نفسي حتى تكشف الظلم

ولقبيلة الشاعر مكانها اللائق بها في شعره ، ومن رأيه أنها أكبر
القبائل شأنًا وأعلاها منزلة وأعزرها جودًا وأشدّها بأسًا . (أمردها كهل)
لرجاحة عقله وحصافة رأيه ، (وأشبهها حبر) لسعة علمه وغزارة فضله ،
ومن معتدل فخره بقيلته قوله :

-
- (١) أجلس الشعر : شاب أو اختلط بياضه بسواده . القصب : جمع قصبه -
الأو هي محرّكة - وهي الخصلة الملتوية من الشعر .
(٢) لم تحب : لم تضع حوباً أي انبأ .
(٣) الساع : جمع ساعة . والحقب : جمع حقبه وهي المدة غير المحدودة
من الزمن .
(٤) القتير : أوائل الشيب .
(٥) الكلكل : هو الصدر ومقدم العنق .

أنا ابن الذين استرضع الجود فيهم وسمي فيهم وهو كهل ويافع (١) .
سما بي أوس في السماح وحاتم وزيد القنا والاثرمان ونافع
وكان إياس ، ما إياس ونافع ، وحارثة « أوفى الوري ، والأصابع
مضوا ، وكان المكرمات لديهم ، لكثرة ما أوصوا بهن ، شرائع
هم استودعوا المعروف محفوظ مالنا فضاع وما ضاعت لدينا الودائع
أصارت لهم أرض العدو قطائعاً ، نفوس لحد المرهفات قطائع
بكل فتى ما شاب من روع وقعة ولكنه قد شبن منه الوقائع
إذا ما أغاروا فاحتووا مال معشر أغارت عليهم فاحتوته الصنائع
فتعطي الذي تعطيهم الخيل والقنا أكف لارث المكرمات موانع

وصفه : أدل من فخر أبي تمام على سعة خياله وخصب قريحته وصفه
الحافل بالصور الصادقة والمشاهد الرائعة . وأول شيء يلاحظ في هذا
الوصف هو أن الطبيعة تحتل المكان الأول منه . ولك أن تقرأه لتبين
فيه دوي الرعد ولمعان البرق وهطول الأمطار وابتسام الروض . وليس

(١) اليافع : هو الغلام المرامق للعشرين . وكان الصواب أن يقول « وهو
يافع وكهل » إلا أن القافية حالت بينه وبين ذلك .

أبو تمام أول من فعل هذا في الأدب العربي ، ولكنه ربما كان أول
من أحب الطبيعة حباً حقيقياً ووصف بعض ظواهرها وصفاً يكاد يكون
غزلاً ، اسمع قوله :

ديمة سمحة القيادة سكوب مستغيث بها الثري المكروب
فلو سعت بقعة لاعظام نعمى لسعى نحوها المكان الجديب
لذ شؤبوبها وطاب فلو تستطيع قامت فعانقتها القلوب (١)
فهي ماء يجري وماء يليه وعزالي ثنا وأخرى تذوب

كشف الروض رأسه واستسر المحل منها كما استسر المرير
فإذا الري بعد محل وجرجان لديها بيرين أو ملحوب (٢) أيها الغيث حي
أهلاً بمغداك وعند السرى وحين تؤوب فقد لا أخطيء إذا لاحظت أن
أبا تمام أول من وجد في شؤبوب الغمام لذة تكاد تحمل القلوب على
معانقته . وقد لا أخطيء إذا لاحظت أن أبا تمام أول من رحب بالغيث
على النحو الذي نجده في هذا البيت :

أيها الغيث حي أهلاً بمغداك وعند السرى وحين تؤوب

وقد لا أخطيء كذلك إذا لاحظت أن أبا تمام أول من تحدث عن الغيث

(١) من هذا القبيل قول أبي تمام في أرجوزة مطولة يصف بها سحابة :

لما بدت للارض من قريب تشوقت لوبلها السكوب

تشوق المريض للطبيب وطرب المحب للحبيب

وفرحة الأديب بالأديب

وبهذه المناسبة أحب ان أقول : ان لأبي تمام شعراً كثيراً في وصف

الأمطار أكثره في باب الوصف من ديوانه .

(٢) يدل هذا البيت على أن أبا تمام يعتبر شبه جزيرة العرب مضرب المثل

في الخصب وجودة التربة مع أنها ليست كذلك في الحقيقة .

بهذه اللهجة التي تدل على الإعجاب مرة ، وعلى الاعظام تارة ، وعلى
الحب والحب الشديد طوراً • والذي أستتجه من هذا هو أن أبا تمام
يفهم جمال الطبيعة فهماً تاماً ويهيم بها هياماً تاماً : فهو يفهم جمالها
إذا تلتفت السماء بالسحاب وغمرت الأرض هواطل الأمطار وهو يفهم جمالها
إذا حسرت السماء رداء السحاب واخذت الشمس المشرقة تنشر النور
والدفء والخصب في الأرض :

مطر يذوب الصحو منه ويغده صحو يكبد من الغضارة يمطر
غيثان فالأنواء غيث ظاهر لك حسنه والصحو غيث مضمّر

وهو يفهم جمالها كذلك إذا تبسّم النور واختلط لونه الفضي بشعاع
الشمس الذهبي ونشأ عن اختلاطهما ما يشبه نور القمر في لطفه وسجّوه
وسحره وإيحائه :

يا صاحبيّ - تقصياً نظريكما تريا وجوه الأرض كيف تصوّر
تريا نهاراً مشمساً قد شابه زهر الربى فكأنما هو مقمر

على أن هذا الفهم الدقيق الذي يلهم أبا تمام روائع الغزل في الطبيعة
يستثير في قلبه كوامن الايمان أحياناً فيملأ نفسه خشوعاً وإسانه تسيحاً ،
فاذا هو يهلل الخالق الأعظم ويكبره ويقدره ويمجّده ، وإذا هو
يستخرج العبر البليغة مما يرى من مشاهد الطبيعة وما يطرأ عليها من نموّ
وازدهار وذبول وانحلال • إسمع قوله في وصف الزهر واختلاف
ألوانه :

من فاقع غضّ النبات كأنه درر تشقق قبل ثم تزعفر
أو ساطع في حمرة فكأنما يدنو اليه من الهواء معصفّر

صبغ الذي لولا بدائع لطفه م عات أصفر بعد إذ هو أخضر
وقوله مشيراً الى انتهاء زمن الربيع وذبول أزهاره :
عجبت من ذي فكرة يقظان رأى جفاف زهر الغيطان (١)
فشك أن كل شيء فان

وكما يجيد أبو تمام تصوير الطبيعة * يجيد كذلك وصف غيرها من
الأشياء ، من ذلك وصفه القلم في قصيدة يمدح بها محمد بن عبد الملك
الزيات وما هو :

لك القلم الأعلى الذي بشبابه تصاب من الأمر الكلى والمفاصل
لعاب الأفاعي القاتلات لعابه

وأري الجنى اشتارته أيد عواسل (٢)
له ريقة ظل ولكن وقعها بآثاره في الشرق والغرب وابل
فصبح إذا استنطقته وهو راكب وأعجم إن خاطبته وهو راجل
إذا ما امتطى الخمس اللطاف وأفرغت

عليه شعاب الفكر وهي حوافل (٣)
أطاعته اطراف القنا وتقوض لنجواه تقويض الخيام الجحافل

فليس من شك في أن هذه الأبيات صورة صادقة لقلم تتعلق مصائر
الناس بشقيه ، فيقضي على من يشاء منهم بالويل والثبور ويقضي لمن يشاء
منهم بالرزق الواسع والجاه العريض . يشير بالحرب فإذا هي شعواء
تلتهم الأموال والأرواح التهاما . ويشير بالسلم فإذا هي نامية زاهرة

(١) في طبعة الديوان المنجزة ببيروت تحت اشراف محي الدين الخياط :
« رأى جفون زهر الألوان » واكبر الظن ان الصواب ما اثبتناه .
(٢) الأري : العسل . الجنى : القطف . اشتارته : جنته .
(٣) الشعاب : مجاري الماء . حوافل : ممتلئة .

عميمة الخيرات عظيمة البركات • على أنه لم يكن رسول حول وطول
فحسب ، بل إنه رسول فطنة نافذة وحكمة بالغة وتجربة كلها توفيق
وسداد • وقس على ما تقدم من وصف ابي تمام تصويره لكثير من الاشياء
التي نبهت حسه وألهمت خياله واستوحت شاعريته •

رثاؤه : أما رثاء ابي تمام فمن الممكن ان يقسم الى مطبوع ومضنوع •
وهو في الاول قوي العاطفة صادق الشعور حاد الالم • وفي الثاني صاحب
صناعة يحسن اختيار المعاني وانتقاء الألفاظ ويجيد صقل الديباجة على الاكثر
واقول على الاكثر لأنه سيف أحياناً في هذا النوع من رثائه اسفاحاً
لا يكاد يصدق ، فليس من السهل ان تتصور أن القائل :
فتى سلبته الخيل وهو حمى لها وبزته نار الحرب وهو لها جمر

هو الذي يقول :

مضى خالد بن يزيد بن مزيد قمر الليل شمس الضحاء

وأن القائل :

يود اعدائهم لو انهم قتلوا وأنهم صنعوا بعض الذي صنعوا

هو الذي يقول :

ولم انس سعي الجود خلف سريره باكسف بال يستقيم ويطلع
وتكبيره خمساً عليه معالناً وان كان تكبير المصلين أربع

هذا الى ان اعراب البيت الثاني غير مستقيم اذا استقام معناه لأن
المعقول في اعرابه هو أن تكون (تكبير) اسم كان و (اربع) خبرها
لا العكس كما يريد أبو تمام أو كما تريد له الضرورة الشعرية • ولكن

إن كانت الصنعة قد غلبت على هذا الجانب من رثاء أبي تمام ، وإن كان الاسفاف قد تطرق اليه في أماكن كثيرة بسبب عدم إخلاصه فيه فإن له رثاءً تفجر من ثناياه الدموع وتحيش في طياته الحسرات وتتردد خلال كلماته الأنفاس الحارة ، فضلا عن أنه مثل رائع في النفس والجودة ، هذا الرثاء هو رثاؤه لولده وإخوته ولآل حميد الذين نجتمع بينه وبينهم رابطة النسب . وأنت إذا تأملت هذا الرثاء رأيت أنه صورة صادقة لما نزل بالشاعر من فجائع وكوارث في أهله الأقربين والأبعدين ولما يجيش في صدره من عواطف وأحاسيس ، ولما يعتلج في نفسه من اشجان وآلام . فهذه قصيدة بل عدة قصائد تصف إقدام آل حميد وشهامتهم وثباتهم وبسالتهم وركوبهم متون الأخطار دفاعاً عن المملكة الإسلامية وورود كل منهم حتفه في هذا السيل . وهذه قطعة تذكر فقدان الشاعر طائفة من ولده وإخوته في سنة واحدة ، وتشير إلى شماته أعدائه به والى صبره على ما يلقي من عنت الخطوب ، وهذه أخرى تصور ما لقي أخ له من أهوال الاحتضار بمنظر منه ، وهكذا . وليس من شك في أن رائية أبي تمام الشهيرة التي رثى بها محمد بن حميد الطوسي ، ابلغ رثائه واحسنه اليك منها هذه الأبيات :

فقيّ مات بين الطعن والضرب ميتة تقوم مقام النصر إن فاته النصر
وما مات حتى مات مضرب سيفه من الضرب واعتلت عليه القنا السم
وقد كان فوت الموت سهلاً فرده إليه الحفاظ المر والخلق الوعر

ونفس تعاف العار حتى كأنما

هو الكفر يوم الروع او دونه الكفر

فأثبت في مستقع الموت رجله وقال لها من تحت اخمصك الحشر

غدا غدوة والحمد نسج رداثه فلم ينصرف إلا واكفانه الاجر

تردى ثياب الموت حمراً فما دجى

لها الليل إلا وهي من سندس خضر

كأن بنى نهبان يوم وفاته نجوم سماء خر من بينها البدر

يعزون عن ثاو تعزى به العلى ويكي عليه البأس والجود والشعر

وأنى لهم صبر عليه وقد مضى الى الموت حتى استشهدا هو والصبر

• مهما نقل في تقريض هذه القصيدة فانتا لن نبلغ من ذلك مبلغ ابي

دولف العجلي الذي قال لا ابي تمام وهو يشير اليها (لوددت ا نها لك في

وعندما قال له أبو تمام (بل أفدي الأمير بنفسى) أجابه (ما مات من رثي

بهذا الشعر) •

* * *

مديحه : ومهما يكن من جودة رثاء أبي تمام فإن مديحه أحسن

شعره وأجوده كما أنه أكثره أيضاً • بيد أنه مما يؤسف له ان ابا تمام

لا يتوخى الحقيقة ولا يلتزم الصدق في مديحه وإنما يمدح الناس بما

يعجبهم أن يمدحهم به وبما يعجبه هو أيضاً ان يمدحهم به • ولنا نظلم

أبا تمام عندما نشهد عليه بالكذب فهو يقول لعمر بن طوق التغلبي بصريح

العبارة :

ومتى مدحت سواك كنت متى يضق عني له صدق المقالة أكذب
ويصرح في أهاجيه لمدوحيه القدماء بأنه كذب في مديحهم كذباً
لا غبار عليه .

وسأذكر مثلاً عن اعترافه بكذبه عند الكلام عن هجائه ولكن الى
جانب هذه الأكاذيب التي يمتليء بها مديح أبي تمام حقائق كثيرة يفيض
بها وصفه لما كان جارياً بين المسلمين والروم من نضال دائم ونزاع
لا ينقطع على حدود آسيا الصغرى ، ولفتته بابك الكبرى التي استفحل
أمرها حتى شملت أذر بيجان كلها ودامت نحواً من عشرين سنة وقضت
على عدد غير يسير من جنود السلطان وقواده ، ولحوادث سياسية أخرى .
وغني عن البيان أن موقف أبي تمام من حيث هو شاعر متكسب تهمه
الجائزة ويستويهه رضا الممدوح لا يسمح له أن يبحث دائماً عن الحقيقة
وأن يقررها كائنه ما كانت . فقد مدح الأتقيين في أيام حظوته عند
المعتصم مديحاً رفعه به إلى منزلة الأبطال وعدّه رجل القضاء على فتنة
بابك الخزمي (١) ، ولكنه هجاه أفضح هجاء عندما خانته الحظ وحل عليه
غضب المعتصم . إلا أنه - أعني أبا تمام - لا يتردد في تقرير الحقيقة
إذا اتفقت ومصلحة الممدوح ، وأنت إذا تأملت بائيته في فتح عمورية

(١) الخزمي : نسبة الى الخرمية وهي طائفة من الفرس تدين بالتناسخ
والاباحية .

ولاميته التي هنا فيها المعتصم بقمع فتنة بابك والتي مطلعها :-

آلت أمور الشرك شر مآل وأقرّ بعد تخمط وصال (١)

رأيت أنه حريص كل الحرص على عرض حقائق الأشياء كما هي ،
وسبب ذلك أنها تتفق ومصالحة ومدوحوه ورغبته كل الاتفاق ، وقل مثل
ذلك في إطرائه مواقف أبي سعيد الثغري في منازلة الروم ومناهضة بابك
الخرمي على ان قيمة مديح ابي تمام ليست في تمثيله حقائق الحرب
والسياسة فحسب وإنما هي في دقة معانيه وفصاحة ألفاظه وجودة أدائه ،
اسمع قوله في وصف إحراق عمورية :

لقد تركت أمير المؤمنين بها للنار يوماً ذليل الصخر والخشب
غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحي يقله وسطها صبح من اللهب
حتى كأن جلايب الدجى رغبت عن لونها ، أو كأن الشمس لم تغب
ضوء من النار والظلماء عاكفة وظلمة من دخان في ضحي شحب
فالشمس طالعة من ذا ، وقد أفلت

والشمس واجبة في ذا ولم تجب (٢)

وقوله في وصف بلاء أبي سعيد الثغري في سبيل القضاء على فتنة
بابك الخرمي :-

أنهت أرواحه الأرماع إذ شرعت فما تردّ لريب الدهر عنه يد
كأنها وهي في الأوداج والغة
وفي الكلبي ، تجد الغيض الذي تجد

من كل أزرق نظار ، بلا نظر ، الى المقاتل ، مافي منه أود
كأنه كان ترب الحب مذ زمن فليس يعجزه قلب ولا كبد

(١) التخمط : التكبر .

(٢) واجبة : غائبة .

وقوله واصفاً سطوة أبي سعيد أيضاً في بلاد الروم :-

المسا لقوق تواقك وأعدورا
هرباً فلم ينفعم الاعذار (١)
فهنالك نار وغيّ تشب ، وهنا
جيش له لجب وثم مغار (٢)
خضعوا لصولتك التي هي عندهم
كالموت يأتي ليس فيه عار
فالمشي همس ، والنداء اشارة ،
خوف اتقامك والحديث سرار
ان لا تل منويل أطراف القنا
أو تن عنه البيض وهي حرار
فلقد تمنى أن كل مدينة
جبل أسم وكل حصن غار

فلا نزاع في أن في هذه المثل ، وهي قل من كثر من محاسن
مديح أبي تمام ، من دقة التفكير وجمال التعبير وصفاء الديباجة ما يرفعها
إلى أسمى مراتب الكلام .

هجاؤه : والبحث عن مديح أبي تمام يسوقنا الى البحث عن هجائه .
وأقل ما يقال في هذا إنه لأذع قارص ، هدفه القضاء على سمعة المهجو
وتمزيق عرضه تمزيقاً ، وإلباسه ثوب العار والصغار الى الأبد سواء
أكان ذلك حقاً أم باطلاً هذا إلى أنه غير منزّه عن الفحش والهجر
وبعض مهجوتي المترجم هم من ممدوحيه القدماء . وقد غلا في هجائهم
كما غلا في مديحهم وأسرف في ذمهم كما أسرف في الثناء عليهم .

(١) تواقك : وكلك بعضهم الى بعض خوفاً منك .

(٢) اللجب : الصياح .

والجائزة هي العامل الاول بل الوحيد في هذا كله لسوء الحظ ، وقد
ينتقل خصوم أبي تمام الى دار البقاء قبل أن يشفي غليله منهم بالهجاء فلا
يشفع لهم هذا عنده ، ولا تخطر له المغفرة على بال ، وإنما يمضي في
ذمهم والظعن عليهم كما لو كانوا أحياء يناصبونه العداة ويبادلونه البغضاء
والشحناء ، ومن ذلك أنه هجا عياش بن لهيعة بعد موته ، فقال : إن
القبر تضور من وجوده فيه حتى كأنه هو المقبور ، وإن منكراً ونكيراً
فرا منه ظناً منهما أنه منكر ونكير ، ولعلي أروي لك مثلاً من أقسى
هجاء أبي تمام وأعنفه . إذا رويت لك الايات التالية التي يهجو بها
موسى بن إبراهيم الرافقي وكان قد مدحه :

أمويس لا تفنِ اعتذارك طالباً	عفوي فما بعد العقاب عتاب
هب من له شيء يريد حجابه	ما بال لا شيء عليه حجاب ؟
ما إن سمعت ولا أراني سامعاً	أبدأً بصحراء عليها باب !
من كان مفقود الحياء فوجهه	من غير بواب له بواب
ما زال وسواسي لعقلي خذعاً	حتى رجا مطراً وليس سحب
ما كنت أدري لا دريت ، بأنه	يجري بأفنية السيوت سراب
.

عجياً لقوم يسمعون مدائحي	لك لم يقولوا قم فأنت مصاب
نبروا بكذاب مسيلمة فقد	وهما وجاروا ، بل أنا الكذاب
هتكت ديني فاستترت بتوبة	فأنا المقر بذنبه التواب

فالرافقي كما تصوره هذه الأبيات لا شيء . بل هو صحراء قاحلة .
بل هو رجل لا حياء له أما مديحه فدليل وأضح على جنون الشاعر
هذا إلى أنه أشنع وأفظع من أكاذيب مسيلمه الكذاب . وهل بعد هذا
كله زيادة لمستزيد .

لغته وأسلوبه : بقي أن أقول لك كلمة في لغة أبي تمام وأسلوبه .
والواقع أن شعره غير منزّه عن وحشي الكلام وحوشيه وأنه حافل
بالزخارف البديعية المتكلفة (١) إلا أنه فصيح اللفظ متين السبك على
العموم مرصّع بالامثال الحكيمه التي يضربها الشاعر من حين لآخر
تأييداً لوجهة نظره ترصيعاً جميلاً .

يحدثنا أبو تمام في قصائد كثيرة أنه يقضي الليل في تهذيب شعره
وتنقيحه ولكن في شعره ما يناقض هذا مناقضة تامة ، فمن ذلك قوله :-

قدك اتب أريت في الغلواء كم تعذلون واتم سجرائي

وقوله :

وأباح نصل السيف كل مرشح لم يحمرر دمه من الاطفال

وقوله :

فأنت وصنواك الكريمان أخوة خلقتهم سعوطاً للأنوف الرواغم

« فقدك اتب » - أي حسبك - و « أريت » - أي أسرفت -

(١) بين النقاد المعاصرين زمرة تستحسن تكلف أبي تمام زخارف البديع
استحساناً شديداً وترى في ذلك دليلاً آخر على انه من أصل يوناني . فاكثف
بأن أسجل على هؤلاء النقاد انهم من انصار التكلف .

و « سجرا » - أي خلطاء - كلمات غريبة اقل ما يقال فيها إنها ثقيلة الجري على اللسان ثقيلة الوقع في السمع و « لم يحمرر » كلمة متنافرة الحروف ، و « سعوط » كلمة سمجة الى الغاية . وهناك تعابير ركيكة منها قول أبي تمام :-

صبحته بمدامة صبحتها بسلافة الخلطاء والندماء

أي باكرت الروضة بمدامة أسميتها مدامة الخلطاء والندماء ، ومنها قوله متغزلاً :

عبدك يشكو باسطاً خمسه مبتهلاً يدعو فلا تنسه

والبيت من الركاكة بحيث لا يحتاج الى تعليق .

وكان على أبي تمام أن ينزه شعره عن هذه السقطات التي لم نذكر منها إلا النزر اليسير إلا أن شغفه بشعره حال بينه وبين ذلك (١) على أنك اذا درست شعره وتاملته رأيت أنه في جملة فصيح اللفظ متين السبك نقي الديباجة ، وفي ما تقدم وما سيأتي منه خير شاهد على ذلك . أما الزخرفة البديعية فلا شك في أن أبا تمام قد أسرف في استعمالها إسرافاً شديداً ، وأنها قد أدخلت الوهن بل الفساد على كثير من شعره فجات فيه الاستعارة الزائفة والطباق المرذول والجناس غير الموفق . فمن استعاراته الزائفة قوله :

رأى لو استسقيت (ماء نصيحة) لجعلته أرباً من الأرباء

(١) يحدثنا صاحب الاغاني ان أبا تمام انشد احد معاصريه من الشعراء قصيدة لم يكن فيها سوى بيت ضعيف واحد . فقال له الشاعر : (يا أبا تمام لو القيت هذا البيت ما كان في قصيدتك عيب .) فقال له : (أنا والله اعلم منه مثلما تعلم . ولكن مثل شعر الرجل عنده مثل اولاده فيهم الجميل والقيح والرشيد والساقط وكلهم حلوا في نفسه . فهو وان احب الفاضل لم يبغض الناقص وان هوى بقاء المتقدم لم يهو موت المتأخر) . الاغاني ج : ١ ص ٩٦ مطبعة مطبعة التقدم بمصر .

ومن مطابقاته المرذولة قوله :

أيا قمر السماء (سفلت) حتى كأنك قد ضجرت من (العلو)

ومن مجانساته غير الموفقة قوله :

أي حسن في الذاهين تولى وجمال على ظهور الجمال
ودلال مخيم في ذرى الخيم م وحجل معذب في الحجال

إذ من الجلي أن استعارة الماء للنصيحة زخرفة زائفة لأن
الاستعارة يجب أن تقوم على شبه ما بين المستعار والمستعار له . وما
أظنك تجد هذا في استعارة أبي تمام المتقدم إيرادها ، ونعت الحبيب
بالسفل وإن كان المقصود منه مشيه على الأرض بعد إمعانه في العلو
تعبير لا يجيزه أدب الحب . وحشر الجمال والجمال والحجل والحجال
في تعابير جافة كاتي سبق ذكرها زخرفه لفظية لا يستيغها قارئ له
ذوق . وفي الامكان إعطاء أمثلة أخرى كثيرة جداً لهذه السقطات .

ولكن إن كان العمل قد أفسد على أبي تمام طائفة من شعره فإنه
قد وافق طبعه في كثير منه فأدى الى أحسن النتائج وأفضلها ، وإلا فمن
ينكر تلاؤم الطبع والصنع في قوله :

السيف أصدق أنباءً من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

بيض الصفائح لا سود الصحائف في

متونهن جلاء الشك والريب

والعلم في شهب الأرماع لامعة

بين الخمسين لا في السبعة الشهب

وفي قوله من نفس القصيدة :

ليت صوتاً زبطرياً هرقت له كأس الكرمى ورضاب الخرد العرب

عداك حر الثغور المستضامة عن برد الثغور وعن سلسالها الحصب

وفي قوله واصفاً فرح العالم الاسلامي بشنق الافسين وإحراقه :

رمقوا أعلي جذعه فكأنما وجدوا الهلال عشيّة الافطار
واستشقوا منه قناراً نشره من عنبر ذفر ومسك داري
وتحدثوا عن هلكه كحديث من بالبدو عن متابع الأمطار
وتباشروا كتباشر الحرمين في قحم السنين بأرخس الأسعار

وفي قوله مادحاً المعتصم :

جلا ظلمات الظلم عن وجه أمة أضاء لها من كوكب الحق آفله

وفي قوله واصفاً الجندي العباسي :

خلط الشجاعة بالحياة فاصبحا كالحسن شيب لمغرم بدلال

ففي هذه المثل تشايه حسنة واستعارات جميلة ومجانسات طريفة لم تستلزم غموض معنى ولا ركافة لفظ وإنما أضفت إلى دقة المقاصد والأغراض ولطف الأداء وسلامته جمال الزخرفة البيانية التي لا تلمس فيها أثر التكلف وليس من شك في أن شعر أبي تمام الذي يتعاون الطبع والصنع على تجويده يحتوي على أمثلة أخرى كثيرة من هذا القليل .

وتسألني عن أمثال أبي تمام فأقول لك إنها على جانب كبير من النفاسة لأنها ثمرة علم غزير وخبرة طويلة وتجربة واسعة . ولقد كان أبو العلاء على حق عندما وصف المترجم والمتنبى بأنهما حكيمان . وليس أدل على ذلك من هذه الحكم الغالية التي يرصع بها أبو تمام شعره فتضمنها قصائده

حيناً وتجيء مستقلة حيناً آخر • وهي في كل حال خلاصة تفكيره ومجموعة
خواطره وآرائه في الحياة والاجتماع ، إسمع منها قوله :

إذا المرء لم يزهد وقد صبغت له بعصفرها الدنيا فليس بزاهد

وقوله :

محاسن أصناف المغنين جمّة وما قصبات السبق إلا لمعبد

وقوله :

والسيف مالم يلفّ فيه صيقل من سنخه لم ينتفع بصقال

وقوله :

ولم أر نفعاً عند من ليس ضائراً ولم أر ضراً عند من ليس ينفع

وقوله :

ينال القتي من عيشه وهو جاهل ويكدي القتي في دهره وهو عالم

ولو كنت الارزاق تجري على الحجا

هلكن إذن من جهلهم البهائم

وما أشك في أنك تروي قوله :-

وإذا اراد الله نشر فضيلة طويت ، أتاح لها لسان حسود

وقوله :

وإذا أمرؤ أسدى إليك صنيعاً من جاهه فكأنها من ماله

وقوله :

ليس الغبي بسيد في قومه لكن سيد قومه المتغابي

هـ - خاتمة :

كثير هو دون شك شعر أبي تمام الذي لا يغذي في هذا العصر عقلاً ولا عاطفة والذي إن درس فانما يدرس لغاية تاريخيه . ولكن لا تزال بين دفني ديوانه ولا سيما في بابي الرثاء والوصف غرر ونفائس أشك جداً في أنها تموت في يوم من الايام ، لئما أمثاله فكثرتها الكبرى . تستحق أن تروى في كل زمان وفي كل مكان .

الفصل الثاني

البحرئ

أ - حياته : اسمه ونسبه وكنيته • مولده ونشأته • ثقافته • ما يقال عن تخرجه على أبي تمام • مناقشته • أسفاره الأولى • ما نشأ عنها من ائرائه • هجرته الى العراق • اتصاله بالفتح بن خاقن • تقديم هذا اياه الى المتوكل على الله • حظوته عنده • برم المتوكل والفتح بن خاقن به • رضائهما عنه • اثره في نقل المتوكل دواوينه الى دمشق • بقاؤه في حاشيته حتى آخر سنة من حياته • حاله على عهد المنصور • صلاته بالمستعين • حظوته عند المعتز • صلاته بالمهتدي والمعتمد على الله • اختلافه الى سورية وتكر هذه له • ثروته • كونها مصدر شقاء له • استرداد الحكومة جزماً غير يسير منها • وفاته •

ب - أخلاقه : بخله • اعجابه بشعره • اقدامه • وفاؤه • حبه الشديد للخير •

ج - مذهبه السياسي الديني •

د - شعره : جمعه وطبعه • غزله : مكان التقليد منه ، حظه من الاصاله • حبه لعلوه • مثل من غزله فيها • مديحه : اشتماله على صفحات اصيله واخرى مبتذلة ، ماله من المزايب التاريخية العديدة ، تمثيله حياة القرن الثالث

للهجرة العسكرية والسياسية ، بعض ما يمثلها منه ، ماله من
القيمة التصويرية ، بعض غرره في هذا الباب . رثاؤه :
المتوسط والممتاز منه . خصائص كل منهما ، مرثيته
للمتوكل على الله ، تحليلها ، مرثيته لآل حميد ، مجمل
القول فيها ، موقف النقاد المحدثين من رثائه . فخوره :
عناصره . لقاؤه الذئب وقتله اياه . تصويره هذه الحادثة .
وصفه : تمثيله حضارة القرن الثالث للهجرة . تصويره قصور
المتوكل على الله وابنه المعتز ، وصفه ايوان كسرى .
سببه والغرض منه . نقده وتحليله . بعض من جازاه .
براعة البحري في وصف الطبيعة ، بعض بدائعه في هذا
الباب . هجاؤه : تفاهته وفكاهته . مثل منه . عتابه :
لطفه . ما يحمله على التلطف فيه . مثل منه . فلسفته .
آراؤه في الدنيا والحياة والموت وما الى ذلك . بعض
كلماته في هذا الباب . لغته واسلوبه : ما سبقت
الاشارة اليه في هذا الصدد . مساويء منظومه ومحاسنه .
غلبه التدفر على جزء منه . شيوع الزحاف فيه . بعض
ما يؤيد ذلك . مخالفته بعض قواعد الاعراب . قدرته على
تأليف الصور الشعرية . أمثاله . طائفة منها .

• خاتمة - أهمية شعره : فائدة درسه وتمحيصه •

أ - حياته

كانت حصّة طيء من القريض العربي في القرن الثالث للهجرة حصّة الأسد فأبو تمام شيخ شعراء القرن طائي ، والبحري ثاني شعرائه في نظر عامة الرواة والنقاد طائي أيضاً . وقد حدثك فيما مضى عن الطائي الأول فأحدثك الآن عن الطائي الثاني وهو الوليد بن عبيد من بحتر وبحتر بطن من طيء وكنيته أبو عبادة . ولد سنة خمس ومائتين للهجرة (١) بمنبج (٢) إحدى قري حلب وبها نشأ وقرض الشعر . وكان لبادية الجزيرة وجوها النقي وسمائها الصافية عظيم الأثر في إيقاظ خياله وتكوين شاعريته « وإذا عدنا ما يقوله صالح بن الأصبغ التنوخي المنبجي من أنه رأى يمدح « باعة البصل والباذنجان » (٣) لم يبق مجال للريب في أن المترجم سليل أسرة فقيرة خاملة .

وقد أحب في أيام شبابه فتاة حليلة اسمها علوة يظهر من غزله بها وهجوه إياها (٤) أنها فتاة فائقة الجمال إلا أنها ليست ممن يضرب بعفتين المثل من بنات حواء .

والمعروف أن البحري تخرج على أبي تمام وعنه أخذ ، ولكن أمكث أبو تمام في بلد من البلدان مدة تمكنه من تخريج شاعر ؟ ألم

(١) تختلف كتب التراجم في تاريخ ولادة البحري ولكن الكامل في التاريخ يجزم بأنه ولد سنة « ٢٠٦ هـ » وهو يذكر هذا عند الكلام على وفاه الشاعر في حوادث سنة « ٢٨٣ هـ » .

(٢) وقيل بزر دفته والاول اشهر .

(٣) وفيات الاعيان ج١ ص ١٧٥ طبعته المطبعة الميمنية بمصر .

(٤) هجا البحري علوة على الرغم من حبه لها مراراً عديدة وذلك بسبب ما كان يحدث بينه وبينها من منازعات ومشاجرات .

تكن حياته مجموعة اسفار متواصلة من الشام إلى مصر إلى العراق إلى
أرمينية وهلم جري؟ ٠٠ ولستعرض تاريخ نشأة علاقة البحري بأبي تمام
كما يحدثنا به الرواة لنرى أينسجم هذا مع القول بأن الثاني كان استاذ
الأول ومخرجه؟

يحدثنا الرواة أن البحري لقي أبا تمام أول ما لقيه في مجلس محمد
بن يوسف الثغري وذلك عند إنشاده اياه مدحته التي مطلعها :

أأفاق صب من هوى فأفيقا أم خان عهداً أم أطاع شفيقا

وهم يقولون لنا في هذه القصة إن إنشاد البحري قصيدته هذه أغضب
أبا تمام لأنه لم يكن باذن منه ، فادعى أن القصيدة له وأعاد بعض ابياتها
واتهم البحري بسرقتها إلى آخر ما هنالك (١) وهم يحدثوننا من جهة
أخرى أن البحري لقي أبا تمام اول ما لقيه في مسجد حمص حيث كان
الشعراء يعرضون اشعارهم عليه ، وهم يقولون لنا في هذه القصة إن أبا
تمام استحسّن البحري وفضله على سائر الشعراء (٢) وواضح أن كلنا
الروايين المكدوبتين المتناقضتين ننص على أن البحري لقي أبا تمام أول
ما لقيه وهو شاعر مجيد يمكن أن يدعي أبو تمام شعراء أو أن يفضله
على كل من حضره من الشعراء فكيف يتفق هذا والقول ان المترجم درس
على أبي تمام وعنه أخذ؟ وشيء آخر ينبغي أن لا يعزب عن إذهانتنا ،
وهو أن بين أبي تمام وبين البحري فروقاً فنية لا ينبغي أن تكون بين
تلميذ وأستاذه . فأبو تمام رجل تفكير وتأمل يقتصر الأفكار اقتناعاً
ويغوص على المعاني غوصاً مجهداً ، والبحري رجل بديهية يحدثك بما

(١) الاغانى ج٨ ص ١٧٥ طبعته مطبعة التقدم بمصر ووفيات الاعيان ج٢

ص ١٧٥ طبع المطبعة الميمنية بمصر .

(٢) نفس المصدرين .

خطر على باله في غير عناء ولا تكلف * وأبو تمام محب لفخامة اللفظ
ورصانة التعبير والبحتري محب لركة اللفظ وجمال التعبير . وأبو تمام
امسرف كل الاسراف في استعمال الزخرفة البيانية يفرضها على شعره فرضاً
سواء أكانت مؤاتية أم مستعصية ، ملائمة أم غير ملائمة ، والبحتري معتدل
كل الاعتدال في استعمال هذه الزخرفة يأخذها ما جرت على لسانه عفواً
ويتركها ما استعصت على قريحته وامتنعت على بديهته . أفترى بعد كل
هذا أن البحتري مدين بتقيفه وتدريبه على ممارسة فنون الشعر لأبي
تمام ؟ ولست أنفى أن البحتري اقتبس طائفة من معاني أبي تمام ولكن
كم هي المعاني التي اقتبها ابو تمام من الشعراء ؟ قد تقول : ولكن
البحتري رد على سؤال وجه اليه في مجلس ابن المعتز بصدد تفضيله
على أبي تمام بقوله « إنه الرئيس والأستاذ » وأجيب عن ذلك : أولاً ،
بان هذه رواية كغيرها من الروايات يمكن تصديقها ويمكن تكذيبها .
وثانياً أن البحتري قال - إذا صح هذا التعبير - عن أبي تمام « إنه
الأستاذ » أي أستاذ صناعة القريض * ولم يقل إنه أستاذه ، وليس
ثمة من يفترض أن البحتري يناقش في زعامة أبي تمام الشعرية .

ونعود الى سيرة البحتري ، فنقول إنه كان في أول أمره صاحب
أسفار كأبي تمام ، فقد زار مصر وكثيراً من المدن السورية والعراق
قبل اتصاله بالمتوكل وبعض أقاليم فارس إلا أنه لم يستوطن إذ ذاك أي
بلد من هذه البلدان ، وإنما كان يسافر طلباً للرزق ثم يعود الى منبج .
ولم تكن أسفاره الأولى هذه قليلة الجدوى ، فقد بدأت ثروته تتجمع

منذ ذلك الحين وأخذ يشتري الضياع بدليل أننا نراه يلتمس من محمد بن يوسف الثغري أن يؤدي عنه خراج ضيعته (١) وأنت تعلم أن محمد بن يوسف هذا من أوائل ممدوحيه • وترك البحري منبج الى العراق ليتخذه دار إقامة له في عهد المتوكل على الله • وبدأ يمدح الفتح بن خاقان وزير المتوكل فاستحسنه هذا ووعدته أن يقدمه الى الخليفة ، ولم ينجز الفتح وعده بسرعة ، فاستحنه البحري على إنجازته بأكثر من قصيدة واحدة فمن ذلك قوله :

وعدت فأوشك نجح وعدك إنه من المجد أعجل المواعيد بالنجح
وأنت ترى نصح الامام فريضةً واخباره غني سليل من النصح

ولبى الوزير طلب الشاعر فقدّمه إلى الخليفة فأعجب هذا بشعره وأدبه واتخذه نديماً له ورفع منزلته حتى صار من ذوي الكنمة النافذة في قصره يشفع لذوي الحاجات ويتوسط في حل مشاكل الناس اذا صح ما يقوله هو في تائيمته التي سأذكر لك مثلاً منها عند الكلام على فخره وما أشك في أنه صحيح • على أن هذا لا يعني أن علاقته بالمتوكل كانت حسنة على الدوام • فقد أعرض عنه مرة بسبب وشاية كاذبة ، واضطر الى أن يستعطفه ويتراضاه في قصيدة مطلعها (شوق اليك تفيض منه الأدمع • الخ • ويرم به ذات مرة بسبب أعجابه بشعره وثقل إنشاده • فأمر أبا العنبر الصيمري أن يهجوّه ، فهجاه هجاءً قبيحاً حمله على الغضب والتفكير في العودة الى منبج من غير إذن ، لولا أن هداه الفتح بن خاقان وسرى

(١) التمس البحري هذا من محمد بن يوسف في ابيات اولها :

نفسى فذاك ووالداي كلاهما وجميع من ولدا من الاسواء

عنه ما علق بخاطره . (١) ولم تكن علاقته بالفتح ابن خاقان أقل تعرضاً للخطر ، فقد ساءت هذه الى درجة كادت معها تودي بحياته أو تضطره على الأقل الى مبارحة العراق والعودة الى منبج خائباً محروماً . والبحثري نفسه يصف لنا هذه المرحلة الدقيقة التي اجتازتها علاقته بالفتح بن خاقان حيث يقول من قصيدة يعاتب بها الوزير المذكور ويستعطفه :

رأيت العراق ناكرتني ، وأقسمت عليّ صروف الدهر أن اتئماً
وكان رجائي أن أووب مملكاً فصار رجائي أن أووب مسلماً

ولكنه استطاع بفضل ذكائه ودهائه أن يتغلب على جميع هذه الصعاب وأن يحتفظ بعطف المتوكل والفتح بن خاقان وأن يظل شاعر دولتها الى آخر أيام حياتهما .

وقد لا يعد أن يكون البحتري هو الذي حمل المتوكل على الانتقال بدواوينه الى دمشق (٢) ، لأننا نراه يحب إليه العاصمة الأموية فيقول :-

إن دمشقاً أصبحت جنّةً مخضرة الروض عذاة البراق (٣)
هواؤها الفضااض غصن الندى وماؤها السلسال عذب المذاق
والدهر طلق بين أكنافها والعيش فيها ذو حواش رقق
ناظرة نحوك مشتاقه منك إلى القرب ووشك التلاق

(١) الأغانى ج ١٨ ص ١٧٤

(٢) انتقل المتوكل الى دمشق سنة (٢٤٤ هـ) ونقل اليها دواوين ملكه وأمر بالبناء بها ، الا أنه تركها بعد شهرين وأيام لأسباب طبيعية واقتصادية في الظاهر .

(٣) عذاة : طيبة الهواء والبراق : موضع بالشام .

وكيف لا تؤثرها بالهوى
ويهنئه بالسفر إليها فيقول :-

قد رحلنا عن العرا ق وعن قطبها (١) النكد
حبذا العيش في دمشق اذا ليلها برد
حيث يستقبل الزمان ويستحسن البلد
سفر جددت لنا اللهو أيامه الجدد
عزم الله للخليفة فيه على الرشد
منها :-

يا إمام الهدى الذي احتاط للدين واجتهد
سر بسعد السعود في صحبة الواحد الصمد

ويطري محاسنها عنده في أثناء إقامته بها إظراء من وفي له بوعد
فيقول :

أما دمشق فقد أبدت محاسنها

وقد وفي لك مطربها بما وعدا (٢)

ولو لم تحل العوائق دون إقامة المتوكل بدمشق لباتت هذه المدينة
عاصمة الخلافة الاسلامية مرة أخرى ، ولغلبت الصبغة العربية في أقرب
الاحتمالات على سياسة خلفاء بني العباس ، ولكانت للبحثري بذلك
علاقة ما .

(١) هكذا في جميع الطبقات الموجودة بين يدي وربما كانت (قطرها) .

(٢) سأروي بقية وصف دمشق هذا عند الكلام على وصف للبحثري .

وبقي المترجم في حاشية المتوكل يعاشره ويسامره ويعرفه أيضاً إلى أن قتل وكان شاهد مصرعه فوصفه في رائيته القادم ذكرها وصفاً منقطع النطير . وركن البحري إلى الانزواء في أيام المنتصر بسبب حظوته عند أبيه وهجائه أياً في مرثيته لوالده هجاءاً مرأياً ، ولكنه عاد فمدحه واسترضاه . وكان الفضل في التوفيق بين الخليفة والشاعر لأحمد بن العنبري وزير المنتصر . ومدح صاحبنا المستعين ولكنه لم يكن ذا مكانة عنده . إلا أن نجمه سطع ثانية في خلافة المعتز الذي انزله منه منزلته من أبيه . ولك أن ترجع إلى قافيته التي مطلعها :

بودي لو يهون العذول ويعشق فيعلم أسباب الهوى كيف تعلق

لتبين مقدار العطاء الذي كان يغمره به المعتز . ومدح البحري المهتدي والمعتمد على الله ، إلا أنهما لم يقرباه .

ويعتقد الأستاذان أنيس المقدسي وبطرس البستاني أن البحري هجر العراق إلى منبج بعد مقتل المتوكل ، ولكنني لم أعثر على ما يؤيد هذا والذي أستتجه من شعره هو إنه كان يختلف إلى منبج من حين لآخر ليجدد العهر بأسرته ويتعهد أملاكه ، وأنه لم يكن يطيل الإقامة في هذه المدينة بسبب ما يلقي فيها من عنت الخصوم والحساد . وقد وصف لنا سوء مقامه في سوريا عامة ومنبج خاصة غير مرة ، فمن ذلك قوله في قصيدة يمدح بها جعفر بن عبدالغفار :

بأبي أنت لا تسلني بحال	في دخيل الأحناء منها وجيب
أنا بالشام موطن غير أني	بعد عهد العراق فيها غريب
نبوات من الصديق يروع	ن جناني كما يروع المشيب
واجتهاد من العدو ودهرى	طالب في السلاح أو مطلوب

لا أزور المنام إلا رقيب لي على الخيل أو علي رقيب

وقد أشرت أكثر من مرة إلى ثروة الرجل فأحب أن ألاحظ الآن أنها كانت مصدر شقاء له لا ينتهي . فهو يشكو مرة استيلاء بعض الناس على غلته ، وتارة انتزاع بعض أراضيهِ وطوراً وسوء معاملة الموظفين إياه وهلم جرا . وقد رد جزء غير قليل من ثروته إلى خزانة الدولة وذلك بالزمام أداء مبلغ كبير من المال يؤدبه أقساطاً وبذلك تخبرنا هذه الآيات :

امرتجع مني جباة خلائف توليت تسيير المديح لهم وحدي
ولم يحتمل إلا الذي قلت فيهم
وان رقدوا قوماً وزادوا على الرقد
فإن أخذ الايفار أخذ صريمة

ودارت على الاقطار دائرة الرد(١)

ولم يغن توكيد السجلات والذي تناصر فيها من ضمان ومن عقد
فردوا القوافي السائرات بمدحكم وما أكسبكم من ثناء ومن مجد
وشرخ شباب قد نضوت جديده

لديكم كما يفضو الفتى سمل البرد

وما أنا والتسييط اذ تكذبوني وتكتب قبلي جلته القوم أو بعدي
سبيلي أن أعطي الذي تطلبونه وشرطي أن يجدي علي ولا أجدي
صحبت أناساً أطلب المال عندهم فكيف يكون المال مطلباً عندي

(١) الايفار : منح السلطان الأرض من غير خراج ، او على أن يؤدي الخراج له رأساً لا إلى العمال . ولم أجد لقوله « أخذ صريمة » مدلولاً واضحاً إلا أنه قد يعني أخذاً لا هوادة فيه .

وسأل الخليفة المعتمد صاحبنا عن ماله فأجاب بأنه لم يبق منه شيء
سوي اوقف ضئيلة لا يعتد بها (١) .

وتوفّي المترجم بداء السكنة بمنبح وقيل بحلب سنة (٢٨٣) هـ على
رواية ابن الاثير التي تخالفها روايات عدة قد لا يصح التعويل عليها .
ولم يخطيء القاسم ابن عبدالله الذي قال عندما أخبر إن البحرّي توفي
بداء السكنة « ويحه رمي في احسنه » (٢) .

ب - أخلاقه :

كان البحرّي سامحه الله بخيلاً مفرماً بجمع المال معجباً بشعره الى
الى أبعد حدود الاعجاب إلا أنه كان عالي الهمة شجاعاً وفيّاً مجباً للخير .
وما أريد أن أستمد رأيي في بخله وحرصه الشديد على المال من قول
صاحب الأغانى : « إنه كان من أوسخ خلق الله ثوباً وآلةً وابلهم
على كل شيء » وإنه كان يقتل أخاه وعلامة جوعاً ، ولا يعطيها لمن
أقواتهما إلا بمسقة . . . لأنني أعتقد أن البحرّي قد تحضر وألف النظافة
وحسن الهندام منذ اتصّله بالمتوكل على الأقل ، ولا أتنا لا نعرف اسمي
ذنبك الشقين اللذين قيل إن البحرّي كان يقتلها جوعاً ولا ندري أين
كتب لهما هذا الشقاء على يده ومتى؟! ولكنني أستمد رأيي في
بخله وحرصه الشديد على المال من قوله :

وموضح لي سبيل الرشد قلت له

الرشد صاب وبعض الغي من شهيد

(١) انظر قافية البحرّي التي مطلعها :

أرنيك الآن ألمع البروق أم شعلا مرفضة من حريق

(٢) الأغانى ج ١٨ ص ١٧٢ طبع مطبعة التقدم بمصر .

أهوى الثراء ، وكم من ثروة كسبت

لي العداوة من رهطي ومن ولدي ؛

حتى لا تُكرت من قد كنت أعرفه من الأخلاء واستوحشت من بلدي

فواضح أن الرجل من شدة البخل بحيث لا يصغي الى لوم لائم في سبيل حشد المال وتكديسه وأن البخل قد فرق بينه وبين أهله وولده ، وأنه قد أفقده عطف أصدقائه وأكسبه عداوة مواطنيه . وهناك شيء آخر له دلالة أيضاً على تمكن هذا الخلق الذميم منه ، وهو تنزله الي مدح الناس وطلب جوائزهم بعدما غمره المتوكل والفتح بن خاقان بالعطاء حتى صار من أولي الثروات الطائلة والأُملاك الواسعة ، وبعد أن وهبه المعترز وحده ما يفنيه عن السؤال مدة حياته . ولكنه الشح ، « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون . . »

وما أستمد رأيي كذلك في إعجابه الشديد بشعره من قول صاحب الاغانى : « إنه كان من أبغض الناس إنشادا ، يتشادق ويتزاور في مشيته ، مرة جانباً ومرة القهقري ، ويهز رأسه مرة ، ومنكبيه أخرى ، ويشير بكمه » ويقف عند كل بيت ويقول - أحسنت والله - ثم يقبل على المستمعين فيقول - ما لكم لا تقولون أحسنت ؟ . هذا والله ما لا يحسن أحد أن يقول مثله . » ولكني أستمد رأيي من قوله :

فإذا ما بنيت بيتاً تبخت رت كأنني بنيت ذات العماد

• ففي هذا البيت ما يفني عن أقوال الرواة التي تحتمل الجدل ويمكن قبولها ورفضها معاً ولكن ينبغي أن لا تنسى أن الرجل كان عالي الهمة ماضي العزيمة شجاعاً مقداماً . وحسبك دليلاً على ذلك أنه استطاع أن يرتفع بنفسه من مدح باعة البصل والباذنجان في منبج الي منادمة الخلفاء

ومعاشرة الوزراء . وفي لقائه الذئب وقتله إياه على النحو الذي وصفه
في داليتة الآتي أكثرها دليل كفي على شجاعته . على أنه قد نزل إلى
ميادين القتال ووقف فيها مواقف أولي البسالة والنجدة ، وهو يستشهد على
ذلك يوسف بن محمد بن يوسف الثغري حيث يقول له :

وأنا الشجاع وقد بدا لك موقفني بقرقس والمشرقية شهدي (١)
ورأيتني فرأيت أعجب منظر رب القصائد في القنا المتعصد

وكما استدل بالبحثري على البحثري في القول بأنه بخيل وفي
القول بأنه كثير الإعجاب بشعره استدل به على نفسه كذلك في القول
بأنه وفي لأنه يقول :

إنني وإن كنت ذا وفاء لا يتخطى إليّ غدر

ولأنه يقول :

أدين بأن لا تستحل أمانة لحرر وأن لا يستباح ذمام

ولأنه يقول :

إنني وإن كنت مرهوباً لعادية أرمي عدوي بها في الفرط والحين
لذو وفاء لأهل الودّ مدخر عندي وغيب على الإخوان مأمون

أضف إلى ذلك أنه أقدم على رثاء المتوكل وهجاء المنتصر معرّضاً
نفسه بذلك لخطر الموت . وأقام على حب صاحبه علوة يحن إليها ويشيب
بها عشرات الأعوام ، مع أنه كان قادراً على الاستعاضة عنها بما يلقي

(١) عقر قس : واد في بلاد الروم .

من الحسان في قصور سرّ من رأى وبغداد ، كائناً غرضه من جهاماً كان .

ستقول ولكنّه تنكر لرجال كثيرين فهجاهم في أيام محتهم بعدما مدحهم في أيام عزهم ودولتهم . وفي ظني أن ذلك ناشئ عن كون صلته بهم صلة مادية بحتاً ، فقد مدحهم لا يعرب عن إعجابه بفضائلهم ومناقبهم ولا ليكافئهم على ودّ كانوا يمحضونه إياه ، وإنما مدحهم ليأخذ جوائزهم . وليس ثمة من ينكر تكسب البحري بالشعر .

أما حبه الشديد للخير ، فإنه يتجلى في كرهه إراقة الدماء ودعوته للسلم ما وجد الى ذلك سيلاً ولك أن ترجع إلى لاميته التي مطلعها :

ضمان على عينيك أني لا أسلو وأن فؤادي من جوى بك لا يخلو

والتي يأسف فيها أشد الأأسف لانشقاق ربيعة علي نفسها وإراقة

دماء ابنائها بأيديهم ، وإلى عينيته التي مطلعها :

منى النفس في أسماء لو تستطيعها بها وجدها من غادة وولوعها

والتي يعالج فيها نفس الموضوع ويعرب عن نفس الشعور ، وإلى

أمثال هذه الصفحات في ديوانه لتلمس عواطفه الانسانية السامية وتبين مبلغ حرصه على سلم الناس وسلامتهم . ويتجلى حبه الشديد للخير

أيضاً في موقفه الودي ممن عاصره من الشعراء . فمؤرخو الأدب القديم مجمعون على أنه كان حسن السلوك حيالهم يشي عليهم جميعاً ويقرضهم

ويذكر محاسن أشعارهم ، وفي ذلك ما فيه من إيثار التفاهم والتقارب

ونبذ الخصومات والعداوات .

ح - رأيه في الدين والسياسة :

يعتقد الأستاذ مرجليوث أن المترجم أموي الرأي لقوله في نكبة محمد ابن يوسف الثغري :

يا ضيعة الدنيا وضيعة أهلها والمسلمين وضيعة الإسلام
هذا ابن يوسف في يدي أعدائه

يجزى على الأيام بالأيام
نامت بنو العباس عنه ولم تكن عنه أمية لورعت بنيام

ويرى الأستاذ أنيس المقدسي أنه عباسي صميم . ويذهب الأستاذ بطرس البستاني الى أنه كان ميالاً إلى العلويين إلا أنه لم يجاهر بميله هذا إلا في رائته التي مدح بها المنتصر والتي مطلعها :

تبسم عن واضح ذي أشمر وتنظر عن فاتر ذي حور

وأزعم أنه كان علوياً متطرفاً في أول أمره كما كان أبو تمام في فجر حياته . ولمن أراد الاطلاع على حقيقة رأيه في الدين والسياسة أن يرجع إلى قافيته التي مطلعها :

أفاق صب من هوى فأيقا (١) ٠٠٠ الخ

وأن يقرأ فيها هذه الأبيات التي تبدأ بقوله :

كنا نكفر من أمية عصباً طلبوا الخلافة فجرةً وفسوقاً

والتي أضرب صفحاً عن ذكرها كلها لأن في بعضها كلمات شائكة .

(١) قد لا يخلو من غرابة ان يجهر البحري بتشيعه في هذه القصيدة التي يمدح بها محمد بن يوسف الثغري الذي يهان به ابو تمام بنقد التشيع نقداً خفيفاً .

إلا أن علويته هذه ذابت في بودقة عبادة المال كما ذابت قبلها علوية أبي تمام في نفس البودقة . بيد أنه من الحق أن نلاحظ أنه لم يفعل فعل أبي تمام في تعريضه برأيه الذي كان يجاهر به تزلزلاً لأحد ممدوحيه . هذا على الرغم من علاقته الوثيقة بالمتوكل المعروف بفضه لعلي وأبنائه ، أضف إلى ذلك أنه هجأ علي بن الجهم لتطاوله على علي بن أبي طالب (رض) هجاءً فظيماً ، وأثنى على سياسة المنتصر الرامية إلى تقريب العلويين والرفق بهم بعدما أصابهم من التكيل في عهد أبيه .
نساء عاطراً .

د - شعره :

للبحثري ديوان ضخم يحتوي على كل باب من أبواب الشعر ، والمديح أكبر أبوابه لأنه مصدر رزق الشاعر ، وقد جمعه أبو بكر الصولي ورتبه على الحروف . ثم جمعه علي بن حمزة الأصفهاني ورتبه على الأنواع . وطبع هذا الديوان في الأستانة وبيروت والقاهرة طبعات عديدة ليس بينها لسوء الحظ طبعة واحدة يمكن القول بأنها متقنة .

غزله : قلت لك عند الإشارة إلى غزل أبي تمام « إنه لا يشل شعوراً حقيقياً ولا عاطفة صادقة وإنه إن مثل شيئاً وإنما هو العبث والمجون » وأقول لك الآن إن جزءاً غير يسير من غزل البحتري تقليدي مصطنع لا يمتاز بشيء سوى رقة الديباجة . ولكن إلى جانب هذا الغزل التقليدي المتكلف غزل أصيل حي هو هذا الذي يشب فيه البحتري بجانبه علوة التي تقدمت لها الإشارة . وأسرع فأقول لك إن المترجم

لم يكن يجب هذه الفناة حباً طاهراً عفيفاً ، وقد شهر حفتها كما شهر جمالها في شعره ، ولكن هذا لا يمنع أن يكون حبه لها صادقاً وگرامه بها حقيقياً . عنى أنه قد لا يخلو من غرابة أن يكون البحري قد احب هذه الحسناء كل هذه الأعوام التي لم يفتر في أنثائها عن التغزل بها ، فقد صدر بذكرها عدداً غير قليل من مدائحه للتخليفة المعتر ، ومعنى هذا أنه ظلّ يشبب بها خلال عشرين سنة أو أكثر مرت على مفارقتها إليها ، وهذا كثير على حب مصدره الشهوة وغايته اللذة . ولكنك إذا رجعت الى غزله فيها وجدته في الغالب مفعماً صدقاً وأصالهً وجمالاً وحيويةً . إسمع قوله فيها :

يا ليلتي بالقصر من بطياس (١) ومعربي بالقصر بل أعراسي
باتت تبرّد من جواي وغلتي انفاس ظبي طيب الأنفاس
يدنو إليّ براحه وبريقه فيعلني بالريق بعد الكاس
هيف الجوانح منه هاض جوانحي

ونعس مقلته أطار نعاسي (٢)

وقوله في صدر قصيدة يمدح بها المعتر :

نظرت وضمّت جانبي الغساة وما التفت المشتاق إلا لينظرا
إلى أرجواني من البرق كلما تمر علوي السحاب تعصفرا
بضيء غماماً فوق بطياس واضحاً يبص وروضاً دون يطياس أخضرا
وقد كان محبوباً اليّ لو انه أضاء غزالاً عند بطياس أحورا

(١) بطياس : احد متنزهات عديدة بالقرب من حلب منها « باقوسا » و « باتلي » كان يلتقي فيها الشاعر بحبيبه . ومنه - اي بطياس - نستدل على ان المقصود في هذه القطعة والأبيات التي تليها « علوة » لا غيرها .
(٢) الهيف : هنا رقة الخاصرة .

وقوله :

أخيال علوة كيف زرت وعندنا أرق يشرد بالخيال الزائر
طيف ألم بنا ونحن بمهمه مرت يشق على الملمم الخاطر (١)
أفضى الى شعث تطير كراهم روحيات قود كالتقى ضوامر (٢)
حتى اذا نزعوا الدجى وتسربلوا

من فضل هلهلة الصباح الغائر
ورموا إلى شعب الرحال بأعين يكسرن من نظر النعاس الفائر
أهوى فأسعف بالتحية خلسة والشمس تلمع في جناح الطائر
سرنا وأنت مقيمة ولربما كان المقيم علاقة للسائر
إما انجذبين بنا فكم من عبرة تنى اليك ولفته من ناظر

فما أظنك تشكّ في أن هذا النسيب صادق كلّ الصدق أصيل كل
الاصالة ، وما أظنك تشكّ في أنه يرمز الى ذكريات حية ويهجر عن
أحاسيس صادقة على الرغم من أن بعضه قيل بعد مرور عشرات الأعوام
على مفارقة الشاعر حبيبته ، ومن يدري لعلّ علوة هذه من الجمال
واللطف بحيث لا يستطيع المحب أن ينساها مهما قدم بها العهد وطال
على حبها الأمد . وهناك نسيب غفل يخيل إليّ أنه مقول في علوة لما
أحس فيه من صدق الشعور وحرارة العاطفة ، أروي لك منه هذه الأبيات :

شوق إليك تفيض منه الأدمع وجوى عليك تضيق عنه الأضلع
وهوى تجددّه الليالي كلما قدمت وترجعه السنون فيرجع

(١) السرت : المغازة بلا نبات او الأرض لا يجف ثراها ولا ينبت مرعاعا .

(٢) القود : ما سلس قياده من الخيل والابل .

إني وما قصد الحجيج ودونهم خرق تخبّ به الركاب وتوضع (١)
أصفيك أقصى الوء غير مقلل إن كان أقصى الوء عندك ينفع
وأراك أحسن من أراه وإن بدا منك الصدود وبان وصلك أجمع
يعتادني طربي إليك فيفتلي وجدي ويدعوني هواك فاتبع
كلفاً بجبك مولعاً ، ويسرني أني امرؤ كلف بجبك مولع

مديحه : وكما يجمع البحري في غزله بين العواطف المنتحلة وبين
المشاعر والانفعالات الغرامية الحقيقية كذلك هو يجمع في مديحه بين
المعاني المألوفة المبتدلة وبين الصور الأصيلة الرائعة التي تمثل حياة
القرن الثالث للهجرة تمثيلاً صادقاً . ولست أعنى طبعاً بهذه المعاني
المبتدلة التي أدخلها البحري في اطراء ممدوحه رغبة في ارضائهم وطلباً
لعطاياهم ، وإن كان كثير منها قد أفرغ في قوالب جميلة جذابة ، ولكنني
أسجل أن مدائحه الكثيرة تحمل في ثناياها وصفاً فائقاً جداً لآلوان
مختلفة من الحضارة العباسية وتصويراً بالغاً منتهى الاجادة لسكثير من
الوقائع السياسية والحربية المهمة . وإنه لمن الحق أن نلاحظ أن
البحري يصف الأشياء والحوادث التي يصفها بمتهى الأمانة والمهارة
فلا يزيد فيها ولا ينقص منها ، وإنما يرسمها لنا في ألواح شعره كما
هي . ووصف البحري قصور العباسين ومواكبهم ومواسم افراحهم
كثير ، سأروي لك طرفاً منه عند الكلام على وصفه . أما سرد الحوادث
الحربية والسياسية والتعقيب عليها بصورة مؤثرة فإنه كثير في شعره
كثرة عجيبة ، ولك أن تتصفح ديوانه لترى أنه سجل حافل بما حدث

(١) الخرق : الارض الواسعة .

للخلافة العباسية في أثناء القرن الثالث للهجرة من حروب ومشاكل
سياسية في الداخل والخارج . فيينا هو يحدثك عن فتنة بابك الخرمي
التي اشتعلت نارها في أوائل هذا القرن إذا هو يحدثك عن تمرد
آل الصفار وقيام ثورة صاحب الزنج في أواسطه . وبينما هو يحدثك عن
فتنة مدينة أو ثورة قبيلة إذا هو يحدثك عن خلع خليفة وإبعاده إلى
زاوية من زوايا ملكه بالأمس . وبينما هو يحدثك عن هذه الشؤون الداخلية
المضطربة المعقدة أشد التعقيد إذا هو يحدثك عن المعارك الطاحنة
التي تدور رحاها في آسيا الصغرى بين المسلمين والروم . وعني عن
البيان أن هذا الفصل لا يتسع لضرب الأمثلة الكثيرة من هذا المديح
التاريخي النفيس ، فأكتفي بضرب مثلين لك ، أحدهما في وصف بلاء
محمد بن يوسف الثغري في سبيل قمع فتنة بابك الخرمي ، والثانيهما
في وصف غزوة من غزوات محمد بن يوسف هذا نفسه في بلاد الروم .
فأما الأول فهو قول البحري :

ما زلت تفرح باب بابك بلقنا	وتزوره في غارة شعواء
حتى أخذت بنصل سيفك عنوة	منه الذي أعيا على الخلفاء
أخليت منه البذ (١) وهي قراره	ونصبته علماً سامراً
لم يبق فيه خوف بأسك مطمئناً	للطير في عود ولا إبداء
فتراه مطرداً على أعواده	مثل اطراد كواكب الجوزاء
مستشرقاً للشمس منصباً لها	في أخريات الجذع كالحرباء

(١) البذ : قرية بأذربيجان . اتخذها بابك مقراً له .

وأما الثاني فهو قوله :

أحسن الله في ثوابك عن نغر مضاع أحسنت فيه البلاء
كان مستضعفاً فعزّ ومحروماً فأجدي ومظلماً فأضاء
لتوليته فكنت لأهليه غنىً مقنعاً وعنهم غناء
لم تتم عن دعائهم حين نادوا والقنا قد أسألنيهم قننا (١)
إذ تغدى العلوج منهم غدواً فتعشتهم يداك عشاء
لم تسغهم برود جيحان حتى قلسوا في الدماء ذاك الماء (٢)
وكان النفير حظ عليهم منك نجماً أو صخرة صماء
لم يكن جمعهم على الموج إلا زبداً طار عن فراك جفاناً
حين أبدت إليك خرشنة العليا من الشلج هامة شمطاء
بتها والقرآن يصدع فيها الهضب حتى كادت تكون حراء
وأقمت الصلاة في معشر لا يعرفون الصلاة الا مكاناً (٣)
في نواحي برجان إذ أنكروا التكبير حتى توهموه غناء
حيث لم تورد السيوف على خمس ولم تصدر الرماح ظمماً (٤)
يتعثرن في النحور وفي الأوجه سكراناً لما شربن الدماء
وأزرت الخيول قبر امريء القيس سراعاً فعدن منه بطاء

-
- (١) قننا : كسحاب : اسم ماء شبيهت به الدماء لغزارتها .
(٢) قلسوا : لفظوا .
(٣) مكا مكا : صفر بفيه ، او شبك بأصابعه ونفخ فيها .
(٤) الخمس : هو اظماء الأبل ثلاثة ايام يتقدمها يوم شرب ويليهامثله .

وجلبت الحسان حواءً وحووراً آنسات حتى أغرت النساء (١)
لم تدعك المها التي شغلت جيشك بالسوق أن تسوق الشاءا
علم الروم أن غزوك ما كان عقاباً لهم ولكن فناء
بسبب سقامهم البين صرفاً ويقتل نسوا لديه السباء
يوم فرقت من كتائب آرائك جنداً لا يأخذون عطاءا
بين ضرب يفتلق الهام أنصافاً وطعن يفرج الغماء
وبود العدو لو تضعف الجيش عليهم وتصرف الآراء

على أن أهمية مديح البحري لا تقف عند حد الفائدة التاريخية التي
تجلى مرة في وصف القصور والأفراح والحفلات وتارة في سرد الحوادث
السياسية والحربية والتعقيب عليها تعقياً مؤثراً ، ولكنها تعدي ذلك
الى وصف مواهب عظماء الرجال ومزاياهم وصفاً رائعاً أصيلاً . ولكي
تسبين وجاهة هذا الزعم ، إسمع قوله في وصف رسائل محمد بن
عبد الملك الزيات :

لتفتت في الكتابة حتى عطل الناس فن عبد الحميد
في نظام من البلاغة ما شك امرؤ أنه نظام فريد
وبديع كأنه الزهر الضاحك في رونق الربيع الجديد
مشرق في جوانب السمع ما يخلقه عوده على المستعيد
ما أعيرت منه بطون القراطيس وما حملت ظهور البريد

(١) حو : ذوات شفاه حمر الى سواد ، الواحدة حواء . وحوور : ذوات

أعين شديدة السواد والبياض واحدها حوراء .

مستميل سمع الطروب المعنى
عن أغاني مخارق وعقيد (١).
حجج تخرس الألدّ بألفا
ظ فرادى كالجوهر المعدود.
ومعان لو فصلتها القوافي
هجت شعر جرول وليد.
حزن مستعمل الكلام اختياراً
وتجنّبن ظلمة التعقيد.
وركبن اللفظ القريب فأدركن به غاية المراد البعيد.
كالعدارى غدون في الحلل البيض إذا رحن في الخطوط السود.

وقوله في وصف مبارزة الفتح بن خاقان للأسد وقتله إياه :
وقد جربوا بالأمس منك عزيزة
فضلت بها السيف الحسام المجرباً
غداة لقيت الليث والليث مخدر (٢)
يحدد ناباً للقاء ومخلباً
يحصنه من نهر نيزك معقل
منيع تسمى روضه وتأشباً (٣)
يرود مغاراً بالظواهر مكباً
يلاعب فيه أحيواناً مفضضاً
ويحتل روضاً بالأباطح معشياً
يبصّ وحوذاناً على الماء مذهباً
عقائل سرب أو تقتنص ربربا
إذا شاء غادى عانة أو غدا على
يجر إلى أشباله كل شارق
عبيطاً مدّمي أو رميلاً مخضباً (٤)
ومن يبع ظلماً في حريمك ينصرف
إلى تلف أو يشن خزيان أخيباً

(١) مخارق وعقيد : مغنيان كان أولهما للرشيدي وثانيهما للمأمون .

(٢) مخدر : رابض في اجتمه .

(٣) تأشب : التف .

(٤) العبيط : اللحم الطري .

شهدت لقد انصفته يوم تبيري له مصلاً غضباً من البيض مقضياً
فلم أر ضرغامين أصدق منكما عراقاً إذا الهيا به النكس كذباً
هزبر مشى يغبي هزبراً وأغلب

من القوم يغشى باسل الوجه (١) أغلباً
أدلّ بشغب ثم هالته صولة وأك لها أمضى جناناً وأشغبا
فأحجم لما لم يجد فيك مطعماً وأقدم لما لم يجد منك مهرباً
فلم يغنه أن كسر نحوك مقبلاً ولم ينجه أن حاد عنك متكبلاً
حملت عليه السيف لا عزمك انشبي ولا يدك ارتدت ولا حده نبا
وكنت متى تجمع يمينك تهتك الضريبة أولاً تبقى للسيف مضرباً (٢)

أليس في كل من هاتين القطعتين من الاحاطة بالموضوع والافاضة في
التحايل والبراعة في التصوير ما يجعلها خايقه بالبقاء على توالي الاجيال؟!

رثاؤه : وما يقل في مديح البحثري من حيث إنه مشتمل على معانٍ
مكررة مألوفة وصور أصيلة رائعة يقال في رثائه . فهو في طائفة من
مراثيه منها رائيته في رثاء بعض بني طاهر وكافيته في رثاء سلمان بن
وهب وبائيته في رثاء غلامه قيصر شاعر مجيد إلا أنه غير أصيل . وفي
طائفة أخرى من مراثيه في مقدمتها ميميته في رثاء آل حميد ورائيته في
رثاء المتوكل على الله شاعر مبدع فدّ ، يفيض رثاؤه جدةً وأصاله ويتدفق

(١) هكذا في الديوان وربما كان الصحيح « باسم الوجه » .

(٢) وصف المتنبي قتل بدر بن عمار احد حكام جنوب سوريا . أسدأ

يسوطه ، وحمله آخر على الفرار في قصيدة مطلعها :

في الخد ان عزم الخليط رحيلا مطر تزيد به الخدود محولا

ويغيل الي ان البحثري اُذق وصفاً واصدق تصويراً وأحسن اسلوباً .

صدقاً وإخلاصاً • وما هي إلا أن تقرأه حتى تشعر كأن الفاجعة التي
يصورها قائمة ماثلة تهلع منها القلوب وتدمع العيون وتهمس بها الشفاء
وتحار لها الأبواب ، إقرأ قوله واصفاً جلاء سكان الجعفري عنه بعد
قتل صاحبه المتوكل على الله :

تغير حسن الجعفري وأنسه

وقوض بادي الجعفري وحاضره (١)

تحمل عنه ساكنوه فجاءةً فأضت سواءً دوره ومقابره (٢)

ولم أنس وحش القصر إذ ريع سريره

وإذ ذعرت أطلاؤه وجأذره (٣)

وإذ صيح فيه بالرحيل فهتكت على عجل أسناره وستاره

ووحشته حتى كأن لم يقم به أنيس ولم تحسن لعين مناظره

كأن لم تبت فيه الخلافة طليقةً بشاشتها والملك يشرق زاهره

ولم تجمع الدنيا إليه بهاءها

وبهجتها والعيش غضً مكاسره (٤)

وقوله واصفاً مصرع المتوكل على الله :

تخفى له مغتاله تحت غرره وأولى لمن يقتاله لو يجاهره

فما قتلت عنه المنايا جنوده ولا دافعت أملاكه وذخائره

ولا نصر المعتر من كان يرتجى له وعزيز القوم من عز ناصره

(١) الجعفري : قصر عظيم بناه المتوكل على الله سنة ٢٤٥ هـ على مقربة

من سامراء .

(٢) آض : صار .

(٣) المراد بوحش القصر : نساؤه تشبيهاً لهن بقر الوحش لجمال اعينهن ،

وباطلائه : أطفاله ، والطلا ، ولد الظليه ساعة يولد ، وبجأذره فتياته ،

والجوذر ولد البقرة الوحشية تشبه به المرأة لحسن عينيه .

(٤) مكاسر : جمع مكسر وهو المخبر .

تعرض نصل السيف من دون فتحه

وغيب عنه في خراسان مظهره

صريع تقاضاه السيوف حشاشة

أدافع عنهم باليدين ولم يكن

وقوله راثياً آل حميد الذين وصفت جهادهم لك عند الكلام على رثاء

أبي تمام :

مضوا يستلذون المنايا حفيظةً

فما طعنوا إلا برمح موصل

ولما رأوا بعض الحياة مذلةً

أبوا أن يدوقوا العيش والدم واقع

على أنك إذا تأملت رائية شاعرنا في رثاء المتوكل على الله رأيت

أنه يتصرف فيها تصرف الشاعر المثقف الذي يعرف كيف يعبر عن

مشاعره وانفعالاته وكيف يصف عظام الأمور وجلائل الأحداث وصفاً

صادقاً مستفيضاً ، وكيف يتديء بسرد ما لديه وكيف يتدرج في ذلك حتى

يبلغ قمة بيانه ، وكيف ينتهي : ذلك أنه يقف في صدر هذه القصيدة

على أطلال الجعفري الذي كان يلهو ويمرح في ظله بالأمس هاديء

البال هانيء العيش في كنف سيده الخليفة الراحل ، فيستوحى الذكريات

ويستلهم الآثار التي لم يجمد فيها بعد دم الفقيده ، مقارناً بين ماضي

القصر وحاضره وأمه ويومه متفجعاً لما حل به تفجعاً مرا ينتهي منه

إلى تصوير جلاء مكانه عنه ذلك التصوير الدقيق الذي رويته لك

مشيراً أثناء ذلك إلى عظمة الخليفة الراحل وجلال ملكه وجمال أيامه

إشارة بارعة يشفعها بوصف مصرعه ، ذلك الوصف الفائق الذي تقدم
إيراده ، متبعاً ذلك تنديده بالخليفة الجديد الذي يوجه إليه أحد سهام
تقدمه ويصب عليه جام غضبه واصفاً اياه بالغدر والخيانة واضعاً في عنقه تبعه
قتل أبيه متمنياً زوال ملكه وانتهاء حكمه في وقت قصير راجياً أن تعود
الخلافة إلى من هو أحق بها منه ، الى من يأخذ بثأر الخليفة الراحل
من قتلته الأئمة الخونة ، ويسوس للأمر سياسة كلها حزم وعزم ،
وليس ثمة شك في أنه يعني المعتر الذي ورد ذكره فيما رويت لك
من القصيدة . وهكذا ينشئ من مراثيه هذه وحدة بيانية مطردة الاجزاء
متماسكة الأطراف منسجمة كل الانسجام . وليست هذه القصيدة هي
الأولى من نوعها في شعر البحري . فقد سبق له أن فعل مثل ذلك
في ميمته التي رثى بها آل حميد ، ذلك انه استهل هذه القصيدة أيضاً
بوقفه على قصر الأسرة النسيلة البائدة ، ناجي فيها اطلاله العافية
بلغة الدموع والحسرات نادياً مصارع أبنائه التي تابعت في أمم قصير ،
باكياً لفقدانه إياهم بكاءً صادقاً متراً ، منوهاً بشرف المقاصد التي
أوردتهم مناهل الردي ، ثم استطرد إلى وصف قبورهم فقال : انها متفرقة
في أطراف الثغور واقعة منها مواقع الشهب من آفاق السماء . فهذا قبر
في البذ وهذان قبران في النجاج ، وهذا ضريح في الموصل وهذا آخر
في القساطول . وخلص من ذلك إلى تصوير المناحات التي أقيمت على
أولئك الأبطال في طول المملكة الإسلامية وعرضها ، وبعد أن وصفها
وصفاً قصيراً وجه نظره الى أبي الأسرة فعزاه - استغفر الله - بل
هتاه بأبنائه لأنهم أعطوا السيف حقه وخلدوا مواقفهم الباسلة في صحف

التاريخ ، وماتوا وكلهم قادة جيوش وأبطال حروب . وختم قصيدته
بإرسال تحية عاطرة إلى أرواح أولئك الشهداء الذين أبوا أن يعيشوا
أذلاء فماتوا أحرارا أعزاء . وبهذه المهارة الفائقة يكون البحري من
قصيدته هذه وحدة بيانية أخرى قلما تجد لها نظيراً في دواوين الشعراء .
وقد رويت لك أبياتاً قليلةً من هذه القصيدة التي لم يتنبه لها النقاد
القدماء والمحدثون مع أنها من أبلغ الرثاء وأحسنه ، فأروي لك الآن
مثلاً أخرى منها لتبين مبلغ إجادة الشاعر وإحسانه فيها . اسمع
قوله منها :-

أقصر حميد لأعزاء لمغرم

ولا قصر (١) عن دمع وإن كان من دم

أفي كل عام لا تزال مروعاً	بفد نعي تارة أو بتوأم
مضى أهلك الأختيار إلا أقلهم	وبادوا كما بادت أوائل جرهم
فصرت كعش خلفته فراخه	بعلياء فرع الأئمة المتهم
أحب بنوك المكرمات ففرقت	جماعتهم في كل دهباء صيلم
تدانت منايهم لهم (٢) وتباعدت	مضاجعهم عن تترك المتسم
فكل له قبر غريب ببلدة	فمن منجد نائي الضريح ومتم
قبور بأطراف الثغور كأنما	مواقعها منها مواقع أنجم

وقوله :

تري البيض لم تعرفهم حين واجهت وجوههم في المأزق المتجهم ؟

(١) القصر هنا خلاف المد .

(٢) في الديوان « بهم » والصواب ما أثبتناه .

ولم تذكر ربيها بألفهم إذا أوردوها تحت أغبر أقم ؟
بلى ، غير أن السيف أندر صاحب وأكفر من نالته نعمة منعم !!

وقوله :

ولا عجب للأسد إن ظفرت بها كلاب الأعداي من فصيح وأعجم
فحربة وحشي سقت حمزة الردي وموت علي عن حسام بن ملحج (١)

الواقع أن هذه القصيدة وحدها تكفي لحملنا على وضع البحري في
طلعة شعراء الرثاء ، فكيف إذا أضيف إليها الرائية التي يقول فيها
المبرد (ما قيلت هاشمية مثلها) . على أن رثاء المترجم وصيفاً ، أحد
كبار قادة الأتراك ومحمد ابن يوسف الثغري من النفاسة والجودة
بمكان . -

إذا لم يخطيء ظني فان مؤرخي الأدب الذين لم يحفظوا للبحري
مقامه بين كبار شعراء الرثاء لم ينصفوه إنصافاً تاماً .

فخره : أما الفخر فان البحري يحدو فيه غالباً حدو أبي تمام ، وذلك
أنه يتبجح بأسفاره وبنوّه بمجد آبائه ويتشدد بحسن منظومه وطيب
أخلاقه . وقد رأيت هذا كله عند أبي تمام ، ولكن البحري يضيف إلى
ما تقدم فخره بمنادمة الخلفاء وعلو منزلته عندهم وذلك ما لم يظفر به

(١) قد لا يكون خطأً كبيراً إذا لاحظت ان هذه القصيدة تفضل مراثي
أبي تمام لآل حميد كلها رقة شعور ودقة تصوير وجمال تعبير وحسن ترتيب .
وأريد بحسن الترتيب ترتيب الأفكار ترتيباً منطقياً محكماً .

أبو تمام • وعرض فيما يلي لكل ناحية من نواحي نخر الشاعر ،
فتحدث عنها بإيجاز •

كان البحري قبل أن يلقي عصاه في وادي الرافدين صاحب أسفار
كثير التجوال كما مرّ وقد تحدث عن أسفاره هذه كثيراً في شعره •
ونحمد له أنه لم يكلف بتقليد أبي تمام في تصويره وداع حليلته اياه وجزعها
لرفاقه كلما خطر له أن يزور خليفة أو وزيراً أو والياً أو قائداً فإنه
لم يفعل ذلك إلا نادراً • وحديث السفر عنده حديث عن جور الأيام
ونكد العيش وقلة ذات اليد وعن مضاء العزيمة وعلو الهمة والرغبة في
الحصول على المال • ومن طريف فخره بأسفاره قوله :

مالي وللأيام صرفٌ صرفها حالي وأكثر في البلاد تقليبي
أمسي زميدياً للظلام وأعتدي ردقاً على كفل الصباح الأشهب
إفأكون طوراً مشرقاً للمشرق الأقصى وطوراً مغرباً للمغرب
وإذا الزمان كسلك حلة معدم فالبس لها حلل النوى وتغرب
ولقد أبيت مع الكواكب راكباً أعجازها بعزيمة كالكوكب
والليل في لون الغراب كأنه (١) هو في حلوكته وإن لم ينب
والعين تنصل من دجاء كما انجلى صبغ الشباب عن القذال الأشيب
حتى تجلى الصبح في جنباته كالماء يلمع من وراء الطحلب

وفخر الرجل بأبائه قليل « ولكنه على جانب كبير من الغلو
والاسراف • فطيء عنده أكرم الناس قاطبة وأشجعهم ، وهي « قد ملكت

(١) ربما كان الصواب كأنها •

الأرض قبل أن تملك » ، وقد كان « عرب الحجاز لقومه عندما نزلوه
عبيداً أرقاء » وأكبر الظن أن هذا الفخر إنما كان من نزوات الشباب
ونزعاته . فقد ورد كل هذا في داليتيه التي مطلعها :

إنما الغي أن يكون رشيداً فأنقصا من ملامه أو فزيدا

وهي قصيدة تدل مقدمتها على أنها قد قيلت في شرح الشباب .

أما فخره بفضائله ومناقبه فانه قليل أيضاً ولكنه من جيد شعره ،
وهو إذا حدثنا عن نفسه قال لنا إنه شديد البأس شديد الرأي صليب
العود حمول لعظائم الأمور صبور على المكروه . ولعلنا لا نخطيء إذا
لاحظنا أن أحسن ما له في هذا الباب داليتيه التي وصف فيها لقاءه الذئب
وقتله إياه . والتي نروي أحسنها فيما يلي :

فقل لبني الضحاك مهلاً فإني

أنا الأفعوان الصلِّ والضيغم الورد

بني ناهل مهلاً فان ابن أختكم له عزمات هزل آرائها جدّ

متى هجتموه لا تهيجوا سوى الردى

وإن كان خرقاً ما يحل له عقد (١)

مهيماً كنصل السيف لو ضربت به ذرى أجا ظلت وأعلامها وهد (٢)

يودّ رجال أنني كنت بعض من طوته الليالي لا أروح ولا أغدو

ولولا احتمالي ثقل كل ملمّة

تسوء الأعادي لم يودّوا الذي ودّوا

ذريني وإياهم فحسبي صرامتي

إذا الحرب لم يقدر لمخمدتها زند

ولي صاحب غضب المضارب صارم طويل نجاد ما يقلّ له حدّ

(١) الخرق « بكسر الغاء » : الفتى الكريم الخلق .

(٢) أجا : جبل لطي .

وباكية تشكو الفراق بأدمع يبادرنها سحاً كما انشر العقد
رشادك ، لا يحزنك بين ابن همة
يتوق الى العلياء ليس له ند
فمن كان حراً فهو للعزم والسرى

ولليل من أفعاله لا الكرى (١) عبد
وليل كان الصبح في أخرياته حشاشة نصل ضمّ إفرنده غمد
تسربلته والذئب وسنان هاجع بعين ابن ليل ماله بالكرى عهد
أثير القطا الكدري عن جتماته وتألّفني فيه الثعالب والربد (٢).
وأطلس ملء العين يحمل زوراً

وأضلاعه من جانيه شوى نهّد (٣)
له ذنب مثل الرشاء يجرّه ومتن كمتن القوس أعوج مُنادٍ
طواه الطوي حتى استمر مريره
فما فيه إلا العظم والروح والجلد (٤)
يقضضُ عصلاً في اسرتها الردي

كفضضة المقرور أوعده البرد (٥)
سما لي وبني من شدة الجوع ما به
بيداء لم تعرف بها عيشة رغد
كلانا بها ذئب يحدث نفسه بصاحبه والجد يتعه الجد
عوي ثم ألقى فارتجزت فهجته فأقبل مثل البرق يتعه الرعد

(١) في الديوان (والكرى) ولا معنى لهذا العطف اما قوله (ومن أفعاله) فانه
حشو لا مبرر له .

(٢) الكدري : غير الصافي . الربد : جمع أربد وهو حية خبيثة .

(٣) أطلس : اغبر . الزور : وسط الصدر او ما ارتفع منه . الشوى .
الاطراف او اليدان والرجلان . النهّد : المرتفع .

(٤) استمر مريره : اشتدت عزيمته .

(٥) قفضض : اصطكت اسنانه . وانياب عمل : عوج ، واحدها أعصل .

وأسرة : جمع سر بضم السين وهو جوف كل شيء وباطنه .

فأوجرته خرقاء تحسب ريشها

على كوكب يقض والليل مسوداً (١)

فما ازداد إلا جرأة وصرامة
فاتبعتها أخرى فأضلت نصلها
فخرّ وقد أوردته منهل الردى
وقمت فجمعت الحصى فاشتويته
ونلت خيساً منه ثم تركته
على ظمأ لو أنه عذب الورد
عليه وللرمضاء من تحته وقد
وأقلعت عنه وهو منعفر فرد

إلا أنه شديد الفخر بشعره كثير الإعجاب به - كما مرّ - وفي اعتقاده أن قصائده (منقوشة نقش الدنانير ، ينقى لها اللفظ كما ينتقى التبر) وهي (جامعة بدد العلى ، تعلقت من قبل الشاعر واتعبت من بعده وهي (سائرة أمام الريح ، غدوتها شهر وروحها شهر) ومن بليغ فخره في هذا الباب قوله :

هذي نوافلك التي خولتها
تعطيك شهرتها النجوم طوالها
متعسفاتٍ ما تزال روايتها
وهي القوافي ما تقرّ ثوابها
علل لاتواء الذخائر كلما
والبحر لولا أن تسير سفنه
رجعت غرائبها إليك قصائدا
وتريك أنفسها الجبال خوالدا
تأبى عليها أن تسير قواصدا
ممدح حتى تعود شواردا
جذب على ملك أباح التالدا (٢)
بالريح ما برحت عليه رواكدا

أما منادته الخلفاء فقد كانت موضوع فخره في تائيته التي ندد فيها

(١) أوجره الريح : طعنه به في فيه .

(٢) اتواء المال : انفاقه ، التالدا : المال .

بعض أقربائه الذين يتمنون موته بغضاً وحداً مع أنه لسانهم ومفخرتهم .
ولكنه استطرد عند ذكره هذه المنادمة إلى انتفاع الناس بمركزه في
بلاط الخليفة * وبذلك أصبح فخره مقبولاً مستساغاً . اسمع قوله
في هذا :

ومن الأقارب من يسرّ بميتي	سفهاً وعزّ حياتهم بحياتي
إن أبق أو أهلك فقد نلت التي	ملأت صدور أقاربي وعداتي
وغدوت ندمان الخلائف نابهاً	ذكرى ، وناعمة بهم نشواتي
وشفعت في الأمر الجليل إليهم	بعد الجليل فأنجحوا طلباتي
وصنعت في العرب الصنائع عندهم	من رقد طلاب وفكّ عناة (١)

وصفه : أتقل بك الآن الى وصف البحترى الممتلي حياة وحركة
وجمالاتاً وقد قلت لك عند الكلام على وصف أبي تمام إن الطبيعة تحتل
المكان الاول منه وأقول لك الآن ان القصور ، بما فيها من
زينات وزخارف ومسرات ومباهج ، تحتل المكان الاول من وصف
البحترى . ولا غرابة في ذلك ، فقد قدّر لصاحبنا أن ينادم المتوكل
على الله مدة خلافته ، وأن يكون ذا حظوة كبيرة عند ابنه المعتز .
وأنت تعرف غرام المتوكل ببناء القصور ورغبته الصادقة في الاستمتاع
بالحياة . ولم يكن ابنه المعتز أقل منه ولعاً بالبناء والاستمتاع برغد
العيش على قصر حكمه وسوء الحالة في عهده . من أجل هذا
حفل وصف البحترى بمشاهد ومناظر لم يقدر لغيره من الشعراء أن يعم

(١) من هذه الصنائع التي يشير اليها البحترى شفاعته برجال ربيعة ، وقد
جئ بهم بعد قمع فتنة قبلية الى المتوكل على الله مكبلين بالحديد . وفي هذه الشفاعة
يقول البحترى :

جاءتك اسرى في الحديد اذلة	مجموعة الأيدي الى الاذقان
فافكك جوامعهم بينك انبها	سمرت على أيدي ندى وطعان

بها وأن يصفها وصفاً قوامه المشاهدة والخبرة المباشرة ومن هنا أيضاً يمكن القول إنه أرخ لنا جانباً مهماً من حياة عصره الاجتماعية كما أرخ لنا جانباً مهماً من حياته السياسية : فهو يصور لنا في عينيه التي مطلعها :

شوق إليك تفيض منه الأدمع ٠٠٠ الخ

وميمته التي مطلعها :

هذيري فيك من لاح اذا ما شكوت الحب حرّ قني ملاما

جمال المتوكلية (١) وبهجتها وإشراقها ، إلا أنه يصفها لنا في هاتين القصدين وصفاً مجملاً ، ثم إنه يعود فيفصل لنا محاسن هذه المدينة في قصائد عديدة تفصيلاً كافياً . مثال ذلك أنه يعطينا في رائيته التي مطلعها :

إن الطباء غداة سفح محجر هيجن حرّ جوى وفرط تذكر (٢)

فكرة قوية واضحة عن « حصن الجعفري » ، وهو خير ما في هذه المدينة ، وما يمتاز به من طيب في التربة وجودة في الهواء وأناقة في الفناء وفخامة في البناء وجمال في المناظر وجلال في المشاهد . ويصف لنا في ميمته التي مطلعها :

إن طيفا يزورني في المنام لخليّ من لوعتي وغرامي

قصري « الصبح » « والملح » ، وهما من أجمل قصور تلك المدينة ، وصفاً رائعاً مستفيضاً نعلم منه أن في احدهما « بركة حسناء » إذ اتوسطها

(١) المتوكلية : مدينة بناها المتوكل على الله بقرب سر من رأي سنة خمس وأربعين ومائتين هـ فعمرت واكتظت بالسكان . الا أن الناس هجروها بعد قتله فأُسرع إليها الخراب .

(٢) محجر : موضع .

الماء القت عليه صيغ الرخام » وبدا كأنه ماء بحر ، وأن بساتينه تسقى بدواليب ليس لها ناضح (١) إلا النعام . ويحدثنا في يائته التي مطلعها : « ميلوا إلى الدار من ليلى نحييها » عن هذه البركة أو بركة اخرى للمتوكل تضارعها أو تفوقها حسناً ، حديثاً لا أظنه يغيب عن ذهنك . ويمضي في تصوير هذا الترف الذي يغمر حياة سيده فيصف لنا في ميميته التي مطلعها :

ألا هل أتاها بالمغيب سلامي وهل خبرت وجددي بها وغرامي

قصراً بناه المتوكل على الله في نوع من السفن عظيم يسمى « الزو » يقاد بزمام كما يقاد البعير ، ويسير في الماء كما تسير العربة على الارض وتنزه فيه على دجله مستصحباً قيانه وندمانه مطلقاً بزاته في الجوف مضيئاً بهجة انصيد إلى لذات الشراب والسماع .

وكما يصف لنا البحري قصور المتوكل على الله وما فيها من نعيم وصفاء عيش يصف لنا كذلك قصور ابنه المعز وما فيها من روائع وبدائع وعجائب وغرائب ، ويقول لنا مرة إنه بنى قصراً طلى سقوفه بالذهب وضع بعض حيطانه من الزجاج وأغدق عليه صوف الزخارف والزينات . وتارة إنه بنى لنفسه صرحاً ممرّداً من قوارير يباهى به صرح سليمان بن داود الذي ورد ذكره في التنزيل ، « فوق صرح ممرّد من قوارير غريب التأليف والتمرید (٢) » .

هذا إلى أنه يصف جولاته في « الزو » وسائر أفراجه وأعياده وصفاً رائعاً نفسياً . ومما تدلنا عليه هذه الصفحات من شعر البحري أن المعز كان يؤثر دائماً أن (يدشن) قصوره في أيام الربيع - هكذا فعل في

(١) الناضح : ما يستقى عليه الماء من الحيوان .

(٢) من الغريب ان البحري لم يصف هذا القصر العجيب الا بأبيات قليلة

«تدشين» «الكامل» القادم وصفه ، وهكذا فعل في (تدشين) صرحه
الممرد من قوارير ، وهكذا فعل في تدشين «قصر الساج (١)» . فانظر
كيف يتذوق هؤلاء الناس لذات العيش . وكيف يقرون أعيادهم بأعياد
الطبيعة لينالوا اعظم حظ ممكن من السرور «والانشراح !» على أنسا
لا نحمد لهم ذلك كثيراً ، فقد كان لهم من فساد ملكهم وانحلال أمرهم
ما يحملهم على التفكير في تشييد قصور الاصلاح ، ويدفعهم إلى إقامة
مواسم الانشاء والتعمير لمملكته المتضعضعة البنيان المتداعية الأركان ،
ولكن ما كان ذلك لينغل بهم ويشير اهتمامهم وقد جنوا ثمر بما غرسوا
ورأوا نتيجة ما عملوا لنخلهم وشأنهم أذن ولعد الى أبي عبادة
ليسمعنا قوله في قصري الصبيح والملبح :

قد صفا جانب الهواء ولذت رقة الماء في مزاج المدام
واستم الصبيح في خير وقت فهو مغنى أنس ودار مقام
ناظر وجهة الملبح فلو بسطيع حياه معلناً بالسلام
أبسا بهجة وقابل ذا ذاك فمن ضاحك ومن بسم
كالمحيين لو أطاقا التقاء أفرطا في العنقا والالتزام

ومنها في وصف أحد القصرين :

مستمدّ بجدول من عباب الماء كالأبيض الصقيل الحسام
وإذا ما توطأ البركة الحسناء ألقته عليه صبغ الرخام
فتراه كأنه ماء بحسر يخدع العين وهو ماء غمام

(١) انظر قافية البحري التي مطلعها :

اما الخيال فانه لم يطق الا بعقب تشوف وتشوق

والدواليب إن يدرن ولا نا ضح يمسي بهن غير النعام

ومنها:

حلل من منازل الملك كالأمر جم يلعبن في سواد الظلام
مفحمت تعيي الصفات فما تدرك إلا بالفطن والأوهام
فكأننا نحسها بالأمني أو نراها في طارق الأحلام
شوقتنا إلى الجنان فزدنا في اجتناب الذنوب والآثام

وقوله في الزو:

أبي يومنا بالزو إلا تحسناً غينا على قصر يسير بفتية
تظل البزاة البيض تخطف حولنا تحدّر بالدراج من ككل شاهق
فلم أر كالقطول يحمل ماؤه ولا جبلاً كالزو يوقف تارة
لنا بسماع طيب ومدام تعود على أرجائه وقيام
جآجي طير في السماء سوام (١) مخضبة أظفارهن دوامي
تدقق بحر بالسماحة طام وينقاد إما قدته بزمام

وقوله في وصف الكامل: (٢)

لمّا كملت رويّه وعزيمة أعملت رأيك في ابتناه الكامل
وغدوت من بين الملوك موقفاً منه لأيمن حلة ومنازل
ذعر الحمام وقد ترنم فوقه من منظر خطر المزلة هائل

(١) الجآجي: جمع جو جو كهدهد وهو الصدر.
(٢) لولا هذه الأبيات لجهلنا امر هذا القصر جهلاً تاماً. لأن كتب التاريخ
والجغرافيا عند العرب لا تحدثنا عنه بشيء.

رفعت لمخترق الرياح سموكه
وكان حيطان الزجاج بجوّه
وكان تفويف الرخام إذا التقى
حبك الغمام رصفن بين منمر
لبست من الذهب الصقيل سقوفه
فقرى العيون يجلن في ذي رونق
وكانما نشرت على بستانه
أغته دجلة إذ تلاحق فيضا
وتنفت فيه الصبا فتعطف
مشي العذارى الغيد رحن عشية
وزهت عجائب حسنه المتخايل
لجج يمجن على جنوب سواحل
تأليفه بالمنظر المتقابل
ومسّر ومقارب ومشاكل (١)
نوراً يضيء على الظلام الحافل
متلهب العالي أنيق السافل
سيراء وشي اليمنة المتواصل (٢)
عن صوب منسجم الرباب الهافل
أشجاره من حوّل وحوامل
من بين حالية اليمين وعاطل

* * *

وافيته والورد في وقت معاً
وغدا بنوروز عليك مباركاً
ونزلت فيه مع الربيع النازل
نحويل عام إثر عام حائل

ووصف البخري قصور العباسيين وأعيادهم وسائر أفراسهم كله على
هذا النحو فنجزىء منه بما تقدم ، بيد أنه مما يجب أن يلاحظ أن
البخري يحسن وصف قصور الملوك وهم أموات كما يحسن وصف قصورهم

(١) الحبك : جمع حبيكة ، وحبيكة الغمام ما تكسر او تجعد منه . المنمر :
ما احتوى على النمرة وهي النكتة من أي نوع كانت . المسير : ثوب مخطط
شبه به الغمام في بعض حالاته .

(٢) السيراء : الحرير الصافي . واليمنة : برد يميني .

وهم أحياء • بل إنه أدق وصفاً وأصدق تصويراً لقصور الأموات منهم
ولعل سبب ذلك ما في هذه من عظة صادقة وعبرة مؤثرة تصهر النفس وتنفذ
إلى قرارة الوجدان وتسمو بالشاعر الملهم إلى أوج الاحسان والابداع ،
وما أنسك في أنك فهمت ما أقصد • فأنا أريد أن اتحدث عن السنية
الخالدة ، وقبل أن أتحدث عنها أودّ أن أسأل متى نظمت هذه القصيدة؟
وهل الغرض الأول منها وصف الأيوان ؟ •

يخيّل إليّ أن هذه القصيدة نظمت في الأسابيع أو الأشهر القليلة
التي تلت مصرع المتوكل والتي أقل فيها نجم البحري على عهد المنتصر ،
وأن الغرض الأول منها وصف ما يحسه الشاعر من ألم شديد وحزن
عميق على عهد ظفر فيه بكل ما يصبوا إليه من مال وجاه وكل ما يحلم
به من ترف ونعيم ، فهي إذن (مذكّرة نفس) كما يقول هيكو عن تأملاته
قبل أن تكون قصيدة وصف ، ومع ذلك فقد بلغ ما فيها من وصف منتهى
الاجادة والاحسان • وإنه لمن حق البحري ومن حق الأدب أن نقف
عند هذه القصيدة الفريدة ولو وقفة قصيرة لتفهّم بعض ما فيها من فن
بارع وجمال رائع •

تقع هذه القصيدة في ستة وخمسين بيتاً يتحدث البحري في العشرة
الأولى منها عن تنكر الأيام له وتغير الزمن عليه ، ويشير إلى جفاء
المنتصر إياه إشارة المعترّ بحبه وخلقه المعتمد على ما عنده من صلابة
العزم وقوة الإرادة ، ويحدثنا فيما عدا ذلك من القصيدة بأنه زار أيوان
كسرى في هذا الطرف العيب من حياته طلباً للعزاء والتماساً للعطف
بما نزل بأل ساسان من غير الدهر وأحداثه • وهنا يقف البحري
وقفة المتأمل المتدبّر ، فيصف لنا عظمة آل ساسان وضخامة ملكهم وسعة

سلطانهم ، ويصف لنا تارة جمال الايوان وفخامته وأبهته وما يزينه من نقوش وتصاوير يكاد يجري فيها دم الحياة ، ويصف لنا طوراً مجلس خمر نعم به هناك ، ساقيه ولده أبو الغوث ، ونديماه كسرى أبرويز والبلهيد ، ويصف لنا حيناً ما يملأ نفسه من خواطر وانطباعات تنتقل به من عالم الحس الى عالم النفس ، فيمعن في التفكير ويمعن في النخيل حتى يترأى له سكان الايوان وكأنهم أحياء يرزقون ويسكب أبو عباده دموعه الحارة في هذه المرحلة من تأمله وتخيله ، لا لأن الدار داره ولا لأن أهلها أهله ، بل لأن أهلها ساعدوا على تحرير بلاده وهي اليمن من نير الاحباش ، ولأنه يحب الاشراف جميعاً سواء في ذلك الاقربون منهم والابعدون (١) وظاهر أن القصيدة كما أصفها لك وحدة بيانه متماسكة تفيض بالحياة والجمال والانسجام . وهي من هذه الناحية تشبه رائية البحري في رثاء المتوكل وميمته في رثاء آل حميد .

يقول ابن المعتز ما نصه تقريباً : لو لم يكن للبحري إلا سينيته في وصف إيوان كسرى لكفى ، فليس للعرب سينية مثلها . . وأنا أزعم أنه ليس للعرب مثلها دون تقييد بالروي .

(١) نظمت في مجازاة هذه القصيدة عدة سينيات أحققها بالذكر سينية شوقي ولكننا قد لا نظلم شوقي اذا لاحظنا أن خير بيت له في وصف اطلال الحمراء وهو قوله :

مشت الحادثات في غرف الحمراء مشى النعي في دار عرسي
ما أخذ من قول البحري :

لو تراه علمت أن الليالي جعلت فيه ما تمأ بعد عرسي
واحب ان اشير هنا الى اني لم اروي شيئاً من سينية البحري على نفاستها
لأنها من الشهرة بمكان .

على أن البحري لم يكن وصاف قصور ومصور زخارف وزينات
فحسب ، بل إنه شاعر مبدع كل الابداع في وصف محاسن الطبيعة .
اسمع قوله في وصف دمشق للمتوكل على الله :

أما دمشق فقد أبدت محاسنها وقد وفي لك مطربها بما وعدا
إذ أردت ملأت العين من بلد مستحسن وزمان يشبه البلدا
يمسي السحاب على أجبالها فرقا ويصبح النبات في صحرائها بددا
فلمست تبصر إلا واكفا خضلا أو يانعا خضرا أو طائرا غردا
كأنما القيظ ولي بعد جيته أو الربيع دنا من بعد ما بعدا

وقوله في وصف منازل صالح بن صيف في الجزيرة :

فكم بالجزيرة من روضة تضاحك دجلة ثعبانها (١)
تريك اليواقيت مشورة وقد جلل النور ظهرانها
غرائب تخطف لحظ العيون إذا جلت الشمس الوانها

* * *

تسير العمارات أيسارها ويعترض القصر أيمانها
وتحمل دجلة حمل الجموح حتى تناطح أركانها
كان العذارى تمشي بها إذا هزت الريح أفنانها
تعانق للقرب شجراؤها عناق الأجة أسكانها
فطورا تقوم منها الصبا وطورا تميل أعصانها

(١) الثعبان : جمع ثعب وهو ما بقي من الماء في بطن الوادي او الغدير

في ظل الجبل .

جنوح تنقل افياءها كما جرت الخيل أرسانها

أما بعد ، فقد لا أخطيء إذا لاحظت أن البحثري من أغزر شعرائنا مادة في الوصف وأكثرهم تمثيلاً للحضارة الإسلامية وأدقهم تحليلاً وأوفاهم تفصيلاً وأنصعهم ديباجة .

هجاؤه ولكن هجاء البحثري على عكس ما تقدم من شعره فإنه قليل الجمال ضئيل القيمة من الناحية الفنية . ولم يخطيء النقاد القدماء والمحدثون في اعتباره دون عامة شعره قوة وبراعة ، إذ كل ما يمتاز به هو الفحش والصرامة ، على أن بعضه لا يخلو من ظرف وفكاهة . ولعل هذه الأبيات التي يهجو صاحبنا بها الخثعمي من أخف هجائه وطأة وأقربه إلى الظرف والفكاهة وهذه هي :

وإن الله يفعل ما يشاء	ألأن علمت أن البعث حق
يضيق بعرضه البلد القضاء	رأيت الخثعمي يقل أنفأ
لهيته وغص به الهواء	سما صعداً فقصر كل سام
إذا وقعت على الأرض السماء	هو الجبل الذي لولا ذراه

* * *

عتابه : إلا أن عتابه هين لين ، يغلب عليه الاستعطاف ويشيع فيه الاسترضاء ، وينحط أحياناً إلى درك الاستجداء ، وليس في هذا ما يسوء البحثري أو يخيفه . على أنه مضطر إلى انتهاج مثل هذه الخطة في عتابه اضطراراً ، لأنه يعاتب عظماء الدولة وأصحاب الحل والعقد أو من له منزلة كبرى عندهم ، وليس له طبعاً أن يعاتب أحداً من

هؤلاء إلا بهذه اللهجة الرقيقة الناعمة ، هذا اذا اراد أن يحتفظ بمركزه
وثروته ، وهو يريد ذلك مهما كان الثمن وعلى هذا كان عتابه مثلاً
في اللين وخفة الروح ، بل إنه أقرب الى المديح منه الى العتاب .
اسمع قوله معاتباً عيسى بن ابراهيم :-

قل لأبي نوح شقيق الندى	ومعدن الجود وحلف السماح
أعوذ بالرأي الجميل الذي	ذوّدته والنائل المستماح
من أن تصد الطرف عني وأن	أخيب من جدواك بعد النحاح
إن كان لي ذنب فعضو وإن	لم يك لي ذنب فميم اطراح ؟
أبعد أسباب متان القوى	من فرط شكر سائر وامتداح
يخبرن عن قلب قديم الهوى	فيك وعن صدر أمين النواح
أشمت حسادي ، وأخرجتني	من سيك المغدى علي المراح ؟!
فهل لأنس بان من رجعة ؟	أم هل لحال فسدت من صلاح ؟
لست على سخطك جلد القوى	ولا على هجرتك شاكي السلاح

* * *

فلسفته : ومع أن البحثري يقول لنا بصريح العبارة انه يهوى التراء-
ويعشق الحياة الدنيا ولا يدخر في سبيل الحصول عليهما وسعاً ، فانه
يفرر من جهة أخرى أن الدنيا عرض زائل ومتاع كاسد ، سرورها
وحزنها صنوان ، ونعيمها وبؤسها سيان ، ويدعو للزهد بها والأعراض
عنها ، ويزعم أنه لم يحفل بها حتى في أيام عزا واقناله . وكلماته في
الدنيا والحياة والموت وما الى ذلك كثيرة متشعبة في ثنايا ديوانه الضخم
أروي لك منها قوله :

إذا عاجل الدنيا ألم بمفرح فمن خلفه فجع سيلوه أجل
وكانت حياة الحي سوقاً إلى الردى
وأيامه دون الممات مراحل

وما لبث من يغدو وفي كل لحظة له أجل في مدة العمر قاتل
وللمرء يوم لا محالة ماله غد وسط عام ماله الدهر قابل
كفاناً اعترافاً بالفناء ورقبة لمكروهه أن ليس لنخذ أمل

وقوله :

يسر بعمران الديار مضلل وعمرانها مستأنف من خرابها
ولم أرتض الدنيا أوان مجيئها فكيف ارتضائها أوان ذهابها

* * *

لغته وأسلوبه : أشرت في أثناء الكلام على ثقافة البحري الى أنه رقيق اللفظ جميل التعبير ، معتدل في استعمال الزخرفة البيانية اعتدالاً تاماً . وما أريد أن أقيم البرهان على هذا . فقد مر بك من شعر الرجل ما يؤيده التأييد كله . ولكني أريد أن أقول الآن إنه أي البحري متساهل بهذيب شعره الى حد ما . كثير الزخرف قليل الاكتراث بقواعد الاعراب ، الا أنه يحسن تأليف الصور الشعرية ويجيد ضرب الامثل إجابة تامة .

فمن الغريب حقاً أن يتناثر كلام البحري ويضعف تأليفه الى حد
قوله :

تدارك شمل الشعر والشعر شارد الش وارد مرذول غريب الغرائب

وقوله : وقصارى المشوق يصرمه الشائق اقصار شوقه أو قصوره

وقوله :

هيئات مارس قلقلاً متيقظاً قلقاً اذا سكن البليد رشيقا (١)

ففي شينات البيت الأول وراءاته وهلهة نسجه ، وقافات البيت الثاني وصاداته وراءاته وسقم تأليفه ، وقافات البيت الثالث وثقل تركيبه ما يدل على أن البحرى لا يعنى بتهديب شعره عناية كفية على الدوام . ولا يقل عن هذا غرابة شيوع الزحاف في شعره ، ولعل وجوده في شعر النابغة وامريء القيس وبعض كبار شعراء الجاهلية الآخرين حملة على عدم الاحتراس منه . ولكن تقدم صناعة الشعر ورقي الملكات الفنية على عهده لا يسمحان للنقاد النزيه بالاغضاء عن وجود هذا العيب في شعره لأنه يدل على قلة الانتباه الى موسيقى الوزن وعلى عدم تذوقها تذوقاً كافياً . ومن أمثلة الزحاف في شعر البحرى قوله في مطلع قصيدة (كنت) الى وصل سعدي جد محتاج .

وقوله في نفس القصيدة :

إن (أنا) شبهته بالغيث في مدحي غضضت منه قننت المادح الهاجي

وقوله :

وقلب هائم فيه احتراق يكاد لشدة (الهوى) يبيد

وأغرب من هذا كله إهماله بعض قواعد الاعراب فكثيراً ما رفع الفعل المضارع بعد فاء سببية مسبوقه بما يوجب النصب كما في قوله :

أعيب عليّ فلا هيابة فرق يخشى الهجاء ولا هش فيمتدح
يربغ كاتبه صلحي لينقضي ولم يكن بيننا شر فمصطلح

(١) القفل : المعوان السريع الحركة .

فمما لا شك فيه أن (يمتدح) و (نصطلح) فعلان منصوبان بحكم الفاء
السببية المسبوقة بنفي ، ولكنهما في بيتي البحرى مرفوعان . وربما
نصب صاحبنا الخبر في غير مبرر ولا سبيل للتأويل كما في قوله :
فهم قوم تبع خير قوم لهم الله بالفخار شهيدا

(فشهد) خبر مرفوع لا سبيل الى نصبه ولكن البحرى نصبه نزولاً
عند ضرورة القافية . وفي الامكان إحصاء هفوات أخرى للمترجم من
هذا القبيل الا أن كثرة شعره الجيد المبرراً من كل عيب تحملنا على
عدم التأثر بهذه الزلات في تحديد منزلته الشعرية . كما أننا لم نتأثر
بأمثالها أو بما يقرب منها في تحديد منزلة أبي تمام .

أضف الى ذلك قدرته العجيبة على تركيب الصور الشعرية التي
يؤلف أجزاءها تأليفاً متقناً ويشيع فيها الحياة والانسجام حتى تجيء وكأنها
صور ناطقة متحركة . وقد مرت بك طائفة حسنة من صور الشعرية
الرائعة من أهمها وصفه مقتل أسد على يد الفتح بن خاقان ، ومبارزته
هو الآخر ذئباً وقتله اياه . ومر بك أيضاً جانب من مرثيته لآل حميد
والمتموكل على الله وهما من أجمل صوره وأجلها شأناً . هذا الى أنه
مجيد كل الاجادة في ضرب الأمثال التي يضربها من حين لآخر مضمناً
إياها حكمته ومؤيداً بها وجهة نظره ، فمن ذلك قوله :

وهل خلق الفتى إلا ليهوى ويأنس بالدموع وبالدماء

وقوله :

إذا المرء لم تبدهك بالحزم والحجا

قريحته لم تغن عنك تجاربه

وقوله :

إذا ما الجرج رمّ على فساد تين فيه تفريط الطيب

وقوله :

ليس يحلو وجودك الشيء تبغيه التماساً حتى يعز طلابه

وقوله :

والياس إحدى الراحتين ولن ترى

تعباً كظن الخائب المكدود

وقوله :

والأرض لولا العذاة واحدة والناس لولا الفعال أمثال

وقوله :

متى أخرجت ذا كرم تخطى إليك بعض أخلاق اللئيم

وقوله :

والسرء لو كانت الشعرى له وطناً

حطت عليه صروف الدهر من صبه

وقوله :

وما تبت البطحاء من غير وابل ولا يستديم الشكر غير جواد

وقوله :

وأحب آفاق البلاد إلى الفتى أرض ينال بها كريم المطلب

٥ - خاتمة !

إذا لم يخطيء ظني فإن في أصالة صفحات كثيرة من شعر البحري وفي أهمية صفحات أكثر من الوجهة التاريخية وفي ما لهذا الشعر على العموم من جمال اللفظ وصفاء الديباجة ، ما يحملنا على الإعجاب به وعلى دراسته بعناية واتقان .

الفصل الثالث

ابن الرومي

أ - حياته : اسمه ونسبه • كنيته • ولاؤه في بني العباس • مولده • نشأته • دراسته • ثروته • ضياعها • سبب ذلك • أستلامه للخيال • شرهه • انحلال جسمه وعقله • غلبة الطيرة عليه • بعض أخباره في هذا الشأن • من أشفق عليه من الطيرة ومن سخر منه • علاقته بآل العباس • تخليه عنها • هجاؤه لإياهم • وفاته •

ج - شعره : نسجه على منوال من تقدمه من الشعراء • الزعم بأنه كان يقول بوحدة الموضوع • تفيده • هامش • غزله • غلبة التقليد عليه • أصالة جزء يسير منه • مثل من هذا الجزء • مديحه • كذبه • خيبة أمله في بعض ممدوحيه • انتقامه منهم • موقف محمد بن عبيدالله بن طاهر منه • ما لمديحه من القيمة الشعرية • ماله من القيمة التاريخية • مثل منه ، هجاؤه • صرامته • بذائته • ميله الى الاعتداء عتابه • لينه وشدته • مثل منه • رثاؤه • غلبة الاخلاص عليه • مثل منه ، وصفه • تمثيله كل ناحية من نواحي حياته العقلية والنفسية ، مثل منه • لغته وأسلوبه • إطلاته • استهائته بسلامة الأداء • استقصاؤه الدقيق للمعاني والأغراض •

د - خاتمة : ابن الرومي من حيث هو رجل ومن حيث هو شاعر •

أسماء

حدثك في الفصل الماضي عن شاعر من أسعد الشعراء حظاً وأعظمهم نجاحاً في شعره ، ألا وهو أبو عبادة البحرى . وأحدثك الآن عن شاعر من أسوأ الشعراء حظاً وأشدهم إخفاقاً ألا وهو علي بن العباس بن جريج أو جريج المكنى بأبي الحسن والمعروف بابن الرومي وهو مولى عيسى بن عبدالله ابن جعفر بن المنصور ثاني خلفاء بني العباس .

ولد في بغداد ليلتين خلنا من رجب سنة إحدى وعشرين ومائتين ونشأ في كنف الخلافة العباسية ودرس دراسة حسنة نلمس آثارها في أدبه الجم وشعره الجيد ولكننا نجهل تاريخ نشأته ودراسته . ويدل شعره على أنه ورث ضيعة ولكنه أضاعها ، وداراً ولكنها غصبت منه وثروة ولكنه لم يستطع الاحتفاظ بها وذلك لأنه لم يخلق لكسب المال وتديره والقيام عليه ، وإنما خلق للكسل والاسترخاء والاستغراق في الخيال وقرض الشعر في ظلال الخمول والراحة وقد غلبت عليه هذه الناحية حتى اضطرب عقله وفسد تفكيره وساعد على محنته هذه شره شديد فيه ، خلق منه رجل معدة مسرفاً في طعامه وشرا به الاسراف كله ومعنى ذلك أن عوامل أدبية ومادية قوية تضافرت عليه فأفقدته سلامة عقله كما أفقدته سلامة جسمه . وظهر أثر كل ذلك واضحاً قوياً في غلبة الطيرة على عقله ، فقد كان يتطير بكل شيء حتى بما يتيمن به المتشائمون .

افتقده أحد عارفي فضله من الأمراء فقيل له إنه سجين بيته منذ مدة من الزمن بسبب الطيرة فأرسل إليه غلاماً اسمه (إقبال) ليتيمن به ويخرج من منزله فلما تهيأ لزيارة الأمير أدركه الالهام في آخر لحظة

فقال للغلام « أذهب فأنت ناقص ومعكوس اسمك لابقاء » لبث معتكفاً
في منزله • وطال اعتكافه فأضر هذا بأهله وتعذر عليهم الطعام والشراب •

حدث علي بن ابراهيم كاتب مسرور البلخي قال « كنت بداري جالساً
فاذا حجارة سقطت بالقرب مني فبادرت هارباً وأمرت الغلام بالصعود الى
السطح والنظر إلى كل ناحية من أين تأتي الحجارة فقال : امرأة من دار
ابن الرومي الشاعر قد تشوفت ، وقالت اتقوا الله فينا واسقونا جرة ماء
وإلا هلكنا ، فقد مات من عندنا عطشاً ، فتقدمت إلى امرأة عندنا ذات
عقل ومعرفة أن تصعد إليها وتخاطبها ففعلت وبادرت بالحجارة وأتبعتها
شيئاً من المأكول ثم عادت إلي فقالت : ذكرت المرأة أن الباب عليها
مقفل من ثلاث بسبب طيرة ابن الرومي وذلك أنه يلبس ثيابه كل يوم
ويتعوذ ثم يصير إلى الباب والمفتاح معه ، فيضع عينه على ثقب في خشب
الباب فتقع عينه على جار له كان نازلاً بازائه وكان أحدب يقعد كل يوم
على باب (١) فاذا نظر إليه رجع وخلع ثيابه وقال لا يفتح أحد الباب ،
فعبجت لحديثها وبعثت بخادم كان لي يعرفه فأمرته بأن يجلس بازائه
وكانت العين تميل إليه وتقدمت إلى بعض أعواني أن يدع الجار الأحدب
فلما حضر عندي أرسلت وراء غلامي لينهض إلى ابن الرومي ويستدعيه
إلى الحضور فاني لجالس ومعني الأحدب إذ وافى أبو حذيفة الطرسوسي
ومعه برذعة الموسوس صاحب المعتمد ودخل ابن الرومي فلما تخطى عتبة

(١) انتقم ابن الرومي لنفسه من هذا الأحدب بقوله فيه و (هو من احسن الهجاء)

فكأنه مترين ان يصعنا

واحسن ثانية لها فتجمعا

قلصنا رية والوالا ذلنا أيبكا

باب الصحن عثر فانقطع شسع نعله فدخل مذعوراً وكان إذا فاجأه الناظر رأى منه منظراً يدل على تغيير حال فدخل وهو لا يرى جاره المتطير منه ، فقلت له يا أبا الحسن أياكون شيء في خروجك أحسن من مخاطبتك للخدام ونظرك إلي وجهه الجميل ؟ فقال قد لحقني ما رأيت من العثرة لأنني فكرت أن به عاهة وهي قطع أنثيه :-

قال بردعة : وشيخنا يتطير ؟ قلت نعم فأقبل عليه وأنشده :

لما رأيت الدهر يؤذن صسرفه بتفريق ما بيني وبين الجباب
رجعت إلى نفسي فوطنتها على ركوب جميل الصبر عند النواجب
ومن صحب الدنيا على جور حكمها

فأيامه محفوفة بالمصائب

فخذ خلسة من كل يوم لقيته وكن حذراً من كامنات العواقب
ودع عنك ذكر الفال والزجر واطرح

تطير جار أو تفاؤل صاحب

فبقي ابن الرومي باهتاً ينظر إليه ولم أدر أنه شغل قلبه بحفظ ما أنشده ، ثم قام أبو حذيفة وبرذعة معه فحلف ابن الرومي الا يتطير أبداً من هذا ولا من غيره وأوماً الى جاره فقلت وهذا الفكر أيضاً من التطير فأمسك « (١)

على أنه إذا كان بين الناس من أسف لشذوذ الشاعر وعمل على تخفيف بلواء فقد كان بينهم من يتندر به ويسخر منه وأشهر من فعل هذا علي ابن سليمان المعروف بالأخفش الصغير الذي كان يأتيه فيما يقول

(١) زهر الآداب ج ٢ ص ١٧٧ طبعة المطبعة الرحمانية بمصر .

صاحب زهر الآداب سحراً ويدق عليه الباب فإذا قيل له من ؟ قال قولوا
لأبي الحسن (أنا مرة ابن حنظلة) أو (أنا الشؤم والبلاء) فيتطير الشاعر
المسكين ويبقى في منزله أياماً لا يأتي أي عمل . وانتقم ابن الرومي
لنفسه من هذا الشاب التزق الذي لا تعرف الرحمة إلى قلبه سيلاً فهجاء
وأقذع في هجائه . وأشفق النحوي في أول الأمر من الهجاء وتوسل
إلى الشاعر أن يصفح عنه مستشفعاً إليه ببعض أولي الفضل والآدب فقبل
الشفاعة وصفح عن النحوي وأمسك لسانه عنه ولكن يظهر أن هذا كان يجد
في إيذاء ابن الرومي سروراً يهون عليه في سبيله احتمال الهجاء فعاد
إلى الشاعر بهزته وسخريته وعاد هذا إلى هجائه ولكنه تظاهر بعدم
الاكتراث بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك فكان يحفظ هجاء ابن الرومي
له ويميله على أصحابه تفكهاً به وقلة اكتراث له فلما رأى الشاعر أن
هجائه لا يؤذيه صرف نظره عنه .

وتسألني عن علاقته بآل العباس وأثرها في تخفيف بلواه ، فأقول لك
إنه تخلى عن هذه العلاقة وطعن بامامة أسياده القدماء وقال إنهم أئمة
ظلمة غضبوا أبناء عمومتهم العلويين حقهم في الخلافة واستأثروا بما
ليس لهم ، وتمتى زوال نعمتهم وانقراض دولتهم :

أجئوا بني العباس من شئنا نكم

وأوكوا على ما في العياب وأشرجوا (١)

وخلّوا ولاية السوء منكم وغيهم فأحربهم أن يفرقوا حيث لججوا
نظار لكم أن يرجع الحق راجع إلى أهله يوماً فتشجوا كما شجوا

(١) أوكوا شدوا الوكاء وهو رباط القرية وأشرجوا لفظ مرادف لأوكوا

يقول اكتبوا بغضاءكم لابناء عمومتهم وبالغوا في الكتمان .

والقصيدة طويلة يرثي بها الشاعر يحيى بن عمر العلوي الذي ثار على
العباسيين بالكوفة سنة إحدى وخمسين ومئتين للهجرة فقمعوا فنته
وقتلوه .

تلك كانت أسباب فشل ابن الرومي بل أسباب نكته الساحقة الماحقة
التي رزح تحت أعبائها عشرات الاعوام حتى دس إليه القاسم بن عبيد الله
ابن وهب الذي كان يخشى معرة لسانه من أطعمه خشكانجه مسمومة كان
فيها حتفه وكان ذلك سنة ثلاث وثمانين أو أربع وثمانين ومائتين .

ب - أخلاقه :

أما أخلاقه فإنها تتناقض تناقضاً يتناسب وشذوذه وفساد تفكيره فهو
بشهادة شعره بخيل جواد ، جبان شجاع ، كذوب صدوق ، حقود
متسامح وهكذا (١) .

ومصدر هذا كله اعتلال صحته واختلال أعصابه وإسرافه على نفسه في
كل شيء . فقد كان مسرفاً في طعامه مسرفاً في شرابه مسرفاً في إرضاء
شهواته ولذاته ما وجد الى ذلك سبيلاً . ورجل هذا شأنه وذاك ديدنه
مقضي عليه حتماً بما قضي به على ابن الرومي ، من اعتلال الجسم واختلال
العقل وانحلال الخلق .

ح - شعره :

لابن الرومي شعر كثير لم يطبع إلا أقله نسج فيه على منوال من

(١) راجع في هذا « ابن الرومي حياته من شعره » للعقاد ص ١٠٢ الى ١٠٢

تقدمه من الشعراء فمدح وهجا ، وشبب ورثي ، ووصف وضرب الأمثال
وجمع الموضوعات المختلفة في القصيدة الواحدة (١) .

وأرجو أن أحدثك فيما يلي عن مختلف ضروب شعره وأبوابه .

غزله : الواقع أن غزل ابن الرومي في جملة لا يحتوي على مقاصد
وأغراض غرامية حقيقية . وأنه لا يبدو أن يكون رواية معان مألوفة وأخيلة
معروفة طالما ردها الشعراء من قبل ، فقدود الغيد الحسان أغصان ،
وأردافهن كئبان ، وخدودهن تفاح ، ونهودهن رمان ، وشعورهن أعناب
مهذلة ، وأناملهن عَنَاب ، وأجفانهن نرجس ضربه سقيط الطل ، وثغورهن
أقحوان ، والحبيب غزال يصيد الألباب بنظراته ، ومحبوه يجرحون خديه

(١) يذهب الاستاذ العقاد الى ان قصائد ابن الرومي « موضوعات كاملة تقبل
العناوين وتنحصر فيها الأغراض ولا تنتهي حتى ينتهي مؤداها وتفرغ جميع جوانبها
وأطرافها ولو خسر في سبيل ذلك اللفظ والفصاحة » ابن الرومي حياته من شعره
ص ٣١٦ الطبعة الثانية .

ولكننا اذا رجعنا الى ديوان ابن الرومي رأينا انه يحتوي على قصائد كثيرة
تتعدد موضوعاتها وتتنوع اغراضها منها هذه النونية التي يمدح بها ابا الصقر اسماعيل
بن بلبل والتي مطلعها :

اجنت لك الوجد اغصان وكئبان فيهن نوعان تفاح ورمان
وهذه البائية التي يمدح بها عبدالله بن عبيدالله والتي مطلعها :
صبا من شاب مفرقه تصابي وان طلب الصبا والقلب صاب
وهذه البائية التي يهجو بها البحري والتي مطلعها :

ما أنس لا أنس هندا آخر الحقب على اختلاف صروف الدهر والنوب
وقد اعتذر ابن الرومي الى احد ممدوحيه عما صدر به مديحه من التشبيب فقال
مشيراً الى قصيدته :

لم يعبها سوى قواف تشاغلن عن المدح فيك بالتشبيب
ولا ادري كيف يوفق الاستاذ العقاد بين ما ذهب اليه وبين هذه الحقائق
الناطقة التي لا تقبل الجدل .

بالحاظهم ولكنه يقتص لنفسه فيجرح قلوبهم بتباريح الوجد ولواعج الحب وهكذا . على أنه من الحق أن نقرر أن ابن الرومي يعرض هذه المعاني المألوفة بلغة جذابة وأسلوب رائع يجيبانها الى القلوب ويقربانها من النفوس . وأنا الذي لا أختلف كثيراً مع عبيدالله بن طاهر الذي أطلق اسم « دار البطيخ » (١) على نونيته التي مطلعها « أجنحت لك الوجد النخ . . » أشعر عند قراءة نسيب هذه القصيدة بشيء لا بأس به من اللذة الفنية . على أن هذه الملاحظات لا تتناول بالطبع دالية المترجم في وحيد المغنية لأنها تحتوي على غزل إلا يعبر عن عاطفة غرامية صادقة فانه يمثل مهارة فائقة في وصف بدائع الجمال وروائع الغناء . استمع إلى قوله فيها :

وغرير (٢) بحسنا قال صفها نلت أمران هين وشديد
يسهل القول إنها أحسن الأشياء اه طراً ويصعب التحديد
تتجلى للناظرين إليها فشققي بحسنا وسعيد
ظبية تسكن القلوب وترعا ها وقمرية لها تغريد
تغني كأنها لا تغني

من سكون الأوصال وهي تجيد

لا تراها هناك تجحظ عين لك منها ولا يدرّ ويريد
من هدوٍ وليس فيه انقطاع وسجو وما به تبليد
مدّ في شأوصوتها نفس كاف كأنفاس عاشقها مديد
وأرق الدلال والغنج منه وبراه الشجا فكاد يبيد

(١) دار البطيخ : محل تباع فيه الخضر والفواكه ببغداد .

(٢) الغرير هنا : المخدوع .

فتراه يموت طوراً ويحيا مستلذاً بسيطه والنشيد(١)
فيه وشي وفيه حلي من النغ م مصوغ يختال فيه القصيد
في هوى مثلها يخفف حليم راجح حلمه ويغوى رشيد
ما تعاطى القلوب إلا أصابت بهواها منهن حيث تريد
عيها أنها إذا غنت الاح رار ظلوا وهم لديها عبيد

مديحه : ومديح ابن الرومي أكثر كذباً وأشد إغلاً في التقليد من
غزله فقد يقول عن ممدوحه إنه كريم مع أنه من أشد الناس بخلاً ،
وشجاع مع أنه من أشد الناس جبناً ، وذكي متوقد الذهن مع أنه من
أشد الناس بلاهةً وبلادةً ، وهو لا ينكر شيوع الكذب في مديحه وغلبة
الاسراف عليه بل إنه يعترف به ويؤكد به ويعقب على قول القرآن عن
الشعراء (انهم يقولون ما لا يفعلون) بأنهم لا يقولون ما لا يفعلون فحسب
ولكن ما لا يفعل الأمراء أيضاً :

يقولون ما لا يفعلون مسبةً من الله مسبب بها الشعراء
وما ذاك فيهم وحده بل زيادة يقولون ما لا يفعل الامراء

وغني عن البيان أن ابن الرومي مضطر إلى مجاملة ممدوحيه وإطرائهم
بما ليس فيهم من حميد الصفات وجميل الخلال طلباً لمعروفهم وعملاً
على إحراز جوائزهم ، على أن هؤلاء لم يكونوا دائماً عند حسن ظنه بهم

(١) هكذا في المراجع الموجودة بين يدي وربما كان الصحيح المديد بدلا من

فقد رفض إسماعيل بن بلبل وزير المعتضد أن يجيزه على نونيته الطنانة
لقوله فيها :

قالوا أبو الصقر من شيان قلت لهم
كَلَّا لعمرى ولكن منه شيان

وسبب امتعاضه من هذا البيت أن الناس كانوا يشكون في نسبه إلى
شيان فرأى أو أراد أن يرى فيه تعريضاً بهذه الشكوك مع أن الشاعر وضح
غرضه بقوله بعده مباشرة :

وكم أبٍ قد علا بابن ذرى شرفٍ
كما علا برسول الله عدنان

ولكن ابن بلبل لم يشأ أن يلتفت إلى هذا التوضيح وأصر على حرمان
الشاعر وأحسب أنه كان يتلمس سبباً لحرمانه فوجد ضالته في البيت الآنف
ذكره وقد انتقم ابن الرومي منه أسوأ انتقام

ومن غريب ما ابتلى به ابن الرومي في هذا الباب موقف محمد بن
عبدالله ابن طاهر منه فقد كان أديباً عارفاً بالشعر ناقداً له وكان يحسد
ابن الرومي إذا أجاد في مدحه ويعيبه إذ أسف ، ومعنى هذا أنه يحرمه
أو يقرب به من الحرمان في كلتا الحالتين . وقد وصف ابن الرومي هذا
الموقف الغريب الشاذ بقوله :

قد بلينا في دهرنا بملوك أدباء علمتهم شعراء
ان أجدنا في مدحهم حسدونا فحرمنا منهم ثواب الثناء
أو أسأنا في مدحهم أتبونا وهجوا شعرنا أشد هجاء

قد أقاموا نفوسهم لذوي المدح مقام الأنداد والنظراء

ولكن مهما يكن من مخالفة مديح ابن الرومي للحقيقة وإمعانه في الكذب والمبالغة فإنه من جيد الشعر ونفيسه لطافة معنى وطرافة مبنى وروعة خيال

أضف إلى ذلك أنه يعطينا فكرة واضحة كل الوضوح قوية كل القوة عن بعض شؤون معاصريه الاجتماعية وقد لا أغلو إذا قلت لك إنه خير من وصف المهرجان وما يسبغ عليه وزراء الدولة وأعيانها من أبهة وجلال وروعة وجمال في ما أدب يقيمونها وحفلات طرب يحضرونها وزيارات يتبادلونها ونفائس يتهادونها ومدائح يستمعون إليها ويثيرون عليها، إستمع إلى قوله من قصيدة طويلة يهنيء فيها أحد عظماء آل طاهر بالمهرجان :

زخرفت يوم نعمة حجرات	جئد موطوءة من الضيفان
حجرات ميممات بناها	من فضول المعروف أكرم بان
ثم قام الكمأة صفين من كـ	ل عظيم في قومه مرزبان
كلهم مطرق إلى الأرض مغض	وعلى سيفه هنالك حان

* * *

وتجلى على السرير جين	ذو شعاع يحول دون العيان
يمكن العين لحظة ثم ينهى	طرفها عن إدامة اللحظان
فله منه حاجب قد حماه	كل عين ترومه بامتهان
فأستوى فوق عرشه بوقار	وبحلم من الحلوم الرزان
ثم قام المجدون مثولاً	ضاربين الصدور بالأذقان

فتشوا (١) سؤدد الأمير وعدوا فيه آلاءه بكل لسان
حين لم يجشموا التريبد لا بل ما تعدوا ما حصل الكاتبان
فقضوا من مقالهم ما قضوه ثم أبو بالرقد والحملان (٢)
بعدهما أرتعوا الأنامل فيما لا تعداء شهوة الشهوان
من خوان كأنه قطع الروض وان كان في مثال خوان
فوقه الطير في الصحف وحاشا ذلك الطير من جفاء الجفان
ثم سام الأمير سوم الملاهي وخلا بالمدام والندمان
وقيان كأنها أمهات عاطفات على بنيتها حوان
مطفلات وما حملن جينياً مرضعات ولسن ذات لبان
ملقعات أطفالهن ندياً ناهدات كأحسن الرمان
مفعمات كأنها حاملات وهي صفر من درة الألبان
كل طفل يدعى بأسماء شتى بين عود ومزهر وكران
أمه دهرها تترجم عنه وهو باذي الغنى عن الترجمان
غير أن ليس ينطق الدهر إلا بالتزام من أمه واحتضان
أوتي الحكم والبيان صياً مثل عيسى بن مريم ذي الحنان
لو تسلى به حديثه رزه لشفى داء صدرها الحبران
وتغنته بالمدايح فيه كل غيداء غادة مفتان
ذات صوت تهزّه كيف شاءت مثل ما هزّت الصبا غصن بان

(١) نثوه تحدثوا عنه .

(٢) الحملان : ما يحمل عليه من الدواب في الهبة .

يشتى فينفض الطل عنه في تشبهه مثل حب الجمان
جمهوري - بلا جفاء على السمع - مشوب بغنة الغزلان

هجاؤه : وما أريد أن أطيل الوقوف عند هجاء ابن الرومي لأنه يقطر
سماً ويتطاير شراً هذا إلى بذاءة شديدة فيه وهيل واضح إلى
الاعتداء .

أفهم أن شاعراً يهجو انساناً يعتدي عليه ، ويسيء إليه بالتقص من
قدره او الغض من شعره ولكني لا أفهم ان شاعراً يهجو إنساناً لم
يسيء إليه قط ولم يجتمع به قط ومع ذلك فهذا ما حدث لابن الرومي
مع البحرري فانه هجاء في قصيدة تقع في أكثر من مئة بيت وضمه فيها
ببلادة الذهن وجمود القريحة والسطو على القدماء وإما إلى ذلك مع أنه
لم ينافسه ولم يزاحمه في يوم من الأيام . ماذا أقول ؟ بل لم يجتمع
به مطلقاً قبل هجائه إياه بل لقد سبق له أن أشار بأكرامه والانعام
عليه . وإجمال الخبر أن أبا عيسى ابن صاعد أقرأ البحرري قصيدة لابن
الرومي في مدح أبيه وسأله عما ينبغي أن يجيزه به فقال له : أعطوه
لكل بيت ديناراً

الواقع أن الذين وصفوا المترجم بسلاطة اللسان وبذاءة الهجاء كانوا
على حق فيما ذهبوا إليه .

عتابه : ومع أن ابن الرومي يرفق في عتابه بعض الرفق ويلين لاصدقائه
الذين يعاتبهم بعض اللين فانه لا يلبث أن يقسو عليهم قسوة شديدة
ويحاسبهم على هفواتهم وزلاتهم سواء أكانت هذه حقيقية أم خيالية
محاسبة عنيرة . مثال ذلك أن القاسم بن عبيدالله بن وهب كل يستدنيه

ويستدعيه لزيارته ويحضره مجالس لهوه وطربه قبل أن يتقلد منصب الوزارة فلما تقلد هذا المنصب شغل عنه أو نسيه بعض الشيء فكتب اليه يسأله أن يجري علي مألوف عادته في تقريبه والتمكين له في مجلسه وإلا فإنه يمزق عرضه تمزيقاً ويجعله أهدوثة الملاء بهجائه إياه :

أذن شخصي إذا شدت لك بسة	ان وغنت غناها غناء
حسن علمي إذ ذاك بالحسن المو	قع مما يروي القلوب الظماء
وارتفاعي عن الجفافة المـتـوـين	بشدو المجيدة الضوضاء
موجب أن أكون أدنى جليس	لك أعلو بحقي الجلساء

* * *

قد بغى قبلك الدعي فلم أحفل بأن كان باغياً بغاء	
فاعتبر بابن ببلبل إن فيه	عمبرة لامريء أعد وعاء (١)
والعلاء بن صاعد قبل هذا	قد حمى دون رائدي الأحماء
فارم بالطرف شخصه هل تراه	وادعه الدهر هل يجيب دعاء
أنا عبد الانصاف قرن التعدي	فاسلك القصد بي وعد العداء

* * *

ومن هذا القبيل ما حدث للمترجم مع أبي القاسم التوزي الصطرنجي فإنه سأله قضاء حاجة لم يقضها له وربما كان معذوراً في ذلك فما كان منه إلا أن عاتبه عتاباً مرأاً وصفه فيه بالرياء والتدليس وعدم الوفاء والمروءة . استمع إلى قوله في هذا العتاب :

(١) اعد وعاء : اي اعد قلباً يعتبر فيزدجر .

كشفت منك حاجتي هنوات غطيت برهة بحسن اللقاء
تركنتي ولم أكن سيء الظن أسىء الظنون بالأصدقاء
قلت : لما بدت لعيني شعاعا ربّ شوهاء في حشا حسناء
ليتي ما هتكت عنك سترأ فتويتن تحت ذاك الغطاء
قلن : لولا انكشافنا ما تجلت عنك ظلماء شبهة قماء
قلت : أعجب بكن من كاسفات كاشفات غواشي الظلماء
قد أفتتني مع الخبر بالصا حب أن ربّ كاسف مستضاء
قلن : أعجب بمهتد يتمنى أنه لم يزل على عيماء
كنت في شبهة فزالت بساعنك فأوسعتنا من الأزرء
قلت : تالله ليس مثلي من ودّ ضاللاً وحيرة باهتداء
وتمنيت أن تكون علي الحيرة العماية الطخياء
غير أنني وددت ستر صديقي بدلاً باستفادة الانبء
قلن : هذا هويّ فعرج على الحق واخل الهوى لقلب هواء
ليس في الحق أن توّد لخل أنه الدهر كامن الأدواء
بل من الحق أن تنفر عنهن وإلا فأنت كالبعداء
إن بحث الطيب عن داء ذي الداء لأمس الشفاء قبل الشفاء
دونك الكشف والعتاب فقوم بهما كل خلة عوجاء

وإذا ما بدا لك العرّ (١) يوماً فتبّع نقابه (٢) بالهناء (٣)
قلت : في ذلك موتكن وما الموت بمستعذب - لدى الأحياء
قلن : ما الموت بالكريه إذا كا ن بحق فلا تزد في المراء

أثبت هذا الحوار على طوله لأنه فريد في بابه ولكني مضطر مع ذلك إلى أن أشك في أن يكون ابن الرومي محقاً في توجيهه مثل هذا العتاب القارس إلى رجل يشهد هو فيما بقي من هذه القصيدة أنه من أفضل رجال عصره وأغزرهم علماً وأشرفهم خلقاً .

رثاؤه : ولكن إذا كان ابن الرومي مقلداً في عامة غزاليه ، كاذباً متكلفاً في سائر مديحه ، مسرفاً شديد الأسراف في هجائه وعتابه ، فانه مخلص كل الأخلص في رثائه ذلك لأنه لا يرثي إلا من رسخ حبه في قلبه وعظم مكانه من نفسه ، وقد قلت لك عند الكلام على رثاء أبي تمام إن له رثاءً مطبوعاً وآخر مصنوعاً ولكني لا أستطيع أن أقول لك مثل هذا بالنسبة الى رثاء ابن الرومي لأنه لا يتجر برثائه كما يتجر بمديحه وانما يدخره للاعراب عن عواطفه والافصاح عن مشاعره ولذلك كان مجموعة عواطف صادقة وأحاسيس كريمة ومشاعر نبيلة ، فقد تطوع مثلاً برثاء البصرة عندما سطا عليها الزنج فقتلوا أهلها وسلبوا أموالها وهدموا دورها واستحلوا منها كل ما حرم الله والضمير والقانون ، وتطوع كذلك برثاء يحيى بن عمرو العلوي المتقدم ذكره ، بل إنه أقدم على تهلكة في رثائه ذلك العلوي المسكين لأنه استطرده إلى التثديد بآل

(١) العرّ : الجرب .

(٢) النقاب : جمع نقب وهو القطع المتفرقة من الجرب .

(٣) الهناء ككتاب : القطران وهو ما يداوي به الجرب .

العباس تنديداً سبق أن رويته لك والى التنديد بآل طاهر الذين
تولوا قتل يحيى المذكور والقضاء على قتلته والذين وصفهم الشاعر بأنهم
أعداء للنبي وآله ، خصوم للإسلام ، يدينون به في الظاهر ، ويكيدون
له في الباطن . وما دام الحديث قد انتهى بي إلى رثاء المترجم يحيى
بن عمرو فلا أرو لك مثلاً من هذا الرثاء فإنه من خير ما رثى به شاعر
مخلص فقيداً عزّ عليه فقده وبرّح به مصابه . قال المترجم :

بني المصطفى كم يأكل الناس شلوكم

لبلواكم - عما قيل - مفرج

أما فيهم راع لحق نبيه ولا خائف من ربه يتحرج

* * *

أبعد المكنى بالحسين شهيدكم تضيء مصابيح السماء فتسرج
لنا وعلينا لا عليه ولا له تسحج أسراب الدموع وتسج
وكنا نرجيه لكشف عماية بأمثاله أمثالها تبسج

* * *

أيحيى العلى لهفي لذكراك لهفة يباشر مكواها الفؤاد فينضج
لمن تستجد الأرض بعدك زينة فتصبح في أثوابها تبرج
سلام وريحان وروح ورحمة عليك وممدود من الظل سجج
ولا برح القاع الذي أنت جاره يرف عليه الأقبوان المفلسج
ويا أسفي ألا تردّ تحية سوي أرج من طيب رمك يارج
ألا إنما ناح الحمام بعدما ثويت وكانت قبل ذلك تهزج

عفاء على دار ظننت لغيرها فليس بها للصالحين معراج

وهي طويلة وكلها على هذا النحو من النفاسة والجودة .

وصفه : وماذا يقال عن وصف ابن الرومي ؟

الواقع أنه سجل حافل بكل ما يمثل رقة شعوره ودقة إحساسه وحسن تقديره للغناء ، وكثرة اختلافه إلى مجالس اللهو والطرب وشدة تهمة وإيثاره الفجر مع الراحة على القيام بالاسفار وإن أدت هذه إلى الغنى : فأنت تتقل فيه من روضة غناء تترنج أشجارها وتترنم أطيارها وتبسم أزهارها وتتدفق مياها وتندى ظلالها ويهب عليها النسيم الطلق فيحمل أنفاسها العطرة ذات اليمين وذات الشمال إلى مجلس طرب تصل أقداحه وتعربد أباريقه وتناجي قياثيره وتتناغى مزامره إلى مائدة قد صفت جفانها ونظمت صحافها واختلفت طعومها وانسجمت الوانها فبجاء مثلاً حياً في سعة البذل وسلامة الذوق ، إلى مخبز تصنع فيه الرقاق بما لا مزيد عليه من اللباقة والسرعة ، إلى معمل حلوى يشتغل فيه صانع الزلاية منذ السحر أو حتى السحر إلى خان موحش تداعت أركانها وتزعزع بنيانه وأوشكت أن تنقض سقوفه ، بأوي إليه المسافرون التعساء في الليالي السود ، إلى نهر هائج مائج تعبت به زوبعة هوجاء تقذف الرعب في قلوب ركابه ونهددهم بأن تصنع منهم وليمة لاسماكه وهكذا . وما أعدك أن أروي لك مثلاً لكل ما تقدمت له الإشارة من وصف ابن الرومي فذلك مما يطول ويطول إلى درجة الاملال ولكني أروي لك علاوة على ما سبق ذكره من وصف المترجم عند الكلام على غزله وعند

الكلام على مديحه مثلاً واحداً يخيل إليّ أنه من رائع وصفه وهو قوله
في العنب الرازقي (١) .

ورازقي مخطف الخصور
كأنه مخازن البلور
لم يبق منه وهج الحرور
إلا ضياءاً في ظروف نور
لو أنه يبقى على الدهور
قرط آذان الحسان الحور
له مذاق العسل المشور (٢)
ونكهة المسك مع الكافور
وبرد من الخصر المقرور (٣)

* * *

باكرته والطيور في الوكور
وعذر اللذات في البكور (٤)
بفتية من ولد المنصور
أملاء للعين من البدور
حتى أتينا خيمة الناطور

-
- (١) لا وجود لهذا النوع من العنب الآن في العراق .
(٢) المشور : المجني .
(٣) الخصر : الشديد البرودة .
(٤) العذر هنا النجاح ولكنه بتسكين الذال وقد حركت للضرورة .

قبل ارتفاع الشمس للذرور
فانقض كالطاوي من الصقور
بطاعة الراغب لا المجبور
ثم جلسنا مجلس المجبور
على حفاقي جدول مسجور (١)
أبيض مثل المهرق المنشور (٢)
أو مثل متن المنصل المشهور
ينساب مثل الحية المدعور
بين سماطي شجر مسطور
فتيليت الأوطار في سرور

* * *

وكل ما نقضي من الأمور
تعلّ عن يومنا المنظور
ومتعة من متع الغرور

لغته وأسلوبه : وسألني عن الطابع الذي يمتاز به ابن الرومي من

حيث لغته وأسلوبه فأقول لك إنه يتألف من ثلاثة أشياء مختلفة هي
الإطالة ، والاستهانة بسلامة الأداء ، والاستقصاء الدقيق الشامل للمعاني

(١) مسجور : مملوء .

(٢) المهرق : ما يكتب فيه .

والأغراض : فقد أطال ابن الرومي إطالة لا عهد لنا بها من قبل فبلغ عدد أبيات همزيته التي يعاتب بها القاسم بن عبيدالله بن وهب والتي مطلعها :

أيها القاسم القسيم رواءً والذي ضمّ وده الأهواء

سته عشر ومثني بيت (٢١٦) ، وبائته التي يمدح بها أحمد بن ثوابه والتي مطلعها :

دع اللوم إن اللوم عون النوائب ولا تتجاوز فيه حد المعاتب

ثلاثة وثمانين ومئة بيت (١٨٣) . وبائته التي يمدح بها أبا العباس بن ثوابه ويهجو الكوكبي والتي مطلعها :

أني هجوت بني ثوابه ؟ ياصاحب العين المصابة

خمس وسبعين ومئة بيت (١٧٥) . وقل مثل ذلك عن كثير من قصائده . وفي هذا إسراف غير قليل فان شاعراً متكسباً كابن الرومي يستطيع أن يلفق ما شاء من أكاذيب وأباطيل يرضي بها ممدوحه ويحصل على جائزته في خمسين أو أربعين بيتاً أو أقل من هذا المقدار فقد عرف أبو عبادة البحرري وهو معاصر لابن الرومي هذه الحقيقة وعمل بها فخف ظله على معاصريه ولطف موقعه من نفوسهم فقرأواه وأحبوه وأعجبوا به وسموا قصاره (سلاسل الذهب) .

والغريب في أمر ابن الرومي أنه يطيل هذه الاطالة المملة مع أنه يوصي بالاختصار فهو يقول :

كل امرئ مدح امرأ لنواله فأطال فيه فقد أراد هجاءه

لو لم يقدر فيه بعد المستقى عند الورود لما أطال رشاءه.

ولكنه يستني نفسه من هذه الملاحظة المعقولة فيقول :
غيري فأنني لا أطيل مدائحي إلا لأوفي من مدحت ثناءه
وأعد ظلماً أن أقل مديحه عمداً وأسخط إن أقل عطائه

وأحسب أن ما يدعيه المترجم في البيتين الأخيرين غير صحيح فإنه
يدعي أنه يطيل مدائحه ليوفي ممدوحيه حقوقهم ولكنه ينسى أنه القائل :

يقولون ما لا يفعلون مسبة من الله مسبب بها الشعراء
وما ذاك فيهم وحده بل زيادة يقولون ما لا يفعل الأمراء

وينسى كذلك أنه هجا أبا الصقر اسماعيل بن بلبل وغيره من ممدوحيه
لأنهم لم يشيروه على مديحه أشنع هجاءه . والواقع أنه مجبول على الاطالة ،
وما أريد أن أقول إنه ورثها عن أخواله الفرس الذين يذهب البعض إلى
أنهم مبالون بفطرتهم إلى الافاضة المفرطة في الكلام ويضرب لهذا مثلاً
عبد الحميد بن يحيى الكاتب وعبد الله ابن المقفع ، الذين هما من أشد
الكتاب ميلاً إلى الاطالة . أقول إنني لا أرى هذا الرأي لأنني لا أملك
البرهان القاطع على صحته ، ولكنني أزعم أن ابن الرومي مجبول على
الاطالة غير قادر على التملص منها . وقد كلفته هذه غالباً إذ كانت إحدى
العوامل التي أبعدهت عن قلوب ممدوحيه وقد اعتذر مراراً عديدة فمن
ذلك قوله معتذراً إلى صاعد عن طول قصيدة :

لم أطلها كما أطال رشاءً ماتح سه ظنه بقلب
حاش لله ليس مثلي تظني ظن سوء بمستقائك القريب

غير أني امرؤ وجدت مقالاً مستباً في كل قرم نجيب
فأطلت المديح ما طال فيهم مع أني قصرت غير مصيب

وليس هذا كل ما جنت الاطالة على ابن الرومي بل إنها أدت الى
استهاتته بسلامة الاداء فضعف أسلوبه وتطرق الفساد الى لفته فجمع
الألفاظ المتنافرة وصرّف الكلمات على وجه غير صحيح ، وعدى الأفعال
بغير الطرق التي تعدى بها ، وخاطب الجمع مخاطبة المفرد .

فمن أمثلة كلامه الضعيف التأليف المتنافر الألفاظ قوله :
« لهف » نفسي عليك أيتها البصرة « لهفأ » كمثل « لهب » الضرام

وقوله :

« صبا » من شاب مفرقة « تصاب »

وإن طلب « الصبا » والقلب « صاب »

وقوله :

لم يقاسوا ولم يواسوا خيلاً « سوءة سوءة لهم سوءاءا »

وقوله في نفس القصيدة :

وانتفع بالعلا (بذهنك) (واذمم)

كل (ذهن) لا ينفع (الذهناء)

فأنت ترى أن لامات البيت الاول وهائاته وصادات البيت الثاني

وبائاته وسينات البيت الثالث وواواته وهمزاته وذالات البيت الرابع وهائاته مما لا يستيفه إنسان يمكن الاعتماد على ذوقه . هذا مع المعلم بأن ذهناً أي صاحب ذهن جمع لا وجود له في اللغة العربية . ومن أمثلة تصريفه الكلمات على وجه غير صحيح قوله :

يسمو به جده فيحظى وتارة مجده « فيعلى »

فقوله يعلى خطأ والصواب يعلو .

ومن الأمثلة على تعديته الأفعال بصورة غير صحيحة قوله :

عجباً منه كيف يسلي ويلهي مع تهيجه على الأشجان

إذ الصواب مع تهيجه الأشجان لأن فعل هيج من الأفعال

التي تعدى مباشرة .

ومن أمثلة مخاطبة الجمع مخاطبة المفرد قوله :

يابني طاهر طهرتم وطبتم وذكوتم في السر والاعلان

هاكها لا أقول ذلك مدلاً قول ذي نخوة بها وامتاني

فقد كان عليه أن يقول هاكموها . وفي الامكان إعطاء أمثلة أخرى

كثيرة لكل ما سبق ذكره من هنات الشاعر وهفواته كما أن له هنات

وهفوات عديدة من أنواع أخرى مختلفة رأيت أن أضرب عنها صفحاً رغبة

في الإيجاز .

ولكن أليس لابن الرومي ما يكثف عن إطائته واستهاتته بسلامة

الاداء أو يخفف من وطأتها على الأقل ؟

بلى إن لديه ما يخفف من وطأتها إلى حد بعيد وهو استقصاؤه

الموضوعات التي يعالجها استقصاءً دقيقاً يأتي معه على كل كبيرة وصغيرة ويتغلغل إلى كل جزءٍ من أجزاء الموضوع حتى يستوفيه ويستوعبه ويخرجه تام الهيئة كامل التركيب . وفيما تقدم من غزله ومدحجه ووصفه ما يؤيد هذا تأييداً كافياً فإنه لم يبق في موضوع كل من الأمثلة المتقدم ذكرها بقية يمكن أن يطمع بها طامع وقد عرف له القدماء هذا فقال عنه ابن خالكان انه « صاحب النظم العجيب ، والتوليد الغريب ، يغوص على المعاني النادرة ، فيخرجها من مكانها ، ويبرزها في أحسن صورة ، ولا يترك المعنى حتى يستوفيه إلى آخره ولا يبقى فيه بقية » (١) وقال ابن رشيق « وكان ابن الرومي ضيقاً بالمعاني ، حريصاً عليها ، يأخذ المعنى الواحد ويولده ، فلا يزال يقلبه ظهراً لبطن ، ويصرفه في كل وجه ، وإلى كل ناحية حتى يبيته ويعلم أنه لا مطمع فيه لأحد » (٢) .

هذه هي حسنة ابن الرومي الكبرى من حيث اللغة والأسلوب وتلك مساوؤه ، ولو أنه أعاد النظر في شعره فهذه ونقحه لاجتمع له من نفاسة المعنى وطرافته وسلامة الأداء ولطافته ما يجعله فذاً بين الشعراء .

د - هامة :

ابن الرومي نسيج وحده من حيث هو رجل ، ومن حيث هو شاعر . فأما من حيث هو رجل فقد اضطربت أعصابه ، واختلط عقله ، وتناقضت أقواله وأعماله ، وتملكته الشهوة ، واستولت عليه اللذة ، فذهبت

(١) وفيات الأعيان الجزء الأول ص ٣٥١ طبعة المطبعة الميمنية بمصر .

(٢) العنودة الجزء الثاني ص ١٨٥ طبعة مطبعة السعادة بنظر دكتور ...

رجوليته ، وماتت إرادته ، وهانت عليه نفسه ، فاستخف به معاصروه ،
وسخروا منه ، وتنادروا عليه . وأما من حيث هو شاعر فقد طال نفسه ،
ورق إحساسه ، واتسع خياله فشمّل وصفه كل ما وقع تحت سمعه وبصره
أو كاد ، وكان من نتائج طول نفسه إلى درجة الإفراط أن ركت لغته ،
ووهن أسلوبه في كثير من الأحيان ، وكثرت أخطاؤه ، ولكن مهما يكن
من شيء فانه من فحول شعراء اللغة العربية وما أظن أنه من الصواب في
شيء أن نفضله عليهم قاطبة كما يرى فريق من النقاد .

نعم انه ربما كان أكثر شعراء اللغة العربية إنتاجاً ولكنه لم يكن
أكثرهم غرراً ومحاسن ، وقد لا أكون معنأ في الخطأ إذا زعمت أن
أكثر شعراء اللغة العربية غرراً ومحاسن إنما هو « أبو الطيب
المتنبي » لا سلفه ابن الرومي ولا غيره .

الفصل الرابع

ابن القزويني

أ - حياته : اسمه وكنيته ونسبه • مولده • نشأته وتعليمه • ابتعاده عن السياسة • سببه • انصرافه الى البحث والدرس من جهة والى النديم والكأس من جهة أخرى • ما يدل على هذا من شعره • معاتبته في أمر عبثه ومجونته • توبته • تحلله منها • تذبذبه بين الغواية والتوبة ، عذره عن ذلك • امتناعه عن اللهو في شهر رمضان • صلاته الغرامية والفنية • ما لحق به من شر السياسة رغم ابتعاده عنها • حبه إثر وفاة المعتضد • إطلاقه • عودته الى لهوه ومرحه • مبايعته بالخلافة وإقصاء المقتدر عنها • فشله في السيطرة على الموقف • غلبة رجال المقتدر على أنصاره • اخفائه • قتله •

ب - صفاته : جماله • ظرفه • رغبته في المسالمة • حبه الشديد للعلم • سرعة خاطره •

ج - آثاره العلمية : ثبت كتبه في فهرس ابن النديم • ما يضاف الى هذا الثبت • كتاب (البديع وطبقات الشعراء في مدح الخلفاء والوزراء) • شعره • أبوابه • ماذا ندرس منه • غزله • مكان ملهمته شرة منه • مثل من غزله فيها • وصفه • ما له من القيمة الاجتماعية • ماله من القيمة التاريخية • مدى تصويره الطبيعة • مثل منوعة منه • شعره السياسي موقفه من أبناء عمه العلويين • مساجلته لهم • تقربه منهم • اتصاله مما يرمى به من بغض الامام علي (عس) • مثل من شعره في هذا الباب • موقفه من المتغلبين على السلطان في بغداد والأقاليم • أرجوزته في المعتضد • كلمة فيها • مثل منها • قهر الرباب وعجائبه • غفلة كتب التاريخ والجغرافيا عنه • مقارنة بين أرجوزة المترجم وأرجوزة ابن عبد ربه في الناصر • مطلع هذه الارجوزة • حكمه وخواطره (في الزهد والآداب والشيب) • أهميتها • مثل منها • لغته وأسلوبه • مكان الزخرفة والبساطة من فنه • متى يؤثر الاولى ومتى يجنح الى الثانية • خصائص لغته •

د - خاتمة : منزلته بين الشعراء •

أ - مائة :

حدثك فيما سبق عن مولى من موالي بني العباس رفعه الشعر الى منزلة أمير كبير من أمراء الكلام . وأحدثك الآن عن أمير عباسي لم يتهياً له الظفر بتاج الملك وصولجان الخلافة فاعتاض عنهما بتاج العلم وصولجان الأدب . هذا الأمير هو أبو العباس عبدالله بن المعتز بالله بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد وقد ولد ببغداد لسبع بقين من شعبان سنة ٢٤٧ للهجرة على رواية الخطيب البغدادي (١) وقيل سنة ٤٦ وقيل ٤٩ ولكن ربما كانت رواية الخطيب البغدادي أقرب من غيرها الى الصواب اقرب ما بين الرجائين . ونشأ في دار الخلافة ودرس علوم اللغة والدين على مؤدبه الخاص أحمد بن سعيد الدمشقي الذي صار فيما بعد أحد رواة شعره . واتصل بأبي العباس المبرّد وعلب وأبي علي العنزي والبلاذري المؤرخ وأخذ عنهم جميعاً ، وشافه فصحاء الأعراب الذين كانوا يترددون إلى سَر من رأى في أيامه وروى عنهم . وكان مجلسه ملتقى العلماء والشعراء والكتّاب ، تكثر فيه الرواية وتدور المناقشات العلمية والأدبية المفيدة .

وما كان أدب عبدالله ليتناقض واشتغاله بالسياسة لولا أن الحوادث المؤلمة التي تابعت على بيته بعد قتل جده المتوكل على الله فسلبته قوتهم وأفقدته سلطانه الفعالي والتي طالما تحدّث عنها في شعره ، حملته على

(١) تاريخ بغداد ج ١٠ ص ٩٥ الطبعة الاولى .

أن ينبذ السياسة نبذاً تاماً فزهّد بالملك ورفض يديه من الخلافة « رفض الأنامل من تراب الميت » وقصر جهوده على أرضاء عقله وجسمه فأدرك من لذة العقل ولذة الجسم ما أراد . ومن يعنى النظر في أخباره وشعره يستخلص منهما أنه رجل بحث ودرس ورجل نديم وكأس يقضي جزءاً غير يسير من وقته في الدرس والتفكير والتأليف وقرض الشعر ، ويقضي جزءاً غير يسير منه كذلك في مغازلة الحسان ومعاقرة الندمان والتخلو إلى الطبيعة والاستمتاع بجمالها الساحر وبسماع الموسيقى والخروج إلى الصيد وغير ذلك من ضروب اللهو والتسوية . وقد وصف جهده وإقباله على البحث والدرس بقوله :

شغلي إذا ما كان للناس شغل دفتر فقه أو حديث أو غزل

وعبر عن رغبته الصادقة في الاستمتاع بمباهج العيش ولذات الحياة بقوله :

قم نسطح فليالي الوصل مقمرة كأنها باجتماع الشمل أسحار
والدهر في غفلة نامت حوادثه ونبهتسا إلى اللذات أوتار
أما ترى أربعاً للهو قد جمعت جنك وعود وقانون ومزمار
فخذ بحظ من الدنيا فلذتها تضي وتبقي روايات وأخبار

ولم يكن ابن المعتز على جلاله قدره وعظم منزلته بنجوة من التأييب والتقريع في أمر خلاعته واستهتاره فقد حدث أن بعض الخلفاء أنفسهم لامه على ذلك ورغب إليه أن يكبح من جماح شهوانه ، وقد عمل بهذه الرغبة فهجر ندمانه واطرح كأسه :

ونهاني الأمام عن سفه الكأس فس فردت على السقاة المدام

إلا أنه لم يلبث أن تحلل من هذه التوبة وعاد سيرته الأولى غير
حافل بما يوجه إليه من تقرير وتأييب :

خليتي قد طاب الشراب المبرّد وقد عدت بعد النسك والعود أحمد

وإذا صدقناه ، ولا مانع لدينا من تصديقه في هذا على الأقل ، فانه
يؤكد لنا أنه تاب ثم ترمى في أحضان غوايته مراراً عديدة :

كم توبة قد فضضت خاتمها عني وللتائبين رجعات

وهو يلقي التبعة في ذلك على قلبه الذي يقول عنه « إنه مطواع
في الغي مكره في الرشده » (إذا شاوره في توبة - قال : لا - وإذا
قال هذه فتنة قال : أين هي ؟) وقد اعتذر عن ذلك بصراحة بل بسداجة
تامة فقال :

سحرتني الدنيا وعادات لذا تي فجسي كهل وقلبي صبي

على أنه مما لا شك فيه أن ابن المعتز كان ينقطع عن لذاته ويهجر
مجالس لهوه وطربه في أيام شهر رمضان . إلا أنه لا يكاد يلمح هلال
العيد حتى يستأنف حياته المرححة الماجنة :

أهلاً وسهلاً بالناي والعودي وكأس ساق كالغصن مقدود

قد انقضت دولة الصيام وقد بشر سقم الهلال بالعيد

يتلو الثريا كفاغر شره يفتح فاه لاكل عنقود

وقد أحب المترجم جارية اسمها (شرة) (١) سأعرض لمكانها من

(١) هكذا يسميها هو في شعره المروي في ديوانه وفي غيره أما صاحب

الأغاني فيسميها نشر .

نفسه وشعره عند الكلام على غزله وكان له غلام اسمه «نشوان»
ومغنية اسمها «زرياب» وكان يحبهما حباً جماً وله معهما قصص ونوادر
عديدة .

ومع ابتعاد عبدالله الشديد عن السياسة فقد نزل به أذاها مرة بعد
أخرى حتى كان فيها حتفه . فمن ذلك أنه لما توفي المعتضد سنة ٢٨٩
للهجرة وكان ابنه وخليفته المكتفي غائباً بالرقعة ، اعتقل ثلاثة أمراء
عباسيين خيف تطلعهم إلى العرش بينهم صاحب الترجمة . وقلق هذا
في الليلة التي دخل المكتفي في صبيحتها بغداد قلقاً شديداً وخاف أن
تضرب عنقه . وسمع في آخر هذه الليلة حمامة تعني بالقرب منه فقال :
يا نفس صبراً لعل الخير عقباك خانتك من بعد طول الأمان دنياك
مرت بنا سحراً طير فقلت لها طوباك يا ليتني إياك طوباك
لكن هو الدهر فالقيه على حذر فرب مثلك تنزو بين أشراك (١)

ولكنَّ الحادث انتهى بسلام ، فان الخليفة الجديد أمر بالأفراج
عن الأمراء المعتقلين واعطاء كل واحد منهم ألف دينار إثر استتباب
الأمر له ببغداد ، وعاد عبدالله إلى مرجه ومجونه . ودار الزمان دورته
فأجمع رجال الحل والعقد ببغداد عام « ٢٩٦ » للهجرة على خلع المقدر
لحدائثه سنه ونقص كفايته وقلبوا نظرهم في آل العباس فلم يجدوا فيهم
أكفاً للخلافة من عبدالله . فعرضوها عليه ، فقبلها ولكن على ألا يراق.

(١) يقال ان ابن المعتز ذكر هذه الأبيات في الليلة التي قتل في صبيحتها
فأضاف إليها ابياتاً أشك في نسبتها اليه لركاكتها .

في سبيله دم فأجابوه الى ذلك وعقدوا له البيعة ولقبوه (المرتضى) أو (الراضي) أو (المنصف) أو (الغالب) بالله ولم يخالف عليه سوى غلمان المقتدر الذين عزّ عليهم خروج الأمر من أيديهم ، فأجمعوا على المقاومة . ومع أن الوزراء والقادة والقضاة كانوا جميعاً في جانب عبدالله فقد خسر الموقف وغلب أشياع المقتدر على أعوانه فشتوهم ومزقوهم كل ممزق . وعندما رأى انفضاض الناس من حوله لجأ الى دار أبي عبدالله الحسين بن عبدالله التاجر الجوهري الكبير المعروف « بابن الجصاص » فاختبأ فيها ولكن خادماً لابن الجصاص وشى به إلى المقتدر فأمر باخراجه وتسليمه لمؤنس الخادم فخنقه هذا وسلمه إلى أهله فدفن في خربة بجوار داره في اليوم الثاني من ربيع الآخر عام (٢٩٦) للهجرة وبهذه الطريقة المحزنة انتهت حياة عبدالله التي طالما كانت حياة لهو ومرح وسرور .

ب - صفاته :

وإذا تركنا مجون عبدالله وبحثنا عن صفاته الأخرى فإن أهم ما يتكنف عنه البحث هو جمال الصورة وخفة الروح وحب العلم والرغبة في المسالمة وسرعة الخاطر .

وقد غفل مؤرخو عبدالله عن أن يقولوا لنا إنه كان وسيم الطلعة صبيح الوجه بديع القسما تدارك هو هذا النقص بقوله في معرض الكلام على شيخوخته :

من بعد ما قد كنت أي فتى كقضب بان ناعم رطب

فإذا رأيتي عين غائبة قالت لرائد لحظها حسبي

وقوله :

إذا ما تمشت في عين خريدة فليست تخطاني الى من وراءيا

وقوله :

أعدو وجني الصبا أميري ملء عيون الغايات الحور

وغفل مؤرخوه كذلك عن أن يقولوا لنا أنه كان على جانب كبير من رقة الطبع ولطف الشمائل وخفة الروح فبيننا ذلك في شعره واخباره .

روى جعفر بن قدامة أنه كان ذات يوم عند ابن المعتز وبين يديه جارية محسنة تغنيه ولكنها قبيحة الوجه فكان يتعاشق ويتظاهر بالهيام بها فلما قامت قال له أحد جلسائه « أيها الأمير سألتك بالله أتعشق هذه التي ما رأيت قط أفصح منها » فقال وهو يضحك :

قلبي وثاب إلى ذا وذا ليس يرى شيئاً فيأباه

يهيم بالحسن كما ينبغي ويرحم القبح فيهواه (١)

وحدث عبدالله بن موسى الكاتب أنه دخل على ابن المعتز وهو يشرف على جماعة من البنائين يعملون في داره فانشده :

ألا من لنفس وأحزانها ودار تداعي بحيطانها

أظل نهاري في شمسها شقياً معنيّ بنيانها

(١) الاغانى ج ٩ ص ١٣٧ طبع مطبعة التقدم بصر .

أسود وجهي بتبييضها وأهدم كيسي بعمرانها (١)

ومن شعره الدال على فكاهته وخفة روحه هذان البيتان :

طول في أيلول شهر الصيام وما قضينا فيه حق المدام
والله لا أرض على الدهر أو يسرق شهر الصوم من كل عام

وهناك مثل أخرى كثيرة من هذا القبيل مر بك بعضها في أثناء الكلام على حياته وسيمر بك جانب منها في مراحل مختلفة من هذا الحديث .

أما حبه الشديد للعلم فتدلنا عليه آثاره الكثيرة التي سأذكر بعضها لك عما قريب ، وقد وصفه لنا هو بقوله :

شغلي إذا ما كان للناس شغل دفتر فقه أو حديث أو غزل

ومما يجري هذا المجري في الدلالة على حبه الشديد للعلم وأهله هذه الأبيات التي كتب بها إلى أبي العباس أحمد بن يحيى أحد علماء بغداد يستزيره ويتشوق إليه :

ما وجد صاد في الجبال موثق
بالريح لم يطرق ولم يرتق
بصخرة إن تر شمساً تبرق
صريح غيث خالص لم يمدق
يا فاتحاً لكل علم مغلق
إن قال هذا بهرج لم ينفق
بماء مزن بارد مصفوق
جادت به أخلاف دجن مطبق (٢)
فهو عليها كالزجاج الأزرق
إلا كوجدي بك لكن أتقي
وصيرفياً ناقداً للمنطق
إنا على البعاد والتفرق

(١) المصدر نفسه ص ١٣٧ .

(٢) الاخلاف : الضروع ، والدجن : السحاب .

لنلتقي بالذكر إن لم نلتقي (١)

وتسألني البرهان على حب صاحبنا للخير ورغبته الصادقة في المسألة
فاكتفي بأن اذكر ما اشترط على قادة الرأي ببغداد من تحاشي إراقة
الدماء في سبيل بيعته وأن أسترعي انتباهك إلى خبر سأذكره في أثناء
الكلام على شعره السياسي ينبؤنا أنه عدل عن مساجلة أبناء عمه الطالبين
وأخذ يتودد إليهم على أثر اعتذار جماعة منهم إليه وتنصلهم مما نسب
إلى بعض شعرائهم من ملاحاة بني العباس والظعن على خلافتهم .

وقد مر بك في حديث الجارية الحسنة الغناء القبيحة الموجه ما يدل
على سرعة خاطر عبدالله فأضف الآن إلى هذا ما رواه جعفر بن قدامة من
أنه كان عند المترجم في يوم من أيام الربيع فخرجت عليهم جارية له كان
يجبها ويهيم بها وعليها غلالة معصفرة ويدها جنابى من باكورة باقلاء
(والجنابى لعبة للصبيان) فقالت له يا سيدي تلعب معي جنابى فالتفت إليهم
وقال على بديته :

فديت من مر يمشي في معصفرة عشية فسقاني ثم حياني
وقال : تلعب جنابى فقلت له من جد بالوصل لم يلعب بهجراني (١)

ومن هذا القبيل ما رواه جعفر بن قدامة أيضاً من أنه كان « عند
عبدالله ابن المعتز ومعهم النميري فحضرت الصلاة فقام النميري فصلّى صلاة

(١) في رواية هذه الأبيات شيء من الخلاف بين الديوان وكتابي الأوراق
وتاريخ بغداد . ولكني آثرت رواية أبي بكر الصولي لأنه من رواة ابن المعتز
الذين عرفوه معرفة كافية واتصلوا به اتصالاً مباشراً .

(٢) الاغانى ج ٩ ص ١٣٦ .

خفيفة جداً ثم دعا بعد انقضاء صلاته وسجد سجدة طويلة حتى استقله جميع من حضر بسببها وعبدالله ينظر متعجباً ثم قال :

صلاتك بين الملا نقرة كما اختلس الجرعة الوالغ
وتسجد من بعدها سجدة كما ختم المزود الفارغ (١)

ح- آثاره :

أسلفت أن عبدالله رجل بحث ودرس (يقضي جزءاً غير يسير من وقته في الدرس والتفكير والتأليف وقرض الشعر) وأضيف الآن الى هذا أن ابن النديم ذكر له في فهرسه أحد عشر كتاباً وهي الزهر والرياض ، البديع ، مكاتبات الاخوان بالشعر ، الجوارح والصيد ، السرقات ، أشعار الملوك ، الآداب ، حلي الأخبار ، طبقات الشعراء ، الجامع في الغناء ، أرجوزته في ذم الصبوح ، وأنا أضيف الى هذا الثبت . فصال التماثيل في تبشير السرور) المنشور بمصر سنة ١٣٤٤ هـ ١٩٢٥ م وديوانه القادم ذكره والذي يحتوي على أرجوزته في ذم الصبوح وعلى أرجوزة له أخرى أهم منها بكثير في المعتضد أسماها كتاباً وأهم كتبه التي نشرت الى الآن البديع (٢) (وطبقات الشعراء في مدح الخلفاء والوزراء) (٣) فأما الأول فهو رسالة تحتوي على ثمانية عشر نوعاً من أنواع البديع منها الاستعارة والتجنيس والمطابقة . اخترع ابن المعتز أسماها وأورد لها شواهد

(١) الاغاني ج ٩ ص ١٢٧ .

(٢) نشر المشرق الروسي (اغناطيوس كرانشقوفسكي) هذا الكتاب سنة ١٩٣٥ مصدراً اياه بدراسة مفيدة لابن المعتز في الانجليزية ونشره محمد عبدالمنعم خفاجي بمصر عام ١٣٦٤-١٩٤٥ مصدراً اياه بدراسة حسنة كذلك لنشأة البديع وتطوره .

(٣) طبع هذا الكتاب في مطبعة جامعة كامبرج سنة ١٩٣٩ م .

كثيرة من القرآن والحديث وكلام العرب المنظوم والمشور في الجاهلية والاسلام . ومما يجب التنويه به أن ابن المعتز أول من ألف في البديع ثم حذا حذوه العلماء والأدباء والنقاد فكتبوا فيه كتباً كثيرة . وأما الثاني فهو كتاب تراجم تختلف إيجازاً وإطناباً باختلاف الأحوال التي تحيط بالمؤلف على أني لا أضمن حياده حيال الشعراء المشكوك في ولائهم لآل العباس .

شعره :

بيد أن الذي يعنيني من ابن المعتز قبل كل شيء شعره الذي يعتبر بحق صفة انتاجه . وهو كثير الأبواب مختلف الأنواع قيل بعضه رغبة في محاكاة القدماء وعملاً على إظهار المقدرة البيانية ، فغلب عليه التقليد وشاع فيه التكرار (١) وفقد منه الترتيب . وهذا النوع من شعره يكثر في بابي (المديح والفخر) . وقيل بعضه الآخر إرضاءً لحاجات العقل والنفس وعملاً على خدمة الأدب والفن فغلب عليه الصدق وشاع فيه الابتكار وعدم التكلف وهذا النوع من شعره يؤلف على وجه التقريب

(١) يكرر ابن المعتز أكثر ما يكرر وصف حياته فيحدثنا أنه شرب الخمر وسمع الغناء وظفر بوصل الغيد الحسان وخاض الحروب وقرى الضيفان وقطع البيد القفار تحت دياجير الليل ، مرة على متن ناقة كوماً وتارة على صهوة فرس نجيب . مضيفاً الى ذلك أحياناً وصف البروق والرمود والأمطار والرياض وهو يتشبه في هذا بامرئ القيس وطرفة والأعشى وغيرهم من فحول الجاهلية ويقلد مطولانهم . وليس من شك في أنه شرب ولعب وسمع الغناء ونعم بوصل الغيد الحسان ، كما أنه بغير شك أهل لقرى الضيفان واىواء العفاة الضاربين في البيداء وغيرهم ولكن من المشكوك فيه جداً ان يكون رجل حرب وضرب ورحلة دائمة في الصحراء . وترى قصائده التي يشيع فيها هذا التكرار العجيب في باب الفخر من ديوانه .

بابي (الملح والأوصاف) و (الزهد والآداب والشيب) . على أن الأبواب الأخرى من ديوانه تحتوي على شيء منه غير قليل . ولم يجمع شعر عبدالله حتى الآن جمعاً كاملاً . ففي الجزء الثالث من كتاب « الاوراق » « للمصولي » قصائد ومقطوعات كثيرة غير موجودة في ديوانه المطبوع بمصر عام (١٨٩١) م وبيروت عام ١٩١٣ م (وفي ديوان المعاني) (ومعاهد التنميص) قطع عديدة غفل عنها ناشر الديوان (١) . وقد عالج صاحبنا كل نوع من أنواع القريض فقال المديح والهجاء والرثاء والفخر ووصف الطبيعة والسياسة والاجتماع وأجاد في كثير من هذه الأبواب إجابة تستحق التقدير وتبعث على الإعجاب .

وسأقتصر فيما يلي على دراسة غزله ووصفه وشعره السياسي ، المفرق في بابي المديح والفخر ، وحكمه وخواطره التي اطلق عليها جامع الديوان « باب الزهد والآداب والشيب » لأن هذه الأبواب من شعره تحتوي على خير ما قال وأحقه بالتمحيص والدرس .

غزله : لعبدالله غزل كثير . نظم بعضه للغزل ذاته وللتعبير عن مقاصد الشاعر وأغراضه الغرامية . ونظم البعض الآخر منه تمهيداً للمديح أو الفخر ، على أن هذا الغزل التمهيدي - إن صحت هذه التسمية - لم يخل في كثير من الأحيان من الإشارة إلى غرام حقيقي . فكل غزل ورد فيه ذكر (شرة) التي تقدمت لها الإشارة في ترجمته غزل معبر عن صابغة حقيقية وحب صادق وتتخلل غزل عبدالله أسماء كثيرة أكثرها

(١) في طبعتي مصر وبيروت لديوان ابن المعتز من النقص والزيادة والمسح والنشويه لهذا الديوان ما يجعل فائدته محدودة الى الغاية .

دوراناً بالطبع وأدلتها على حبه اسم شرة التي يظهر أنها شغلت مكاناً سامياً في قلبه واستأثرت بنصيب كبير من حبه ، ومن الغريب أن كتب التراجم التي عنيت بعبدالله وذكرت أخباره ومثلاً من أشعاره لم تشر إلى حبيته هذه سوى إشارة غامضة مقتضبة . لكننا إذا درسنا علاقته بها في غزله تبين لنا أنه ظفر بعطفها في فجر غرامه بها ونعم بوصولها مدة من الزمن بعيداً عن أعين الوشاة والرقباء :

ألا أيها القلب الذي هام هيمته بشره حتى الآن هل أنت راجع

إذ الناس عن أخبارنا تحت غفلة

وفي الحب إسعاف وللشمل جامع

وإذ هي مثل البدر يفضح ليله وإذ أنا مسودّ المفارق يافع

إلا أنها لم تلبث أن احتجبت عنه فتعذر لقاؤها عليه واستحال وصلها قطيعه . وبذلها حرماناً . وأكبر الظن أن زواجها كان السبب في احتجابها عنه - فقد تزوجت شرة هذه بقالاً آثرت أن تكون حليمة له على أن تكون حبيبة لابن المعتز . وقد أحفظ عملها هذا سيدها القديم فهجازوجها وتمنى طلاقها بقوله :

أقول وقد ضاقت بأحزانها نفسي

الا ربّ تطليق قريب من العرس

لئن صرت للبقال يا شرّ زوجة

فلا عجب قد يربض الكلب في الشمس

يد أن الهجاء لم يشف غلة الشاعر فأخذ يحنّ إلى صاحبه حين

المحب المهجور الي الحبيب النافر الهاجر يستعطفها حيناً ويعاتبها مرة
ويداعبها تارة . • ولك أن تصفح باب الغزل في ديوانه لتبين المكان
الواسع الذي تحتله منه هذه النثثات التي أروي لك منها قوله : -

شفعيني يا شر في ردّ نفسي فلقد طال حبس قلبي لديك
وأذني بالرقاد لي إن عيني تستعير الرقاد من عينيك
أوهبي لي صبراً أرد به الدمع فاني أخاف دمعي عليك

وقوله :

وصل الخيال وصدّ صاحبه والحب لا تفنى عجائبه
يا شر إن انكرتني فلکم ليل رأتك معي كواكبه (١)

وقوله :

قد جاءنا العيد يا معذبتني لا تجعليه همّاً وأحزاناً
قومي فضحي بالهجر فيه لنا وصيريه يا شر قرباناً

ولسنا نعلم أترملت شرة أم مطلقت ؟ ولكننا نعلم بالتأكيد أنها استأنفت
علاقتها بابن المعتر وقضت حياتها إلى جانبه بدليل أنه طالما تحدث عنها
في أيام ضعفه وشثخوخته إن جازت تسميته شيخاً . • فمن ذلك قوله :
ضحكت شر إذ رأتي قد سبت وقالت قد فضض الأبنوس

(١) بين الديوان والأوراق خلاف في رواية هذين البيتين وقد آثرت رواية

قلت إن الشباب في لباق بعد ، قالت هذا شباب ليس

وقوله :

صدت شرير وأزمنت هجري وصغت ضمائرنا إلى الغدر

قالت كبرت وشبت قلت لها هذا غبار وقائع الدهر

قد يقال : ولكن أليس من المحتمل أن يكون زواج شره قد وقع بعد أن شاب سيدها وأنها لم تسأنف علاقتها به بعد مفارقتها إياه ؟ والجواب عن ذلك لا !! لأن ابن المعتز يخبرنا في أبيات سبق إيرادها (ألا أيها القلب ٠٠ الخ) أنه أحب شره وظفر بوصلها وهو شاب في ميعة الصبا وليس من المرجح أن تقضي شره أيام شبابها وكهولتها مع ابن المعتز ثم تبحث عن الزواج وتظفر به وهي في سن الشيخوخة . وليس من المرجح كذلك أن يحفل ابن المعتز بزواجها ومفارقتها إياه إذا كانت قد فعلت ذلك بعد أن ذوى شبابها وزالت نظرتها أو أشرفت على الزوال . ومهما يكن من شيء فإن بعض غزل عبدالله ولا سيما غزله بشره غزل صادق يرمز إلى عواطف حقيقية ويعبر عن أحاسيس غير مكذوبة .

وصفه : أدلّ من غزل عبدالله على خطرات نفسه وخلجات قلبه وهمسات

شعوره وصفه الذي لم يغادر صغيرة ولا كبيرة تستحق التدوين في سجل الأدب الخالد إلا أحصاها . فنحن نستطيع بفضل هذا الجزء من شعره أن تبين حياة المرح والترف التي كان يحياها متقللاً من قصر إلى قصر ومن ضيعة إلى ضيعة ، ومن مجلس طرب حافل بالمسرات إلى آخر أحفل بها منه . ونستطيع أيضاً بواسطة هذا الوصف أن نعرف شيئاً غير قليل عن

الطبيعة التي كان يغازلها ويناجيها ونستطيع كذلك أن نظفر في هذا الوصف بمعلومات اجتماعية وتاريخية تجمع بين الفائدة والطرافة الى حد جيد .
والآن لنطف في هذا الحقل الفسيح الغني كل الغنى بصنوف الزهر المتعدد الأشكال المتنوع العطور والألوان ولنقف عند بعض أزهاره ورياحينه وقفات قصيرة فهذه قطعة يخبرنا فيها الشاعر أنه قضى بنهر فروخ يوماً (طيباً ساراً) شهد فيه حفلة سباق ضمت أنجب الخيل وأكرم الفتيان وأحرصهم على الاستمتاع بلذات الحياة . . وهذه ثانية تروي لنا أن المترجم كان كثير الاختلاف الى قرية عامرة تغطيها غابات الكرم بقرب سامراء اسمها « القادسية » يظهر من وصف الشاعر لها أنها كانت مصيفاً له ولاضربه من الأمراء والكبراء . ولا تعرف كتب الجغرافية القديمة منها سوى الاسم . . وهذه الثالثة يصف فيها الشاعر أوطاراً قضاها بين سمر الندمان ونقر العيدان في قصر اسمه « قصر بسطام » لا تعرف كتب التاريخ والجغرافية القديمة عنه شيئاً كذلك . . وهذه رابعة يحدثنا فيها عبدالله حديثاً طريفاً . عن عهد سعيد قضاها في « المطيرة » بقرب « دير عبدون » . . وهذه خامسة نخبرنا بجولة بديعة في قرية يعدها الشاعر « موسم العشاق » تدعى « الياسرية » . . وأمثال هذه القطع في شعر ابن المعتز كثيرة جداً تجدها مبشرة في أبواب ديوانه المختلفة ، وكلها من الأهمية والنفاسة بحيث تستحق أن تدرس . أما ما يتصل من وصفه بالطبيعة فإنه كثير ومتنوع انواعاً مختلفة لأنه وصف منها كل ما شعر أنه جدير بالوصف ، ولذلك كان شعره فيها أشبه بمجموعة صور شمسية تمثل الصامت والناطق ، والجامد والمتحرك ، والحسن

والقيح أحياناً ، مثال ذلك أنه بينا يصف مزنة « يلطم وابلها خد الأرض »
الى أن تقيها هذه « بالغدران والخصر » اذا هو يصف طوفاناً مخرّباً
حصل في دجلة فاجتاح الدور والقصور والبساتين ومن بينها قصره
وبستانه ! • وينا هو يصف حمامة يشرب على غنائها الكأس تلو الكأس
اذا هو « ينعث » حية « رقشاء » كأن جلدتها « كم درع قده بطل »
وبينا هو يصف « نسيماً يبشر الأرض بالغيث كذيل الغلالة المبلول » اذا
هو يصف « هاجرة يأكل حرها صبر الركائب » وهكذا •

ولكي أعطيك فكرة صحيحة عن وصف ابن المعتز أروي لك مثلاً
مختلفة منه يمثل كل منها لوناً من ألوان الحياة التي تجذب انتباهه
وتوقظ خياله وتغذي شعوره • ها هو ذا يصف الزهر فيقول في البنفسج :

بنفسج جمعت أوراقه فحكمت كحلاء تشرب دمعاً يوم تشيت
كانه وحقاق القضب تجمعه أوائل النار في أطراف كبريت

ويقول في الأذريون :

كأن آذريونها والشمس فيه بادية
مداهن من ذهب فيها بقايا غالية (١)

ويقول في نيلوفر على بركة :

وبركة ترهو نيلوفر ألوانه بالحسن منعونه
نهاره ينظر من مقلة شاخصة الأجنان مبهوته

كأنما كل قضيب له يحمل في أعلاه ياقوته

وها هو ذا يصف الفواكه فيقول في التفاح :

كأنما التفاح لما بدا يرقل في أنوابه الحمر
شهد بماء الورد مستودع في آكر من جامد الخمر
كأنما حين نجيا به نستشق النَّد من الجمر

ويقول في ليمونة :

يا حَبْذا ليمونة تحدث للنفس الطرب
كأنها كافورة لها غشاء من ذهب

ويقول في النارنج :

وأشجار نارنج كأن ثمارها حقاق عقيق قد ملئن من الدر
مطالعا بين الغصون كأنها خدود عذارى في ملاحظها الخضر
أتت كل مشتاق بريا حبيبه فهاجت له الأُحزان من حيث لا يدري

ويقول فيه أيضاً :

كأنما النارنج لما بدت صفرته في حمرة كاللهيب
وجنة معشوق رأى عاشقاً فاصفر ثم أحمر خوف الرقيب

وها هو ذا يصف الخمر وزجاجتها فيقول :

وندمان سقيت الراح صرفاً وأفق الصبح مرتفع السجوف
صفت وصفت زجاجتها عليها كمعنى دق في ذهن لطيف

ثم ها هو ذا يصف فتياناً خرجوا الى الصيد في آخر ليل ومعهم بزاتهم

فيقول :

وفتيان سرروا والليل داج وضوء الصبح متهم الطلوع
كأن بزاتهم أمراء جيش على أكتافهم صداً الدروع (١)

وها هو ذا يصف ليلاً رقيق الهواء رائع الاضواء فيقول :

يارب ليل سحر كله مفتضح البدر عليل النسيم
تلتقط الأنفاس برد الندى فيه فتهديه لنار الهموم

ثم ها هو ذا يصف ليلة من ليالي صيف بغداد مغايرة تماماً لذلك الليل
الجميل فتقول :

بث بجهد لا أذوق غمضا مسهداً يضرب بعضي بعضا
قد قطع الجرجس جلدي عضاً بمصاعداً يلدغ أو منقضا (٢)
كشرر القدح إذا ما أرفضا يدمن إسخاطك حتى ترضى

إذا لم يخطيء ظني فإن وصف ابن المعتز الذي لم أرو لك منه
سوى مثل قليله جداً دليل قد علي ما عنده من يقظة الخاطر وقوة
الملاحظة ودقة التصوير .

شعره السياسي : وقد قلت لك في ترجمة عبدالله ان الحوادث المؤلمة

(١) هكذا في ديوان المعاني أما في الديوان فتحل كلمتا (ورود) و (حديد)
محل كلمتي (طلوع) و (دروع) . هذا الي أنني أحب ان أسجل هنا ان لعبدالله
شعراً كثيراً في الصيد كما ان له شعراً كثيراً في الخمر . وقد اقتصرنا على
مثال واحد فقط من كل من هذين البابين رغبة في الإيجاز وقد لا يخلو من فائدة
ان نلاحظ ان التقليد والتكرار غالبان على هذين البابين من ديوان ابن المعتز .
(٢) هكذا في الاوراق وفي الديوان مكان هذا الشطر « منتهشاً يقرصه منقضاً »
ورواية الاوراق أصح .

تباغت على بيته بعد مقتل جده المتوكل على الله حملته على أن ينسذ
السياسة نبذاً تاماً فزهد بالملك ونفض يديه من الخلافة . . وأقول لك
الآن ان هذا لا يعني أنه هجر التفكير في السياسة وإنما يعني انه هجر
العمل لحسابها . ورجل كعبدالله لا يمكن أن يطرح الشؤون العامة وأن
ينسى أو يتناسى ما يجري حوله من الحوادث التي تتعلق بحياة أمته وكيان
أسرته . إذن فقد كان يفكر في السياسة ويقول فيها الشعر والشعر الجيد
الكثير (١) ولكي نفهم حقيقة تفكيره في السياسة فهماً صحيحاً يجب أن
نلاحظ أن له فيها موقفين مختلفين هما موقفه من أبناء عمه العلويين وموقفه
من المتغلبين على السلطان في بغداد والأقاليم . وقد غلبت الخصومة على
موقفه من أبناء عمه حيناً من الزمن فعاتبهم أمّض عتب ونقدمهم أشد نقد
وأغضه . ومعلوم أن الامامة كانت موضوع هذا النزاع وكان دفاعه عن
حقوق بيته فيها قائماً على أمرين ، أحدهما : أن العباسيين هم ابناء عم
رسول الله (ص ر ع) . وأن الفاطميين ابناء بنته وبنو العم أمّس رحماً وأولى
بالارث من بني البنت :

لكم رحم يا بني بنته ولكن بنو العم أولى بها (٢)

(١) يقع شعر عبدالله السياسي على الاكثر في بابي (المديح) و (الفخر) من
ديوانه ، على ان في بابي (المعاتبات) و (الزهد) مثلاً قليلة منه .

(٢) اقدم من غير عن هذه الفكرة بكلام منظوم . مولى لتمام بن العباس
بن عبدالمطلب هجا عبيدالله بن ابي رافع كاتب رسول الله (ص ر ع) لعلويته بقوله :
جحدت بني العباس حق ابيهم فما كنت في الدعوى كريم العواقب
متى كان اولاد البنات كوارث يجوز ويدعى والدأ في المناسب

وثانيهما هو أن آل العباس نزعوا مقاليد الملك والخلافة لمن أيدي
بني أمية بحد السيف . ولذلك فإنهم أحق بزعامة المملكة الإسلامية من
غيرهم . وقد ضرب عبدالله على هذا الوتر مراراً عديدة :

قتلنا أمية في دارها فنحن أحق بالسلاها

وكانت هذه الخصومة المرة ناشئة عن سعاية أشخاص كانوا يلفقون
الشعر في الطعن ببني العباس ويسبونه لبعض شعراء الطالبين ويروونه لابن
المعتز فيجيب عليه بما تقدمت له الإشارة . وقد ألهم الله جماعة من
التالبيين بينهم أبو الحسين محمد بن الحسن المعروف بابن البصري ،
والقاسم بن اسماعيل وهما من شعراء الطالبين المتهمين بملاحاة بني
العباس أن يجتمعوا بابن المعتز ويحلفوا له أنهم ما قالوا شيئاً مما نسب
إليهم ، فقبل هذا منهم واعتذر إليهم وكف عن هذه المساجلة البغيضة وقال
أشعاراً تودد فيها إلى آل أبي طالب وتمنى أن يكونوا وآله يداً واحدة :

— وقد تسابق الشعراء إلى انتحال هذا المعنى بين مقصر ومجيد في صدر الدولة
العباسية ولكن احداً منهم لم يبلغ مبلغ مروان بن أبي حفصة في قوله :

أني يكون وليس ذلك لكائن لبني البنات وراثة الاعمام

واخيراً جاء عبدالله فقال بيته هذا . وقد نقض جعفر بن عفان الطائي وصفى الدين

العلوي هذه الحجة التقليدية فقال الاول راداً على مروان بن أبي حفصة :

لم لا يكون وان ذلك لكائن لبني البنات وراثة الاعمام

للبنات نصف كامل من ماله والعم متروك بغير سهام

وقال الثاني راداً على ابن المعتز بقصيدة يعارض بها بائيته التي يقول فيها :

« لكم رحم » البيت :

بنو البنات أيضاً بنو عمه وذلك ادني لأنابها

ففقر الله لهم جميعاً .

بني عمنا عودوا نعد لمودة فانا إلى الحسيني سراع التعطف
وإلا فاني لا أزال عليكم محالف أحزان كثير التلهف
لقد بلغ الشيطان من آل هاشم مبالغه من قبل في آل يوسف

وقد بلغ من رغبته بقطع دابر الشحاء بين آل العباس وآل أبي طالب
وإحلال الوفاق محلها أن قال لأبي الحسين العلوي المتقدم ذكره: « لئن
ملك من هذا الأمر شيئاً - يعني الخلافة - لأجعلن البطين بطناً واحداً
ولأزوجن هؤلاء من هؤلاء، وهؤلاء من هؤلاء ولا أدع طالبياً يتزوج بغير
عباسية ولا عباسياً بغير طالبية حتى يصيروا شيئاً واحداً وأجري على
كل رجل منهم عشرة دنانير في الشهر، وعلى كل امرأة خمسة دنانير،
وأجعل لهم من الدنيا ناحية تفي بذلك » (١) .

ولعبدالله في التنصل مما نسب إليه من بغض علي وأبنائه شعر كثير
يروى الصولي خاصة منه في الجزء الثالث من « أوراقه » شيئاً غير قليل .
ومن نفائس شعره في هذا الباب قوله :

رثيت الحجاج فقال العدا ة سب علياً و بنت النبي
أأكل لحمي وأحسو دمي ؟ فيا قوم للعجب الأعجب !!
علي " يظنون بي بغضه فهلا سوى الكفر ظنوه بي
إذن لا سقتني غداً كفه من الحوض والمشبب الأعذب

بلى قرمطين متوا إليه بالنسب الإفجر الأكذب
سبت فمن لامني فيهم فلت بموصى ولا معتب
مجلي الكروب وليث الحروب في الرهيج الساطع الأصهب
وبحر العلوم وغيض الخصوم متى يطرع وهم يغلب
يقلب في فمه مقولاً كشققة الجمل المصعب

والقصيدة طويلة معظمها مثبت في الديوان وكلها من الشعر المختار
نكفي منها بما تقدم رغبة في الاختصار .

أما موقفه من المتغلبين على السلطان في بغداد والأقاليم فهو موقف
الحاكم الشرعي من محتلي ملكه وغاصبي سلطانه ، فالصفار لصوص
محتالون ، وآل طولون فراغة مصر على عهد الشاعر ، وصاحب الزنج
« شيخ ضلال شر من فرعون » وإسحق البيطار « أعلم خلق الله بالماخور »
ورأيه في ملوك الطوائف جميعاً وفي رجال الفتن والاضطرابات في كل
مكان مدون بتفصيل ومهارة في كتابه النفيس الذي وضعه في سيرة المعتضد
والمثبت في فصل التون من باب المديح من ديوانه ، وهو عبارة عن
أرجوزة تقع في تسعة عشر وأربعمائة بيت أدى فيها للتاريخ والأدب
خدمة كبرى مزدوجة .

عرض ابن المعتز في هذه الأرجوزة لشؤون الدولة العباسية التي
بلغت أقصى دركات الفوضى والانحلال في الفترة التي تقع بين مقتل
المتوكل على الله عام (٢٤٧) للهجرة وتبوء المعتضد دست الحكم عام
(٢٧٩) للهجرة وإلى الإصلاحات التي قام بها هذا الخليفة فشرحها
بأسهاب وعقب عليها بما يتفق ورأيه في السياسة . إلا أن هذا لا يمنعنا

من القول بأنه مخلص كل الاخلاص في تعقيه على هذه الحوادث وأن الأعمال التي بسطها ونقدها وأنحى على القائمين بها باللوم الشديد والتقريع المتض لم تكن في الحقيقة سوى جرائم فظيعة ارتكبت في سبيل تحقيق مطامع أئيمة وأغراض شخصية غير مشروعة . ومع أن الارجوزة - كما يرويها الديوان - ممسوخة مسخاً قبيحاً من عدة وجوه ولا سيما من حيث الترتيب فانها تحتوي على صور صادقة لأهم الحوادث التي جرت في الفترة التي أشرت إليها آنفاً . ومما ينبغي التنويه به أن عبدالله استطاع أن يخلع مسحة شعرية جميلة على حقائق التاريخ المرة القاسية في كثير من أقسام هذه الارجوزة . إسمع قوله في وصف سطوة رؤساء الجند وقوتهم وسوء تصرفهم في شؤون الناس وانهماكهم في لذاتهم وعكوفهم على إرضاء شهواتهم وأهوائهم وأخيراً ما آل إليه أمرهم على يد المعتضد :

بالتل والجوسق والقطائع	كم تمّ من دار لهم بلاقع
كانت تزار زمناً وتعمر	ويتقى أميرها المؤتمر
وتسهل الخيل على أبوابها	ويكثر الناس على حجّابها
فكم هناك والجبّ كريما	وراجعاً مدقعاً مظلوما
وواقفاً ينظر من جيد	مخافة العقاب والتهديد
حتى إذا ما ارتفع النهار	ضجت بها الأصوات والأوتار
ودارت السقاة بالمدام	وارتكبت عظامم الآثام
ثم انقضى ذاك كأن لم يفعل	والدهر بالإنسان ذو تنقل
فما بكت عليهم السماء	لما أتيح لهم القضاء

ولم يقتصر ابن المعتز في أرجوزته هذه على ذكر الحوادث السياسية والحربية التي جرت في أيام المعتضد أميراً كان أم خليفة ، بل إنه وصف آثاره الأخرى ولا سيما قصر (الرباب) الذي كان يحتوي على عجائب وغرائب يدهش لها العقل والذي غفل التاريخ عن ذكره رغم جلالته قدره وخطورة شأنه فلم يرو الطبري ولا ابن الأثير ولا ياقوت ولا ابن خرداذبة عن انشائه وعجائبه إلاّ التي ذكرها شيئاً . قال ابن المعتز :

وما بنى بان من الخلائف ولا ملوك الروم والطوائف
كما بنى من أعجب البناء لا زال فينا دائم البقاء

* * *

فمن رأى مثل الرباب قصرا كم حكمة فيه تخال سحرا
والنهر والبستان والبحيره قد جمع الماء إليها طيره
وللبزاة معها وقائع فغائص في جوفها وواقع
وبعضها يذبح بالأكف مأسورة قد رميت بحتف
وما رأى الراؤون مثل الشجرة ذات غصون مورقات مثمرة
ولم تكن غرساً ترابه الثرى ولم تكن من شجر يسقى بما
لكنها تخبر عن حكيم موقق مجرب عليم
مفكر من قبل أن يقولا ويحسن التفهيم والتمثيلا
كأنها من شجرات الجنة أنزلها إلها ذو المنه

والقبة العليا والأترجة مُلِك فيها أربعين حجة

هذه المناظر البديعة التي تزين قصر الرباب ولا سيما الشجرة التي لم تغرس في أرض ولم تسق من ماء ، وهذه القبة العليا وتلك الأترجة مما جهله التاريخ وجهلناه نحن تبعاً له ، إلا أن ابن المعتز أحاطنا بكل ذلك علماً ، فلنسجل له هذه اليد المشكورة (١) .

وقد جازاه أحمد بن عبد ربه بنظم مزدوجة دوّن فيها تاريخ عبد الرحمن الناصر خلال ثلاثة وعشرين عاماً ، تبديء بفتح القرن الرابع للهجرة وصف حوادثها بالترتيب سنةً بعد سنة . وليس من شك في أنه قد استطاع أن يؤرخ الناصر كما أرّخ عبدالله المعتضد ، وفي أنه وفق أيضاً الى ما وفق إليه سلفه من الناحية الفنية . وأول أرجوزته قوله :

سبحان من لم تحوه آقطار ولم تكن تدركه الأبصار

وأنت تجد هذه الأرجوزة اللطيفة في الجزء الثالث من العقد الفريد .

حكمه وخواتمه : وأخيراً لنلّم بحكم عبدالله وخواتمه في (الزهد والآداب والشيب) إمامة وجيزة لأنها مظهر لامع من مظاهر ظرفه الأخاذ وعقله الراجح وأدبه الجم لأنها تطلعنا على نواحي عديدة من

(١) مما يحسن ذكره بهذا الصدد ان المعتضد بنى قصراً عظيماً آخر اسماه «قصر الثريا» هناك بنيانه ابن المعتز فقال من قصيدة :

سلمت أمير المؤمنين على الدهر ولا زلت فينا باقياً واسع العمر
حللت الثريا خير دار ومنزل فلا زال معوراً وبورك من قصر

حياته الخاصة ، ونواحي عديدة كذلك من الحياة العامة على عهده . فهو يحدثنا مرة بأنه قد شاب وأنه (أبغض نفسه في شبيهه) فكيف يطمع بأن (تجبه الخود الكعاب) ويقول لنا تارة : إن الجهل قد استحکم في بيته واستحوذ على أهل زمانه وان الفضل واقف منه موقف البائس المحروم من الغني المجرد . المستمتع بكل حول وسلطان ، ويؤكد لنا طوراً أن الذين يحسدونه وأهل بيته لو عرفوا حقيقة حالهم لعلموا أنهم يحسدونهم على ما لا يحسد عليه انسان . أتجب أن أروي لك مثلاً قليلة من هذه الخطرات الشيقة القيمة؟ اسمع قول عبد الله معاتباً نفسه على استمراره في غوايته وقد بلغ الأربعين :

فتنت قلبك العيون الملاح واعتباق بقهوة واصطباح
وقدود كأنهن غصون وخذود كأنها التفاح
أنت في الأربعين مثلك في العشرين قل لي متى يكون الفلاح؟

وقوله في وصف المخاوف التي كانت تساوره بسبب المصائب الفادحة التي نزلت بأله تبعاً سراعاً بعد مقتل جده المتوكل على الله :

من يشترى حسي بأمن خمول من يشترى أدبي بحظ جهول
سء الزمان وأوجعتك صروفه فعسى الزمان يسرّ بعد قليل

وقوله موصياً بالصبر على حسد الحاسد :

اصبر على حسد الحسو د فان صبرك قاتله
والنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

لغته وأسلوبه : والمعروف أن ابن المعتز رجل زخرقة يتعشقها

ويتذوقها ويتميز بها .

ولكنك إذا رجعت الى شعره وتأملته رأيت أنه يمثل أسلوبين مختلفين كل الاختلاف يصطنع الشاعر أحدهما اذا تحدّث عن الشراب والغناء والأزهار والفواكه والرياحين وما الى ذلك . ويصطنع الآخر اذا تحدّث عن السياسة والاجتماع وما يمت اليهما بصلة .

فأما الأول فشعاره الزخرفة وخاصته براعة التشبيه التي عرف بها فهو القائل « اذا قلت كأن ولم آت بعدها بالتشبيه ففض الله فاي » . وقد مرّ بك من تشبيهات الرجل ما يمثل نفاذ حسه وسعة خياله ودقة تفكيره تمثيلاً تاماً . وأما الثاني فشعاره البساطة وخاصته حسن التأليف وسلامة الأداء . ولك أن ترجع الى ما رويت لك من قصيدة عبدالله التي يبرأ بها من خصومة علي بن أبي طالب (عس) ومن أرجوزته التي يؤرّخ بها خلافة المعتضد وما أتم بيته ومملكته من الحوادث الجسام منذ مصرع جده المتوكل على الله لتبين كيف يتخلى عن الزخرفة ويقتصر على سلامة الأداء اذا أراد الدفاع عن رأي أو حاول سرد حادثة تاريخية . وليس من شك في أن المترجم خفيف الظل لذيد الجرس حبيب الى النفس في كل من أسلوبيه المختلفين هذين . أما لغته فانها لا تخلو من الركافة أحياناً ، ولكنها في جملتها صحيحة التأليف جميلة التركيب تكثر فيها أدوات التشبيه ويغلب عليها الجلاء ويشيع فيها الانسجام وتبرأ من وحشي اللفظ وحوشيه براءة تامة . على أنها إن امتازت بشيء فانما تمتاز بالعدوبة والرقّة (١) .

(١) احب ان اسجل هنا اني درست لغة عبدالله وأسلوبه بدراسة اجمالية —

د - خاتمة :

يقول محمد بن يحيى الصولي وهو من أقرب الرواة والنقاد القدماء الى المترجم وأعرفهم به في تحديد منزلته الشعرية ما نصه « ومنزلة عبدالله في الشعر منزلة شريفة وقع من قوم افراط في أمره وتقديمه » (١) ويمضي في حديثه فيقول لنا ان أبا العباس أحمد بن يحيى يقول « هو أشعر أهل زمانه » (٢) وان عبيدالله ابن عبدالله بن طاهر يقول « هو أشعر قريش لأنه ليس فيهم من له مثل فنونه لأنه قال في الخمر ، والطرده ، والغزل ، والمديح ، والهجاء ، والمذكر والمؤنث ٠٠٠ فأحسن في جميعها ، وهو حسن التشبيه ، مليح الألفاظ ، واسع الفكر » (٣) وهنا يستطرد الصولي فيقول « وهو يأخذ كثيراً من الناس ويستعين فيحسن ، وكثيراً ما يتكفي على نفسه ، وهو يفضل أشباهه بألفاظ له ملوكية » (٤) .

ويعود الصولي الى النقل فيقول لنا « وسمعت بعض العلماء يقول - أول الشعراء المتقدمين في صفة الخمر الأعمشى ثم الأخطل ثم أبو نواس ثم الحسين ابن الضحاك ثم عبدالله بن المعتز » .

« فقلت أنا هو أيضاً عندي منقدم في الغزل لأن الشعراء الذين أحسنوا في الغزل حتى تفردوا به وكان الغزل قطعة من شعرهم معروفة قليلون وخاصة من عمل في المذكر والمؤنث » .

— لان كتب الأدب تختلف في رواية شعره اختلافاً كبيراً . أما ديوانه فانه مغلوط ومشوه الى درجة لا يصح معها الاعتماد عليه .
(١ ، ٢ ، ٣ ، ٤) الاوراق الصولي ج ٣ ص ١١٣ .

« وهو أول من حصل هذا ، وجعله فين وأضاف إليه فناً ثالثاً
سماه مجوناً حتى تقدم فيه من سبقه وتبعه الناس » (١) .

ويذهب صاحب معاهد التنقيص الى أنه « أشعر بني هاشم على
الاطلاق وأشعر الناس في الأوصاف والتشبهات » (٢) .

أما أنا فأزعم أنه رابع اربعة في عصره هم - أبو تمام ، والبحري ،
وابن الرومي ، وهو . يفضله زملاؤه الأتقوا الذكر من حيث فصاحة
اللفظ ، ومتانة السبك ، ونقاء الديباجة ، وطول النفس ، ويفضلهم هو
من حيث خفة الروح وجمال التشبيه . أما من حيث هو شاعر قرشي
أو هاشمي . فأحسب أنه أكبر شعراء بني هاشم الى عهده . هذا مع
العلم بأنه بلا نزاع خير من مثل حياة القصور وما فيها من تفكير وأدب
ولهو وعبث من الشعراء .

(١) المصدر نفسه ص ١١٤ .

(٢) معاهد التنقيص ج ١ ص ١٤٦ .

الباب الخامس في شعراء القرن الرابع للهجرة

الفصل الاول

أبو الطيب المنفي

أ - حياته : اسمه ونسبه وكنيته ولقبه . سببه (حاشية) مولده نشأته .
وتعليمه . خروجه الى بادية الكوفة . أثرها في نفسه .
زيارته بغداد ، سببها . سفره الى الشام . تطوافه في
انحاء هذا القطر . تنبؤه . سجنه : حاله في السجن .
استتابته واطلاقه . استئناف حياة التشرّد في الشام . تكسبه
بالمديح . اصراره على التفكير في الثورة . اتصاله ببدر
ابن عمار . مدائح له . مفارقه اياه . اتصاله بالحسن
بن عبيدالله ابن طغج . مديحه له . توسل أحد العلويين
له في أن يمدحه . استجابته . ما جرى له من التكريم
بهذه المناسبة . اتصاله بأل حمدان : عند أبي العثائر .
عند سيف الدولة . كيف تكونت صلته به . حظوته عنده
كيد الحساد له . توتر علاقته بالأمرير الحمداني . معاتبته
اياه . ما نشأ عن هذه المعاتبه . عودة المياه الى مجاريها
بين الرجلين . حادث مؤسف آخر بينه وبين سيف الدولة .
ما قاله من الشعر في هذا الحادث . صلته بسيف الدولة على
العموم : كيف افترقا . سفره الى الشام ، الى الرملة .
الى القسطنطينية . ما وعده كافور نظير زيارته اياه اخلافه
هذا الوعد . اقامته في العاصمة المصرية . فراره الى الكوفة
اقامته فيها . مساهمته في حياتها العامة . استئناف
سيف الدولة صلته به في الكوفة . هدايا وشعر . زيارته
بغداد . امتناعه عن مدح المهلب . تألب شعراء بغداد

عليه • ترفعه عنهم • دعوة ابن العميد اياه • قولها •
مدائح لابن العميد • دعوة عضد الدولة البويهى اياه •
استجابته • ما قال من الشعر في عضد الدولة • عودته الى
الكوفة • مقتله •

ب - صفاته : بخله ، تيهه ، سذاجته ، اقدامه ، ابأوه • وفاؤه ، عفته ،
سرعة خاطره غزارة حفظه ، تشاؤمه •

ج - ديوانه : شروحه وطبعاته ، غزله : عناصره • مثل من جيده •
فخره : أنواعه • مثل منه • وصفه : براعته في كل فن من
فنون الوصف • تصويره عتاق الخيل • وصفه محاسن
الطبيعة • شذرات مختلفة من بدائع وصفه • مديحه :
مساوئه ومحاسنه • ماله من القيمة الأدبية والتاريخية •
سيفياته • مكانتها الممتازة • تصويره هزائم الروم بلا
قتال مراراً عديدة • مثل من شعره في هذا الباب •
هجاؤه : صرامته وبذاءته ، أغرب ما فيه • عتابه • ميزته •
رثاؤه • اتهامه ببرودة العاطفة • تفيده • مثل من جيد
رثائه • فلسفته : مادتها • تناقضها •

لغته وأسلوبه : غلو القدماء في احصاء عيوبهما •
خصائصهما • بعض ما يمثلها من شعره •

د - خاتمة : الفصل بينه وبين أبي تمام والبحثري •

أ - مائة :

لم يشهد القرن الرابع للهجرة نشأة أغراض جديدة للفريضة العربي ولكنه شهد تفوقاً عظيماً في معالجة الأغراض القديمة . شهد تفوق المتنبّي في وصف الحرب والسياسة وضرب الأمثال ، وشهد تفوق الشريف الرضي في الرثاء والغزل والفخر والأخوانيات . ومعلوم أن الأول كان زعيم الحركة الأدبية في النصف الأول من هذا القرن وأن الثاني كان زعيم الحركة الأدبية في النصف الثاني منه وعلى هذا أبدأ بالأول فأقول هو أحمد بن الحسين بن مرة بن عبد الجبار الجعفي (١) المكنى بأبي الطيب والملقب بالمتنبّي (٢) .

(١) ذكر الرواة بعض اجداد المترجم بشيء من الاختلاف واكبر الظن بأنهم صنعوا له هذا النسب بعد وفاته لانه لم يكن يتحدث عن نسبه بشيء وانما كان يكتفي بالقول ان آباءه كرام واجداده امجاد ولكنه يفضل ان يشرفوا به بدلا من ان يشرف هو بهم :

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي وبفسي فخرت لا بجدودي
بيد اتنا اذا استعنا بسيرته في صدر حياته على معرفة نسبه امكنا ان تتبين
ان نسبه لم يكن من الرفعة بحيث يجب . وان والده ربما كان في الحقيقة -
سقاءً كما يقول خصومه . وغني عن البيان ان هذا لا يفض من شأنه بحال
من الاحوال بل انه يدعو الى اكباده والاعجاب به لانه استطاع ان يرتفع بفضل
قوة عزيمته وعلو همته من بيئة فقيرة خاملة الى منزلة رجل من اعظم رجال الأدب
العربي ومهما يكن من اختلاف الرواة في اسماء آباءه واجداده فانهم مجمعون على
انه عربي جعفي ، وجعفي هذه قبيلة قحطانية يمنية تقطن الكوفة ككثير من
القبائل اليمنية .

(٢) لقب بالمتنبّي لادعائه النبوة كما سيجيء . او لقوله :

انا في امة تداركها الله غريب كصالح في ثمود

ما مقامي بأرض نخلة الا كمقام المسيح بين اليهود

ومصدر القول الثاني هو . وعندي ان الاول اصح .

وقد ولد سنة ٣٠٣ هـ في محلة كنده بالكوفة ونشأ حيث ولد وتلقى علومه الأولى في مدرسة خاصة بالعلويين يظهر أنها ذات صبغة ممتازة . ولكن هذا لا يعني أنه ينتمي الى أسرة عريقة في المجد والغنى لأن كل ما في حياته وآثاره يجعل هذا أمراً مستبعداً وقد قيل انه تلقى علومه الأولى في الشام ولكن الصواب ما قدمناه . وخرج مع أبيه الى البادية وهو غلام في وقت غير معروف بالضبط ولبث بها مدة من الزمن ويغلب على الظن أنهما خرجا اليها فراراً من القلاقل والاضطرابات التي كانت تجري في الكوفة على أيدي القرامطة . ولا نزاع في أنه أفاد الشيء الكثير من هذه الإقامة في البادية فصح جسمه وفصح لسانه وخلص طبعه وقد أشار الى هذا محمد بن يحيى العلوي الزيدي الذي عرفه صغيراً وروى بعض أخباره فقال انه رجع من البادية وقد استحال بدوياً قحاً (١) ولم ينس المتنبى أيامه الجميلة التي قضاها في بادية الكوفة بل انه تغناها وحن إليها في صدر قصيدة مدح بها سيف الدولة سنة ٣٤٤ هـ قال فيها :

تذكرت ما بين العذيب وبارق (٢) مجرّ عوالينا ومجرى السوابق
وليلاً توسدنا الثوبه تحته (٣) كأنّ ثراها عنبر في المرافق
وصحبه قوم يقتلون قيصهم بفضلات ما قد كسروا في المفارق

وزار صاحبنا بغداد في شرح صباه ولكن ليس من اليسير تعيين الوقت.

(١) تاريخ بغداد ج ٤ ص ١٠٣ طبعة مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٤٩ هـ

(٢) موضعان بظاهر الكوفة .

(٣) التوبة : موضع بقرب الكوفة .

الذي زارها فيه والغرض الذي زارها من أجله بيد أنه من المحتمل أن
يكرن قد لجأ إليها في جملة من لجأ إليها من سكان الكوفة عندما أغار
القرامطة على مدينتهم سنة ٣١٩ هـ .

والظاهر أنه لم يجد في عاصمة الخلافة العباسية من يحفل بشعره
أو يعند بأدبه لأنه لو وجد فيها شيئاً من هذا القبيل لآثر الإقامة فيها
على الرحيل إلى الشام ، ولكنه لم يجد في بغداد ولا في الكوفة شيئاً
مما يصبو إليه من مال وجاه وشهرة ولذلك عول على أن ينشد هذا كله
أو بعضه في بلد آخر فرحل إلى الشام سنة ٣٢١ هـ كما يرجح أبو العلاء
فأكثر من التجوال فيها وجاب حاضرتها وباديتها وعرف كثيراً من أهلها
ومدح عدداً كبيراً من عظمائها ونسلائها وأوساطها أيضاً واستعان
بجوائزهم التي كانت تكبر حيناً وتصغر حيناً حتى تبلغ الدينار الواحد (١)
أو بعضه على ما يكابد من شظف العيش ورقة الحال .

على أنه كان يرمي في تطوافه إلى غرض أكبر من هذا بكثير فقد
كان يبحث في بوادي هذا الفطر عن قوم يبلغ من سذاجتهم أن يصدقوه
ويؤمنوا به إذا دعاهم إلى القول بأنه نبي أو إله ، من يدري ؟

وقد ظفر بهؤلاء القوم في بادية حمص فدعاهم إلى أمر بالغ في كتمانته
بعد فشله فيه .

ولكني لا أكاد أشك في أنه دعاهم إلى الإيمان به على أنه نبي إن
لم يكن لعبادته على أنه إله وما اظنك تستكثر هذا على من يقول :

(١) مدح المتنبّي علي بن منصور الحاجب بقصيدة عصماء مطلعها :

بأبي الشموس الجانحات غواربا اللباسات من الحرير جلابيا
فأجازه عليها بدينار واحد فسميت القصيدة من أجل ذلك (بالديارية) .

أي محل أرتقي أي عظيم أتقي
وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق
محقر في همتي كشعرة في مفرقي

ويقول :

أمط عنك تشبهي بما وكأنه فما أحد فوقي ولا أحد مثلي

وسواء أدعا المتنبي أعرابه إلى عبادته على أنه إله أم إلى الإيمان به على أنه نبي ، فإنه ما كاد يتصل خبره بلؤلؤ نائب الاخشيديين في حمص حتى أسرع إلى اخماد فنتته والقاء القبض عليه فإذا هو سجين يئن في الأغلال ، وليس من العسير أن تتصور حال ذلك البائس الشقي الذي تضافر عليه السجن والفقر والغربة فقد ألحت عليه الحاجة ونال منه الضيق حتى قبل معونة رجل ألب عليه ودعا السلطان إلى الوقعة به يعرف بأبي دلف ، رأى في معوته وهو في مثل تلك الحالة شماتة ما بعدها شماته وفي هذا يقول صاحبنا من آيات :

أهون بطول الثواء والتلف والسجن والقيد يا أبا دلف

غير اختيار قبلت برك بي

والجوع يرضي الأسود بالجيف

ومرّت الأيام بعد الأيام وشاعرنا يكابد آلام السجن ومرارة الفاقة .
وتولى إمارة حمص بالنيابة عن الاخشيديين إسحق بن كيغلب فرأى الشاعر أن يتتهز هذه الفرصة وبعث إليه قصيدته المعروفة التي مطلعها :

أيا حدد الله ورد الخدود وقدّ قدود الحسان القدود

يستعطفه فيها ويسأله الافراج عنه • وقد بنى رجاءه على أمرين :
أحدهما أنه صبي لا تقام عليه الحدود الشرعية :

تعجل في وجوب الحدود وحدي قبل وجوب السجود (١)

وثانيهما أنه أراد ولم يفعل وفرق أي فرق بين الفعل والارادة :

وكن فارقاً بين دعوى أردت ودعوى فعلت بشأو بعيد

ورأى اسحق أن يضع حداً لآلام الشاعر فاستأبه وخلّى سبيله •
وعاد هذا الى سابق عهده يمدح الناس ويستدرّ مسكّة رفقه من هذا
المديح • بيد أنه مما يبعث على الاستغراب حقاً أنه وهو في تلك
الحالة المحزنة لم ينزل عن مطية غروره ولم يمسك عن التعريض بل عن
التصريح برغبته في الخروج على السلطان وهدم النظام القائم واقامة آخر
مقامه بحد السيف وهو يقول هذا لمدوحيه في صدور مدائحه في غير
غموض ولا ابهام • فمن أغرب ما وقع له في هذا الباب قوله في قصيدة
يمدح بها محمد بن عبدالله الخضيبي قاضي أنطاكية :

لله حال أرجيها وتخلفني وأقتضى كونها دهري ويمطلني

مدحت قوماً وإن عشنا نظمت لهم

قصائداً من إناث الخيل والحصن

تحت العجاج قوافيها مضمرة إذا تنوشدن لم يدخلن في أذن

فلا أحارب مدفوعاً إلى جدر

ولا أصالح مغروراً على دخن (٢)

مخيم الجمع بالبيداء يصهره حر الهواجر في صم من الفتن

(١) جلي أن المتنبي ادعى صفر السن ليكون بمؤمن من العقوبة •

(٢) الدخن : الفساد •

فواضح أنه يريد إعلان حرب شعواء على الدولة لا يقنع منها بدون استيلائه على الحكم واستئثاره بالسلطان ، وهو يقول هذا لأحد ممثلي الدولة في غير خوف ولا وجل ، وهذا لا يزرجه ولا ينهائه ولا ينصحه بالعدول عن هذا التفكير الخاطيء بل انه بدلاً من هذا كله يقبل مدحته ويجيزه عليها . أفعل به ذلك استخفافاً بقدرته على تحقيق مقاصده وأغراضه أم خوفاً من معرة لسانه أم مشاركة له في ميوله وأهوائه ؟ كل هذا ممكن ولكن لا سبيل الى الجزم بشيء منه . وما أريد أن أمعن في الكلام على هذه الناحية من أحوال المتنبى فأنا عائد اليها في مكان آخر من هذا الفصل والذي أريد أن أقوله الآن إنه لبث متجولاً في أنحاء سورية ناقلاً بضاعته الكاسدة أحياناً ، الرائجة بعض الرواج حيناً من واد الى واد ومن ناد الى آخر حتى انتهى به المطاف الى بدر بن عمار الأسيدي الذي عين حاكماً لطبرية سنة ٣٢٩ فقدم اليه بمدحة مطلعها :

أحلماً نرى أم زماناً جديداً أم الخلق في شخص حيّ أعيدا

وقبل بدر مدحة الشاعر وأحسن جائزته وضمه الى حاشيته فمدحه هذا في أثناء اقامته عنده بعدة قصائد أفضلها فيما أظن لاميته التي يصف فيها قتله أسداً بضربة سوط واضطراره آخر الى الفرار والتي يقول فيها منوهاً بهذه الحادثة :

أمعفر الليث الهزير بسوطه لمن ادّخرت الصارم المصقولا

والتي سأذكر بعض عيونها في مكان آخر من هذا الحديث .

ولكن ابن كرويس نديم بدر بن عمار ساءه أن يستأثر هذا الشاعر

الطاريء بعطف الأمير ويستولي على قلبه فأخذ يكيد له وينال منه ويعمل على إبعاده عن قلب الأمير وساعده على ذلك جهل المتنبى آداب معاشره الأمراء وطرق التزلف اليهم فلم يكن مثلاً يرافق الأمير فيما يعرض له من أسفار ولم يكن يشرب الخمر معه الا بمشقة . وأحس الشاعر أنه فقد عطف الأمير فتركه واستأنف تطوافه الذي انتهى به الى الحسن بن عبيدالله بن طفح حاكم الرملة وأحد أمراء البيت المالک في الفسطاط ومدحه بميميته التي يقول في مطلعها :

أنا لائمى إن كنت وقت اللوائم علمت بما بي بين تلك المعالم

فوقعت القصيدة من نفسه أحسن وقع وأجازه عليها جائزة سنية واستبقاه مدة من الزمن استحکمت فيها صلات المودة بين الرجلين . وحدث للمتنبى في أثناء إقامته بالرملة حادث لا بد لنا من الوقوف عنده لعظم دلالة على علو منزلة الشاعر واتساع شهرته واعتداله في استغلال تلك المنزلة وهذه الشهرة ذلك أن أبا القاسم طاهر بن الحسن بن طاهر العلوي رغب أن يمدحه المتنبى بشيء من شعره ورجا الأمير الحسن بن عبيدالله أن يتوسط في تحقيق هذه الرغبة وبذل الأمير وساطته في الموضوع ولكن المتنبى لم ينزل على رغبة العلوي والأمير الا بشق النفس . ولما نزل على رغبتهما ونظم في العلوي المذكور بايئه التي يقول فيها :

إذا علوي لم يكن مثل طاهر فما هو إلا حجة للنواصب

وذهب اليه لينشده اياها نزل له هذا عن سريره وأجلسه بسكانه وجلس بين يديه ، فكان بهذا أول ممدوح يجلس بين يدي مادحه وكان

أبو الطيب أول شاعر قدر له أن ينال مثل هذا الشرف .

ولم يطل الوقت حتى سطع نجم الحمدانيين بحلب وقامت دولتهم في شمالي سورية فعقد المتبني النية على أن يكون شاعرهم إذا تسنى له ذلك وقصد أول من قصد منهم أبا العشائر نائب سيف الدولة في أنطاكية ومدحه بعدة قصائد أجودها - فيما أحسب - قافيته التي مطلعها :

أتراها لكثرة العشاق تحسب الدمع خلقه في المآقي

وان لم يكن مطلعها هذا من حسان مطالعه .

ولكنه لم يرد أن يكون شاعر أبي العشائر وانما كان يريد أن يتخذه وسيلة الى ابن عمه سيف الدولة الذي سبق له أن أحبه ومدحه عندما أدب جماعة من الثائرين على السلطان سنة ٣٢١ هـ (فيما يقول الديوان) بقصيدة مطلعها :

ذكر الصبا ومراتع الآرام جلبت حمامي قبل وقت حمامي

ولم ينشدها إياه لأنه لم يكن قد اتصل به بعد . وكان أبو العشائر عند حسن ظن الشاعر به فقد قدمه الى ابن عمه الأمير عندما زاره سنة ٣٣٧ هـ وأثنى عليه ثناءً عاطراً . ولست أشك في أن شهرة المتبني كانت قد سبقته الى سيف الدولة وأن هذا كان يعرفه ويقدر نبوغه وعبقريته ولكن هذه هي الطريق التي اختارها المتبني الى سيف الدولة لسبب لا نعلمه . ومهما يكن من شيء ، فقد أعرب الأمير للشاعر عن استحسانه له واعجابه به ودعاه الى أن يكون شاعره الرسمي ووعده مرتباً سنوياً قدره (٣٠٠٠ دينار) نظير ثلاث قصائد فقط في كل سنة .

وما أريد أن أترك هذه المرحلة من الحديث دون أن أسجل ان
حظوة المتبني لدى سيف الدولة هي الغاية التي كان يتوخاها من امتناعه
على صغار الأمراء الذين كانوا يرغبون بمديحه من أمثال الحسن بن
عبدالله بن طفيح وطاهر بن الحسن العلوي فقد كان يباليغ في تقليل
العرض - كما يقول أصحاب الاقتصاد - ليشد الإلحاح في الطلب وليبلغ
الثمن أعلى حد ممكن من الارتفاع . ولم يسرع المتبني الى تلبية طلب
سيف الدولة بل اشترط عليه زيادة على ما تقدم اعفاءه من تقبيل الأرض
بين يديه والانشاد واقفاً بحضرته .

فقبل سيف الدولة هذا الشرط وانتظم الشاعر في حاشية الأمير
«ستقبلاً عصره الذهبي ومجده الخالد وسلمه سيف الدولة الى (الرواض)
« ليعلموه الفروسية والطراد والمثاقفة » وهذا ما يقوله الرواة أو ليتحققوا
مبلغ مهارته في هذا كله وهذا ما أذهب إليه ، فلما استوثق من كفايته
بؤاه مقامه الرفيع في حاشيته فصار ينادمه ويسامر ويحضر مجالسه الخاصة
والعامة ويطلع على خفايا أحواله ويرافقه في غزواته ويساهم في حروبه
مبلياً بين يديه أحسن البلاء والى هذا يشير صاحبنا بقوله :

وإني لتعدو بي عطايك في الوغى فلا أنا مذموم ولا أنت نادم

وعلى هذا كان المتبني أول شاعر يساهم في بناء المفاخر التي يؤرخها
ويصورها في شعره ، وعرف الأمير قدر شاعره وخطورة المقام الذي
سيحفظه له في القريض العربي وأدرك أن الأجيال ستغنى بما يقول
فيه من بدائع الشعر وروائعه على مرّ الدهور . فأقبل عليه اقبالاً شديداً

وأجده جماً وتفنن في تشجيعة وإثارة مواهبه فكان يفيض عليه الهبات تلو الهبات ويوليه من الحفاوة ما لا يولي أحداً فشق هذا على من بحضرتة من العلماء والأدباء والشعراء وصاروا يحسدون الشاعر على مكانه من الأمير ويكيون له ويثلبونه ويحطون من قدره ، وتزعم أبو فراس وهو ابن عم سيف الدولة وأخو قرينته وتلميذه هذه الحركة لأن المتنبى كان يرض عليه بمدحيه ولأنه في أغلب الظن كان موقفاً أن المتنبى لا يعتد بأدبه ولا يحفل بشاعريته فيروى أنه قال لابن عمه ذات يوم : « إن هذا المتمدق كثير الادلال عليك وأنت تعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار على ثلاث فصائد ويمكن أن تفرق مائتي دينار على عشرين شاعراً يأتون بما هو خير من شعره » (١) .

وما أظن أن أبا فراس يجرؤ على مواجهة ابن عمه بسئل هذا الكلام السخيف وهو النصح له بتفريق مائتي دينار على عشرين شاعراً يأتون بخير من مدح المتنبى فليس هذا مما يواجه به رجل كسيف الدولة وليس هو أيضاً مما يقوله رجل كأبي فراس ولكن إلا يكن أبو فراس قد قال هذا لابن عمه في المتنبى فانه قد قال له الشيء الكثير فيه مما حمل الرواة على تليفق هذه الرواية أو التزييد فيها ، ومع ذلك فقد كان مدحيه يطبء أحياناً على سيف الدولة وكان هذا يؤذي الأمير إبداءً

(١) الصبح النبوي للبديعي ص ٤٥ مطبعة الاعتدال بدمشق سنة ١٣٥٠ هـ

شديداً فكان ينتقم لنفسه بالايجاز الى من بحضرته من صغار الشعراء بأن
يمدحوه ، وبالمبالغة في إكرامهم على مدائحهم هذه ، على أنه من الجائز
أن يكون تصرف سيف الدولة هذا محض مداعبة غايتها تحريض الشاعر
على نظم روائع المديح التي يبدئ بها هؤلاء وغيرهم من الشعراء ولكن
المتنبى كان يفهم هذا التصرف على أنه مكايذة ومغايسة ويتحمله على
مضض فلما تكرر هذا من سيف الدولة لم يجد بداً من أن يعاتبه بمييمته
الخالدة التي مطلعها :

واحرّ قلباه ممن قلبه شبيم ومن بجسمي وحالي عنده سقم

وقد تلطف في صدر هذه القصيدة فمدح سيف الدولة مدحاً رائعاً
نفسياً ، ولكنه عاد فعاتبه عتاباً مرّاً شفعه بفخر لا يخلو من كبرياء ووصف
وان كان صحيحاً صادقاً في جملته . وليس من المستبعد أن يكون
أبو فراس حاضراً إنشاد هذه القصيدة ولكن من المستبعد أن يعترض عليها
كل هذه الاعتراضات التي بين فيها ما أخذها ويرد أكثر عيونها الى
أصول جاهلية واسلامية وأكبر الظن عندي أن خصماً من خصوم المتنبى
صنع هذه الاعتراضات في وقت متأخر ونحلها أبو فراس كما أنه من المستبعد
أيضاً أن يتغير موقف سيف الدولة من الشاعر بهذه السرعة الغربية فيضرب
وجهه بدواة بين يديه ثم يقبل رأسه ويجلسه الى جنبه ويجيزه بألف
دينار ثم بألف دينار أخرى لارتجاله هذا البيت :

إن كان سرّكم ما قال حاسدنا فما لجرح إذا أرضاكم ألم

على أني لا أرتاب من ناحية أخرى في أن هذه القصيدة أحدثت
استياءً شديداً في مجلس سيف الدولة ولا أستبعد أن كاتباً من كتابه
يعرف (بالسامري) خرج في أثر الشاعر ليقتله - كما يزعم - تزلفاً إلى
الأمير فكثر عليه الشاعر وهزمه . ولست أستبعد كذلك أن يكون أمراء
البيت الحمداني وبينهم أبو العشائر نفسه قد ائتمروا بالشاعر ليقتلوه
لتطاوله على زعيمهم وعميدهم وتهديده بالانتقال إلى خصومه الأخشيديين:

لئن تركن ضميراً (١) عن ميامنا ليحدثن لمن ودعتهم ندم

وأن جماعة من غلمان أبي العشائر كمنوا للشاعر في مكان ما ، وأن
أحدهم رماه بهم فوق في نحر فرسه وأنه حمل عليهم وجرح واحداً
منهم فانهزموا وقد حملوا جريحهم ، وأنه اختفى على أثر هذه الحادثة
في بيت صديق له ولسيف الدولة ، وأن هذا الصديق أحسن الوساطة بينه
وبين الأمير فرضي هذا عنه وأدخل عليه بعد أن هتء لهذا الدخول
تهية حسنة فأنشده أبياتاً يعتذر بها إليه هذه هي :

ألا ما لسيف الدولة اليوم عاتبنا

فداه الورى أمضى السيوف مضاربا

ومالي إذا ما اشتقت أبصرت دونه

تسائف لا أشتاقها وسبابا؟

وقد كان يدني مجلسي من سمائه أحداث فيها بدرها والكواكبا

حنانك مسؤولاً ولييك داعياً وحسبي موهوباً وحسبك واهبا

أهذا جزاء الصدق إن كنت صادقاً؟

أهذا جزاء الكذب إن كنت كاذباً

(١) ضمير (بضم الضاد) : جبل عن يمين الراحل من الشام إلى مصر .

وان كان ذنبي كل ذنب فانه محا الذنب كل المحو من جاء تائباً

وبهذا ختمت تلك الحادثة المؤسفة التي كادت تتحول الى كارثة ،
على أن بقاء السبب يقتضي بقاء المسبب فقد أبطأ مديح المتنبى على سيف الدولة
مرة اخرى وشق هذا الابطاء على الأمير فتنكر للشاعر واستقبله ذات يوم
في ميدان حلب استقبالاً فاتراً كان له أسوء الأثر في نفسه . فكتب اليه
أبياتاً يستنكر فيها ذلك الاستقبال ويعتذر عن ابطائه في تقديم المديح
وينوه بأهمية مديحه له ، هذه هي :

أرى ذلك القرب صار ازورارا وصار طويل السلام اختصارا
تركنتي اليوم في خجلةٍ أموت مراراً وأحيا مرارا
أسارقك اللحظ مستحياً وأزجر في الخيل مهري سرارا
وأعلم اني اذا ما اعتذرت إليك أراد اعتذاري اعتذارا
كفرت مكارمك الباهرا ت إن كان ذلك مني اختيارا
ولكن حمى الشعر إلا القليل هم حمى النوم إلا غرارا
وما أنا أسقمت جسمي به ولا أنا أضرمت في القلب نارا
فلا تلزمني ذنوب الزما ن إليّ أساء وإيبي ضارا
وعندي لك الشرّد السائرا

ت لا يختصن من الأرض دارا
فاني إذا سرن من مقولي وثبن الجبال وخضن البحارا
ولي فيك مالم يقل قائل ومالم يسرقم حيث سارا
فلو خلق الناس من دهرهم لكانوا الغلام وكنت النهارا

أشدهم في ندى هزةً وأبعدهم في عدو مغارا
سما بك همي فوق الهموم فليست أعدّ يساراً يسارا
ومن كنت بحراً له يا عليّ لم يقبل الدر إلا كبارا

ولكننا إذا استعرضنا تاريخ الرجلين خلال الأعوام التسعة التي اصطحبا فيها رأينا أنهما كانا في الغالب متقاربين متحابين يؤثر كل منهما صاحبه بأفضل ما عنده من حب وإعجاب ومودة واكبار حتى كانت حادثة اعتداء ابن خالويه على الشاعر فأسفرت عن افتراقهما الى غير تلاق .
وبيان الحادثة أن نقاشاً جرى في مجلس سيف الدولة بين أبي الطيب اللغوي وابن خالويه النحوي في مسألة من المسائل لم يشترك المتنبّي فيه فدعاه سيف الدولة الى المساهمة في الحديث فساهم بما قوى رأي أبي الطيب وضعف رأي ابن خالويه ، وغضب الأخير فأخرج مفتاحاً في كفه ضرب به وجه الشاعر فأسال دمه ولم يتدخل سيف الدولة في الحادث بقول ولا عمل فنقل هذا كثيراً على شاعره أو قل ألمه إيلاماً شديداً فخرج من المجلس وقد استقر رأيه على الرحيل من حلب ولبت أياماً قليلة استأذن بعدها الأمير بالخروج الى ضيعة له بقرب معرة النعمان فأذن له ولكنه عدل الى دمشق عن الضيعة المشار اليها وبهذا ختم ذلك الدور الخطير من حياة المترجم ، وكان ذلك سنة ٣٤٦ هـ .

ووصل أبو الطيب دمشق فكتب عاملها وهو يهودي يعرف بابن مالك (أو ابن ملك) الى سيده كافور يعلمه وصول الشاعر الى مدينته فأمره هذا بإيفاده اليه ولكن العامل طلب في أثناء ذلك الى المتنبّي أن يمدحه

فرفض ودفعه هذا الى الانتقام فكتب الى كافور بما يدل على أن الشاعر
كاره له منحرف عنه وضافت دمشق بأبي الطيب فتركها الى الرملة حيث
الحسن بن عبيدالله بن طنج صديقه القديم فاستقبله هذا استقبالا رائعا
وأكرمه وخلع عليه وسأله أن يمدحه فاعتذر اليه بهذه الأبيات :

ترك مدحيك كالهجاء لنفسي وقليل لك المديح الكثير
غير أنني تركت مقتضب الشع سر لأمر مثلي به معذور
وسجايك مادحاتك لا لفظي وجود على كلامي يغير
فسقى الله من أحب بكفي ك وأسفاك أيهذا الأمير

وتبدلت الرسائل بين الرملة والفسطاط بشأن زيارة الشاعر للعاصمة
المصرية فأسفرت عن موافقته عليها ولكن يظهر أنه لم يوافق على هذه
الزيارة الا بعد أن حصل على وعد بتقليده منصباً ذا شأن والا فما معنى
قوله في أول قصيدة يمدح بها كافور :

إذا كسب الناس المعالي بالندی فانك تعطي في ندادك المعاليا
وغير كثير أن يزورك راجل فيرجع ملكاً للعراقين واليا
فقد تهب الجيش الذي جاء غازياً لسائلك الفرد الذي جاء عافياً

إن هذا يعني بالطبع أن الأسود كان قد قطع على نفسه عهداً بتقليد
الشاعر منصباً ذا شأن ولكنه عدل عن هذا عندما رأى بعد مطامعه وسعة
مطامحه واكتفى باعطائه الدراهم والدنانير واثقاً أن هذا هو كل ما يجب
أن يفعله به . وقد ذكره المترجم وعده هذا وطالبه بانجازه في قصائد

عديدة ثم كفف عن ذلك عندما ظهر له أن الأسود عبث به وسخر منه وهو ولا يريد أن يعطيه شيئاً أكثر من المال . وقبل أن أتحدث اليك عما أزمع المتنبّي عمله بعد خيانة كافور له أحب أن ألاحظ أنه (اي المتنبّي) غلا في طلب الولاية وتهالك كثيراً على الجاه والسلطان وكان ينبغي له قبل كل شيء أن يترفع عن العبد وما في يده من أمور الدنيا وإذا كان هذا قد غاب عن ذهنه باديء بدء فلا أقل من أن يتلافى خطأه بعدم الالتجاء على الأسود في استجازه وعده . قد تقول إنه يريد أن يكتب خصومه ويغيب حساده وأن يبرهن لسيف الدولة نفسه أنه يجد عند غيره أكثر مما يجد عنده . وأجيب بأن هذا في حد ذاته عمل تافه لا ينبغي أن يطيل التفكير فيه شاعر عظيم له مثل عبقرية المتنبّي وشهرته ومكاته . ولو سلمنا جدلاً أن هذا عمل مقبول فانه لا ينجي الشاعر من نقد التاريخ ومؤاخذته إياه على إلحاحه في مطالبة كافور بتوليته بعد أن تبنّى له أن تحقيق هذه المحاولة على جانب كبير من الصعوبة ، وأعود الي ما ازمع المتنبّي عمله بعد أن تحققت خيانة كافور له فأقول : إنه عمل على الخروج من مصر فاستأذن الأسود في السفر الى الرملة لاستحصال مال له هناك فأبى أن يأذن له ووعدته أن يبعث الي الرملة من يأتيه بالمال على جناح السرعة . وهنا أدرك صاحبنا أنه سجين لا يملك من أمره شيئاً فعول على الفرار من مصر وأعد لهذا الأمر الخطير عدته متكماً في ذلك أشد التكمم واتهز فرصة انشغال الناس بعيد الأضحى من سنة ٣٥٠ هـ فخرج ومعه غلمان وأمواله وتجنب الطريق المعروفة وركب المجهل وأعانته بعض أصدقائه من زعماء القبائل على تذليل ما يلقي من

الصعاب فقطع المسافة بين الفسطاط والكوفة في نحو من ثلاثة أشهر
قضى منها شهراً في موضع كثير الماء والكلاء اسمه « حسي » والرحلة
- كما ترى - في منتهى الأهمية والخطورة ، ولكنه خرج منها ظافراً
منتصراً وعندى أن فوزه فيها وحده يكفي للدلالة على أنه مثل أعلى في
الاقدام والجرأة والصبر وشدة البأس والعلم بأحوال البادية ومجاهلتها
ومنازلها . وقد وصل الكوفة في ربيع الأول من سنة ٣٥١ هـ فقضى فيها
معظم بقية أيام حياته . ولم تكن حياته فيها حياة خمول ودعة وإنما
كانت حياة جد ونشاط ومساهمة في الأمور العامة ومن الأدلة على ذلك
أن قرمطياً من بني كلاب ظهر في سواد الكوفة سنة ٣٥٢ هـ و اراد
الاستيلاء عليها فقاتله أهلها دفاعاً عن أنفسهم ، وكان المتتبي في مقدمتهم
وقد قتل أحد غلمانه في المعركة ولم يغب عن بال « دلير بن لشكروز »
وهو القائد الذي ندبته حكومة بغداد لقمع هذه الفتنة أن يقدر موقف
أبي الطيب حق قدره فبعث إليه خلعاً نفيسةً وفرساً نجيباً عليه حليّة
ثقيلة وقد شكر أبو الطيب لهذا القائد أريحيته بقصيدة عصماء مطلعها :
كدعواك كل يدعي صحة العقل ومن ذا الذي يدري بما فيه من جهل

ولا أريد أن أترك هذه الحادثة دون أن لاحظ انها تدل دلالة قاطعة
على براعة الشاعر مما يتهمه به بعض المستشرقين ويشايهم فيه بعض
النقاد المصريين من أنه داعية من دعاة القرامطة لأنه لو كان كذلك لما
حارب هذا القرمطي وساهم في القضاء على فتنه مساهمةً فعالةً .

وعندما عاد أبو الطيب الى الكوفة رأى سيف الدولة ان يبرهن له

أن صداقته له باقية كما كانت لم تتغير ولم تتبدل فبعث إليه سنة ٣٥٢ هـ
بهدية نفيسة أجاب عليها بقصيدة كلها شوق وحنين وولاء وإكبار مطلعها:

مالنا كلنا جور (١) يارسول أنا اهوى وقلبك المتبول

وفي غضون هذه السنة توفيت خولة أخت سيف الدولة الكبرى فرثاها
رثاءً بليغاً وعزى أخاها تعزية حارة . وفي سنة ٣٥٣ هـ كتب إليه
سيف الدولة بخط يده كتاباً يدعو فيه للعودة الى حلب فرد عليه بقصيدة
تدل على أنه قبل الدعوة :

فهمت الكتاب أير الكتب فسمعاً لأمر أمير العرب
وطرماً له وابتهاجاً به وإن قصر الفعل عما وجب

ولكنه آثر أن يلبي دعوة ابن العميد الذي استزاره في تلك الآونة
فرحل في ١١ صفر من سنة ٣٥٤ هـ الى أرتجان بدلاً من حلب .

ومعنى هذا أنه لم يكن ينوي اجابة سيف الدولة إلى ملتصمه رغم
تظاهره بالموافقة عليه .

ونعود قليلاً الى الوراق فأقول لك ان أبا الطيب سعد بغداد سنة ٣٥٢ هـ
فقد قضى فيها تسعة أشهر كان في أثنائها ضيف علي بن حمزة اللغوي احد
رواة ديوانه واتصل بأبي الحسن محمد وزير معز الدولة المعروف
بالمهلبى وزاره أكثر من مرة ولكنه لم يمدحه كما أنه لم يمدح الخليفة
العباسى وهو المطيع لله اذ ذاك . والمعروف أنه لم يمدح المهلبى لأنه

(١) جو : حزين حزناً شديداً .

لم يستحسن سلوكه فقد كان الرجل لاهياً مستهتراً كثير العبث والمجون
ولكنني أرجح أنه أتى بغداد لغرض غير مديح أولى الأمر فيها فقد
خاصهم يوم كان في صحبة سيف الدولة مخاصمةً شديدة وهجاهم تبعاً
لرغبة الأمير الحمداني تعريضاً وتصريحاً ، فمن هجائه الصريح للخليفة
العباسي قوله :

فوا عجباً من دائل أنت سيفه أما يتوقى شفرتي ما تقلدا
ومن يجعل الضرغام للصيد بازه تصيده الضرغام فيما تصيدا
رأيتك محض الحلم في محض قدرة
ولو شئت كان الحلم منك مهتدا
وما قتل الأحرار كالعفو عنهم
ومن لك بالحر الذي يحفظ اليدا
إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وان أنت أكرمت اللئيم تمردا
ووضع الندى في موضع السيف بالعللا
مضر كوضع السيف في موضع الندى
ولكن تفوق الناس رأياً وحكمةً كما فقتهم حالاً ونفساً ومختدا
يدق على الأفكار ما أنت فاعل فيترك ما يخفى ويؤخذ ما بدا
ومن تعريضه الشديد بمعز الدولة قوله :

فدتك ملوك لم تسم مواضيا فانك ماضي الشفرتين صقيل
إذا كان بعض الناس سيفاً لدولة
ففي الناس بوقات لها وطبول

بل لقد هجا العباسيين والبويهيين والاشيدين جميعاً في لاميته التي
بعث بها الى سيف الدولة من الكوفة فقال مادحاً سيف الدولة وهاجياً لهم:

ليس إلاك يا علي همام سيفه دون عرضه مسلوب
كيف لا تأمن العراق ومصر وسراياك دونها والخيول

لو تحرقت عن طريق الأعداي ربط السدر خيلهم والنخيل
ودرى من أعزه الدفع عنه فيهما أنه الحقير الذليل
أنت طول الحياة للروم غازٍ فمتى الوعد أن يكون القفول
وسوى الروم خلف ظهرك روم فعلى أي جانبيك نميل
فعد الناس كلهم عن مساعبي لك وقامت بها القنا والنصول
ما الذي عنده تدار المنايا كالذي عنده تدار الشمول

فهذا السب يخيل إلي أن المتنبى لم يقصد بغداد لمديح ولاية الأمور
فيها وإنما قصدها لغرض آخر . وقد شق على المهلبى عدم مديح المتنبى
إياه فانتقم لنفسه باغراء من حوله من الشعراء بالرجل فهجوه وأكثروا من
الوقعة فيه والتندر عليه ولكنه لم يجبههم . وقد قيل له في ذلك فقال
فرغت من اجابتهم بقولي لمن هم أرفع طبقة منهم :

أرى المتشاعرين غروا بدمي ومن ذا يحمد الداء العضالا
ومن يك ذا فم مّر مريض يجد مرأً به الماء الزلالا

وذكر أمثلة أخرى من شعره في هذا الباب أهمها قوله :
وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل

ومع أن أبا الفضل بن العميد وزير آل بويه الكبير لم يكن من محبي
أبي الطيب وعشاق فضله وأدبه فقد رأى أنه من الحق عليه أن يستزيره
ويتعرض لمديحه ويكرمه وقد فعل ذلك فراره المتنبى في أرجان واستقبله
استقبالاً حاراً دالاً على التكريم والحفاوة ومدحه الشاعر بثلاث قصائد

ومقطوعات قليلة كلها من متوسط شعره أو هي دون ذلك فأجازته عليها
جوائز نفيسة وخلع عليه خلعاً كثيرة .

وفي أثناء زيارة المتنبى لابن العميد ورد كتاب من عضد الدولة أمير
شيراز يستدعيه فيه لزيارته فلبى الشاعر الدعوة بعد تلوّك ، وقصد شيراز
حاضرة الأمير فبالغ هذا في إكرامه والاحتفاء به والانعام عليه ومدحه هو
بخمسة قصائد وطردية وصف فيها غابة « دشت الأرز » ورثى عمته
التي توفيت في أثناء إقامته بشيراز بمنظومة سابعة .

وأحسن ما قال في عضد الدولة نونيته التي وصف بها « شعب بوان »
والتي قد لا أغلو إذا قلت لك إنها أحسن ما نظم في فارس على الإطلاق .

وفي شعبان من سنة ٣٥٤ هـ استأذن أبو الطيب عضد الدولة
بالعودة الى الكوفة في قصيدته التي مطلعها :

فدى لك من يقصر عن مداكا فلا ملك إذاً إلا فداكا

فأذن له الأمير وخلع عليه وسافر من شيراز يريد الكوفة فلما قارب
بغداد خرج عليه فاتك الأسدي خال (ضبة) الذي هجاه المتنبى وأمه
هجاءاً قبيحاً في قصيدته التي مطلعها .
ما أنصف القوم ضبه ٠٠٠ الخ

وكان يتربص به الدوائر ، فقاتله بين النعمانية والصفية وهما
موضعان يقربان مما كنا نسّميه قبل زمن قصير « البغيلة » ونسّميه اليوم
النعمانية فدافع الشاعر عن نفسه دفاعاً صادقاً إلا أن فرسه كبابه فأحاط به

خصومه وقتلوه وقتل معه ابنه محسد وعلامه مفلح وثلاثة أشخاص آخرين . وللرواة في قتله أقوال أخرى مختلفة ولكن الأشهر ما ذكرناه وكان مقتله في أواخر رمضان من سنة ٢٥٤ وقد تحاشيت ذكر اليوم الذي قتل فيه لأن الرواة يختلفون فيه وأحسب أنه من العسير تعيينه بالضبط .

ب - صفاته :

وحديث صفات المتنبى طويل معقد لأن صفاته نفسها متشعبة معقدة متناقضة ، وقد عالجه (أي الحديث) نقاد كثيرون قدماء ومحدثون وكتبوا فيه الفصول الطوال والقصار ولكن يخيل إلي أنه لا تزال فيه بقية تقضي الوقوف عنده والتأمل فيه . والرجل كثير الطمع شديد الجشع يخيل إلي أبعد حدود البخل تياه مسرف في التيه ساذج عظيم الحظ من السذاجة ولكنه شجاع مقدم أبيّ وفي عفيف الذيل طاهر الجيب سريع الخاطر سرعة لا تعدلها إلا سرعة حفظه . وخصلة أخرى لا أدري أأعداها من من حسناته أم من سيئاته ؟ ولكن ربما كان الأفضل أن أعداها من حسناته ألا وهي التشاؤم فإنه من أشد شعراء العربية تشاؤماً وأكثرهم برماً بالحياة والناس .

وما أريد أن أحدثك عن طمع الشاعر وبخله فانت تعرف هذا من أخباره وتعرفه من شعره وتعرفه أيضاً من أقوال النقاد الذين أرخوا حياته ودرسوا أخلاقه ولكنني أحب أن أسأل : ما مصدر طمعه وبخله ؟ ما سر تغلغلها فيه وتمكنها منه ؟

مصدرهما من غير شك ما عرف في شطر حياته الأول من فقر مدقع وفاقه ملحة وحاجة شديدة إلى المال ، يضاف إلى ذلك ما يعتلج في صدره ويدور برأسه من مطامع واسعة ومطامح بعيدة المدى يقوم المال منها مقام الروح من الجسد . وشيء ثالث له أثره فيما نعرف من طمع الرجل وبخله وهو معرفته بالاختبار حرص الناس على المال وشحهم به وتهالكهم على جمعه وتكديسه لمبرر ولغير مبرر . هذه هي أسباب طمع الشاعر وبخله وما أحسبه مسؤولاً عنها في كثير ولا قليل .

أما كبرياؤه فمنشؤها فيما يبدو لي رد فعل نفسي شديد ذلك أنه خلق ذكياً جريئاً شجاعاً فصيحاً عظيم الحفظ ولكن قليل جدا هم الذين كانوا يكثرئون لفضائله ويحفلون بمواهبه فكان هذا يحز في نفسه ويبعث فيها الألم ولا يلبث هذا الألم أن يستحيل إعجاباً بالذات واحتقاراً للآخرين وقد تعظم على مر الأيام حتى أصبح علة نفسية مزمنة ، أو جنة لا يرجى منها الشفاء ولكن الذي يعجزني فهمه وتعليله تعليلاً منطقياً صحيحاً هو هذه السذاجة التي تدفعه إلى أن يقول كل ما يخطر بباله ويدور ببخله في غير تحفظ ولا احتياط .

هو يمدح أكابر الناس وأواسطهم وأصاغرهم أيضاً ليحصل على ما يحفظ به ريقه ويمسك عليه حياته فما معنى تحدثه اليهم في صدور عدائجه عما يحلم به من حروب طاحنة يثيرها وغارات ماحقة يشنها ودول يقوض أركانها وسلطان يشيد بنيانه ويقيم دعائمها على أسس من الحديد والدم ، أترى أنه من المعقول أن يمدح المغيث بن علي العجلي

فيقول له في ختام قصيدته وبعد أن يشكو له الزمان شكوى مرة :

وإن عمرت جعلت الحرب والدةً والسهرّي أخاً والمشرفي أبا
بكل أشعث يلقى الموت مبتسماً حتى كأن له في قتله أربا
قح يكاد سهيل الجرد يقذفه من سرجه مرحاً بالعز أو طربا
الموت أعذرلي والصبر أجمل بي والبر أوسع والدنيا لمن غلبا

أم ترى أنه من المعقول أن يمدح علي بن ابراهيم التوخي فيقدم
بين يدي مديحه هذه الأبيات :

أحاد أم سداس في أحاد ليلتنا المنوطة بالتادي
كأن بنات نعش في دجاها خرائد سفارات في حداد
أفكر في معاقرة المنايا وقود الخيل مشرفة الهوادي
زعيم للقنا الخطي عزمي بسفك دم الحواضر والبوادي
إلى كم ذا التخلف والتواني؟ وكم هذا التماذي في التماذي؟
وشغل النفس عن طلب المعالي ببيع الشعر في سوق الكساد
وما ماضي الشباب بمسرد ولا يوم يمر بمسعد

أم ترى أنه من المعقول أن يقول في مقدمة إحدى مدائحه
لسيف الدولة :

أهم بشيء واليالي كأنها تطاردني عن كونه وأطاردا
وحيد من الخلان في كل بلدة إذا عظم المطلوب قل المساعد

ما هذا الشيء الذي يهم به أهو المال؟ إن سيف الدولة أعقد عليه
العطاء حتى تركه يقول :

تركت السرى خلفي لمن قلّ ماله

وأنعلت أفراسي بنعماك عسجدا

أم هو الجاه؟ فقد أوتي منه ما لا يكاد يحلم به شاعر . وقد
قلت لك إنه لما دخل على طاهر بن الحسين لينسده مدحته إياه نزل هذا
عن سريره وأجلسه بمكانه وجلس هو بين يديه . أتري أن رجلاً
يتمتع بمثل هذه المنزلة يمكن أن يعد نفسه محروماً من الجاه؟ إذن
ما هذا الشيء الذي يهم به؟ هو الملك، هو السلطان من غير شك .
وللمتبي أن يهم بالوصول إلى الملك، والاستيلاء على السلطان إذا كان
يجد في نفسه استعداداً لتحقيق مثل هذه الآمال العالية ولكن ليس له
أن يشير إلى هذا أو يعرض به في صدر قصيدة يمدح بها ولي نعمته .
ومما يجري هذا المجري في السذاجة وقلة الاتباه والتدبر حينه إلى
سيف الدولة وتفضيله إياه على كافور في قصائد يمدح بها كافوراً ويسأله
أن يقلده (ضبعة أو ولاية) أتري أن كافوراً لا يفهم قوله :

فلو كان ما بي من حبيب مقنع عذرت ولكن من حبيب معمم

رمى وأتقى رميي ومن نزل ما أتقى

هوى كسر كفي وقوسي وأسهمي

أم أنه لا يفهم قوله :

أما تغنط الأيام قتي بأن أرى بغيضاً تنائي أو حبيباً تقرب

ولله سيمري ما أقل تيسة عشية شرقي الحدالي وغرب (١)

عشيه أحفى الذس بي من جفوته وأهدى الطريقين الذي أتجنب

إنني على يقين من أن كافوراً يفهم هذا كل الفهم ويدرك مغزاه كل
الادراك وأن المتبي يعلم هذا حق العلم ولكنه يؤثر الاستسلام لرغائبه

(١) تيسة : أناة وتريثاً . الحدالي : موضع بالشام ، وغرب جبل هناك .

والاندفاع في تيار عواطفه .

بيد أن له حسنات كثيرة تشفع له عند المؤرخ الناقد وتحمله على الأقال من معاتبته ومحاسبته ، ذلك أنه جريء أبي وفي عفيف ، وقف الى جانب سيف الدولة في أخرج مواقفه وأخطر معاركه وتعرض معه للموت مراراً عديدة وأقلت من يد كافور على شدة كيدته وعظم بطشه وسعة سلطانه وأبى على سيف الدولة أن يقبل الأرض بين يديه وأن ينشده واقفاً ، وثار عليه ثورة عنيفة عندما شعر أنه يستخف بمقامه ويستهن بمكانته وخرج من مملكته مغاضباً عندما وقف من اعتداء ابن خالويه عليه موقف المتفرج . ولكنه وفي له مع ذلك فحفظ عهده وأقام على وده وحن إليه بعدما سكن غضبه وثاب اليه رشده حين الصديق الوفي إلى صديقه الحميم بل حين المحب المتيم الى حبيبه الذي لا يريد به بدلاً ولا يبغى عنه حولاً .

ورثى أبا شجاع فاتكاً أحر رثاء وأصدق دون أن يرجو منوبة او ينتظر
شكراً .

وشاعرنا الى هذا كله عفيف الذيل طاهر النفس لا تستهويه لذة ولا تستعبده شهوة ولذلك كانت القراءة وركوب الخيل أحب الأشياء الى نفسه :

أعز مكان في الدنا سرج سابع وخير جليس في الزمان كتاب

وقد حدثتكم حتى الآن عما يمتاز به من الناحية الخلقية الصرف فلا حدثتكم بشيء مما يمتاز به من الناحية الأدبية وأبرز ما يمتاز به من هذه الناحية سرعة خاطره التي لا يكاد يصدقها العقل فقد كان يقول الشعر متى شاء وفي أي موضوع شاء ويجيد فيه ما شاء ، حتى لقد اتهمه ابن

كروس نديم بدر بن عمار بأعداد ما يقول في شتى المناسبات
كانه كان ينظر من وراء حجب الغيب الهى ما يحدث في مجلس بدر بن
عمار وغيره ويهيه ما ينبغي أن يقال فيه من الشعر ليخدع سامعيه ويحملهم
على الظن بأنه يقوله ارتجالاً . ولذلك . أعد ابن كروس فيما يقول
الديوان : « لعبة لها شعر في طولها تدور على لولب ، إحدى رجلها
مرفوعة وفي يدها طاقة ريحان تدار فاذا وقفت حذاء انسان شرب فوضعها
من يده ونقرها فدارت » ولما دارت الكؤوس في مجلس شراب الامير
وتمكنت الخمر من الرؤوس أخرج هذه اللعبة وأخذ يديرها ويصرفها
فقال أبو الطيب :

وجارية شعرها شطرها محكمة نافذ أمرها
تدور وفي يدها طاقة تضمنها مكرها شبرها
فان أسكرتني ففي جهلها بما فعلته بنا عذرها

وأديرت فوقفت حذاء أبي الطيب فقال :

جارية ما لجسمها روح بالقلب من جها تباريح
في يدها طاقة تشير بها لكل طيب من طيبها ريح
سأشرب الكأس من اشارتها ودمع عيني في الخد مسفوح

وأدارها فوقفت حذاء بدر فقال :

ياذا المعالي ومعدن الأدب سيدنا وابن سيد العرب
أنت عليم بكل معجزة ولو سألنا سواك لم يجب

أهذه قابلتك راقصة أم رفعت رجلها من التعب

وقال أيضا :

ان الأمير أدام الله دولته
في الشرب جارية من تحتها خشب
قامت على فرد رجل من مهايته
لفاخر كسبت فخرا به مضر
ما كان والدها جن ولا بشر
وليس تعقل ما تأتي وما تذر

وأديرت فسقطت فقال :

ما نقلت في مشيئة قدما
لم أر شخصا من قبل رؤيتها
فلا تلمها على تواقعها
ولا أشتك من دوارها ألما
يفعل أفعالها وما عزمها
أطربها أن رأتك مبتسما

ونظم فيها عدة مقطعات أخرى حفظ بعضها في الديوان ولم يحفظ بعضها الآخر ولكننا نكفي من وصفه لها بما تقدم .

ومع أنه قال الشعر ارتجالا في حضرة سيف الدولة مرارا عديدة فقد رأى هذا أن يمتحنه ويتبين بصورة لا تقبل الشك مبلغ قدرته على الارتجال فأرسل اليه ذات يوم بيتين في كتمان السر سأله أن يجيزهما في الحال فأجازهما فوراً بعشرة أبيات من جيد الشعر . وهذان هما البيتان اللذان أرسلهما سيف الدولة :

أمني تخاف انتشار الحديث وحظي في ستره أوفر
فان لم أضنه لبقيا عليك نظرت لنفسي كما تنظر

أما ما أجازهما به المتنبى فهو قوله :

رضاك رضاي الذي أوثر وسرك سري فما أظهر
كفتك المروءة ما تتقي وأمنك الود ما تحذر
وسركم في الحشاميث إذا أنشر السر لا ينشر
كأنني عصت مقدي فيكم وكأنت القلب ما تبصر
إذا ما قدرت على نطقه فاني على تركه أقدر
أصرف نفسي كما أشتهي وأملكها والقنا أحمر
دواليك يا سيفها دولة وأمرك يا خير من يأمر
أتاني رسولك مستعجلاً فلباه شعري الذي أذخر
ولو كان يوم وغى قاتماً للباء سفي والآشقر
فلا غفل الدهر عن أهله فانك عين بها ينظر

وهناك نوادر أخرى عجيبة من هذا القبيل رأيت أن أضرب عنها صفحاً
رغبة في الايجاز .

وحافظة أبي الطيب أشبه بقدرته على الارتجال قوة وعمقاً وسعة
وما أظنك بحاجة الى أن أروي لك قصة الرجل الذي نزل لأبي الطيب
عن « كتابه » لأنه حفظه في دقائق معدودة مع أنه يتألف من نحو من
ثلاثين ورقة .

ولا أدل على سعة هذه الحافظة مما جرى لصاحبها مع أبي علي الفارسي
فقد قال له هذا ذات يوم « كم جاء من الجمع على وزن فعلى فقال حجلى
وضربى جمع حجل وظر بان (١) . قال أبو علي فسهرت تلك الليلة التمس

(١) الحجل ذكر القبيح . الظربان دوية منتنة كالهمرة .

لهما ثالثاً فلم أجد . وقال في حقه ما رأيت رجلاً في معناه مثله « وهذه الجملة الأخيرة ذكرها ابن جني في مقدمة شرحه الديوان وقال « ولو لم يكن له من الفضيلة إلا قول أبي علي هذا فيه لكفاء . لأن أبا علي ، على جلالة قدره في العلم ونباهة محله واقتدائه بسنة ذوى الفضل من قبله ، لم يكن ليطلق عليه هذا القول إلا وهو مستحق له عنده « (١) وما كان لرجل له ذكاء أبي الطيب الخارق وفكره الثاقب وعلمه الواسع أن ينخدع بالحياة والناس من حيث هو شاعر إن لم يكن من حيث هو رجل فقد وقف منهما موقف المتشائم الذي لا يحفل بظواهر الأمور ولا يفتق عند توافه الأشياء ونقدهما أصرم نقد وبرم بهما أشد البرم وأظهر عيوبهما وعدد مساوئهما في مدائحهم وأهاجيه وغيرها من صنوف شعره وأشهد أنه كان على حق عندما قال :

ألا ليت شعري هل أقول قصيدة

فلا أشتكي فيها ولا أتعجب

ح- آثاره :

لأبي الطيب ديوان ضخم آتاه الله من الذبوع والانتشار ما لم يؤت أي ديوان آخر فقد تداوله الناس وتدارسوه واختلفوا فيه فأعجب به قوم وعابه آخرون في حياة صاحبه وفعلوا به مثل ذلك طوال هذه المدة التي

(١) ذكرى أبي الطيب بعد الف عام لعبدالوهاب عزام ط مطبعة (الجزيرة -

تقع بين مقتل صاحبه وبين يومنا هذا وسيفعلون به مثل ذلك إلى ما شاء الله .

وقد شرح أكثر من أربعين شرحاً في مقدمتها شروح المعري والعكبري والواحدي وطبع طبعات كثيرة أقربها إلى الكمال طبعة الدكتور عبدالوهاب عزام التي لو احتوت على بعض الشروح الضرورية وسلمت مما فيها من أخطاء مطبعية قليلة لكانت خير طبعات هذا الديوان .

غزله : وأول باب أتأوله بالحديث من أبواب هذا الديوان غزله . وهو كثير نظم معظمه تمهيداً للمديح وقليل منه تمهيداً للمفخر وهناك تنف أقل من هذا القليل مستقلة ، على أن استقلال هذه التنف لا يعني أنها تمتاز بتصوير ما تنطوي عليه من عواطف وتشف عنه من أحاسيس ومشاعر . كلا فإنها تقليدية ككل غزل الشاعر . وما أريد أن أطيل الوقوف عند هذا الغزل الذي يتفق الجميع على أنه متكلف مصطنع ولكنني أحب أن أصفه لك وصفاً مجملًا لأنه يؤلف جزءاً ضخماً من إنتاج الرجل ولأنه لا يخلو من جمال فني ذي بال .

وأنا إذ أصف لك هذا الغزل مضطر إلى أن ألاحظ أنه يحتوي أحياناً على معان مألوفة أو قل مبتدلة كتشبيه وجه الحبيب بالشمس وشعره بالليل وثره بالبرق وريقه بماء الغمام والخمر وما إلى ذلك . وينطوي أحياناً على غلو عجيب لا عهد لنا به من قبل فدموع الشاعر تروي (عيس حبيته) و (تكفي مزادها) عند الرحيل وجسمه من فرط السقام بحيث لو ألقى في شق قلم (لما غير من خط كاتب) وهكذا ، ولكنه يشتمل أحياناً على

معان طريفة فيها شيء غير قليل من الجمال واللفظ وفيها شيء غير قليل
كذلك من الجودة والابتكار ولكن ليس فيها شيء يمكن أن يسمى شعوراً
أو عاطفةً ، وأمثلة ذلك كثيرة منها هذان البيتان :

وما شرقي بالماء إلا تذكراً لماء به أهل الحبيب نزول
يحترمه لمع الأُسنة فوقه فليس لظمان إليه وصول

وهذان البيتان :

مثلت عينك في حشاي جراحة فتشابهها كلتاهما نجلاء (١)
نفذت علي السابري (٢) وربما تتدق فيه الصعدة السمراء

وهذان البيتان :

لبسن الوشي لا متجملات ولكن كي يصنّ به الجمالاً (٣)
وضفّرن الغدائر لا لحسن ولكن خفن في الشعر الضلالا

وهذان البيتان ايضاً :

حسان التني ينقش الوشي مثله إذا من في أجسامهن النواعم
ويبسن عن در تقلدن مثله كأن التراقي وشحت بالمباسم

فأنت ترى أن هذه الأمثلة جميلة حقاً ولكن مصدر جمالها ما فيها من
معنى دقيق ولفظ قوي سهل ولا شيء غير ذلك .

(١) نجلاء : واسعة .

(٢) السابري : درع دقيقة النسيج في احكام .

(٣) كلف الصاحب بن عباد على شدة عداته للمتنبى بمعنى هذا البيت ،

هلم يجد بدأ من أن يسرقه فسرقه سرقة قبيحة في قوله :

لبسن برود الوشي لا لتجمل ولكن لصون الحسن بين برود

ومما يحجب غزل شاعرنا علاوة على ما تقدم خطرات لطيفة يتحدث
فيها عن طهارة حبه ونزاهة غرامه ويحاول أن يرفع نفسه أو هو يرفعها
تماماً الى مصاف العذريين الذين يعشقون الجمال للمجمال ويشقون بالحب
للحب استمع الى قوله :

عوانل ذات الخال في حواسد وإن ضجيع الخود مني لما جد
يرد يداً عن ثوبها وهو قادر ويعصي الهوى في طيفها وهوراقد
متى يشتفي من لاعج الشوق في الحشا

محب لها في قربه متباعد
إذا كنت تخشى العار في كل خلوة
فلم تتضاك الحسان الخرائد

وقوله في قصيدة :

وقر استقدت من الهوى فأذقه من عفتي ما ذقت من بلباله

فليس من شك في أنه يلذ لدارس الأدب العربي أن يسمع هذه
النفمة الرفيعة الحلوة التي انقطعت عن سمعه منذ جميل بينة وقيس لبني
وحلت محلها صيحات المتشدقين باتيان المآتم والمنكرات من أمثال بشر
وأبي نواس ، وهمسات أولي الريب من أمثال البحري وابن المعتز .
على اني أحب ان ألفتك بصورة خاصة الى هذا البيت الذي اعجب به
القدماء اعجاباً شديداً أشاركهم فيه وهو :

يرد يداً عن ثوبها وهو قادر ويعصي الهوى في طيفها وهو راقد

فان شاعرنا لم يقنع من نفسه أن يكون عفيفاً في يقظته اذا خلا
بجيبته حتى كان عفيفاً في رقاده أيضاً حيث يأبى عليه عقله الباطن أن

يستجيب لدواعي اللذات ونوازع الشهوات . والبيت بعد كل هذا مبتكر
كل الابتكار علاوة على أنه في منتهى الكرم والنبل ولك أن تقول مثل
هذا في قوله :

وقد استقدت . . البيت .

فخره : أصدق من غزل المتنبي فخره الذي ملأ نفسه وفاض على لسانه
فنطق به صيماً وما انفك يردده ويتغناه حتى آخر أيام حياته وليس من شك
في أنه على جانب كبير من الفصاحة والشجاعة والاباء والوفاء والعفة ووحدة
الذهن وغزارة الحفظ ولكنه لو أضاف إلى هذه المزايا السامية الكثيرة
مزية أخرى واحدة وهي التواضع لكان ذلك في مصلحته ومصلحة الأدب
ولكن العناية الآلهية لم ترد له ذلك فكثرت زهوه واشتد غروره وأسرف
في التحدث عن نفسه حتى أنه قسم عدداً غير قليل من مدائحه بينه وبين
مدوحيه واستأثر بأفضل القسمين فليس في مديح أميمته التي مطلعها :

ملامي النوى في ظلمها غاية الظلم لعل بها مثل الذي بي من السقم

ما يرتفع إلى مثل قوله :

يحاذرنني حثفي كأني حثفه وتكزني الأفعى فيقلها سمي (١)
طوال الردينيات يقصفها دمي وبيض السريجات يقطعها لحمي

.....

كأني دحوت الأرض من خبرتي بها
كأني بنى الاسكندر السدّ من عزمي

(١) تكزني : تعظني بأفئتها .

وليس في مديح ميميته التي مطلعها :

لا افتخار الا لمن لا يضام مدرك أو محارب لا ينام

ما يرتفع الى قوله في نفسه :

خاق ذرعاً بأن أضيق به ذر عاً زماني واستكرمتني الكرام
واقفاً تحت أخمصي قدر نفسي واقفاً تحت أخمصي الأنام

ولكنه كان يتواضع بعض الشيء لسيف الدولة فإذا فخر في أثناء مديحه له فنع أن يكون موضع اعجابه ومحل تقديره :

إذا شاء أن يلهو بلحية أحقق أراه غباري ثم قال له الحق

أو عمد الى مصارحته بأنه (مدينة الشعر) على حد قول جرير « منها يخرج واليها يعود » وأن عليه أن لا يشرك شاعراً معه في جوائزه :

أجزني إذا أنشدت شعراً فانما بشعري أتاك المادحون مردداً
ودع كل صوت غير صوتي فانتني

أنا الطائر المحكي والآخر الصدى

أو ختم به الكرماء على أن يكون هو خاتمة الشعراء :

لا تطلبن كريماً بعد رؤيته إن الكرام بأسخاهم يداً ختموا
ولا تبال بشعر بعد شاعره قد أفسد القول حتى أحمد الصمم

وصفه : وما أحدثك بشي جديد إذا قلت لك انه أبرع من وصف الحرب من شعراء اللغة العربية فان النقاد القدماء والمحدثين مجتمعون على هذا . ولكنني أحب أن أزعم أنه من أبرع وصاف الطبيعة والحياة والاجتماع عندنا وتفوقه في فن من فنون الوصف لا ينبغي أن ينسبنا براعته في فنونه الأخرى وما أريد أن أنكر أنه لم يكثر من وصف الرياض والحياض والجبال الشم والبطاح الخضراء والجنان الفيح ولكنه وصف

الخيال مراراً عديدة وصفاً منقطع النظير ووصف (شعب بوان) و (بحيرة
طبرية) و (غابة دشت الأرز) وخروج عضد الدولة للمصيد فيها ، وقتل
بدر بن عمار أسداً بالسوط وارغامه آخر على الفراز وأشياء أخرى
كثيرة وصفاً كله قوة وبراعة • إستمع الى وصفه الخيل في يائته التي
مدح بها كافور :

وجرداً (١) مددنا بين آذانها القنا فبتن خضافاً يتبعن العواليا
تماشى بأيدٍ كلما وافت الصفا نقشن بها صدر البزاة حوافيا
وتنظر من سود صواق في الدجي

يرين بهيدات الشخصوس كما هيا
وتنصب للجرس الخفي سوامعاً يخلن مناجاة الضمير تناديا
تجاذب فرسان الصباح أعنة كان على الأعتاق منها أفاعيا
بعزم يسير الجسم في السرج راكباً
به ويسير القلب في الجسم ماشيا

ووصفه فرسه في بائية يمدح بها كافور أيضاً :

ويوم كليل العاشقين كمتته أراقب فيه الشمس أيان تغرب
وعيني إلى أذني أغر كأنه من الليل بق بين عينيه كوكب
له فضلة عن جسمه في اهابه تجيء على صدر رحيب وتذهب
شققته به الظلماء أدني عنانه فيطغي وأرخيه مراراً فيلعب
وأصرع أي الوحش قفيته به وأنزل عنه مثله حين أركب (٢)

(١) تعرب جرد منصوبة على المنعولية لأنها معطوفة على عدة مفاعيل في

البيت السابق وهو :

ولكن بالفسطاط بجرأ أزرته حياتي ونصحي والهوى والقوافيا

(٢) درس ناقد معاصر هاتين القصيدتين قسمهما بين المتنبي وسيف الدولة

وكافور وأهل وصف الخيل فيهما على طرافته اعمالا تاماً ولا ادري لماذا فعل ذلك .

ووصفه الخيل في نونية مدح بها سيف الدولة :

قد الجياد الى الطعان ولم يقد : لا إلى العادات والأوطان
كأن ابن سابقه يغير لحسنه في قلب صاحبه على الأحران
إن خلّيت ربطت بأداب الوغى
فدعاؤها يعني عن الأرسان (١)

فأنت ترى أنه تحدث في المثال الأول عن حوافر خيله فقال إنها
تنقش أمثال صدور البزاة في الصخور وناهيك بما في ذلك من الدلالة على
الصلابة والقوة ، وعن أبصارها فقال إنها ترى الأشياء البعيدة في غسق
الليل كما هي . وعن أسماعها فقال إنها تنفذ إلى همسات الضمائر
والأرواح ، وعن قوة عزمها فقال إنها تسير الجسوم في السروج والقلوب
في الأجسام ، وفي المثال الثاني عن غرة فرسه فقال إنها تتألق تألق
الكوكب الوقاد ، وعن إهابه فقال ان له فضلة تجيء وتذهب على صدره ،
وعما يعتره من أحوال نفسية إذا أدنى عنانه إليه وإذا أرخاه . وعن
شدة عدوه فقال إنها لا تتيح لأي الأوبد الأفلات منه وعن وفرة نشاطه
فقال إنها لا تقل عند النزول عنه عما كانت عليه قبل الركوب . وفي
المثال الثالث عن جمال خيل الممدوح فقال انه ينسي أصحابها همومهم
وأحزانهم ، وعما دربت عليه من آداب القتال فقال إنها تستغني معه عن
الأرسان .

وما أظنك تعاتبه بعد هذا كله على أنه نسي أو أهمل صفة من صفات

(١) للمتنبى شذرات أخرى عديدة في وصف الخيل ولكن أظن أنني رويت

احسن ما له في هذا الباب . :

الخيال الأدبية أو المادية .

أما وصفه شعب بوان فإنه حديث مستفيض يصف فيه تعدد أجناسه واختلاف لغاته ولهجاته وكثرة أشجاره وطيب ثماره وجميل أثره لا في نفسه ونفوس أصحابه فحسب بل وفي نفوس خيلهم أيضاً فهو يجري على لسان جواده ذلك الحوار الرائع الذي لا أظن أن شاعراً سبقه إليه ، ودونك الآن هذا الوصف لتشاركني في تذوق جماله وتقدير ماله من القيمة الفنية الممتازة :

مغاني الشعب طيباً في المغاني بمنزلة الربيع من الزمان
ولكن الفتى العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان
ملاعب جنة لوسار فيها سليمان لسار بترجمان
طبت (١) فرساننا والخيال حتى خنيت وإن كرم من الحران
غدونا تنفض الأغصان فيها على أعرافها مثل الجمان
فسرت وقد حجبت الحرّ عني وجئت من الضياء بما كفاني
وألقى الشرق منها في ثيابي دنانيراً تفر من البنان
لها ثمر تشير إليك منه بأشربة وقفن بلا أوان
وأمواء تصلّ بها حصاها صليل الحي في أيدي الغواني
ولو كانت دمشق ثنى عساني ليق الثرد صينيّ الجفان (٢)
يلنجوجي ما رفعت لضيف به النيران تديّ الدخان (٣)

(١) طبت : دعت .

(٢) لبيق : حاذق .

(٣) يانجوجي : نسبة الى يانجوج وهو البخور .

تحلّ به على قلب شجاع وترحل منه عن قلب جبان
منازل لم يزل منها خيال يشيعني إلى النوبندجان
يقول بشعب بوان حصاني أعن هذا يسار إلى الطعان
أبوكم آدم سنّ المعاصي وعلمكم مفارقة الجنان
فقلت ، إذا رأيت أبا شجاع سلوت عن العباد وذا المكان

وأخيراً ما رأيك في هذا البيت الذي يصف المتبّي به سيفاً :

رقت مضاربه فهن كأنما يبدن من عشق الرقاب نحولا

وفي هذا البيت الذي يصف به أسداً :

يطأ الثرى مترفقاً من تيهه فكأنه آس يجس عيلاً

وفي هذا البيت الذي يصف به بحيرة طبرية :

كأنها في نهارها قمر حتف به من جناها ظلم

الواقع أن المتبّي شاعر مبدع في كل فن من فنون الوصف لا في وصف الحرب فقط كما ترى جمهرة النقاد .

مديحه : ومديح المتبّي كثير ، وهو كثير الهنات والهفوات أيضاً ، وهي هنات وهفوات تتعلق بالأخيلة والمعاني مرة والألفاظ والتعابير تارة . فما أظن أن أبا الطيب يفخر كثيراً بمعنى هذا البيت :

لو استطعت ركبت الناس كلهم إلى سعيد بن عبدالله بهرانا

أو بمعنى هذين البيتين :

علّ الأمير يرى ذلي فيشفع لي إلى التي تركتني في الهوى مثلاً

أيقنت أن سعيداً أخذ بدمي لما بصرت به بالرمح معتقلاً

وما أظن كذلك أنه يفخر كثيراً بتركيب هذا البيت :

جفخت (١) وهم لا يجفخون بها بهم شيم على الحسب الأغر دلائل

أو بتركيب هذا البيت :

ونهب نفوس أهل النهب أولى بأهل المجد من نهب القماش

ولكن مهما يكن من أمر هذه الهنات وتلكم الهفوات فاننا نستطيع - أستغفر الله - بل إننا مضطرون الى أن نقرر أن مديح الرجل في جملته رائع فخم كثير الحسنات جم الفوائد عالي الطبقة يتحدث عن السياسة فيجيد الحديث ويصور الوقائع الحربية الفاصلة فيسعد في التصوير ، ويصف أخلاق الرجال وفضائلهم الحقيقية فلا يقصر في الوصف . وما أعني باجاده حديث السياسة والحرب مدائح سيف الدولة دون غيرها وانما أعني مديحه كله سواء في ذلك مديح بدر بن عمار وآل حمدان وكفور وابن العميد وعضد الدولة وغيرهم . على أنه مما لا شك فيه أنه يبلغ اوج شاعريته في تصوير حروب سيف الدولة المتواليه الطاحنة ولم لا يفعل ذلك وهو يتقاض نظيره ثلاثة آلاف دينار في السنة عدا الاقطاعات والهدايا والخلع ؟ أضف الى ذلك أنه كان يجد في سيف الدولة مثله الأعلى في الرجولية وشدة البأس وقلة المبالاة بالأخطار وكرم الطباع وتقدير العلم والأدب وتشجيع الملكات الراقية والمواهب الممتازة (٢) :

(١) جفخت : فخرت .

(٢) يختلف النقاد المحدثون في تقدير أثر سيف الدولة في المتنبي وبالعكس وعندني أن سيف الدولة كان متمماً للمتنبي فلولا له ما وجد ابو الطيب الرجل الذي يملأ نفسه ويستثير اعجابه ويستنزل آيات شاعريته .

أحبك يا شمس الزمان وبدره وان لأمني فيك السهى والفراق
وذلك لأن الفضل عندك باهر وليس لأن العيش عندك بارد

أما مدائح المتنبى لسيف الدولة فإنها تتألف من ٢٨ قصيدة و ٣١ مقطوعة تتضمن « ١٥١٢ » بيت لم تتفق عن مثلها قريحة شاعر في الهجائية ولا في الاسلام . وانك لتعرض هذه المجموعة فلا تدري أندس لخطورة مالها من الأهمية التاريخية أم لعظم مالها من القيمة الفنية ! وما أعذك أن أستعرض هنا ما سجل أبو الطيب من حروب سيف الدولة واعماله المجيدة في الداخل والخارج على شدة رغبتى في ذلك لأن هذا الفضل أضيّق بكثير من أن يتسع لمثل هذه المحاولة ولكنى أكتفي بأن أروي لك ما سجل أبو الطيب من هزائم الروم المنكرة لمجرد سماعهم بأن سيف الدولة خرج لحربهم فقد وقع لهم ذلك مراراً عديدة ، وقع لهم ذلك في أواسط سنة ٢٤١ هـ ولم تشر كتب التاريخ الى هذه الهزيمة ولا ديوان المتنبى أيضاً ، وانما استدللنا عليها بقول المتنبى في أثنا قصيدته التي مطلعها :

واحر قلباه . . البيت

والتي يعاتب بها سيف الدولة :

فوت العدو الذي يممه ظفر في طيه أسف في طيه نعم (١)

(١) يقول : أسفت لفرار العدو الذي فاتك على ان فراره ظفر لك ونعمة

على جيشك لأنه انتصر دون ان يتكبد خسارة ما .

قد ناب عنك شديد الخوف واصطعنت

لك المهابة مالا تصنع البهم (١)

ألزمت نفسك شيئاً ليس يلزمها أن لا يواريهم أرض ولا علم
أكلما رمت جيشاً فانتشى هرباً تصرفت بك في آثاره البهم
عليك هزمهم في كل معترك وما عليك بهم عار إذا انهزموا
أما ترى ظفراً حلواً سوى ظفر

تصافحت فيه بيض الهند واللمم (٢)

فواضح أن هناك عدواً منهزماً وأن هزيمته لم تكن نتيجة قتال وإنما كانت نتيجة خوف ورعب وأن هناك معقبات لهذا العدو أحزنه فوته وان كان هذا الفوت في حد ذاته ظفراً لامعاً . وقد انهزم الروم دون قتال في سنة ٣٤٤ هـ هزيمة أخرى أشنع من هذه غفلت عنها كتب التاريخ ولكن الديوان يروي لنا خبرها في شيء غير قليل من الدقة والتفصيل ، وإجمال الحادثة أن سيف الدولة كان قد بنى سنة ٣٤٣ هـ على الحدود الرومية الاسلامية قلعة تعرف بقلعة الحدث (٣) كانت قديماً في عيون الروم وشجى في حلوقهم ، فأجمعوا أمرهم على أن يهدموها ويطردوا المسلمين من الموضع الذي تقوم عليه وأعدوا لهذا الأمر عدته فأرسلوا في السنة التالية جيشاً يتألف من ٤٠٠٠٠ رجل أو أكثر وأحاطوا بالقلعة

(١) البهم : كصرد : جمع بهمة وهو الرجل الشجاع .

(٢) اللمم : جمع لمة وهو ما جاوز شحمة الأذن من الشعر .

(٣) خلد المتنبى بناء هذه القلعة في حينه ووصفه أروع وصف في ميميته التي

مطلعها :

على قدر اهل العزم تأتني العزائم وتأتني على قدر الكرام المكارم

واتخذوا ما يمكن اتخاذه من التدابير للمحيلة دون وصول الخبر الى سيف الدولة ولكن كتمان خبر كهذا شيء مستحيل فما عثم الخبر أن بلغ مسامع سيف الدولة وخف هذا في الحال لنجدة القلعة وحاميتها المحصورة فما كاد يشرف على معسكر الروم حتى شملهم الذعر واستولى على قلوبهم الفزع ، وانهمزوا لا يلبثون على شيء كأنهم أمام بطل من أبطال الأساطير وكان هذا نصراً مؤزرآ آخر لم ينشأ عن قتال وانما نشأ عن مهابة تغلغل في أعماق النفوس وخوف نفذ الى قرارات القلوب والأرواح . وفي هذا يقول المتنبي هذه القصيدة الفذة التي لو لم يقل غيرها في سيف الدولة لكانت كافية لتخليدهما معاً ، وهي :

ذي المعالي فيعلون من تعالي هكذا هكذا ، وإلا فلألا

شرف ينطح النجوم بروقيـ(١) به وعز يقلقل الأجيالا

حال أعدائنا عظيم وسيف الد وله ابن السيف أعظم حالا

كلما أعجلوا النذير ميراً أعجلتهم جياده الاعجالا

فأتهم خوارق الأرض ما تح مل إلا الحديد والأبطالا

خافيات الألوان قد نسج النقع عليها براقعاً وجلالا

حالفته صدورها والعوالي لتخوضنّ دونه الأهوالا

وليمضنّ حيث لا يجسد الرمح مداراً ولا الحصان مجالا

لا ألوم ابن لاون ملك الروم وإن كان ما تمنى محالا

أقلقته بنية بين أذنب به وبان بهي السماء فسالا

كلما رام حطها اتسع البسني فغطى جينه والقنالا

يجمع الروم والبقالب والبلد
وتوافيهم بها في القنا السمر
قصدا هدم سورها فبنوه
واستجروا مكاييد الحرب حتى
رب أمر أذاك لا تحمد الفد
وقسي رميت عنها فردت
أخذوا الطرق يقطعون بها الرسل فكان انقطاعها إرسالاً
وهم البحر ذو الغوارب إلا
ما مضوا لم يقاتلوك ولك
والذي قطع الرقاب من الضر
والثبات الذي أجادوا قديماً
نزلوا في مصارع عرفوها
تحمل الريح بينهم شعر الها
تذذ الجسم أن يقيم لديها
أبصروا الطعن في القلوب دراكاً
وإذا حاولت طعانك خيل
بسط الرعب في اليمين يمينا
ينفض الروح أيدياً ليس تدري

غمر فيها ويجمع الآجالا
كما وافت العطاش الصلالا (١)
وأثوا كي يقصروه فطالا
تركوها لها عليهم وبالا
عال فيه وتحمد الأفعالا
في قلوب الرماة عنك النصلا
أنه صار عند بحرك آلا
ن القتال الذي كفاك القتالا
ب بكفيك قطع الآمالا
علم الثابتين ذا الاجفالا
يندبون الأعمام والأخوالا
م وتذري عليهم الأوصالا
وتريه لكل عضو مثالا
قبل أن يبصروا الرماح خيالا
أبصرت أذرع القنا أميالا
فتولوا وفي الشمال شمالا
أسيوفاً حملن أم أغلالا

(١) الصلال : جمع صلة وهي ارض مسطورة بين ارضين لم يصبهما مطر .

ووجوهاً أخفها منك وجه تركت حسنها له والجمالا
والعيان الجليّ يحدث للظن زوالا وللمراد انتقالا
وإذا ما خلا الجبان بأرض طلب الطعن وحده والنزالا
أقسموا لا رأواك إلا بقلب طالما غرت العيون الرجالا
أي عين تأملتك فلاقتك ك وطرف رنا إليك فألا؟
ما يشك اللعين في أخذك الجيش فهل يعث الجيوش نوالا
ما لمن ينصب الجبائل في الأثر ض ومرجاه أن يصيد الهلالا ؟
إن دون التي على الدرب والأحذب والنهر مخلطاً مزبالا (١)
غصب الدهر والملوك عليها فبناها في وجنة الدهر خلا
وحماها بكل مطرد الأكعب جور الزمان والأوجالا
فهي تمشي مشي العروس اختيالاً وتشي على الزمان دلالا
في خميس من الأسود بئس (٢) يفترسن النفوس والأموالا
وظبي تعرف الحرام من الحئل فقد أفتت الدماء حلالا
إنما أنفاس الأئيس سباع يتفارسن جهرة واغتيالا
من أطاق التماس شيء غلاباً واغتصاباً لم يلتمسه سؤالا
كل غاد لحاجة يتمنى أن يكون الغضنفر الرئبالا

وانهزم الروم سنة ٣٥٢ للمهجرة هزيمة منكرة نالته دون قتال ، لا تقل

(١) المخلط المزبال : الرجل الكثير المخلطة والمزايعة للامور والمراد به

عنا سيف الدولة .

(٢) البئس الشديد البئس

شاعة وبشاعة عن الهزيمتين السالفتين واجمال ذلك « كما يقول الديوان »
لا كما تقول كتب التاريخ التي تسكت عن هذه الحادثة أيضاً كل السكوت
أن سيف الدولة مرض في هذه السنة فاتته الروم هذه الفرصة وجاءوا
بجيش جرّار نزل على طرسوس وحاصرها فأرسل أهلها الى سيف الدولة
يستغيثونه ويستجدونه ويهددونه بالاستسلام اذا هم لم يجدوا فخف
الامير الحمداني لنجدتهم رغم اعتلال صحته ، فلما اتصل خبره بالدمستق
أفرج عن طرسوس وولى على عقبه قافلاً الى بلاده دون أن يضع شيئاً .
وكان هذا نصراً مؤزراً ثالثاً لسيف الدولة لم ينشأ عن قتال وانما نشأ
عن مخافة مستحكمة الحلقات ومهابة تفعل فعل الجيوش في نفوس
الأعداء . وكان أبو الطيب يومئذ بالكوفة عائداً من الفسطاط وسيف
الدولة يرأسه ويبعث له الهدايا من حين لآخر كما مر . فكتب اليه
بهذه المناسبة يستدعيه الى حلب ويؤمنه على نفسه فاجابه بقصيدة وصف
فيها هذا النصر المؤزّر وصفاً بليغاً اقتطف لك منه هذه الأبيات :

وغرّ الدمستق قول العداة إن علياً ثقيلاً وصب
وقد علمت خيله أنه إذا همّ وهو عليل ركب
أناهم بأوسع من أرضهم طوال السيب قصار العصب (١)
تغيب الشواحق في جيشه وتبدو صغاراً إذا لم تغب
ولا تعبر الريح في جّوّه إذا لم تخط القنا أو تب

(١) الضمير في قوله (أناهم) عائداً الى (أهل الثغور) المذكورين في بيت
سابق والسيب : شعر الناصية والعرف والذنب . والعصب : جمع عيب وهو
عظم الذنب والمراد بهذا خيل العدو يقول : أناهم بخيل لا تتسع لها أرضهم .

ففرق مدنهم بالجيوش وأخفت أصواتهم باللجب
فأخبت به طالباً قتلهم وأجيب به تاركاً ما طلب
نأيت فقاتلهم باللقاء وجئت فقاتلهم بالهرب
وكانوا له الفخر لما أتى وكنت له العذر لما ذهب
سبقت إليهم منايهم ومنفعة الغوث قبل العطب
فخروا لخالفهم سجداً ولو لم تغث سجداً للصلب

إن الذي نعرفه من أمر كبار القادة وكبار الشعراء هو أن الأولين
يخوضون المعارك ويفتحون الممالك أو يقتحمونها الى حين ، وأن
الآخرين يمجدون ظفرهم ويشيدون بشجاعتهم ومهارتهم ويهتئونهم بالفوز
المبين فأما أن يتصر القائد بمجرد سمعته مراراً عديدة على عدوه التام
الأهبة الكامل الاستعداد فهذا ما لم يحدث - فيما أعلم - لأحد سوى
سيف الدولة من القواد ولم يسجله أحد سوى أبي الطيب من الشعراء .

هجاؤه : وكما نظم أبو الطيب أجمل المديح وأروع ، نظم كذلك
أقبح الهجاء وأوجع وأشنع . وهجاؤه يمتاز بالصرامة والبذاءة وليس
في صرامته ما يبعث على الاستغراب ، فان المتبني رجل فتك وبطش
يقسو على خصومه قسوة هائلة ولا يحجم عن أن ينزل بهم الضربات القاصمة
والنكبات الماحقة اذا تسنى له ذلك ولكن الجدير بالاستغراب حقاً هو
هذه البذاءة التي كان على الشاعر أن يعصم منها أدبه وينزه عنها لسانه
وقلمه . ومن غريب أمره في الهجاء أنه ربما جمع بين أجمل فرائد

الحكم وأقبح أنواع السباب في القصيدة الواحدة فليس طبعياً أن يكون
قائل :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم
والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم
و : ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

هو قائل ما في نفس القصيدة التي تتظم هذه الأبيات من كلام بنديء
لا تستحي من قراءته وسماعه العذراء فحسب بل الرجل الكريم الذي
تعصمه مروءته أن يقرأ أو يسمع ما يباه له كرمه ولا يسمح به أدبه .
وقد رويت لك مثلاً من أخف هجاء المترجم وأقله صرامة عند الكلام
على زيارته بغداد فلا حاجة الي المزيد منه .

عتابه : أما عتابه فانه نسيج وحده ، ذلك أنه يكشف النقاب عما
يكن في صدره من حب خالص وولاء صادق حتى يخيل لك أنه سترامبي
على أقدام صاحبه ليستندي قلبه ويحصل على رضا مهما كان الثمن :

مالي أكتّم حباً قد برى جسدي وتدعي حب سيف الدولة الأُمم
إن كان يجمعنا حب لغرته فليت أنا بقدر الحب نقسم
قد زرتّه وسيوف الهند مغدّة وقد نظرت إليه والسيوف دم
فكان أحسن خلق الله كلهم وكان أحسن ما في الأحسن الشيم

ولكنه لا يلبث أن ينتفض للدفاع عن عاطفته المجروحة وكرامته
المهانة انتفاض الأسد الجريح فيبرق ويرعد ويرغي ويزبد ويتوعد بكل
ما تصل اليه يده من شر وأذى ان لم يقض حقه وترع حرمة وتحفظ
كرامته :

كم تطلبون لنا عيباً فيعجزكم ويكره الله ما تأتون والكرم
ما أبعد العيب والنقصان من شرفي أنا الثريا وذان الشيب والهرم
ليت الغمام الذي عندي صواعقه يزيلهن إلى من عنده الديم
أرى النوى تفتضيني كل مرحلة لا تسقل بها الوخاذة الرسم
لئن تركن ضميراً عن ميامنا ليحدثن لمن ودعتهم ندم
إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا أن لا تفارقهم فالراحلون هم
شر البلاد مكان لا صديق به وشر ما قنصته راحتني قنص
وشر ما قنصته راحتني قنص شهب البزاة سواء فيه والرخم
بأي لفظ تقول الشعر زعنفة تجوز عندك لا عرب ولا عجم
هذا عتابك إلا أنه مقه قد ضمن الدر الا أنه كلم

ولك أن تقارن بين عتاب المتنبي هذا وبين ما قدمت من عتاب
البحثري في موضعه لتبين مبلغ حرص الأول على مكانته وكرامته وحرص
الثاني على رضی المدوح وجائزته كائناً ثمنهما ما كان .

رثاؤه : وقد اتهم بعض النقاد أبا الطيب بالعجز عن الرثاء الرقيق
الفياض بالمشاعر والانفعالات ، وعزا ذلك الى نضوب معين العاطفة في
قلبه ، ولكنها تهمة باطلة فأبو الطيب رقيق العاطفة جيش الشعور مرهف
الاحساس ولكن هذا لا يعني أن يصطنع النفاق ويحمد الى الكذب فيزعم
أنه حزين شديد الحزن وما هو من الحزن في شيء وأنه متفجع ملتاع
وما هو من التفجع والالتباع في كثير ولا قليل .

للمتبي رثاء كثير ولكن الذين آلمه فقدم حقيقة ممن رثي قليلون جداً . هو شاعر سيف الدولة وصديقه ، هذا صحيح ، ولكنه لا يعني أنه لا بد له من أن يجزع لفقد والدته وأن يحزن أشد الحزن لوفاة أخته وابنه الرضيع أبي الهيجاء ومملوكه يمالك . أما عضد الدولة فإنه ضيف طارئ عليه وهو لا يعرف عن عمته المتوفاة ببغداد أكثر مما يعرف عن أية امرأة غريبة لا تجمع بينها وبينه جامعة ولا تربطه بها رابطة . ولنا نعرف شيئاً عن صلته بمحمد ابن إسحاق التنوخي الذي رثاه بعدة مرات قصيرة فيها شيء لا بأس به من التفجع المصطنع وليس فيها شيء من الدعوة الصادقة والعاطفة الحقيقية .

هو إذن معذور إذا الجأ لسرد الآراء الفلسفية المتعلقة بالحياة والموت وإلى تعداد فضائل المرثي واطراء مناقب المعزى وطلب العزاء والسلوان له في أكثر مرثيه لأنه لا شيء لديه غير هذا . على أنك إذا أردت أن تعرف قدرة أبي الطيب على الرثاء الرقيق المؤثر فماعليك إلا أن تقرأ قوله في رثاء جدته :

لك الله من مفجوعة بحبيها	قتيلة شوق غير ملحقها وصا
أحن إلى الكأس التي شربت بها	وأهوى لمثواها التراب وما ضا
بكيث عليها خيفة في حياتها	وذاق كلانا نكل صاحبها قدما
ولو قتل المهجر المحجين كلهم	مضى بلد باق أجّدت له صرما
أناها كتابي بعد بأس وترحة	فماتت سروراً بي فمت بها غما
رقا دمعها الجاري وجفت جفونها	وفارق حبي قلبها بعد ما أدمي
ولم يسلمها إلا المنايا وإنما	أشد من السقم الذي أذهب السقما

وقوله في رثاء صديقه أبي شجاع فاتك الرومي :

الحزن يقلق والتجمل يردع والدمع بينهما عسي^١ طيبع^٢
يتنازعان دموع عين مسهد هذا يجيء بها وهذا يرجع
النوم بعد أبي شجاع زفر والليل معي والكواكب طلّع

* * *

برّد حشاي إن استطعت بلفظة

فلقد تضرّر إذا تشاء وتنفع

أترى أن هذه الأبيات كلام جاف لا عاطفة فيه ولا شعور أم ترى
أنها حسرات تجيش ودموع تترقق وتنهّدات كلها أحزان وآلام ؟

فلسفته : وتألني رأيي فيما يزعمه ويحاول أن يقيم عليه الدليل

بعض النقاد المعاصرين من أن المتبني فيلسوف وأجيب بأن هذا زعم غير
صحيح بل إنه إقحام للرجل على الفلسفة ولها عليه والواقع أنه شاعر
عظيم كثير التجربة واسع الخبرة بالحياة والناس جم الاطلاع قرأ
القرآن والحديث وخطب الراشدين وما نقل الى العربية من أقوال
فلاسفة اليونان والهنود والفرس وحكم عقلاء الشعراء كزهير بن أبي
سلمى والناطقة الذبياني والاقوه الأودي وغيرهم . ووعى منها الشيء
الكثير ان لم يكن وعاما كلها فكان له من هذا ثروة فكرية ضخمة تمده
بروائع الحكم وشوارد الأمثال كلما احتاج الى شيء من هذا . على
أنه من المهم أن نعرف السبب الذي يدفعه الى تسجيل خطراته الفلسفية
في كثير من قصائده ومقطوعاته ، أهو الرغبة في تقرير مذهب فلسفي أم

هو الرغبة في تأييد وجهة نظر يقتضيها مديح مدح أو الترفيه عن خاطر صديق مكدود أو التعبير عن عاطفة مكبوتة وشعور مكظوم ؟ .

إنك إذا رجعت الى ديوانه وتدبرت حكمه وأمثاله وتاملتها طويلاً رأيت أن السبب الثاني هو الذي يملئها عليه ، ثم هو بعد هذا وذلك متناقض يقول الشيء وضده فهو يقول في مكان :

إلف هذا الهواء أوقع في الأنف س أن الحمام مثر المذاق
والأسي قبل فرقة الروح عجز والأسي لا يكون بعد الفراق

ومعنى هذا أنه ليس في قرارة هذا الانسان أو في غرائزه ما يجب اليه الحياة ، ويرغبه فيها ، ولكن إلفة هذا الهواء هي التي تخدعه عن حقيقتها وتحمله على الركون اليها والتمسك بها في غير ما تعقل ولا تدبر ولكنه يقول في مكان آخر :

ولذيذ الحياة أنفس في النفس س وأشهى من أن يملّ وأحلى
وإذا الشيخ قال أف فما ملّ حياة وانما الضعف ملاّ

ومعنى هذا أن حب الحياة أمر غريزي فطري يسيّرنا ويسيطر على حركاتنا وسكناتنا وليس في وسعنا أن نتخلص منه أو نتمرد عليه . ويقول في مكان :

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذي فعل الفقر

ومعنى هذا أنه زاهد بالحياة معرض عنها لا يجمع منها حظاً ولا يدخر فيها مالاً ولكنه يقول في مكان آخر :

وفي الناس من يرضى بميسور عيشه ومركوبه رجلاه (١) والثوب جلده

(١) هكذا في الديوان وربما كان الصواب فمركوبه .

ولكن قلباً بين جنبي ماله مدى ينتهي بي في مراد أحده -

ومعنى هذا أنه مفتون بالدنيا فتنة شديدة محب لها حباً لا ينتهي إلى عزاء أو سلوان . ويقول :

ومراد النفوس أعمر من أن تعادى فيه وأن تنفانى

ومعنى هذا أنه يدعو للرفق والتسامح والمسالمة ، ولكنه لا يكاد يلفظ هذا البيت حتى ينقضه نقضاً بما يدعو للكفاح والنضال والتطاحن في الأبيات التالية :

غير أن الفتى يلاقى المنايا	كالحجرات ولا يلاقي الهوانا
ولو أن الحياة تبقى لحي	لعدونا أضلنا الشجعانا
وإذا لم يكن من الموت بد	فمن العجز أن تكون جباناً

الواقع أن المتنبى شاعر قبل كل شيء ، وبعد كل شيء ، ولكنه يعرف الأدب والتاريخ والفلسفة والحياة والناس معرفة تلهمه خطرات فلسفية كثيرة تستقيم مرة وتتناقض تارة وتضيق حيناً وتخطيء حيناً آخر .

لغته وأسلوبه : وقد أحصى القدماء كل كبيرة وصغيرة من سقطات

المتنبى التي تتعلق بلغته وأسلوبه ونسوا أن يحسبوا حساباً للزمن الذي حصل فيه معظم هذه السقطات ، فقد حصل معظمها يوم كان الشاعر يجوب القفار وينقل بين الأمصار ماشياً على قدميه لأنه لا يملك راحلة يستخدمها في أسفاره :

ومهمه جتته على قدمي تعجز عنه العرامس الذلل

ويوم كان الشاعر من نحافة البنية بحيث يقول عن نفسه :

برتني السرى بري المدى فرددني أخف على المركوب من نفسي جرمي

ويوم كان الشاعر لا يرتدي سوى الغليظ الخشن من الثياب :
لسري لباسه خشن القط ن ومروي مرو لبس القروود

وما أظن أنه من العدل أن تطلب الى الشاعر الذي لا يملك ما يسد
به رفقه أن يقدم لنا إنتاجاً راقياً سليماً لا يتطرق اليه الضعف في
ناحية من نواحيه فلا كلمة نابية ولا تعبير ركيك ولا تشبيه مبتذل ولا
خيال غير مستحسن .

إن الظروف التي تكتنف حياة الشاعر فتؤثر في جسمه وعقله وتسيطر
على تفكيره لا ينبغي أن تهمل في حساب الناقد النزيه . ونحن نستطيع
أن نقسم حياة أبي الطيب الى دورين مختلفين كل الاختلاف :

أحدهما - دور شقاء وبؤس وفقر وتشرد يتبدىء بطفولته وينتهي
بدخوله بلاط سيف الدولة .

وثانيهما - دور رخاء ويسر واستقرار نسبي يتبدىء بانتظام الشاعر
في حاشية الأمير الحمداني وينتهي بمقتله .

وقد قلت لك ان معظم هفواته التي يحاسبه عليها القدماء حساباً
لا رحمة فيه ولا شفقة حصل في الدور الأول من حياته . ومع ذلك فانا
اذا قسنا سيئاته من حيث اللغة والأسلوب الى حسناته في هذا الدور
نفسه . رجحت الثانية على الأولى رجحاناً ظاهراً ودفعنا دفعاً الى عده
في طبيعة شعراء اللغة العربية فصاحة لفظ ومثانة تعبير وبراعة مثل وجمال
حلية بيانية . استمع الى قوله في صدر قصيدة يمدح بها المغيث بن علي
بن بشر العجلي .

فؤاد ما تسليه المدام وعمر مثل ما يهب اللثام

ودهر ناسه ناس صغار
وما أنا منهم بالعيش فيهم
أرانب غير أنهم ملوك
بأجسام يحتر القتل فيها
وخيل ما يخر لها طعين
خليلك أنت لا من قلت خلتي
ولو حيز الحفاظ بغير عقل
وشبه الشيء منجذب اليه
ولو لم يعل إلا ذو محل
وإن كانت لهم جث ضخام
ولكن معدن الذهب الرغام
مفتحة عيونهم نيام
وما أقرانها إلا الطعام (١)
كأن قنا فوارسها ثمام (٢)
وان كثر التجمل والكلام
تجنب عنق صيقله الحمام
وأشبهنا بدنيانا الطغام
تعالى الجيش وانحط القتام

* * *

ومن خبر الغواني فالغواني ضياء في بواطنه ظلام

* * *

وما كل بمعذور بخل ولا كل على بخل يلام

وقوله في مديحها :

بروع ركانة وبذوب ظرفاً فما يدري أشيخ أم غلام

* * *

أقامت فسي الرقاب له أياد هي الأطواق والناس الحمام

(١) يقواء : مكثر فيهم الموت ولكنهم لا يموتون الا بالتخمة .

(٢) الثمام : نبات ضعيف .

وقوله في رهط المدحوح :

نصرعهم بأعيننا حياءً وتبوا عن وجوههم السهام

وقوله من أخرى :

أطاعن خيلاً من فوارسها الدهر

وحيداً وما قولي كذا ومعني الصبر

وأشجع مني كل يوم سلامتي وما ثبتت الا وفي نسيها أمر

تترسست بالافات حتى تركتها تقول أمات الموت أم ذعر الذعر

وأقدمت إقدام الأتي (١) كأن لي

سوى مهجتي أو كان لي عندها وتر

ذر النفس تأخذ وسعها قبل بينها فمفترق جاران دارهما العمر

ولا تحسبن المجد زقاً وقينةً فما المجد الا السيف والفتكة البكر

وتضرب أعناق المملوك وأن ترى

لك الهبوات (٢) السود والعسكر المجر (٢)

وتركك في الدنيا دويماً كأنما تداول سمع المرء أنمله العشر

إذا الفضل لم يرفعك عن شكر ناقص

على هبة فالفضل فيمن له الشكر

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذي فعل الفقر

وقوله في أخرى :

أحق عافٍ بدمعك الهمم أحدث شيء عهداً بها القدم

وإنما الناس بالمملوك وما تفلح عرب مذوكهما عجم

• (١) الأتي : السيل

• (٢) الهبوات : الغبرات

• (٣) المجر : الكثير

لا أدب عندهم ولا حسب ولا عهد لهم ولا ذمم
في كل أرض وطئتها أمم ترى يعبد كأنها غنم
يستخشن الخبز حين يلمسه وكان يبرى بظفره القلم

وقوله في مديح أخرى :

كان الهام في الهيجا عيون وقد طبعت سيوفك من رقاد
وقد صغت الأسننة من هموم فما يخطرن إلا في فزادي

وقوله متغزلاً من أخرى :

هام الفؤاد بأعرايبة سكت بيتاً من القلب لم تمدد له طنبا
مظلومة القد في تشبيهه غصناً مظلومة الريق في تشبيهه ضرباً

وبعد : أتري أنني مسرف إذا قلت لك ان فصاحة اللفظ ومثانة التعبير
وجودة المثل وجمال الزخرفة البيانية على اختلاف أنواعها من تشبيه
واستعاره وطباق هي الخصائص التي تمتاز بها لغة أبي الطيب وأسلوبه
حتى في أيام يؤسه وشقائه واضطراب حاله وتشرده ، أما في عهد
الاستقرار النسبي عند سيف الدولة وأقول نسبي لأنه حصل على المال
ولم يحصل على طمأنينة البال ، فقد كان محالماً بجيش من الخصوم والحساد
لا ينقطعون عن الكيد له والطنع عليه . أقول : أما في هذا العهد فقد
ازدهرت تلك الخصائص ازدهاراً باهراً تمثله سيفياته التي سبق أن

أفضيت لك برأبي فيها عند الكلام على مديحه ورويت لك مثلاً منها تكفي
للدلالة على وجهة هذا الرأي وقل مثل ذلك في كافورياته التي رويت
لك منها مثلاً قليلة جداً عند الكلام على وصفه ولكنك تستطيع أن تجدها
في ديوانه وتقرأ منها ما تشاء .

لقد كان على صاحب بن عباد وأشياعه أن يعلموا أنهم باحصائهم
عيوب أبي الطيب وزلاته وغلوهم في هذا الاحصاء انما يضيفون الى
مجده مجداً والى فخره فخراً .

د - خامسة :

يتفق النقاد القدماء على أن أكبر شعراء العربية ثلاثة هم :

أبو تمام والبحري والمتنبى . ويرى أبو العلاء أن أبا تمام والمتنبى
حكيمان والبحري هو الشاعر وعندى أنه لا سبيل للمقارنة بين البحري
وصاحبه لأنه مبرز في نوعين من القريض لم يكونا من رجالهما ألا وهما :
وصف القصور ، والغزل الرقيق .

ولكني لا أجد بأساً في المقارنة بين أبي تمام والمتنبى فكلاهما
صاحب فكر قبل أن يكون صاحب خيال ، وكلاهما رائد معان قبل أن يكون
رائد ألفاظ وكلاهما مؤثر للفظ الفصيح والتعبير البليغ وان كانا يختلفان
من ناحية الزخرفة البيانية فأبو تمام يتكلفها في كثير من الاحيان تكلفاً

والمتمني لا يأتيها في الغالب إلا عفوً وكلاهما مجيد في وصف الحرب
والسياسة وكلاهما بعد كل ذلك صاحب حكم باهرة وأمثال سائرة ،
ولكن يخيل إليّ أن نصيب أبي تمام من هذا كله أقل بكثير من نصيب
صاحبه بل اني أذهب الى أبعد من ذلك فأزعم أنه يختفي تحت شعاع
عبقريّة أبي الطيب كما يختفي القمر تحت شعاع الشمس .

الفصل الثاني

أبو فراس الحمداني

أ - حياته : اسمه ونسبه وكنيته • مولده ونشأته • إتصاله بسيف الدولة •
إمعان هذا في اصطفاؤه وتقريبه • تفانيه في خدمة سيف
الدولة • فساد ذات بينهما • سببه • بعض ما نشأ عنه •
أسره • إساءة الروم معاملته في خرشنه • نقله الى
القسطنطينية • ما لقي فيها من تبجيل ورعاية • عرض فداء
منفرد عليه • رفضه إياه • الإفراج عنه • وفاته •

ب - أخلاقه : كرمه • شجاعته • خفة طبعه • بعض أخباره الدالة
على ظرفه ومرحه • هفواته الثلاث وما تدل عليه •

ج - شعره : ديوانه • طبعاته • غزله • ما كان منه غرامياً وما لم
يكن • رمزيته • مديحه • ما له من القيمة التاريخية •
مثل منه • فخره • ميزته • ما جرى له مع جماعة من
كلاب • وصفه • ما جرى له مع بني جعفر • تصويره •
فخره بحسن سيرته • مثل منه • إخوانياته • مالها من
الدلالة على أخلاقه • مثل منها • روميّاته • على ماذا
تحتوي • مثل منها • لغته وأسلوبه • بعض هفواته •
أمثاله • تشبيهاته • مثل منها •

د - خاتمة : منزلته بين كبار شعراء الفروسية •

أ - حياته :

حدثت في الفصل السابق عن سوقة رفعه الشعر إلى مجالسة الملوك ومعاشرة الأمراء والوزراء ، وأحدثك الآن عن أمير لم يقل الشعر إلا لأنه فنّ من أرفع الفنون ووسيلة من أحسن الوسائل للتعبير عن أغراض البطولة والفروسية ، ومما هو جدير بالذكر أن هذين الشاعرين المختلفي المنبت والمحتد والغاية مدينان معاً بالشيء الكثير من شاعرتهما لشخصية سيف الدولة الجذابة وحروبه وأعماله الباهرة وتشجيعه الأدبي والمادي ، هذا إلى أنهما تخاصما فيه خصومة مرة وتنافساً في عطفه وتقديره تنافساً شديداً ، وما أشك في أنك عرفت الآن أن الأمير الشاعر الذي سيدور حوله البحث هو الحارث بن سعيد بن حمدان المكنى بأبي فراس شاعر الفرسان وفارس الشعراء .

يختلف مؤرخو الأدب القدماء في ولادة أبي فراس بعض الاختلاف فمنهم من يقول إنه ولد سنة عشرين وثلاثمائة ومنهم من يقول إنه ولد سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة . ثم هم جميعاً لا يعنون بسقط رأسه فلا يعينه أحد منهم . ولكن مؤرخي الأدب المحدثين يتلافون هذا النقص فيقولون لنا إنه ولد « بمنبج » وهي مدينة تابعة لحلب (١) . ويخيل إليّ أنه ليس في هذه الأقوال جميعاً ما يمكن الاعتماد عليه والاطمئنان إليه . فما أظن أن أبا فراس ولد سنة عشرين أو إحدى وعشرين وثلاثمائة للهجرة لأنه عاش أربعين سنة بدليل قوله :

(١) خرج علي هذا الأجماع الدكتور سامي الدهان ناشر ديوان أبي فراس و مترجمه إلى الفرنسية فإنه ذهب إلى أن أبا فراس ولد في الموصل .

أبعد الأربعين محرمات تماد في الصبابة واغترار

ولأنه قتل سنة سبع وخمسين وثلاثمائة للهجرة باجماع المؤرخين .
فاذا كان أبو فراس قد عاش أربعين سنة كما يقول هو وإذا كان قد
قتل سنة سبع وخمسين وثلاثمائة كما يقول المؤرخون كافة ، فيجب أن
يكون قد ولد سنة ثمانى عشر وثلاثمائة للهجرة على أقل تقدير . وما
أظن أن أبا فراس ولد بمنبج لأننا إذا تتبعنا تاريخ أبيه في السنوات العشر
الآخيرة من حياته رأينا أن « الموصل » كانت مقره دائماً ولذلك يمكننا
أن نرجح ترجيحاً يشبه الجزم أن أبا فراس ولد في الموصل عاصمة آباءه
وأجداده ومقر ملكهم وعظمتهم . وقد افترض المحدون ان المترجم ولد
بمنبج لأنه كان يحكمها حكماً اقطاعياً ولكن حكمه أياها لا يعني أنه ولد
فيها .

وقد قتل والده في الموصل سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة للهجرة ،
قتله ابن أخيه ناصر الدولة لأنه ضمن الموصل سراً من الراضى بالله وجاء
ليسلمها منه وكان يحكمها بطريق الضمان ، فبعث اليه جماعة من غلمانہ
قتلوه (عصروا مذاكيره) وعلى هذا ، وبصورة باتة ، نشأ ابنه الحارث تيمماً
في الموصل (١) فكفله ابن عمه وزوج شقيقته سيف الدولة ونشأه أحسن
تنشئة ورباه أفضل تربية . وأبو فراس شديد الاعتزاز بهذه النشأة عظيم

(١) يذكر الدكتور سامي الدهان ان والدة ابي فراس طافت به في حواضر
الحمدينين منتقلة بين آمد ، وميافارقين ، وماردين ، والرقه . ديوان ابي فراس
ج ٢ ص ١٠٢ ولا ادري من أين اخذ هذا .

الفخر بهذه التربة وقد ذكرها ونوّه بها في شعره مراراً عديدة فمن ذلك قوله من قصيدة :

وكيف ينتصف الأعداء من رجل المجد أوله والعز آخره
ومن سعيد بن حمدان ولادته ومن علي بن عبدالله سائرته

وعلي بن عبدالله هو سيف الدولة .

ولم تكد سن أبي فراس تسمح بتدريبه على اقتحام المخاطر وخوض المعامع ومعالجة قضايا السياسة والادارة حتى أخذ ابن عمه يستصحبه في غزواته ويستخلفه على أعماله ، مريداً بذلك أن يكون نابغة الحرب والسياسة في وقت واحد كما كان هو . ويحدثنا أبو فراس أنه كان يستغرب كثيراً تعريض ابن عمه لإياه للسيوف والحراب مع أنه يحبه حباً لا مزيد عليه . إلا أنه أدرك سر موقف ابن عمه منه عندما نادى به في مجمع حافل بكبار الأمراء والقواد فارساً مقداماً وبطلاً هماماً مثنياً على شجاعته أحسن ثناء ، مطرباً أقدامه ورسالته أجمل اطراء :

يامن يحاذر أن تمضي عليّ يد مالي أراك لييض الهند تسمح بي؟
وأنت بي من أضن الناس كلهم فكيف تبدلني للسمر والقضب؟
ما زلت أجهله فضلاً وأنكره

وأوسع النفس من عجب ومن عجب

حتى رأيتك بين الناس محتفياً تنني عليّ بوجه غير متّيب (١)
فعتها وعيون الناس ترمقني علمت أنك لم تخطيء ولم أصب

وكان أبو فراس يقابل عطف سيف الدولة الشديد هذا بالتفاني في خدمته والاخلاص لشخصه والذود عن حياض دولته .

يا سيف ، سيف الدولة الماضي إذا

نبت السيوف و خان كل مصمم
لرم الكتاب بي فانك عالم أني أخو الهيجاء غير مذمم
وعلي أن القى الفوارس معلماً وعلو جدك عدتي وعمر رمي
أنا سيفك الماضي وليس بقاطع سيف إذا هو لم يشد بعصم

وقد مكث هذان الاميران المتحابان سنين كثيرة وهما أشبه بأخوين بل بحبيين . حدث الثعالبي في اليتيمة قال : « نظر سيف الدولة ذات يوم الى نفر من جلسائه فيهم أبو فراس وقال لهم : من منكم يجيز هذا البيت ، وليس له إلا سيدي - يريد أبا فراس - والبيت هو :

لك جسمي تعلمه فدمي لم تحله

فأجازه أبو فراس على الفور بقوله :

أنا إن كنت مالكا فلي الأمر كله

فسر سيف الدولة بيت أبي فراس سرورا عظيماً واقطعه ضيعة بمنجى غلتها الف دينار في السنة .

وكان يبدو بعيداً كل البعد أن تفسد علاقة أبي فراس بسيف الدولة ، إلا أن هذا حصل فعلاً . ويحار المؤرخون في تعليل هذه الظاهرة الغربية فيعزوها بعضهم الى كلمة ثقيلة كتب بها أبو فراس من الأمر الى سيف الدولة وهي : « مفاداتي ان ثقلت عليك ائذن لي أن أكتب بها ملوك خراسان » ولكن هذا غير صحيح ، فقد ساءت علاقة أبي فراس بسيف الدولة قبل أن يؤسر .

والذي أراه ، أن علاقتهما ساءت بسبب قتال نشب بين أبي فراس وبين
نفر من الحمدانيين يظهر أنه لم يكن محققاً فيه ولكنه كان يأمل مع ذلك
أن يقف سيف الدولة الى جانبه وينصره على خصمه عملاً بالنظرية
القائلة « أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » إلا أن سيف الدولة خيب أمله
بالاتصاف لخصمه منه فشق عليه ذلك كثيراً وكتب اليه يقول :

قد كنت عدتي التي أسطو بها

ويدي إذا اشتد الزمان وساعدي

فرميت منك بغير ما أملت

فصبرت كالولد التقي لبره

ونقضت عهداً كيف لي بوفائه

وإذاً فقد (رمي) أبو فراس من سيف الدولة بغير ما أمل . وإذاً
فقد فسد قلب أبي فراس على سيف الدولة فساداً لا صلاح بعده أبداً ،
وأصبح هذا يشك في أخلاصه ويرتاب بسلوكه ويصغي الى أقوال الوشاة
فيه وكان هؤلاء وهم من الحمدانيين أنفسهم واقفين له بالمرصاد فكانوا
يوغرون صدر ابن عمه ومربيه وولي نعمته عليه بالحق وبالباطل . وكان
أبو فراس عالماً بما يحاك حوله من الدسائس ولذلك كان يحتدر خصومه
من بني عمه عاقبة عملهم مرة ويهددهم بكشف ما يعرف من أسرارهم
تارة فيقول في تحذيره :

بني عمنا لا تشبوا الحرب بيننا

بني عمنا لا تقطعوا اليد باليد

(١) هكذا يروي العاملي هذا البيت في كتابه « أبو فراس الحمداني » ص ٢٤

ط ١ اما الدهان فيرويه على أن عجزه « وسقيت دونك كأس هم صارد »

ولا شك أن رواية العاملي أكثر ملاءمة واقرب الى الصواب .

ويقول في تهديده :

وعندي من الأخبار ما لو ذكرته إذن قرع المغتاب من ندم سنا

ولكن هذا لم يجده نفعاً ، فقد استمر كيد خصومه له وأشد نفور
سيف الدولة منه واعراضه عنه .

ولم يعمل هو من جانبه شيئاً لتلافي الخطر وإزالة سوء التفاهم ،
فتوترت علاقته بابن عمه ، وأول ما تعرف من آثار هذا التوتر هو أن
سيف الدولة استعرض ذات يوم خيله أمام نفر من بني حمدان فيهم
أبو فراس ، ورغب اليهم أن يأخذ كل منهم الفرس الذي يشتهي ، فأخذ
كل منهم ما أعجبه سوى أبي فراس ، فانه امتنع عن تلبية رغبة ابن
عمه امتناعاً تاماً وقال في ذلك :

غيري غيره الفعال الجفافي	ويحول عن شيم الكريم الوافي
لا أرتشي وداً إذا هو لم يدم	عند الجفاء وقلة الانصاف
تعس الحريص وكل ما يأتي به	عوضاً عن اللحاح والالحاف
إن الغني هو الغني بنفسه	ولو انه عاري المناكب حاف
ما كل ما فوق البسيطة كافيأ	وإذا قنعت فكل شيء كاف
ما كثرة الخيل العتاق بناضي	شيئاً ولا عدد السوام الضافي
خيلي - وان قلت - كثير نفعها	بين الصوارم والقنا الرعاف
ومكارمي عدد النجوم ومنزلي	مأوى الكرام ومنزل الاضياف

وظاهر أن البيتين الأول والثاني تعريض شديد بسيف الدولة ، وأن
الأبيات الأخرى تشير الى ترفع أبي فراس عن عطائه واستطالته بما

عنده من كرم الطبع وعلو المنزلة ونباهة الشأن .

وفي ذات يوم من أيام شوال سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة للهجرة كان أبو فراس في سبعين من رجاله على مقربة من منبع ، فدهمه ألف فارس من الروم ، وأشار عليه أصحابه بالانسحاب أمام هذا العدو المتفوق بعده تفوقاً ساحقاً ، ولكنه رأى أن الانسحاب كائناً سيبه ما كان فرار معيب ، وأقدم على الموت ، إلا أنه سقط جريحاً في المعركة ، ثم أسعف وأخذ أسيراً الى (خرشنة) وهي مدينة رومية على ساحل البحر الأبيض ، فسجن بها مدة من الزمن ثم أخذ الى القسطنطينية ف قضى فيها بقية أيام أسره التي استغرقت نحواً من أربعة أعوام .

وقد استغرب المؤرخون إبطاء سيف الدولة عن تقديم فداء ابن عمه ، ولكن هناك محل للاستغراب ونحن نعلم ما نعلم من فساد علاقة الرجلين ؟ .

وقد زاد أبو فراس في الطين بلة بإرساله الى سيف الدولة في أيام أسره الأولى قصيدة يقول فيها :

تشبت بها أكرومة قبل فوتها وقم في خلاصي صادق العزم واقعد
متى تخلف الأيام مثلي لكم فتى طويل نجاد السيف رحب المقلد
بدافع عن أعراضكم بلسانه ويضرب عنكم بالحسام المهند

وواضح أن هذه اللغة لا يحتملها رجل له أنفة سيف الدولة ومكاته .
يضاف إلى ذلك أن سيف الدولة كان يطلق أسرى الروم نظير إطلاقهم أسرى المسلمين أو نظير فدية . وقد حدث أنه لما وقع أبو فراس

أسيراً في أيديهم كان عندهم ثلاثة آلاف أسير من المسلمين زيادة على من بيد سيف الدولة من أسراهم . وغير مستبعد أن تضيق خزانه الأمير الحمداني ذرعاً بفداء هذا العدد الضخم من الأسرى . فلهذه الأسباب كلها بقي أبو فراس هذه الاعوام العديدة في الأسر .

وصحيح أن الروم أساءوا معاملته في خرشنة فسجنوه في سجن ضيق وألبسوه ثوباً من صوف وكبلوه بالحديد ، الا أنهم أحسنوا معاملته كل الاحسان عندما نقلوه الى القسطنطينية ، فأقروا له داراً خاصة وعينوا له خدماً وعرضوا عليه الفداء منفرداً فأباه . وبلغ من احترامهم إياه أنهم كانوا إذا رأوه طأطأوا رؤوسهم له إعظاماً :

إذا عاينتني الروم كفتّر صيدها كأنهم أسرى لذيّ وفي كبلي

وحسنت مسأله آخر الأمر على يده . ذلك أنه توسط بين القسطنطينية وحلب ، فحمل ابن عمه على مهادة الروم وإعطائهم مائتي ألف دينار هي كل ما يطلبونه نظير إطلاق أسرى المسلمين . وكانت هذه أول هدنة بين الروم وسيف الدولة .

وعاد أبو فراس بمن معه من المسلمين الى بلاد بني عمه سنة خمس وخمسين وثلاثمائة للهجرة ، فسرّ الناس بذلك ولا سيما سيف الدولة سروراً لا حد له .

ولم تطل حياة سيف الدولة بعد الافراج عن ابن عمه . فقد توفي سنة ست وخمسين وثلاثمائة للهجرة ، ثم لم تطل حياة أبي فراس هو الآخر ، فقد قتل سنة سبع وخمسين وثلاثمائة للهجرة في نزاع

دار بينه وبين أبي المعالي ابن سيف الدولة وخليفته في كرسي إمارته .
وقد لخص ابن الأثير حادثة قتله بما خلاصته : أن أبا فراس كان
بحمص فحصلت بينه وبين أبي المعالي وحشة فاستدعاه الى مقابلته
فامتنع وانحاز الى قرية قريبة من حمص اسمها (صدد) فأنفذ إليه أبو
المعالي ثلثة من الجند على رأسها غلام أبيه (قرعويه) وأخذ الجند
على حين غرة فاستأمن أصحابه وكان هو في جملة المستأمنين . الا أن
قرعويه (أو فرعويه) أمر أحد جنوده بقتله فقتله ، وكان ذلك في ربيع
الآخر من سنة سبع وخمسين وثلاثمائة للهجرة . وهناك أقوال مختلفة
تعلق بمقتل أبي فراس لا أرى فائدة في إيرادها هنا .

ب - أخلاقه :

قلت لك ان أبا فراس نشأ يتيماً وان ابن عمه وزوج شقيقته سيف
الدولة تولى تربيته وتعليمه ، وأقول لك الآن إنه في جده وهزله
صورة صادقة من ابن عمه هذا فقد كان فارساً مقداماً وجواداً مفضلاً
أبياً وفيماً صريحاً عف اللسان طاهر اليد خفيف الطبع دمث الروح يستميله
الجمال ولكنه لا يسيطر عليه . ويستخفه الغناء ولكنه لا يصد عنه أداء
شيء من واجباته .

روي أن مغنية بارعة قدمت حلب من بغداد ولم يشأ أبو فراس أن
يستمع بغنائها قبل سيف الدولة فكتب اليه يستحثه على احضارها
والاستماع لغنائها هذه الأبيات :

محملك الجوزاء بل أرفع وصدرك الدهناء بل أوسع
وقلبك الرحب الذي لم يزل للمجد والهزل به موضع

وفضلك المشهور لا ينقضي وفخرك الذائع لا يدفع
رقه بقرع العود سمعاً غداً قرع العوالي جل ما يسمع (١)

ومن هذا القبيل ما يحكي من أن سيف الدولة وعد أبا فراس
باحضار أبي عبدالله بن المنجم والغناء بحضوره ولكنه لم يسارع الى
انجاز هذا الوعد فكتب اليه أبو فراس :

« قد تقدم وعد سيدنا سيف الدولة باحضار أبي عبدالله بن
المنجم والغناء بحضوره وأنا سائل في ذلك ، فان رأى سيف الدولة
أن يتطول بأنجاز ما وعد فعل انشاء الله » وشفع الكتاب بهذين البيتين :
أيا سيداً عمي جوده بفضلك نلت السنا والسناء
وكم قد أتيك من ليلة فنلت الغنى وسمعت الغناء (٢)

فأجابه سيف الدولة بكتاب قال فيه « إنه مشغول بقرع الحوافر عن
المزاهر » ومن نفيس ما كتبه أبو فراس الى سيف الدولة في هذا
الصدد الأبيات التالية :

يا أيها الملك الذي أضحت له جمل المناقب
تتج الربيع محاسناً القحنها غر السحاب
راقت ورق نسيمها فحكت لنا صور الجباب
حضر الشراب فلم يطب شرب الشراب وأنت غائب

(١) يتيمة الدهر ج ١ ص ٢٣ طبعة دمشق

(٢) أبو فراس الحمداني ص ٥٢ الطبعة الاولى .

وقد عز علي الأستاذ السيد محسن الأمين مؤرخ أبي فراس في أعيان الشيعة أن يفرغ أبو فراس الى الشراب ويتحدث عنه وودّ لو يكون كاذباً في هذا شأن الشعراء في كثير من أقوالهم ، ولكني لا أشك في أن أبا فراس صادق في ما حدثنا به عن لهوه ولعبه لأن شعره وأخباره تدل على هذا دلالة صريحة قاطعة . أضف الى ذلك أن أبا فراس يشرح موقفه من الغرام واللهو شرحاً لا لبس فيه ولا ابهام فيقول :

لقد ضلّ من تهوى هواه خريدة وقد ذلّ من تقضي عليه كعب
ولكنني - والحمد لله - حازم أعجز إذا ذلت لهن رقاب
ولا تملك الحسناء قلبي كله وان ملكتها روقة وشباب
وأجري ولا أعطي الهوى فضل مقودي
وأهفو ولا يخفي عليّ صواب

وليس الشراب ولا السماع مما يعاب به أمير مترف أبرز صفاته الشعر والفروسية ، ولكنني أحب أن أحاسب أبا فراس على ثلاث هفوات عاتبه علي بعضها أصدقاؤه وأعداؤه في أيام حياته . هذه الهفوات الثلاث هي أولاً اقدامه على قتال ألف من الروم بسبعين رجلاً ليسوا على استعداد للدفاع عنه . ثانياً ، مناداته باسمه أو كنيته ساعة اشتباكه بالروم في هذه المناسبة ، لأن كشف النقاب عن شخصيته يخري خصومه بالاستماتة في سبيل قتله أو أخذه أسيراً وقد حدث الشق الثاني فعلاً . ثالثاً ، الحاحه بطلب الفداء علي سيف الدولة الحاحاً لا يقدم عليه رجل له مثل بطولة

أبي فراس ورجوليته فليس من شك في ان صدور هذه الهفوات الثلاث
عن أبي فراس يعني أن نصيبه من الأناة والروية وضبط النفس والصبر
على المكروه لم يكن بالدرجة التي يصورها لنا في شعره .

علويته : وأبو فراس علوي الرأي يؤمن بحق آل علي في الخلافة
ويتوجع لما أصابهم ، ويرثي لما حل بهم ويندد بآل العباس ويذكر
عيوبهم ويعدد مساوئهم ويقارن بينهم وبين أقطاب البيت العلوي فيقرر ان
الفرق عظيم بين هؤلاء وأولئك :

ليس الرشيد كموسى في القياس ولا

مأمونكم كالرضا إن أنصف الحكم

ومن رأيه أن قرابة العباسيين من النبي (ص) لا تنفعهم شيئاً لأن
أعمالهم لا تقربهم منه بل إنها تبعدهم عنه مراحل كثيرة .

هيهات لا قربت قربي ولا رحم يوماً إذا أقصت الأخلاق والشم
كانت مودة سلمان له (١) رحماً ولم يكن بين نوح وابنه رحم (٢)

ح - شعره :

لأبي فراس شعر كثير طرق فيه كل باب من أبواب القريض وعاليج

- (١) الضمير في له عائد الى النبي « ع س » الوارد ذكره في بيت سابق .
(٢) هذان البيتان والبيت السابق « ليس الرشيد » الخ من قصيدة عصماء
لأبي فراس يرد بها على محمد بن سكرة الشاعر العباسي المعروف لأنه هاجم
آل علي مهاجمة عنيفة بقصيدة يقول في اولها :
بني علي دعوا مقاتلكم لا ينقص الدر وضع من وضعه

كل غرض من أغراضه مقلداً في بعضها مكثرأ في البعض الآخر (١) . وقد طعت مجموعة من شعره باسم « ديوان أبي فراس » ثلاث مرات في بيروت أسوأ طبع وأردئه وأبعده عن التحقيق والتمحيص . وجمع السيد محسن الأمين العالمي طائفة حسنة منه ضمت قصائد ومقطوعات كثيرة لا وجود لها في الديوان المطبوع في كتابه المسمى « أبو فراس الحمداني » المنشور بدمشق عام ١٩٤١ وعني به أخيراً الدكتور سامي الدهان أحد أدباء سورية عناية صادقة فطبعه طبعة علمية متقنة راجع في سبيل إنجازها كثيراً من نسخ الديوان المخطوطة والمحفوظة في خزائن كتب الشرق والغرب ، فظهر في ثلاثة أجزاء احتوى الجزء الأول منها على ترجمة الديوان الى الفرنسية (٢) ، واشتمل الجزءان الثاني والثالث على متن الديوان منقوشاً بشروح وتعليقات وفهارس كثيرة نافعة . ولو أن الدهان استطاع ان يصدر الديوان بمقدمة أقرب الى التحقيق والضبط من المقدمة الحاضرة لكان عمله فريداً في بابهِ . ومهما يكن من شيء فان عمل الأديب الدهان هذا جدير بالثناء والتقدير .

غزله : رأيت فيما تقدم أن أبا فراس يقول :

ولا تملك الحسنة قلبي كله وإن ملكتها روقه وشباب

ومعنى هذا أن الحسنة تملك بعض قلب الشاعر ، وأنه قد عرف الحب واكتوى بناره وعانى همومه وآلامه . وليس هذا أمراً مستبعداً بالنسبة الى

(١) أحب أن أقدم الى القاري، باني لم ادرس شعر ابي فراس كله وانما اقتصرته منه على ما بدا لي انه جدير بالدرس وهو معظمه .

(٢) ترجم الناشر ديوان ابي فراس الى الفرنسية لأن اخراجه اياه بهذه الطريقة المتقنة هو عمله العلمي الذي نال به اجازة الدكتوراه من السوربون .

أمير خفيف الطبع ، رقيق الشعور ، دقيق الاحساس ، يعرف الجمال
ويتذوقه ويتحدث عنه وفي شعره ما يدل على بعض صلاته الغرامية فهو
يقول :

أساء فزادته الاساءة حظوة حبيب على ما كان منه حبيب
يعد عليّ الواشيان ذنوبه ومن أين للموجه الجميل ذنوب

فواضح أن هذين البيتين يمثلان أميراً محبباً أساء إليه حبيبه فغفر له
وصفح عنه ، بل إن إساءة هذا الحبيب زادته حظوة عنده . ولكنك
إذا نظرت في عامة غزل أبي فراس رأيت أنه غزل جاف تقليدي لا تترقرق
في حواشيه دمهعه ولا تجيش في ثناياه حسرة ، ولك أن تقرأه لتبين
ما في هذا الزعم من الصحة .

ستقول وما رأيك في غزل رائيته الشهيرة التي مطلعها : (أراك عصي
الدمع شيمتك الصبر) والتي يقول فيها :

تسألني من أنت وهي عليمّة وهل بفتى مثلي على حاله نكر
فقلت كما شاءت وشاء لها الهوى
« قتيك » قالت « أيهم فهم كثر »
فقلت لها « لو شئت لم تتعني ولم تسألني عني وعندك بي خبر »
فقلت « لقد ازرى بك الدهر بعدنا »
فقلت « معاذ الله بل أنت للدهر
وما كن للأحزان لولاك مسلك

إلى القلب لكن الهوى للبلى جسر »
فأيقنت أن لا عز بعدي لعاشق وأن يدي ممسا علقته به صفر
وقلبت أمري لا أرى لي راحة إذا هم أسلاني ألح بي الهجر

فعدت الى حكم الزمان وحكمها

لها الذنب لا تجزى به ولي العذر

٢٤

فلا تنكريني يا ابنة العم إنه ليعرف من أنكرته البدو والحضر

ولا تنكريني إنني غير منكر إذا زلت الأقدام واستنزل النصر

وأجيب بآني أزعم أن غزل هذه القصيدة رمزي يدور حول سيف الدولة وموقفه من أبي فراس في الأسر وأن الوعد (١) الذي قال أبو فراس « إن الموت دونه » هو وعد سيف الدولة بفداء ابن عمه وأن قول أبي فراس (تسائلني من أنت وهي عليمه) إشارة بارعة الى قول سيف الدولة « ومن يعرفك بخراسان » .

قد تقول ولكن أبا فراس صريح في مؤاخذه سيف الدولة يعاتبه ويحاسبه في أمر فدائه غير هيب ولا وجل وهو والحالة هذه في غنى عن اصطناع الرموز والألغاز ، وأجيب بأن هذا صحيح ، ولكن الشاعر المتفنن الملمه يلد له أن يعبر عن مقاصده وأغراضه بصور وأشكال مختلفة . ومهما يكن من شيء فإنه اذا صح ما أذهب اليه من أن غزل هذه الرائية رمزي لم يبق من غزل أبي فراس ما يلفت انتباه الباحث على أنه غزل حقيقي .

مديحه : أصدق من غزل أبي فراس مديحه . وما أشك في أنك

(١) يضع بعض الروايات كلمة (وصل) موضع كلمة (وعد) في قول أبي فراس (معلتي بالوعد والموت دونه) واكبر ظني ان ابا فراس استعمل في بيته كلمة (وعد) لا (وصل) .

ستقول : أليكون لأبي فراس ، وهو الأمير الفارس الجواد مديح يقوله
في أحد من الناس ؟

ولكن لا داعي للاستغراب ، فأبو فراس إنما يمدح سيف الدولة ،
وهو إذا مدح سيف الدولة فكأنه يمدح نفسه . ولقد أصاب عندما قال
مخاطباً إياه بهذا الصدد :

ولو لم يكن فخري وفخرك واحداً لما سار عني بالمسائح سائر

إذن لأبي فراس مديح ، وهذا المديح عبارة عن ملحمة يصور فيها
الشاعر رجولية ابن عمه النادرة وبطولته الفذة ، وكرمه الفياض ، ويصف
أعماله وحروبها في الداخل والخارج . فهذه قصيدة تخبرنا أن سيف الدولة
فتح دمشق وأصلح شؤونها ونظم أمورها وأعاد فيها الأمن والعدل إلى
نصابهما . وهذه أخرى تبثنا أنه هزم الدمستق قائد الروم الأعلى هزيمة
منكرة بعدما جرحه وأسر ابنه قسطنطين وعدداً كبيراً من بطارقه . وهذه
ثالثة تذكر لنا أن كلاباً شقت عصا الطاعة فعاقبها سيف الدولة عقوبة
صارمة قضت على حركتها قضاءً مبرأً وشتت شمل رجالها ووقع نساؤها
في قبضته فأمنهن وأكرمهن وعاملهن بأحسن ما يعامل به الكريم الظافر
حرائر بني عمه .

وأحب أن أقف عند هذه القصيدة لأنها فريدة في بابها . فأبو فراس
يخبرنا فيها أن نساء بني كلاب أتنخبن من بينهن سيدة أو فتاة لا ادري ،
ربما كانت اصبحهن وجهاً وأفصحهن لساناً ، وقلدنها مهمة طلب العفو من
سيف الدولة وخرجت هذه حتى أتت الأمير الحمداني وأدت رسالتها
فأبها إلى ملتمسها وأمر ببذل الأمان وردّ ما نهب من الأموال . فلما عادت
فأبها إلى ملتمسها وأمر ببذل الأمان وردّ ما نهب من الأموال . فلما عادت

هكذا ناجحة رابحة استقبلها جيش عرمرم من السيدات والفتيات ، يقدّنها
ويطربنها ويشين عليها ويهتفن بحياة سيف الدولة وحياة العرب • ويظهر
أن هؤلاء الكلابيات قد أعجبن كثيراً أبا فراس ، فهو يقول لسيف الدولة:
إن هؤلاء الجميلات قد سلبن قلوبنا وأسرن نفوسنا وعلى هذا ينبغي أن
يرددن ألبنا قلوبنا ونفوسنا لنرد إليهن ما أخذنا من مآعنهن • وقد
شوّهت هذه القصيدة بنقل معانيها على هذه الصورة ، فأروىها بك كفارة
عن هذا العمل :

وما أنس لا أنس يوم المغار	محجبةً لفظتها الحجب
دعك ذووها بسوء الفعال	لما لا تشاء وما لا تحب
فوافتك تعثر في مرطها	وقد رأيت الموت من عن كنب
وقد خنط الخوف لما طلعت	دلّ الجمال بذلّ الرعب
تسارع في الخطو لا خنفة	وتهتز في المشي لا من طرب
فلما بدت لك دون اليبوت	بدا لك منهن جيش لجب
وما زلت مذ كنت تأتي الجميل	وتحمي الحریم وترعى الحسب
وتغضب حتى إذا ما ملكت	أطعت الرضا وعصيت الغضب
فكنت حماهن إذ لا حمى	وكنت أباهن إذ ليس أب
قولين عنك يقدّنها	ويرفعن من ذيلها ما انسحب
ينادين بين خلال اليبوت	لا يقطع الله نسل العرب
أمرت وأنت المطاع الكريم	بذلّ الأمانى ورد النهب
وقد رحن من مهجات القلوب	بأوفر غنم وأغلى نشب

فإن هن يا ابن الكرام السراة رددن القلوب رددن السلب

وقد أشار أبو فراس الى هذه الحادثة إشارة مرجحة في قصيدة
أخرى وصف بها حروب سيف الدولة وأعماله في الداخل والخارج أروي
لك منها هذه الأبيات :

قد ضح جيشك من طول القتال به وقد شكك إيمان الخيل والابل
وقد درى الروم مذ جاورت أرضهم

أن ليس يعصمهم سهل ولا جبل

فالفنس جاهدة والعين ساهرة والجيش منهمك والمال مبتذل
توهمتك كلاب غير قاصدها وقد تكتفك الأعداء والشغل
حتى اتقتك بفرسان أسنها سود البراقع والأستار والكلل

إذا لم يخطيء ظني فمديح أبي فراس لابن عمه سيف الدولة صورة
صحيحة كاملة لدور من أمجد أدوار التاريخ العربي وأعظمها قدراً وأجلها
شأناً .

فخره : وكما كان مديح أبي فراس سجلاً حافلاً بماثر البطولة
الرائعة وآثارها الخالدة ، كان فخره كذلك . فانه إنما يتحدث فيه
عن جلائل أعماله وأحسن أفعاله ، وعن ماثر بني عمه الحمدانيين
ومفاخرهم حديثاً يصور الواقع وينطوي على الحقيقة في كثير من
الأحيان . فمن أمثلة ذلك أن كلاباً ثارت على سيف الدولة غير ثورتها
التي تقدمت لها الإشارة ، وضربها الأمير الحمداني ضربة قاضية . وولى

العصاة الأذبار ، فمروا في طريقهم ببالس ، إحدى مدن سورية وهناك وجدوا أبا فراس في قلة من أصحابه ، فباغته بالقتال وعليهم « كثير بن عوسجة » وصمد لهم ابو فراس فقاتلهم وهزمهم ، فلما رأوا ما آل اليه أمرهم من الاندحار والانكسار قدموا خضوعهم الى أبي فراس ورجوه أن يلتبس لهم صفح ابن عمه ومغفرته ، فقبل رجاءهم وحمل سيف الدولة على الصفح عنهم والرافة بهم ، وفي ذلك يقول :

سلي عنا سراة بني كلاب ببالس عند مشجر العوالي
لقيناهم بأسيف قصار كفين مؤونة الأسل الطوال
فولى بابن عوسجة كثير وساع الخطو في ضنك المجال
يرى (البرغوث) (١) إذ نجاء منا

أجل ثقيلة وأحب مال
تدور به إماء بني قريض وتسأله النساء عن الرجال
يقلن له السلامة خير غنم وكل الذل في ذلك المقال
وعادوا سامعين لنا فعدنا الى المعهود من شرف الفعال
ونحن متى رضينا بعد سخط أسونا ما جرحنا بالنوال

ومن هذا القبيل ما حدث لأبي فراس مع بني جعفر فقد انتقض هؤلاء على سيف الدولة فوجه اليهم حملة قوية بقيادة أبي فراس وصحبهم هذا فقتل عدداً من رجالهم واستاق ماشيتهم . فلما رأوا نساؤهم عجز رجالهن عن المقاومة خرجن الى أبي فراس يلتسمن عفوه وصفحته فأمر بالكف عن القتال ثم برد ما نهب من الأموال ثم بتعويض بني جعفر من ماله الخاص عن مالم يمكن رده إليهم من أموالهم وفي هذا يقول :

(١) يظهر ان البرغوث اسم حصان الفائر المهزوم .

ولما أطعت الغيظ والجهد ساعة

دعوت بحلمي أيها الحلم أقبل

بنيات عمي هن ليس بريتي بعيد التجافي أو قليل التفضل

شفيع النزاريات غير مخيب وداعي النزاريات غير مخذل

رددت برغم الجيش ما حاز كله وكلفت مالي غرم كل مضلل

فأصبحت في الأعداء أي مدح وإن كنت في الأصدقاء أي معذل

على أن أبا فراس لا يحدثنا في فخره عن كرمه وشجاعته وشدة
بأسه فحسب وانما يحدثنا عن ورعه وصلاحه وحسن سيرته ، فيقول لنا
إنه من العفة بحيث لا يظلم أحداً كما أنه من المنعة بحيث لا يظلمه
أحد . وانه ينصف خصومه من نفسه كما ينصف لنفسه منهم :

لست بالمستقيم من هو دوني اعتداءً ولست بالمستقام

أبذل الحق للخصوم إذا ما عجزت عنه قدرة الحكم

رب أمر عفت عنه اختياراً حذراً من أصابع الأيتام

إخوانياته : وتألني عن إخوانيات أبي فراس فأقول لك انها مظهر

آخر رائع من مظاهر كرمه وششمه وفتوته ومروءته ، فانه يخبرنا فيها أنه

يخدم صديقه اذا حضر ويرعاه اذا غاب ويشكره اذا أحسن ويغفر له اذا

أساء . بل انه يذهب الى أبعد من هذا ، فيتمنى أن يسيء صديقه اليه

ويتجنى عليه ليقابله بالاحسان والغفران . ولنفرض أن أبا فراس يبلغ

في هذا ، فانه يمثل على كل حال مبلغ رغبته في محاسنة اخوانه

ومطابقتهم ، وفي ذلك ما فيه من الكرم والنبيل . اسمع قوله في مسامحة

صديق :

لم أواخذك بالجفاء لأنني واثق منك بالوداد الصريح
فجميل العذر غير جميل وقيح الصديق غير قبيح

وقوله في تحديد موقفه إزاء اخوانه :

ما كنت منذ كنت إلا طوع خلاني

ليست مؤاخذة الاخوان من شاني

يجني الخليل فاستحلي جنايته حتى أدل على عفوي وإحساني
إذا خليلي لم تكثر إساءته فأين موقع احساني وغفراني
يجني عليّ وأخو دائماً لا شيء أحسن من حان على جان

* * *

روميّاته : وماذا يقال عن روميّات أبي فراس ؟

الواقع أنها لباب شعره وصفوة انتاجه ، وقد تحدث فيها عن نكبته
في مختلف مراحلها فوصف في قصيدة لقاء الروم ووقوعه أسيراً في
أيديهم وحث سيف الدولة على الاسراع في مفادته « قبل أن تفوته هذه
الأكرومة » (١) وصور في أخرى سوء حاله في الأثر واستشراء جروحه ،
وتكرر اخوانه له ، وجزع والدته لما أصابه وتفجعها لفراقه (٢) وأشار في
ثالثة الى زيارة والدته سيف الدولة والتماسها منه التعجيل بفسدائه

(١) مطلع القصيدة :

دعوتك الجفن القريح المسهد لدي النوم القليل المشرد

(٢) مطلع القصيدة :

مصابي جليل والعزاء جميل وطني ان الله سوف يدل

وخيتها في ذلك ، واستطرد الى ما يلقي هو واخوانه من أسرى المسلمين في سجون الروم من عنت وارهاق (١) . وعتب في رابعة على سيف الدولة لتعقيه على رسالته التي استذنه فيها بمكاتبة ملوك خراسان في أمر مفاداته بكتابه اليه « ومن يعرفك في خراسان » (٢) . وتغزل في خامسة غزلاً يجلب على ظننا أنه يرمز به الى علاقته بابن عمه سيف الدولة وموقف هذا منه في أيام محنته وأشار الى حادثة أسره ونوه بما أثره ومفاخره ومحاسنه ومحامده (٣) . واستعرض في سادسة حياته وأخلاقه وسعي بعض بني عمه فيه عند عميدهم سيف الدولة وتغافل عنهم وتحدث عن أسره وما نشأ عنه من ضرر بالمصلحة العامة ، وعاتب سيف الدولة عتاباً يجمع بين اللين والشدّة (٤) . وهكذا .

وأحوال أبي فراس كما تصورها روميّاته مختلفة ككل الاختلاف متناقضة أشد التناقض . فمن قوة الى ضعف ، وصبر الى جزع ، ورضى الى سخط ، ولكنها في الغالب أقرب الى الضعف وما يمت اليه بصلة .

وقد يعجبك أن أروي لك مثلاً من هذه المجموعة الخالدة .

(١) مطلع القصيدة :

يا حسرة ما اكاد أحملها آخرها مزعج وأولها

(٢) مطلع القصيدة :

أُسيف الهدي وقريع العرب الام الجفاء وفيه الغضب

(٣) مطلع القصيدة :

أراك عصي الدمع شيمتك الصبر أما للهوى نهى عليك ولا أمر

(٤) مطلع القصيدة :

أما لجميل عندكسن ثواب وما لمسيء عندكسن متاب

اسمع قول أبي فراس وقد أحفظه الدمستق بقوله : انما أنتم كتاب
ولا علم لكم بالحرب :

أتزعم يا ضخم اللغاغيد أننا

ونحن أسود الحرب ، لا نعرف الحربا ؟

فويلك ، من أردى أخذك بمرعش وجلل ضرباً وجه والدك العضا ؟

وكم جمعتنا الحرب من قبل هذه فكنا بها أسداً وكنت بها كلباً !

وويلك من للمحرب ان لم نكن لها

ومن ذا الذي يضحى ويمسي لها تراباً ؟

بأفلامنا أبحرت (١) أم بسيفنا وأسد الشرى قدنا اليك أم الكتبا ؟

رعى الله أوفانا ، اذا قال ذمة وأنفذنا طغناً وأثبتنا ضرباً

وقوله من قصيدة يعاتب بها سيف الدولة :

أمن بعد بذل النفس فيما تريده أتاب بمر العتب حين أتاب ؟

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذي بيني وبينك عمر وبينى وبين العالمين خراب

اذا صح منك الود فالكل هين وكل الذي فوق التراب تراب

وقوله وقد حسنت حاله في الأسر بعد نقله الى القسطنطينية ونجحت
وساطته بين ابن عمه وبين الروم في أمر مفاداة الأسرى وعقد هدنة بين
حلب والقسطنطينية :

(١) أبحرت : لجئت الى الجحر وهو النار .

ولله عندي في الأسار وغيره مواهب لم يخصص بها أحد قبلي
حللت عقوداً أعجز الناس حلها وما زال عقدي لا يذم ولا حلي
إذا عايتني الروم كافر (١) صيدها (٢)
كأنهم أسرى لدي وفي كبلي
وأوسع أياً ما حللت كرامة كأنني من أهلي نقلت إلى أهلي
فأبلغ بني عمي وقل لبني أبي بأني في نعماء ينكرها مثلي (٣)
وما شاء ربي غير نشر محاسني
وأن يعرفوا ما قد عرفتم من الفضل

لغته وأسلوبه : على أنك إذا تأملت شعر أبي فراس وجدت
انه لا يخلو من هفوات قليلة منها قوله : وأنت الذي أهديتني كل
مقصد « يريد عرفتني . فاستعماله أهدى بمعنى هدى خطأ كان في إمكانه
تحاشيه ، ومن يدري لعله لم يقع فيه وإنما وقع فيه الرواة . ومنها
قوله : « ومن خطب الحسنة لم يغل المهر » فان قوله : « لم يغل
المهر » لا يعبر عن قصده ، هو يريد أن يقول : ان من خطب الحسنة
أدى مهرها وان كان غالباً ولكن الجملة المذكورة لا تؤدي هذا ، ولو
أنه قال ومن خطب الحسنة لم يشه المهر لكان كلامه صحيحاً وواضحاً .
ومنها قوله :

هل تعطفان علي العليل لا بالأسير ولا القليل

(١) كفر : أحنى رأسه تعظيماً .

(٢) الصيد : جمع الصيد : وهو الرافع رأسه كبراً

(٣) في رواية هذا البيت خلاف بين العاملي والديوان طبعة الدمان وقد

آثرت رواية العاملي

فانه ينفي في هذا البيت أن يكون أسيراً كما ينفي أن يكون قتيلاً .
مع أنه كان أسيراً دون أدنى ريب ولا ادل على ذلك من انه بعث
بالقصيدة التي استهلها بهذا البيت الى سيف الدولة من خرشنة وتنص
الروايات جميعاً على أنه نظم هذه القصيدة وقد ساءت حاله في الأسر .
ومنها قوله :

كلما أبلت الديار الليالي كان ذاك البلى عليّ بلاءً

فليس من شك في أن هذا البيت نظم للجمع بين كلمتي بلى وبلاء
في مجازة غثة . ولكن هذه الهفوات ليست من الكثرة بحيث تفض من
شعر أبي فراس وتحط من شأنه . وخصائص الشاعر الغالبة عليه هي
فصاحة اللفظ ومثانة السبك وجمال التعبير . وقد مرّ بك من شعره
ما يمثل هذه الخصائص تمثيلاً تاماً . ومما تجب الإشارة اليه في هذا
المقام أمثال أبي فراس التي يرصع بها كلامه من حين لآخر ومنها قوله :
ومن أضيع الأشياء مهجة عاقل يجوز على حوابعها حكم جاهل

وقوله :

وما أخوك الذي تدنو منسبه لكن أخوك الذي تصفو ضمائره

وقوله :

لعمرك ما الأبصار تنفع أهلها إذا لم يكن للمبصرين بصائر
وهل ينفع الخطي غير مثقف وتظهر إلا بالصقال الجواهر

ومن أمثاله الشهيرة قوله :

إذا مت عطشاناً فلا نزل القطر

وقوله :

وفي الليلة الظلماء يفترق البدر

وقوله :

وللناس فيما يعشقون مذاهب

وقوله :

إن الغني هو الغني بنفسه ولو انه عار المناكب حاف
ما كمل ما فوق البيطة كفاً فاذا فتعت فكل شيء كاف

ولم يكن أبو فراس من شعراء التشايبه ومع ذلك فان له تشايبه قليلة
ولكنها رائعة منها قوله :

أنظر الى زهر الربيع والماء في برك (البديع) (١)
واذا الرياح جرت عليه ه في الذهب وفي الرجوع
ثرت على بيض الصفا نوح بينا حفق الدروع

وقوله :

والماء يفصل بين زهر - الروض في الشطين فصلا
كساط وشي جردت أيدي القيون (٢) عليه نصلا

وقوله :

والبدر منتصف الضياء كأنه متبسم بالكف يستر فاه

(١) البديع : اسم بستان .

(٢) القيون : جمع قين وهو الصقل .

دخاعة -

أبو فراس شاعر فارس يؤيد أقواله بأعماله وتبرر بسالته حماسته ،
وهو يعيد برجوليته الصادقة وشعره المتين العجزل الى الذاكرة ما يتحدث
به الناس عن مهلهل ابن ربيعة وعمرو بن كلثوم وعمتر العبيسي من
شجاعة خارقة ، وشهامة نادرة ، وشاعرية فذة . الا أنه يفضل أولئك
الشعراء الفرسان بدقة تفكيره ولطافته تعبيره وتطرقه الى كثير من
الأغراض التي لم تخطر لهم على بال .

الفصل الثالث

الشريف الرضي

أ - حياته : اسمه ونسبه وكنيته ولقبه • مولده • نشأته وتعليمه • بعض أساتذته • نبوغه المبكر في قرض الشعر • مثل من أوائل شعره • حفظه القرآن • توليه نقابة الطالبين للمرة الأولى • تطلعه الى منصب الخلافة • تنبؤ أبي اسحق الصابي له بصيرورته خليفة • تعقيه على هذه النبوة • مناوشات صريحة بينه وبين القادر بالله • استقالته من نقابة الطالبين • قبولها • جمع عدة مناصب خطيرة له بينها النقابة • برمه بها جميعاً • كلفه بالحياة العقلية • وفاته • من رثاه من الشعراء • قبره •

ب - أخلاقه •

ج - آثاره : ما نشر منها وما لم ينشر • شعره • غزله • سر تفوقه فيه • العناصر التي تغذيه • المثلث الفذ • رثاؤه • جودته • كثرته • بماذا يمتاز • مثل منه • فخره • أهناك ما يبرره • موضوعاته • ما فيه من تحفظ • مديحه • أغراضه • مثل منه • لغته واسلوبه • تأثرهما بدراساته وتأليفه • مشخصاتهما • ملائمه لغته لموضوعاته • اعتداله في استعمال المحسنات البيانية • اقتصاره في كثير من شعره على موضوع واحد •

د - خاتمة : منزلته بين شعراء اللغة العربية •

أ - حياته :

والآن لتتحدث عن شاعر نبيل آخر لا يشك أحد في أنه أشرف
نسباً وأوفر أدباً وأجود شعراً وأعمق اثرًا في الأدب العربي من أبي
فراس .

هذا الشاعر النبيل هو الشريف أبو الحسن الرضي (١) محمد بن
الحسين الملقب (بالظاهر ذي المناقب) الذي تولى نقابة الطالبين وامارة
الحاج وزعامة ديوان المظالم مراراً عديدة (٢) وأمّه فاطمة بنت الحسين
بن الحسن الملقب (الناصر الأصب) أو (الأطروش) وهو ملك بلاد الديلم
والجبل المتوفى عام ٣٠٤ للهجرة . ونسب كل من أبويه ينتهي إلى
الحسين بن علي عليهما السلام .

(١) لقبه القادر بالله « الرضي ذا الحسين » ٣٩٤ هـ كما لقب اخاه في
نفس السنة « المرتضى ذا المجدين » .
(٢) للشريف الرضي في ابيه شعر كثير من احسنه عندي هذه الأبيات التي
يرسم فيها صورة صادقة لكفايته النادرة وشخصيته الممتازة وأثره الحسن في
سياسة الدولة قال :

مقدم مجد اول ومخلف	وعذا ابي الأذنى الذي يعرفونه
وأشئوا على حز الرقاب وأشرفوا	مؤلف ما بين الملوك اذا هنوا
وان قال مهلا بعض ذا الجد وقفوا	اذا قال ردوا غارب الحلم راجعوا
واعرض منه الجانب المتخوف	وبالامس لما مال قادر ملكهم
وأسمح لما قيل لا يتألف	تلافاه حتى سامح الضغن قلبه
وبين بهاء الملك يسعى ويلطف	وكان ولي العقد والعهد بينه
ومد لهم جبل من الغدر محصف	ولما التقى نجوى عقيل لنسوة
ولو لسواه استعطفوا ما تعطفوا	لوي عطفه لي القنى رقابهم
فهت ونام العاجز المتضعف	وسل مضراً لما سما لديارها
فأبقى ورد البيض ظمى تلهف	تولجها كالسيل صلحاً وعنوة
	الخ الخ . . .

ولد ببغداد عام ٣٥٩ للهجرة ونشأ في كنف والده الجليل أفضل نشأة وأحسنها وتلقى علوم اللغة والدين على جماعة من خيرة علماء العصر منهم ابن السيرافي النحوي المشهور ، وأبو الفتح عثمان بن جني الذي صار فيما بعد من المعجبين بفضله وأدبه (١) ومحمد بن النعمان كبير علماء الأمامية في القرن الرابع للهجرة وصاحب الارشاد والملقب « بالمفيد » (٢).

ولسنا نعلم بالضبط متى قال الشعر ولكن من الراجح جداً أنه نظمه وأجاد في نظمه قبل بلوغه العاشرة ، تدلنا على ذلك قصيدة له رائعة تفجج فيها لاقصاء والده عن أعماله واعتقاله في فارس سنة ٣٦٩ للهجرة، ينص الديوان على أنه قالها « وسنه فوق العشر بقليل » وأنا اروى لك مثلاً من هذه القصيدة لتبين مبلغ نبوغ ذلك الصبي الممتاز قال :

(١) برهن ابن جني على هذا الإعجاب بشرحه رائية الشريف التي مطلعها :
القي السلاح ربيعة بن نزار أودي الردي بقريك المغوار
والتي يرثي فيها ابراهيم بن ناصر الدولة الحمداني وقد عرف له الشريف
هذا الفضل فمدحه بقصيدة بليغة مطلعها :

أراقب من طيف الحبيب وصالا وياأبي خيال أن يزور خيالاً
ورثاه عند موته بقصيدة رقيقة مطلعها :

ألا يا لثومي للخطوب الطوارق وللعلم يرمى كل يوم بعارق
(٢) من طريف ما يحكى بصدد أخذ الرضي العلم عن المفيد ان الأخير
رأى في منامه كأن فاطمة الزهراء عليها السلام دخلت عليه وهو في مسجده
فقدمت اليه الحسين وطلبت اليه ان يعلمهما ويفقههما ، فأستيقظ وقد ملأه العجب
من هذه الرؤيا الغربية . فلما أصبح وجلس للتدريس في مسجده دخلت عليه
فاطمة أم الرضي والمرتضى في جماعة من جواربها وقدمت اليه ولديها طالبة اليه
ان يعلمها ويفقهها . فبكى بكاء شديداً وقص عليها رؤياه ووعداها ان لا يدخر
ومسأ في سبيل تنقيف ولديها (شرح ابن ابي الحديد الجزء الاول الصفحة ١٣ -

١٤ طبع دار الكتب العربية الكبرى بمصر .)

نصافي المعالي والزمان معاند وتنهض بالآمال والجدّ قاعد

منها :

أيا غدوة ساء الحسين صباحها
لحققت عندي أن كل صبيحة
يعرفك الاخوان كل بنفسه
وطاغ يعير البغي غرب لسانه
وسرّ العدى فيها الزمان المعاند
مجانحة سمّ والليالي أسود
وخير أخ من عرفتك الشدائد
وليس له عن جانب الدين ذائد
صموتاً وفي أنيابه القول راقد
وناصرک الرحمن والمجد عاضد
ألا نزهت تلك العظام البوائد (١)

ومنها :

تفرّد بالعلياء عن أهل بيته وكل يهاديه الى المجد والد
وتختلف الأشجار (٢) في ثمراتها
إذا شرقت بالري والماء واحد

قد تقول ولكن الا يمكن أن يكون الشريف قد هذب هذه القصيدة
عندما شب أو اكتهل وأدخل فيها هذه الخواطر الرائطة والحكم الباهرة؟
وأجيب بأنني لا أميل لمثل هذا الفرض لانه لو فعل ذلك لنقاها من

(١) تشير الابيات الأربعة المنتهية بهذا البيت الى قول المطهر وزير عضد
الدولة لوالد الشريف عند الفاء القبض عليه « كم تدل علينا بالعظام النخرة » .
(٢) في الديوان طبعة بيروت (الآمال) والصواب ما اثبتناه . على أنني احب أن
أسجل ان في هذه الطبعة كثيراً جداً من امثال هذا الخطأ وسأصحح كل
ما يتيسر تصحيحه منها اعتماداً على مصادر مخطوطة على ان أذكر الخطأ الوارد
في الديوان وان أشير الى هذه الطبعة بـ رمز (ط . ب) .

هذا البيت :

ضجرت من العلياء فاخترت عزلها كأنك قد أفنت نذاك المحامد

ومن هذا البيت الذي يفيض تحذلقاً :

منيت بشوق ينحر الدمع سيفه اذا حادثته بالصقال المعاهد

ولو فعل ذلك لأشار اليه كما أشار الى تهذيبه قصائد عديدة قالها
في أيام حدائته منها قصيدة مطلعها :

المجد يعلم أن المجد من أربي ولو تماديت في غبي وفي لعب

* * *

ولكن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . على أن المترجم حفظ القرآن
بعد ان جاوز الثلاثين .

وكما نبغ صاحبنا في قرض الشعر قبل بلوغه العاشرة نبغ كذلك في
بلوغ المناصب السامية والمراكز الرسمية الممتازة في وقت مبكر جداً ،
فقد ولي نقابة الطالبين في حياة والده الطاهر وأخيه المرتضى ولما يتجاوز
الحادية والعشرين ينص على ذلك الثعالبي في اليتيمة (١) والديوان في
مقدمة قصيدة مطلعها :

الآن أعربت الضنون وعلا على الشك اليقين

نصاً لا غموض فيه ولا إبهام ويظهر أن هذا النجاح الرائع المبكر
حدى بصاحبنا الى أن يمعن في الجري وراء أمانيه العالية وآماله الواسعة
البعيدة المدى ، فأخذ يفكر في الاستيلاء على الخلافة :

(١) يتيمة الدهر للثعالبي من ٢٩٨ طبعة دمشق .

لو كنت أقنع بالنقابة وحدها لغضضت حين بلغتها آمالي
لكن لي نفساً تتوق إلي التي ما بعد أعلاها مقام عالي

ورأى أبو اسحق الصابي - الكاتب والشاعر المعروف والذي كان
صديقاً حميماً له - علو همته وسمو مواهبه وسعة مطامحه وسرعة تقدمه
فتنبأ له بالخلافة وسأله أن يذكر له هذه النبوة و (أن يحفظه في أولاده
وأهله متى تحققت) :

أبا حسن لي في الرجال فإسفة نعوت منها أن تقول فتصدقا
وقد خبرتني عنك أنك ماجد سترقى من العلياء أبعد مرتقى
فوفيتك التعظيم قبل أوانه وقلت أطال الله للسيد البقا
وأضمرت منه لفظة لم أبج بها الي أن أرى إطلاقها لي مطلقا
فإن عشت أو إن مت فاذاكر بشارتي

وأوجب بها حقاً عليك محققاً
وكن لي في الأولاد والأهل حافظاً

إذا ما اطمأن العجب في مضع البقا (١)

• • •

وقد أجاب الشريف أبا اسحق على هذه الأبيات بقصيدة مطولة أروي
لك منها قوله :

سنت لهذا الرمح غرباً مذلتنا وأجريت في ذا الهندواني رونقا
وسومت ذا الطرف الجواد وانما شرعت له نهجاً فخب وأعنتنا
لئن برقت مني مخسايل عارض بعينك تقضي أن وجود ويهدنا
فليس بساق قبل ربعك مربعاً وليس براق قبل جوك مرتقى

(١) هكذا في شرح ابن أبي الحديد . وفي الديوان (ط . ب) موضع (بقا) (لقا)
وقد انكر أبو اسحق ان يكون قد قال هذه الأبيات في الشريف عندما شاعت،
وادعى انه قالها في أبي الحسن علي بن عبدالعزيز حاجب النعمان

ومضى صاحبنا في غلوائه حتى خاطب (القادر بالله) بقوله في قصيدة
مدحه بها سنة ٣٨٢ هـ :

عطفاً أمير المؤمنين فأنسا في دوحه العلياء لا تفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت أبداً كلانا في المفخر معرق
إلا الخلافة ميزتك فأنني أنا عطل منها وأنت مطوق

...

ويقال ان الخليفة العباسي عقب على هذه الأبيات بقوله (على رغم
أنف الشريف) وليس هذا مستبعداً . على أن الشريف لم يلبث أن ضاق
ذرعاً بمنصبه نظراً لما يلقى فيه من أوصاب ويعاني من صعاب ومشاكل .
فان ديوانه يحدثنا بأنه قدّم استقالته من نقابة الطالبين وكررها وأصر
عليها سنة ٣٨٤ للهجرة وذلك في مقدمة قصيدة يقول فيها مخاطباً نفسه :

محمد طالما شمّرت فيها فدونك فاحب الذيل الرقلا
ونم مستودعاً صوناً وأمناً فقد أسلفتها جزعاً وثكلاً
فان أتبع هذا الامر لهفأ فانك أعزب الثقلين عقلاً
يراه المستغر علي طوقاً فيغبطني به وأراه غلاً

...

ولكن القائمين بالامر كانوا أحرص على الانتفاع بكفائته من أن
يتركوه يحيا حياة الهدوء والعزلة . فقد أعادوا اليه نقابة الطالبين وأضافوا

اليها اماره الحاج وزعامة ديوان المظالم سنة ٣٨٨ للهجرة فيما يقول ابن خلكان (١) . وأقوال المؤرخين في تاريخ توليه هذه الاعمال ، مضطربة متناقضة . ولذلك رأيت أن أقصر على رواية ابن خلكان الآنف ذكرها .

على أنه مما لا شك فيه أن الشريف كان شديد الضيق بالتبعات الجسم الملقاة على عاتقه يبرم بها ويتدمر منها ، ولا أدل على ذلك من هذه الأبيات التي اقتطفها لك من قصيدة رجا فيها بهاءالدولة البويهى أن يريحه من تحمل أعباء هذه التبعات ، قال :

يا ملبسي النعمى التي أورقت	عودي مراراً وكست أعظمي
ومطاعي في رأس عادية	نخساً طرف الجذع الأزلم (٢)
نزع العلى عني كالباسها	والغنم بالبذلة كالمغرم
أكرم عنها وبها مرة	كلاهما عندي من الانعم
وكيف نوم المرء من تحته	دون الكرى مضطرب الأرقم
بين خصافي نعله شوكة	إن شدد الوطاء عليها دمي
فاملك بها رقي وحرر بها	عنقي ورق الحر للمنعم
وحز بها ما بقي العمر لي	صفاء قلبي وصفايا فمي
غوثك منها يا غياث الورى	قد ثقل العبء على المهرم (٣)

النخ الخ . . .

• • •

(١) وفيات الاعيان ج ٢ ص ٢ طبعة المطبعة الميمنية بمصر .

(٢) عادية بناية عالية والجذع الأزلم الدهر .

(٣) المهرم أقصى الكبر .

يد أنه مما يجب التتويه به أن هذه الحياة المحافلة التي يحيهاها الشريف لم تكن لتعوقه عن ممارسة أشغاله العقلية الجليلة ، فقد كان يدرس ويفكر ويؤلف ويقول الشعر كما لو كان متفرغاً لهذه الأمور تفرغاً تاماً . وسيرم بك عند الكلام على آثاره ما يؤيد هذا كل التأييد . وقد لا أعلو اذا لاحظت أن كثرة أشغاله العلمية والأدبية والسياسية والإدارية هي التي عجّلت بوفاته فقد توفي رحمه الله سنة ٤٠٦ للهجرة (١) ولما تتجاوز سنة السابعة والأربعين . وقد رثاه شعراء عصره وفي مقدمتهم تلميذه الوفي مهيار الذي رثاه بقصيدتين رناتين سأروي لك مثلاً منهما عند الكلام على رثائه في الفصل القادم . ويجمع مؤرخو الرضي على أنه دفن بداره في مسجد الأنباريين بالكرخ الا أن صاحب عمدة الطالب يقول انه نقل الى كربلاء حيث دفن بجوار قبر أبيه في حرم جده الحسين عليه السلام (٢) وليس ثمة ما يؤيد هذا القول . وقد لا يخلو من فائدة أن أقول لك ان للشريف قبراً معروفاً في الكاظمية ولكن ليس هناك ما يدل على أنه حقيقة قبره .

ب- أخلاقه :

يؤكد مؤرخو الشريف بالاجماع أنه مثل فذ في أحاسن السجايا وأطابب الأخلاق ، فهو رمز الآباء والأئمة وعنوان المروءة والعفة ،

(١) يتفق مؤرخو الشريف على انه توفي سنة ٤٠٦ للهجرة باستثناء ابن أبي الحديد فانه يدعب الى ان وفاته كانت سنة ٤٠٤ هـ .
(٢) عمدة الطالب طبعة النجف ص ٢٠٠

ورجل الشجاعة والشهامة ، تلتقي في شخصه النيل خفة روح الأديب
بعفة الناسك المتشف وأريحية الشاعر الهائم في أودية الخيال بالمعينة
الأدري الحازم القمين بمعالجة عظام الأمور . ولولا اجتماع هذه
المزايا النادرة المتضادة في شخصه لما آثره ولاة الأمور بأرفع المناصب
السياسية والأدارية والدينية وأخوة الشريف المرتضى الذي يفضله
علماً ويكبره سناً على قيد الحياة .

ح- آثاره :

وكما كان الشريف رجل السياسة والفضيلة الذي يشار إليه بالبنان
كان علماً من أعلام الحركة العقلية في القرن الرابع للهجرة . فقد ألف
في التفسير والحديث والتاريخ والنقد وغير ذلك كتباً كثيرة وصلنا بعضها
ولما يزل بعضها الآخر في طيات الخفاء واليك نبذة كتبه كما يستخلصه
من كتابي عمدة الطالب والمجازات النبوية وهي :

- ١ - أخبار قضاة بغداد .
- ٢ - تلخيص البيان عن مجازات القرآن .
- ٣ - الحسن من شعر الحسين : وهو مجموع يحتوي على المختار من
شعر الحسين بن الحجاج .
- ٤ - حقائق التأويل في مشابه التنزيل ، وهو كتاب ضخيم نشر الجزء
الخامس منه في النجف عام ١٩٣٦ .
- ٥ - خصائص الأئمة .
- ٦ - ديوانه وهو في جزئين ضخمين طبع مرتين كانت الأخيرة منهما في
بيروت عام ١٩١٠ للهجرة .
- ٧ - رسائله وهي في ثلاثة أجزاء .

٨ - الزيادات في شعر أبي تمام .

٩ - سيرة والده .

١٠ - المجازات النبوية وهو كتاب جليل يحثوي على ٣٦٠ حديثاً نبوياً
يشتمل كل منها على (مجاز طريف أو كناية دقيقة) وقد طبع ببغداد
سنة ١٣٢٨ للهجرة طبعة سقيمة وبمصر عام ١٣٥٦ هـ طبعة علمية
متقنة أنجزها الاستاذ محمود مصطفى « مدرس الأدب بكلية اللغة
العربية من الجامعة الأزهرية » (١) .

(١) للأستاذ محمود مصطفى كلمة طريفة في اطراء فائدة هذا الكتاب وبيان
أهميته أحب ان اقتطف لك منها ما يلي قال : « وقد كنا قبل ذبوع هذا
الكتاب لا يكاد الأديب - مهما بلغ من الأطلاع - يجمع من ذلك عشرة او
دونها . الست تراهم في مقام الاحتجاج لفضل رسول الله في البلاغة وتصريفه
لأعنة الفصاحة لا يذكرون الا قوله عليه الصلاة والسلام « اياكم وخضراء الدمن »
وقوله « هدنة على دخن » وقوله « الآن حمي الوطيس » وقوله « ان من البيان
لسحراً » الى قليل مما اقتصرت عليه الكتب المتداولة بيننا .

فأما هذه الكثرة المستفيضة فاننا لم نعيدها في غير هذا الكتاب ولا لغيرها
هذا العالم الجليل الذي رأى من البر بجدته ان يذيع فضله على هذا النحو الذي
تراه في كتابه .

ولم يكتف رحمه الله بايراد هذه الآثار سرداً لا تعقيب معه بل انه جلا
محاسن هذه الآيات بشرحها وبيان مبلغ البلاغة فيها . ولقد جاء هذا الصرح
فائدة للمطلع على الكتاب ، فهو لا يزال متنقلاً من تحقيق لغوي الى تطبيق على
علم البلاغة الى سياق الشاهد من كلام العرب . اما ما يجنيه القاريء من الحذق
والتوسع في الفهم والتقليب للأساليب على وجوهها المعتبرة في نظر البليغ —

١١ - نهج البلاغة : وهو سفر معروف يحتوي على منتخبات من
خطب الامام علي (ع) وكتبه وحكمه طبع في مصر وايران طبعات عديدة
مشفوعاً بشرح ابن أبي الحديد مرة وشرح الشيخ محمد عبده تارة ومجرداً
من كل شرح طوراً .

وما أريد أن أتحدث اليك عن كتب الشريف التي هي الآن في
متناول يدي ، فليس عندي ما أضيفه الي ما قيل فيها من قبل . ولكني
أود أن أحدثك عن شعره وهو كثير ، متعدد الأبواب متنوع المقصد
والأغراض . أرجو أن أحدثك فيما يلي عن اهم اغراضه وانواعه .

غزله : قدمت أن الشريف الرضي كان نقيماً للمطالبين وأميراً للنجاج
وزعيماً لديوان المظالم ، وجمع هذه المناصب له يعني أنه رجل فقه
وإفتاء ، ورجل جدٍ وعمل ، وبعبارة أخرى رجل دين من الطراز الاول .
وغني عن البيان أن رجال الدين آخر من ينتظر منهم صوغ قصائد النسيب
والتغني بصبايات الحب والهيام ، إلا أن الشريف الرضي مع ذلك شاء
عزل منقطع النظير أو قليله على أقل تقدير في تاريخ الأدب العربي فما
أظن أن أديباً سليم الذوق مرهف الحس يجد فيما يصح من شعر كبار
الشعراء العشاق كجميل بثينة وبيس بن ذريح وبيس بن الملتوح أو في

— فذلك اجلي ما يتجلى في هذا الشرح . واجدي ما يجديه المؤلف على
الناظر في كتابه . فانه يخرج من طول الممارسة للفهوم المختلفة من
الأسلوب الواحد والموازنة بينها . وتفضيل الفاضل منها والحكم على راجحها
ومروجها يخرج من كل ذلك بملكة صناع هي عادة الأديب في ممارسة كلام
العرب والتذوق لمحاسنه . . المجازات النبوية ص ٥٥٤ طبعه مصطفى البابي
الحلي بمصر .

قصائد عمر بن أبي ربيعة أو في غراميات ابن زيدون نفسه غنى عن نسيب الشريف الحافل بضروب العواطف والانفعالات وصنوف الأشواق والصبابات ومعلوم أن ينبوع الغزل الأصيل الذي يهز الحس ويحرك الشعور وينفذ إلى قرارة النفس إنما هو الحب والحب فقط ! فهل ذاق الشريف لوعة الحب ؟؟ .

انه لمن العبث ومن البله في وقت واحد أن نطلب إلى التأريخ الاجابة على هذا السؤال . فما كانت تقاليد القرن الرابع للهجرة لتسمح أن يسجل التأريخ على رجل له حسب الشريف الرضي وعلمه ومكاته الدينية أنه عشق امرأة حسناء أحلها من نفسه أسمى محل وخضع لسلطان جمالها القاهر أتم خضوع ، ولكن ان جهل التأريخ هذا أو علمه ولم يجروا على تدوينه فان الشريف قد دونه لنا في شعره غير هباب ولا وجل . فقد قال لنا بصريح العبارة انه اصطلى نار الحب وأصلاها نفس الانسان الذي قدح زندها بين جنبيه والا فما معنى قوله :

يشكو الحبيب اليّ شدة شوقه وأنا المشوق وما يبين جناني

وقوله :

لك الله من مطلولة القلب بالهوى قتيلة شوق والحبيب قريب
أقل سلامي إن رأيتك خيفةً وأعرض كيما لا يقال مريب (١)
وأطرق والعيان يومض لحظها إليك وما بين الضلوع وجيب

(١) لم تعد هذه العبطة على الشريف بالنتيجة المتوخاة لأنه لم يكن عو وجيبته بما من من اقوال الوشاة وتهم المرجفين وعو يعترف بذلك في نفس القطعة :

يقولون مشغوف الفؤاد مروع ومشغوفة تدعى به فنجيب
وما علموا أنا على غير ريبة بقاء الليالي نفتدي ونوؤب

فواضح أن للشريف في البيت الأول (حيياً يشكو إليه شدة الشوق) وفي الأبيات الأخرى حبيبةً (قتلها الشوق إليه) على قرب دارها منه ، وهو يلقاها من حين لآخر ولكنه يحييها باختصار ويتظاهر بالأعراض عنها تجنباً لاثارة الشبهات . « ويطرق » اذا لقيها « وعيناه تومضان » نحوها . وهذه معان لا تجدها في نسيب أي شاعر آخر . وهي ان دلت على شيء فانما تدل على حب حقيقي متقابل وغرام متبادل بين الشريف وبين هذه الحسنة . وقد لا أكون بعيداً كل البعد عن الحقيقة اذا لاحظت أن هذه الحبيبة الفتاة التي تحدت عنها الشريف فيما سلف هي التي يعينها بقوله :
ومقبل كفي وددت لو أنه أومى إلي شفتي بالتقيل
جاذبه فضل العتاب وبيننا كبر الملول وذلة المملول
ولحظت عقد نطاقه فكأنما عقد الجمال بقرطق (١) محلول
جدلان ينفض من فروج قميصه أعطاف غصن البانة المطلول
من لي به والدار غير بعيدة من داره والمال غير قليل

وفي هذه الأبيات اعتراف آخر بعلاقة غرامية أكيدة وإلا فأبي شاعر يتحدثك عن حبيته فيقول لك انها قبلت يده . هذا الى أن الشريف يفصل بقوله : (من لي به والدار . . البيت) بما أجمل بقوله (قتيلة شوق والحبيب قريب) . والواقع أن هذه الاعترافات الصريحة ثبت بصورة لا تقبل الجدل أن بطلة هذا النسيب لم تكن من عرائس الخيال وانما كانت من

(١) قرطق كجندب لبس معروف معرب كرتة .

بنات حواء وأنها عاقرت الشريف كأس الحب وشاطرته آلامه وأشجانه،
وقد عرفنا موقفه منها فيما سبق وهو موقف تكتفه الحبيطة ويسوده التحفظ
فما موقفها هي الأخرى منه؟ اننا اذا سألناه عن ذلك أجاب بأنها لا تقل
عنه حرصاً على الكرامة واعتداداً بالنفس ومحافظةً على الشرف: (وصونك
من دون الرقيب رقيب) .

أحبك حباً لو جزيت بعضه أطاعك مني قائد وجنيب

* * *

جاذبته فضل العتاب وبيننا كبر الملول وذله المملول

هي إذن عاشقة معشوقة ومقامها يستدعي أن تلقى الشريف من حين
لآخر وان تقبل يده اجلالاً واعظاماً ، ولكنها مع ذلك لا تتيله شيئاً
سوى الصدود والاعراض . وقد رأيت أن صاحبنا يطلب منها الجزاء فما
تظن أنه يطلب؟ اننا اذا صدقناه ولا مانع لدينا من تصديقه فانه لا يطلب
سوى النظرة الزهية البريئة :

عشقت ومالي يعلم الله حاجة سوى نظري والعاشقون ضروب

وبعد : ألا تظن أن بين قول الشريف (أقل سلامي ٠٠٠ البيت) وقوله :

ولقد أطلت الى سلوك شقتي وجعلت هجرك والتجنب زادي

قراءةً محكمة الأواصر؟ وأن لقوله (جاذبته فضل العتاب ٠٠٠ البيت)
صلة أي صلة بقوله :

كم ليلة جرّته في طولها غصص الملام وموّلم التفرّيع

تفلي أنامله التراب تعللاً وأناملني في سني المقروع

لو حيث يستمع السرار وقتما لعجبتما من عزه وخضوعي

إذا لم يخطيء ظني فانا قد عثرنا على مفتاح غزل الشريف واهتدينا
الى سره الذي لا غبار عليه ، ولم يبق سوى أن نعين العناصر التي تغذيه
وتشيع فيه الحيوية والجمال واللطف وهذه عبارة عن ما رأيت من منسع
لا هوادة فيه ولا رحمة ، ولوعة مشبوبة تحبها في كل قصيدة ومقطوعة منه
وعفة صادقة لا تعمل فيها ولا تكلف تعصم صاحبنا من الانغماس في الآثام
والانحدار الى مزلق الشهوات كلما واتته الظروف وتهيأت له الفرص (١)

ولست أنكر أن هناك عقولاً كثيرةً يصعب عليها أن تتصور رجلاً وامرأة
متحابين لا تربطهما عقدة الزواج يقضيان الليل معاً وهما في نجوة من
الرقباء ثم يفترقان على غير رغبة ، ولكنني أومن بهذا وأدين بأمكانه واعتقد
أنه جرى قبل الشريف وبعده وسيظل جارياً ما دامت هناك قلوب تتبادل
الحب وعقول ترقبها بدقة وتسوسها بحكمة وصرامة .

وقد امتازت حجازيات الشريف كما امتاز سائر غرامياته بهذا المثلث
الفذ الذي يتألف من المنع واللوعة المبرحة والعفة الصادقة ولك أن تقرأ

(١) تحدث الشريف في شعره عن طهارة حبه مراراً عديدة . فمن طريف
ما وقع له في هذا الباب قوله :

وكم ليلة بتنا على غير رغبة علينا عيون للنهي ومسامع
نفض حديثاً عن ختام مودة معاقلها أحشائونا والأضالع
يكاد غراب الليل عند حديثنا

يطير ارتياحاً وهو في الوكر واقع
خلونا فكانت عفة لا تعفف وقد رفعت في الحي عنا الموانع
سلوا مضجعي عني وعننا فانتنا رضينا بما يخبرن عنا المضاجع

خجازياته و غرامياته الأخرى واحدة واحدة لتبين أنني لم أكذبك الحديث .

رثاؤه : وكما امتاز الشريف بغزله الرقيق المفعم صباية وكآبة امتاز كذلك برثائه البليغ المفعم صفاء ومودة ووفاء وإخلاصاً . هذا الى أن رثاه الجيد من الكثرة بحيث يثير دهشة الناقد .

إن لأبي تمام والبحثري والمتبني مرثي بليغة ولكن الجيد من رثاء كل منهم قليل : فأنت لا تستطيع مثلاً ان تعد لأبي تمام خمس مرث من الطراز الأول . وقل مثل ذلك عن البحثري والمتبني . ولكن مرثي الشريف الممتازة تعد بالعشرات .

إقرأ رثاه لوالده ووالدته وعمه أحمد بن موسى وللمصاحب ابن عباد وأبي اسحق الصابي وابراهيم بن ناصر الدولة الحمداني وأبي حسان المقلد زعيم بني عامر وابن ليلي داعيته في البادية وعميد الجيوش أبي منصور المرزباني الكاتب تجد أنه أجاد في رثائهم جميعاً اجادة فائقة . وما يصح في رثائه لهؤلاء يصح في أغلب مرثيه . ومما هو جدير بالذكر أن أكثر مرثي الرجل على جانب كبير من طول النفس ، فلاमितه في رثاء الصاحب بن عباد (١١٢) اثنا عشر ومئة بيت وميميته في رثاء والده (٨٩) تسعة وثمانون بيتاً وداليته في رثاء أبي اسحق الصابي (٨٢) انسان وثمانون بيتاً ، وهمزيتيه في رثاء والدته (٦٩) تسعة وستون بيتاً ، ولكنك لا تكاد تعثر في هذه المرثي الطوال على ما تعيبه أو تستهجنه . على أن أهم ما يمتاز به رثاء الشريف عاطفة صادقة تجيش في قلبه نحو من يريد أن يخلده في شعره وصورة حية من شخصية الفقيده تمثله أنتم تمثيل

وأصدقه • توفي الصاحب بن عباد وكان ملء الأفواه والأسماع والأبصار
غزارة علم وغفارة جود ورجاحة عقل وفصاحة لسان ونباهة ذكر وجلالة
قدر ، وكان الى هذا محباً للشريف معجباً بفضله وأدبه وقد عبر عن ذلك
الحب وهذا الاعجاب بطلبه اليه نسخة من ديوانه فما كان من صاحبنا الا
أن بكاه بقيصدة عصماء اقتطف لك منها الأبيات التالية :

أكذا المنون تقطر الابطالا	أكذا الزمان يضعضع الاجبالا
أكذا تصاب الأسد وهي مدلثة	تحمي الشبول وتمنع الاغبالا؟
أكذا تقام عن الفرائس بعدسا	ملأت همامها الوري أوجالا؟
أكدا تحط الزاهرات عن العلى	من بعد ما شأت العيون منالا؟
أكدا تكب البزل وهي مصاعب	تطوي البعيد وتحمل الأثقالا؟
أكذا تغاض الزاخرات وقدطفت	لججاً وأوردت الفلما، زلالا؟
يا طالب المعروف حلق نجمة	حط الرحال(١) وعطل الاجمالا
واقم على يأس فقد ذهب الذي	كان الأنام على نداء عبالا
من كان يقري الجهل علماً ثاقباً	والنقص فضلاً والرجاء نوالا
خبر تمخض بالاجنة ذكره	قبل اليقين وأسلف البلبالا
حتى إذا كشف الظنون يقينه	عط القلوب وأسقط الأحمال(٢)؛
الشك أبرد للحشا في مثله	يا ليت شكّي فيه دام وطلا

(١) في الديوان ط • ب (الحمول) •

(٢) في الديوان ط • ب « جلى » بدلا من كشف و « مدع » بدلا من

يا طود كيف وأنت عادِي الذري ألقى بجانبك الردى زلزالا
كم حجة في الدين خضت غمارها هدر الفنيق تخمطاً (١) وصيالا
بسنان رمحك أو لسانك موسعاً طعناً يشق على العدا وجدالا
.

ما كنت أخشى أن ترل لحادثٍ قدم جعلت لها الركاب قبالا
.

طرح الرجال لك العمائم حسرةً لسا رأوك تسير أو إجلالا
قالوا وقد فجبوا ينعثك سائراً من ميل الجبل العظيم فمالا
وتبادروا عَطَّ الجيوب وعاجلوا عَضَّ الأنامل يمنة وشمالا
ما شفقوا الا كسك وألموا إلا أنامل نلن منك سجالا (٢)

ألا ترى أن هذه الأبيات صورة صادقة من شخصية الصاحب بن عباد
في أبهته وعظم سلطانه وسعة معرفته ووفرة علمه وأدبه وفي منزلته من
قلوب معاصريه ؟ ثم ألا ترى أنها مثل رائع من ولاء الشريف له
واعجابه به وجزعه على فقدته ؟

أتريد مثلاً آخر من هذا الرثاء الذي يمتاز بصدق عواطف الشاعر

(١) الفنيق : الفحل ، التخمط : الجلبة .

(٢) يعجبني ان اروي هنا كلمة للمرحوم السيد عبدالمطلب الذي ترجمت له في
نهضة العراق الأدبية في القرن التاسع عشر يقرض بها هذه القصيدة وهي قوله
« ان لامية الرضي في رثاء الصاحب بن عباد سيده القريض لأنه ليس فيها على
طولها بيت ركيك واحد » .

المتفجع واتقانه تصوير مواهب المرثي وسجاياه إتقاناً تاماً؟ هالك طرفاً من
قصيدةٍ رثي بها الشريف صديقه أبا اسحق الصابي . قال :

أعلمت من حملوا على الأعواد؟ أرأيت كيف خبا ضياء النادي؟
جبل هوى لو خثر في البحر اغتدى من وقعه متسابع الأزباد
ما كنت أعلم قبل حطك في الثرى أن الثرى يعلو على الأطواد
بعداً ليومك في الزمان فانه أقدى العيون وقت في الأعضاد
لا يتفد الدمع الذي يبكي به أن القلوب له من الأمداد
كيف انمحي ذاك الجنب وعطلت

تلك الفجاج وخلّ ذاك الهادي

منها :

تكلتك أرض لم تلد لك ثانياً أنبي ومثلك معوز الميلاد
من للبلاغة والفصاحة إن همي ذاك الغمام وعبّ ذاك الوادي
من للملوك يجزّ في اعدائها بظبي من القول البليغ حداد
من للممالك لا يزال يلتمها بسداد أمر ضائع وسداد
من للجحافل يستزلّ رماحها ويرد رعلتها بغير جلاذ(١)
من للموارق يسترد قلوبها بزلازل الأبراق والارعاد
وصحايف فيها الأراقم كمن مرهوبة الاصدار والايراد
حمر على نظر العدو كأنما بدم يخط بهن لا بمداد

(١) رعلتها : كثرتها .

يقدمن إقدام الجيوش وباطل أن ينهزم من هزائم الأجناد

• • •

ألا تلمس في هذه الأبيات عواطف الصديق الأمين يبكي صديقه
بدموع الوفاء ويثر على قبره زهر الولاء والاخلاص ؟ ألا تسين فيها من
ناحية أخرى شخصية الكاتب العبقرى الذي خدم الدولة بعلمه ومواهبه
أصدق خدمة ، وأفادها بخبرته وتجربته أكبر فائدة ، فساهم في حل أزمت
كثيرة وتذليل صعوبات جمّة وأعان على إخماد فنن عديدة في غير إراقة
دماء ولا إزهاق نفوس ؟ هذا إلى أنه مثل في لطافة الاداء وبراعة
الانشاء . على أنني قد لا أنصف الشريف إذا لم أرو لك ولو أبياتاً قليلة
جداً من رثائه لوألدته ذلك الرثاء الذي لم تؤد حقوق الأمومة البارة
ولم تصوّر عواطف البنوة المنجوعة فيما أعلم بأصدق ولا أبلغ منه .
إليك مثلاً من هذا الرثاء :

أبكيك لو نفع الغليل بكلامي	وأقول لو ذهب المقال بدائي
وأعوذ بالصبر الجميل تعزياً	لو كان بالصبر الجميل عزائي
طوراً تكاثرني الدموع وتارة	أوي إلى أكرومتى وحيثائي
كم عبرة موّتها بأناملي	وسترتها متجملاً بردائي
أبدي التجلد للعدو ولو درى	بتململي لقد اشتفى أعدائي
ما كنت أذخر في فداك رغبة	لو كان يرجع ميت بفداء
فارقت فيك تماسكي وتجملي	ونسيت فيك تعززي وإبائي

• • • • •

كم زفرة ضعفت فصارت أنة تستها بتفس المعداء
لهفان أنزو في جبال كربة ملكت عليّ جلادتي - وغنائي
• • • • •
كيف السلو وكل موقع لحظة أثر لفضلك خالد بازائي

• • • • •

فخره : ولم يكن الشريف أبلغ من نظم النسيب والرياء فحسب ، بل إنه أبرع من نظم الفخر غير مدافع ولكن ما عناصر فخره ؟ وبعبارة أخرى ما موضوعات هذه القصائد والمقطعات الفخرية التي تؤلف جزءاً غير يسير من ديوانه ؟

إنك إذا تأملت ملياً ودرست ما فيها من مقاصد وأفكار رأيت أن الشاعر شديد الفخر بآبائه دائب الإشارة إلى تاريخهم الحافل بعظام الأمور وجلال الأعمال كثير التحدث بما له من مضاء العزيمة وعلو الهمة وبعد المطامح يمزج ذلك بشكوى مرة من الزمن الذي يبرم به دائماً ويحمله تبعه الحيلولة بينه وبين دست الخلافة وتدمر شديد من أبنائه الذين يصفهم مرة بالجهل وتارة بالجبن وآونة بالخيانة وطوراً بعبادة المال وأحياناً كثيرة بالرياء • وقد يمثل بكبار الأباة الذين كرهوا الذل وآثروا العز كمصعب بن الزبير ويزيد بن المهلب وشيبان بن شيبة ، فيدي إعجابه بهم ويشن على إباثهم وأنقتهم أحسن الثناء • أما الأمنية القصوى التي ما فتئت تنغل ذهنه وتأسر له وتحل المكان الأول من قصائده فهي إثارة حرب شعواء تثل العروش وتحل معاهد التيجان وتقيم

صرح دولة الحق على أنقاض دولة الباطل • ويلوح أن مصائر تير من العلويين الذين ناروا في مختلف الأطراف فلم يقدر لهم الفوز ما برحت مائلة في مخيلة الرضي ، لذلك لم يسترسل في الجري وراء امانيه ولم يداعب شبح الفوز وما يمكن أن ينشأ عنه من نتائج براءة وإنما افترض في كثير من الأحيان فشل محاولته ولكنه عزى نفسه بأنه إن لقي حتفه في هذا السيل فإنه إنما يموت في سبيل الواجب ويضحي نفسه على مذبح الكرامة والشرف :

هني الريح بكفي فارس بطل أكرمه حتى انحطم
هني العضب ذليقاً حده . نلم البيض ضراباً واتلم

وسأذكر مثلاً من فخره عند الكلام على لغته وأسلوبه •

مديحه : وعلى ماذا ينطوي مديح الشريف ؟ !!

يمتاز هذا المديح على العموم يخلوه من الغلو والاسراف في تصوير مواهب الرجال وأخلاقهم وأعمالهم لأنه لا يقال طلباً لجوائز الملوك وغيرهم من العظماء • وما ظنك بشاعر يمدح صاحب بن عباد ليعبر عن شعوره الودي الصادق نحوه ثم لا يرسل المدحة إليه خشية أن يتهم بطلب المال (١) بل ما ظنك بشاعر يمدح الخليفة العباسي فيقول له في أثناء مديحة :

عظفاً أمير المؤمنين فانا في دوحة العليا لا تفرق

... الأبيات

ستقول وإلى ماذا يرمي المترجم اذن في مديحه؟ وأجيب بأنه يرمي الى

(١) مطلع القصيدة التي تشير اليها هذه الفقرة هو :

اباء أقام الدهر عني واقصدا وصبر على الأيام انأى وابدا

غرضين كبيرين : أحدهما توثيق أواصر القريبى أو المودة كأن يمدح أباء
أو أخاه أو عمه أو بعض أساتذته أو أحد أصدقائه الأصفياء .

وثانيهما مجاملة أولي الكلمة النافذة في الدولة سعياً وراء تحقيق
مطامح سياسية :

واني لأرجو من علائك دولةً تذلل لي فيهما الرقاب العواند
ويوماً يظل الخافقين بمزنةٍ رذاذ غواديهما الرؤوس الشوارد
لأعقد مجداً يعجز الناس حله وتتحل من هام الأعداي معاهد
فمن ذا يراميني ولي منك جنة ومن ذا يدانيني ولي منك عاضد

لغته وأسلوبه : قلت لك إن الشريف حفظ القرآن وفسره وشرح
مجازاته في كتابين جليلين . وإنه جمع من كلام جده النبي ٣٦٠ ستين
وثلاثة مئة حديث يشمل كل منها « على مجاز طريف أو كناية دقيقة »
في كتاب أسماء المجازات النبوية . وجمع كذلك مختار خطب جده
الامام علي وكتبه وحكمه في كتاب أسماء نهج البلاغة . وأقول لك الآن
إن هذه الممارسة الدائمة للقرآن والحديث وكلام الامام علي قد أثرت
في لغته وأسلوبه أحسن تأثير فصفت ديباجته ورقت حاشيته ووضحت عبارته
وجمع بين جزالة اللفظ وفخامته ومثانة التعبير وعذوبته وخلا شعره من
الفضول والحشو فكان مصداق قوله :

لا يفضل المعنى على لفظه شيئاً ولا اللفظ على المعنى

وشيء آخر أحب أن ألفت انتباهك إليه وهو ملامسة لغته لكل
موضوع بطرقه ، فهي لغة مرنة ذات أجراس مختلفة ونبرات عديدة متباينة

ترق وتلين وتظرف في موضوع ، وتصلب وتشد وتجلجل في موضوع
آخر ، (تسمعك سجع الحمام) في حين (وتسمعك زئير الأسد) في حين
آخر ، ولك أن تذوق ما فيها من رقة وعذوبة في هذه القصيدة الغرامية
الفياضة بالعواطف وهي :

ياصاحب القلب السليم (١) أما اشفى

ألم الجوى من قلبي المصدوع

لأَسَات (٢) بالمشق حين ملكته

وجزيت فرط نزاعه بتزوع

هيهات لا تكلفن لي الهوى

فضح التطبع شيمة المطبوع

كم قد نصبت لك العجائل طمعاً

وتركتني ظمآن أشرب لوعتي (٣)

قلبي وطرقي منك هذا في حمى

قمر إذا استخجلته بجهابه

كم ليلة جرّعته في طولها

أبكي وبسم والدجى ما بيننا

حتى أضاء بغيره ودموعي

(١) في الديوان (ط . ب) الصحيح

(٢) في الديوان (ط . ب) الأَسَات

(٣) في الديوان (ط . ب) غلتي

(٤) هذا البيت هو العاشر في رواية الديوان (ط . ب) وهو خطأ

تفلي أنامله التراب تعللاً
لو حيث يستمع السرار وقفماً
أبغى هواه بشافع من غيره
ما كان إلا قبلة التسليم أر
كمدي قديم في هواك وإنما
أمون عليك إذا امتلأت من الكرى

أني أبيت بليلة المنسوع
قد كنت أجزيك الصدود بمثله
لو أن قلبك كان بين ضلوعي

• • •

وفي هذه الابيات التي اقتطفها لك من إحدى حجازياته :

وما مغزل أدماء تزجي بروضه
طلاً قاصراً عن غاية السرب وانيا (١)
لها بغمات خلفه تزعج الحشا
كجس العذارى يختبرن الملاها
يحور إليها بالبغام فتشي
كم التفت المطلوب يخشى الأعدايا (٢)
بأروع من ظمياء قلباً ومهجة
غداة سمعنا للتفرق داعيا
تودعنا ما بين شكوى وعبرة
وقد أصبح الركب العراقي غاديا
فلم أر يوم النفر (٣) أكثر ضاحكاً
ولم أر يوم النفر أكثر باكياً

* * *

(١) المغزل : ذات الغزال . وأدماء ذات لون يضرب الى البياض أو

السواد .

(٢) يحور : يرجع .

(٣) يوم النفر : هو يوم نفور الحجاج من منى

أما ما فيها - أي لغة الشريف - من صلابة وجلجلة وفخامة فما أشك
في أنك تحسه خلال هذه الأبيات التي يفخر فيها بأبائه :-

فيمن تعيرني بفيك رغامها أبتالدي في المجد أم بطريف
أبعشري وهم الألي عاداتهم

في الروع ضرب طلي (١) وخرق صفوف

من كل وضاح الجبين مغامر
فاذا قرعت فهم (صدور ذوابلي)

ومن العدو معاقلي وكهوفي

فاذهب بنفسك حاسماً أطماعها عن صل وادٍ او هزبر غريف (٢)

. . .

وفي ثنايا هذه الأبيات التي يعلن فيها تصميمه على إثارة حرب
شعواء :

لست للزهراء إن لم ترها كووعول الهضب يعجمن اللجم
تستجن اليد من فرسانها بين بغداد إلى أرض الحرم
بعجاج يملأ الأفق دجى وطعان يخضب الأرض بدم
شرعاً تفتت عن إغناقتها قلل القور وغيطان الاكم (٣)
كالردي أقدم والغيث همي والدجى طلق والسيل هجم

(١) الطلي : بضم الطاء جمع ظلية أو طلاة وهي العنق أو أصلها .

(٢) الغريف : بيت الأسد .

(٣) تفتت : تضحك . والاعناق : ضرب من السير . والقلل : جمع قلة .

وهي أعلى الشيء . والقور : جمع قارة وهو جبل صغير . والقيطا ما انخفض
من الارض .

حاملات كل غضبان به من (لم) الغيض مسّ ولم (١)
كالصقور الغلب الحاظهم كالجذى يلمعن من خلف المثلث (٢)

. . .

أعتقد أن لغة النسيب ولغة الفخر في الأمثلة التي تقدمت سيان
من حيث نوع الكلمات ورتبتها مفردة ومركبة ؟ إنني إذن لفي ضلال
مبين !!

. . .

أما نصيب الشريف من المجاز والطباق وما يجري مجراها من المحسنات
البيانية فموفور ، إلا أنه لا يدل بحال من الأحوال على أنه يعصر
ذهنه في سبيل شيء من هذه الزخرفة وإنما يأخذ منها ما جرى على
لسانه عفواً وما أظنك تحس شيئاً من التكلف في هذا الطباق (فعر
اشتياقي والدموع خواضع) وفي هذا الطباق (وننهض بالآمال والجد
قاعد) وفي هذا التشبيه الذي يصور يوم حرب عبوساً :

لم يبق غير شفاقة (٣) من شمسه كمشيق وجه الفارس المثلث

وفي هذا التشبيه :

ضاق الزمان فضاقت فيه تقلبي كالماء يجمع نفسه في الجدول

وفي مايزين هذين البيتين من مجازات واستعارات :

أرسي النسيم بواديكم ولا برحت حوامل المزن في أجدانكم تضع

(١) اللم : طرف من الجنون .

(٢) الغلب : غلاظ الأعناق ، والجذى جمع جذوة .

(٣) شفاقة : البقية الضئيلة من كل شيء .

ولا يزال - جنين النبت ترضعه على قبوركم العراضة الهمع

. . .

وما من شك في أن صاحبنا جمع الموضوعات المختلفة في قصائد كثيرة جرياً وراء تقاليد عصره الأدبية ، ولكنه من ناحية أخرى نظم قصائد كثيرة وكثيرة جداً لم يتطرق فيها إلى أكثر من موضوع واحد من ذلك حجازياته التي بلغ عددها الأربعين وسائر غرامياته وطائفه كبرى من فخرياته ، ومراثيه للأقرباء والاصدقاء وهي تعد بالعشرات كما أسلفت . وهذا الجزء من شعره يؤلف ديواناً ضخماً لاتقع فيه عين القاريء على قصيدة لم تراع فيها وحدة الموضوع .

. . .

د - خامسة :

ولكن ما منزلة الشريف بين شعراء اللغة العربية ؟

يقول الثعالبي في اليتيمة « هو أشعر الطالبيين من مضى منهم ومن غير على كثرة شعرائهم المقلتين . ولو قلت إنه أشعر قریش لم أجد عن الصدق (١) ويشايه بن خلكان في هذا .

أما أنا فأزعم أنه من الظلم للشريف أن يقتصر في تقديمه على شعراء آل أبي طالب أو شعراء بني هاشم أو شعراء قریش عامة وإن كان بينهم عمر بن أبي ربيعة ويزيد بن معاوية والوليد بن يزيد

(١) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٢٩٧ طبع دمشق .

وعبدالله بن المعتز وأزعم كذلك أنه في طليعة شعراء
اللغة العربية كافة صدق عاطفة ، ورقة شعور ، وخصب خيال ، وفصاحة
لغة وصفاء أسلوب . وأنه فارس حلبتي الرثاء والفخر الذي لا يثق له
غبار وإمام الغزل العذري العفيف في كل زمان وفي كل مكان .

الفصل الرابع

مربار الديلمي

أ - حياته : اسمه ونسبه وكنيته • ما تقوله كتب التراجم عنه • قلته • استنباط حياته من ديوانه • منزلته • احيال طائفة من العظماء على مديحه • منحه الجوائز سلفاً وتكرارها أحياناً • الحصول على مديحه بوعود كاذبة • هجاؤه لمن فعل هذا به •

ب - أخلاقه : طمعه • غفته • وفاؤه • إخلاصه •

ج - تعريبه : غلبة الثقافة عنده على العرق •

د - شعره : لمحة تاريخية • مقارنة بين ديوانه المطبوع بمصر وبين نسخة مخطوطة منه • أبوابه • غزله • مادته • مثل منه • إخوانياته • مميزاتها • مثل منها • وصفه • أحسن ما فيه • مديحه • الباعث على نظمه • خاصته • مثل منه • رثاؤه • سر تفوقه فيه • عناصره • ميزته • مثل منه •

هـ - خاتمة : مقارنة بينه وبين استاذة الشريف •

أ - ميار :

حدثك في الفصل الماضي عن شاعر عربي صميم . عربي في نسبة
ودمه ولغته وأدبه . وأحدثك الآن عن شاعر فارسي في نسبة ودمه ،
عربي في لغته وأدبه .

هذا الشاعر الفارسي دماً وسبباً والعربي لغةً وأدباً هو تلميذ الشريف
الوفاي أبو الحسن وقيل أبو الحسين ميار الديلمي بن مرزوية أحد
شعراء العراق الأعداذ في القرنين الرابع والخامس للهجرة . وأخباره
في كتب التراجم قليلة جداً : فكل ما يحدثنا به ابن خلكان عنه إذا
استئينا بعض عبارات الثناء والاطراء التي صاغها له والتي اقتبسها عن
دمية القصر للباخرزي هو : (أنه كاتب فارسي) وأنه (كان مجوسياً
فأسلم) « ويقال إن اسلامه كان على يد الشريف الرضي أبي الحسن
محمد الموسوي وهو شيخه وعليه تخرج في نظم الشعر وأن الخطيب
البغدادي رأى الناس يقرأون ديوانه عليه في جامع الخلفاء وأنه توفي
ليلة الأحد لخمس خلون من جمادى الآخرة عام ٤٢٨ للهجرة (١)
أما ما يحدثنا به ابن الجوزي في الجزء الثامن من كتابه « المنتظم في
تاريخ الملوك والأمم » فيزيد على ما تقدم أن ميار أسلم سنة ٣٩٤
لهجرة وأنه صار علوياً متطرفاً وأن امرأة كانت تخدمه عثرت في بيته
على هميان فيه ألفا دينار تركه بعض الحجاج الخراسانيين فأخبرته بذلك
فلم يتغير وإنما اكتفى بأن عاتبها على نبسه عتاباً رقيقاً ، وأن ساعياً
سعى به إلى جلال الدولة البويهى فقبض عليه وأطلقه (٢)

(١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٤٩-١٥٠ طبعة المطبعة الميمنية بمصر .

(٢) كان موضوع هذه السعاية اتهام ميار بمال كثير يجب أن ينزل عنه
لجلال الدولة لأنه لا حق له في أن يكون مثرياً كما يظهر - وقد استطاع
الشاعر ان يبري نفسه من هذه التهمة فأطلقه الملك البويهى واعتذر اليه .

وأنت ترى أن هذه الأخبار القليلة لا تدلنا على مسقط رأس الرجل ولا تذكر لنا تاريخ ولادته ولو بصورة تقريبية ولا تروى لنا شيئاً عن دراساته الأولى إذ لا يعقل أنه تلقى على الشريف الرضي مثلاً مباديء النحو والصرف وما يجري هذا المجرى من المعلومات الأولية. ولكن الديوان يعوضنا عن بعض هذه الخسارة : فهو يحدثنا بأشياء كثيرة يتصل بعضها بمنزلة الشاعر الأدبية وبعضها بنصيبه من الحياة الدنيا وبعضها بأخلاقه : فأما ما يحدثنا به مما له علاقة بمنزلة الأدبية فكثير ، وهو يدل بمجموعه على أن الرجل واسع الشهرة بعيد الصيت حائز لأعجاب المتأدين من ملوك عصره ووزرائه وسائر عظمائه متمتع بجوائزهم ، بل إن هؤلاء كانوا يخطبون وده ويتفننون في الحصول على مداخله ويجزلون صلته أحياناً قبل الحصول عليها : فمن ذلك أن جلال الدولة البويهى

- وفي ذلك يقول من قصيدة مدح بها جلال الدولة :

أعرف يامولى الملوك كقصّة	بليت بها بالأمس والحر بيتلى
أبعد فتوعي بالشماد تعففا	وهجري أبواب الملوك تعزلا
وظلمي فضلي واعتضامي توحدى	مخافة أن أؤذى وان أتبدلا
يسيء رعاع الناس عندك سمعتي	ويشعر أنني حزت مالا مؤثلا
ويغري بافقاري وأنت الذي ترى	لمثلي أن يغنى وأن يتسولا
ولكنها ما غيرت لك شيمة	كرمت بها الا قليلا كلا ولا
.
حبت ولكن كان حباً مشرفاً	أناف بذكري واعتقلا مجملا
ولم أر مثلي مستضاماً مكرماً	ولا كاسباً للعرز من حيث ذللا
لئن عد قوم نكبة حبس ليلة	لقد كنت منكوباً من الناس مقبلا
.
سيعلم من جر السعاية أنه	بكرهي الى ما ساق نفعي توصلا

أنعم على وزيره « الاستاذ الأجل أبي سعد بن عبدالرحيم » بلقب « عميد الكفاة » وخلع عليه خلعة سنية تتألف من ثياب فاخرة وفرس سابق في حليته الذهبية ودواة محلاة بالذهب أيضاً ، وكان يومئذ بواسط فكتب الوزير إلى مهيار يصف له ما أعقد عليه من الألفاظ ويختال عليه في حمله على تهنته ووصف ما خصّ به من الهدايا والخلع وذلك بأن زعم له « أنه رأى في المنام أنه ينشد قصيدة بوصف هذه الحادثة السارة » وكان مهيار عند حسن ظن صديقه الوزير به فكتب إليه به ويصف التحف التي أهديت إليه بقصيدة رنانة مطلعها :

أيقظني للبرق وهو نائم جهالةً والعربي حازم

ومن هذا القيل ما فعله مؤيد السلطان حاكم عمان في الخليج العربي فقد كان هذا يكتب مهيار ويقضي حوائجه ، وقد حدث أنه بعث له بهدية نفيسة أنفذها إليه دون أن يسبقها مديح مع رسول خاص اسمه « وشاح » إلا أن الرسول خان الأمانة وقاسم الشاعر الهدية لما كان من هذا إلا أن أرسل إلى مؤيد السلطان قصيدة عصماء يشكر فيها معروفة ويشكو الرسول ويطلب بالتعويض ، اروي لك منها الأبيات التالية :

رغائب من يديه فجأتني وفيه رضى بأمالي الرغب
وزدن على حساب مناي لكن وشاح لم يكن لي في حساب
أهرت بها كعرضك لم يدنس بلاغش يشوب ولا ارتياب
من الذهب الصريح فصار مما يبدل في يديه إلى الذهاب
وقاسمني مذففةً عاينه وجاهدني ليجسه كتابي
مكارم سقتهن إلى محب ففاز بها مغير لم يحاب

بعثت بها الخؤون فضاع سرب أمنت عليه غائرة الذئاب
ولولا أن خدمته وقته وحرمة عز بابك والجناب
لما سلم البعوض على عقاب ولا عض الهزبر بشرّ ناب
أدلّ بكم فأفحمني وكانت نواحيه ما كل للسباب
فجّل عن الهجاء بذلك عندي وقل بما أتاه عن العتاب
ثلاث سنين حولاً بعد حول

بكفّ « وشاح » مقمّ نهائي

وأنت خفير مالك أو يؤدى إليّ ولو بمنقطع التراب
إذا أنصفتني فعليك ديناً غرامة ما تجمع في الحساب

ومما يجب التنويه به في هذا المقام سفارة أبي الحسن المختار
بن عبيدالله الذهبي وهو من أولي الفضل والوجاهة بين مهيّار وبين بعض
الأمراء والكبراء فقد سفر هذا الأديب الوجيه المعجب بمهيّار بينه
وبين الصاحب « عميد الحضرة » أبي طاهر بن حمّاد فحمل الأخير على
مطالبة الشاعر بالمديح وإرسال الجائزة إليه سلفاً . وقد لبي الشاعر
الطلب ومدح عميد الحضرة بقصيدة مطلعها :

نظرة منك ويوم بالجريب حسب نفسي من زمان وحيب

وسفر بينه وبين الكاتب الجليل أحمد بن عبدالله فحمّله على ابتدائه
بالبزارة والعطاء وتكرارهما وقد نوّه مهيّار بهذا في قصيدة مطلعها :

هوي لي وأهواء النفوس ضروب ..

يقول فيها :

أأنسى لك النعمى التي تركت فمي	يصعد يبغى شكرها ويصوب ؟
ملكك فؤادي عند أول نظرة	كما صاد عذرياً أغنّ ريب
وكنت أخاف البابليّ وسحره	ولم أدر أن الواسطيّ خلوب
وغناك أقوام بوصف مناقبي	فرّيح نشوان وحنّ طروب
رفعت منار الفخر لي بزيارة	وسمت بها مغناي وهو جديب
وكنت لداً جئتني منه عائداً	شفاءاً وبعض العائدين طيب
وأنهلتني من خلقك العذب شربة	حلت لي وما كل الدواء يطيب
ولما جلا لي حسن وجهك بشره	تبين في وجه السقام قطوب
أجبت وقد ناديت غيرك شاكياً	وذو المجد يدعى غيره فيجيب

بيد أنه إن كان بين معاصري مهيار من يزوره ويكرر زيارته دون سابق معرفة ، ويصله مرة بعد أخرى قبل أن يمدحه بشيء ، فقد كان بينهم من يشتهي مديحه ويبخل بصلته ، فيسأله المديح ويعدده الجائزة السنية حتى إذا نزل على رغبته ومدحه بما أراد غدر به ولم يعطه شيئاً وقد اتقم مهيار لنفسه من هؤلاء فلذعهم بقوارص أروي لك منها قوله :

أمدح المثرين ظناً بهم	ربما يقمر بالظن الكذوب
كل وغد الكف منبوذ الحيا	طيب المحضر مسبوب المغيب
يمنع الرفد وتلقى وفده	قحة البخل بادلال الوهوب
يطلب المدح لأن يفضحه	وهو قبل المدح مستور العيوب

ولكن أكان مهيار فقيراً؟ أم كان على العكس من ذلك؟

تخبرنا كتب التراجم أنه كان كاتباً! ولكنها لا تقول لنا متى تقلد هذا العمل الديواني وما نوعه، وخصوصاً ما مقدار أجره عليه؟ ولمع ذلك فأننا نعلم علماً لاشك فيه أن مهيار لم يكن فقيراً كما أنه لم يكن غنياً وإنما كان متوسط الحال، وهو نفسه يحدثنا بهذا حيث يقول:

ما أبصر الدهر بما أريده لو كان في الحكم عليّ يقتصد!!
أنزلي منزلة بين الغني والفقير لم يبخل بها ولم يجد
وشر أقامك حظ وسط أرعن لم تخمل به ولم تسد

.

ب- أخلاقه:

أما أخلاقه فمن الممكن استنباط أهمها من شعره إذ في مقدورنا أن نقرر استناداً إلى هذا الاستنباط أنه يمتاز بالطمع والعفة والوفاء والاخلاص. وأوجب الكلام على إخلاصه للبحث عن إخوانياته كما أنني أترك الكلام على القناعة التي قاده إليها جشعه وإلحافه في السؤال للبحث نفسه. وأتحدث إليك عن طمعه: فقد كان لسوء الحظ كثير الطمع شديد الجشع يدلك على هذا قوله:

صلونا فأنا مجديون بمنزل يضيق على الأيام بالحر رجه
يعزّ عليكم كيف يرجع مرملاً غلام من الآداب والمجد كسبه

.

وقوله :

يقولون دار الناس ترطب أكفهم ومن ذا يداري صخرة ويذيبها

ولكنه أعني مهيار يؤكد لنا فيما عدا ذلك أنه عالي الأخلاق عفيف
الذيل بعيد عن الخنا :

عذيري من باغ يوتد لنفسه نزاهة أخلاقي ويمسي يعيها

ومن نفس القصيدة :

ولله نفس من نهاها عذولها ومن صونها - يوم العذيب - رقيها (١)

ومن اخرى :

يفسق كفي بينهن وفمي فتكاً ويمسي مئزري حصينا

.

أما حسنة مهيار الخليفة الكبرى فهي الوفاء وقد نوت بهذا مراراً
عديدة في شعره فمن قوله فيه :

رعى الله قلبي ما أبرّ بمن جفا وأصبره في النائبات وأحملاً
وكرم عهدي بالصديق فإنه قليل على الحالات أن يتحوّلاً

ومن قوله فيه :

رعى الله قلباً ما أبرّ بمن جفا وأثبت عهداً والعهود طوائح
وأوسع ذرعاً بالوفاء وصونته إذا ضاق ما تطوي عليه الجوانح

(١) اخذ هذا من استاذه الشريف حيث يقول :

عفافي من دون النقية زاجر ومونك من دون الرقيب رقيب

وقد أيد مهيار هذه الأقوال بأعماله الكثيرة المشرفة في هذا الباب
فمن ذلك أنه أقام على ولائه لأبي طالب محمد بن أيوب أجزل ممدوحيه
صلة له وأفاهم نصيباً من مدحه عند إقصائه عن منصبه وتكرار الأيام له
وإعراض الناس عنه وزاد على ذلك أن مدحه بقصيدة نفسه مطلعها :

لا عدك الغيث يا دار الوصال كل منحل العرى واهي العزال (١)

قال فيها :

حول الناس وجوهاً عنكم وتساقوا فيكم كأس التمثالي
وأبت نفسي على النأي فما اسـ طاع تحريلي ولا رام انقالي

ولما ترك الكافي الأوحـد (وهو من ممدوحـي مهيار الأسخياء) ولاية
الري اعتزل الناس في بروجرد إحدى مدن فارس إلا أنه كان كثير
الشوق إلى مهيار يبعث إليه بتحياته مع كل من يمر به من زوار
العراق . فما كان من المترجم إلا أن شد الرحال من بغداد إلى
بروجرد ليحدد العهد بممدوحه القديم وينشده قصيدة رائعة أعرب فيها
عن تسكه بجبل ولائه وإقامته على عهده أيما إعراب اليك طرفاً منها :

اليوم أنجز ما طـل الآمال فأنتك طائفة من الأقبال
بمنى وفين له وهن غوادر ولقحن قربك بعد طول حيال
قطع المنى (٢) يستام ذاك بنفسه مسترخساً والدهر فيه يغسالي
فأتى يدوس الهول نحوك شوقه والشوق مناء على الأهوال
يلقى الخطوب بمثلها من همة قطعت جبالا في ابتغاء جبـال

.

(١) في الديوان طبعة مصر (منهل) .

(٢) هكذا في الديوان طبعة مصر وربما كان الصواب « الفلا » .

ويكاد رثاء مهيار كله يكون برهاناً صادقاً على وفائه فقد رثى أستاذه.
الرضي بقصيدتين هما من أنفس ما قيل في الرثاء لم يعز فيهما الشريف
المرضى ولم يمدحه ومعنى هذا أنه لم يقلهما ابتغاء أجر • ورثى المفيد
المتقدم ذكره في ترجمة الشريف الرضي بقصيدة من أروع قصائده مع
أنه لم يكن بينهما سوى مودة طفيفة أشار إليها بقوله :

إن كان حظي من وصالك قبلها حفظ المغبّ ونهزة المتقلل
فلا أعطيك من ودادي ميتاً جهد المنيب ورجعة المتصل

.

ورثى صديقه أحمد بن عبدالله الكاتب المتقدم ذكره بقصيدة هي من
غرر شعره إن لم أقل من غرر القريض العربي كله ولم يفعل ذلك
إلا بدافع الوفاء • ولو استقصيت رثاء مهيار لاءقت براهين أخرى كثيرة
على وفائه ، ولكن فيما تقدم كفاية •

ح - تعريه :

ومع أن مهيار فخر غير مرة بفارسيته كما فخر كثير من الشعراء
الغرباء بأنسابهم ، فالواقع أنه تعرب بروحه وشعره إلى حد بعيد •
فقد قال وهو يصف إحدى قصائده :

متى تكن سلول أو باهلة آباء شعر فأبوها دارم

وقال في وصف أخرى :

حاضرة تحسبها بادية تدّيرت دارات خبت فالبرق

وقال يصف شعوره نحو شبه جزيرة العرب :

ولقد أحن إلى زرود وطيتي من غير ما فطرت عليه زرود
ويشوقني عجب الحجاز وفد ضفا ريف العراق وظله الممدود
ويطرّب الشادي فلا يهترني (١) وينال مني السائق الغريد

وقال يحث على ترك المدن والعيشة في البادية :

رم العلا بين بيوت أهلها مقلّباً في طرقها مقلّلا
ولا تكن إلا أخصر صرمة متى نبت دار به تحولا (٢)

بل إنه ذهب الى أبعد من ذلك فتشبه في فخره بأجواد البادية
وادعى إيقاد النار للسايرين وعقر الكوم العشار للضيفان والقيام على
خدمتهم بأسلوب حاتمي :

وطارق والليل قد مدّ له على بياض الطرق الدجونا
فرفعت ناري له لسانها تريه أي وجهة يأتينا (٣)
كأنها تخاف في ضلاله أن يطرق البيت الذي يلينا
والكلب يستاف البيوت طويلاً (٤) جنبيه حتى يلج الدخينا
يكفر تحت كشحه خيشومه تسمع من نباحه أنينا

-
- (١) هكذا في الديوان طبعة مصر وربما كان الصواب (بهتاجني) .
(٢) أخرجت هذا البيت عملاً بضرورة سياق الكلام وهو مقدم في الديوان
على سابقه .
(٣) لا أوجو لهذا البيت في الطبعة المصرية ولكني أرويه عن نسخة مخطوطة
سأتحدث عنها فيما بعد . أما البيت الذي يليه فإنه في غير هذا المكان في
الطبعة المصرية ولكني رويته هكذا عن النسخة المخطوطة التي تقدمت لها الإشارة .
(٤) هكذا أرويه وفي الطبعة المصرية (شطريه) ويستاف يشتم ولم أجد
فيما بين يدي من معاجم اللفظة معنى للكلمة دخين وربما كانت تعني موقد النار
أو ما يقرب منه .

قمت له من رقدة معسولة أكره عنها الجنب والجفونا
ثم انخت خيرها عقيلة بلسيف حتى اعترق الوتينا
وقلت للجازر قم فاختر له على مناه الرخص والسمينا
جدلاء (١) قد بات خماساً أهلها والضيف قد نام بها بطينا

والآن وقد أريتك مهيار بمظهره الحاتمي أحب أن أعود بك إلى
أول القصيدة لتراه بمظهره العذري قال :

أمن خفوق البرق ترزميننا حني فما أمنعك الحيننا
سرى يمينا وسراك شامة فضلة ما تلتفتينا
هب كما تحاظفت هندية مخلصه أجهدت القيونا
فكم أراك بئيات الحمى على البعاد الثغر والجبينا
وكم ذكرت روضه وغدره والعمم الملتف والمعينا
نعم تشاقين ونشفاق له ونعلن الوجد وتكتمينا
فأين منا اليوم أو منك الهوى

وأين نجد والمغوروننا
سقى الحيا عهد الحمى أعذب ما
تسقى السموات به الأرضينا

. . .

ألا ترى في هذه الأبيات أعرابياً عاشقاً من أعراب عذرة يتطلع
إلى برق تآلق من ناحية تقيم فيها حبيته فهيج غرامه وحرك أشجاناه

(١) الجدلاء : الشديدة الأسر .

وأسال دموعه وأثار في نفسه شتى الخواطر والذكريات فأخذ يصعد
الأنفاس الحارة ويتابع الزفرات الجياشة .

ألا تذكرك - أي الأبيات - جميل بثينة وقيس لبنى ومجنون ليلي .

قد تقول : وأين أثر العرق إذن ؟ والجواب على ذلك أن الثقافة
أشد نفوذاً وأقوى تأثيراً من الجنس إذا كانت على جانب كبير من العمق
والقوة وليس من شك في أن ثقافة مهيار العربية من العمق
والقوة بحيث غلبت على عقله وسيطرت على ضميره ونفذت إلى أعماق
نفسه . أضف إلى ذلك أن مهيار فخور بولائه في آل الرسول (ص)
وقد نوه بهذا مراراً كثيرة في شعره : فمن ذلك قوله من قصيدة رثى
بها أهل البيت عليهم السلام :

حبكم كان فك أسري من الشر ك وفي منكمي له أغلال
كم تزلملت بالمذلة حتى قمت في ثوب عزكم أختال

وقوله من قصيدة رثى بها الطاهر أبا أحمد والد الشريف الرضي :
رثاك نسيب وده وولاؤه محق إذا زان (١) القصي بأبطال
ومولاكم فيكم على ما شرطتم وإن بان عنكم في عموم وأحوال

أفتنك بعد هذا أن مهيار عربي بروحه وأدبه عروبة صادقة ؟

.

د - شعره :

المعروف أن مهيار شاعر وكاتب ، ويستشف من كلام البخارزي أنه كاتب ممتاز إلا أننا لم نقف حتى الآن على شيء من ثره وأكبر الفن أنه ضاع فيما ضاع من التراث العربي الأدبي . بيد أن شعره مجموع في ديوانه الضخم الذي يقع في أربعة مجلدات . ويظهر أن مهيار غني بشعره فجمعه وعلق عليه وأذاعه في الناس . فقد رأيت أن الخطيب يحدثنا أنه رآه في جامع الخلفاء والناس حوله يقرأون ديوانه عليه وهذا يعني أن شعره كان مجموعاً وبتداولاً في أيام حياته . وهنا أحب أن أقول إنني وقفت قبل نحو من خمسة وثلاثين عاماً على نسخة مخطوطة من ديوانه كتبت للسيد علي خان صاحب « أنوار الربيع » و « سلافة العصر » المتوفى سنة ١١٢٠ أو ٢١ هـ . كانت في حوزة آل السيد حيدر الشاعر الحلبي الكبير ولم تكن هذه النسخة تشمل على كل شعر مهيار إلا أن السيد حيدر عثر على ما ينقصها منه فكتبه بخطه وهكذا باتت أسرته تملك ديوان مهيار مخطوطاً بأكمله . ويؤسفني أن لاحظ أن النسخة التي طبع عليها ديوان مهيار بمصر عام ١٩٢٥ كثيرة النقص والخطأ بالقياس الى نسخة آل السيد حيدر فمن أمثلة نقصها أن النونية التي مطلعها : « أمن خفوق البرق ترزينا ٠٠٠ الخ » لا تحتوي على هذا البيت الذي تقدمت روايته وهو « فرضت ناري ٠٠٠ البيت » .

ومن أمثلة نقصها كذلك أن اللامية التي رثى بها مهيار المفيد لا تحتوي على هذا البيت :

بكرت عليك بدرها ربيعية وطفاء تحلب من ضروع حفلة

أما أغلاطها ولاسيما الناشيء منها عن التصحيف فكثيرة جداً ويكفي أن تتصفح الديوان لتقف على عدد غير يسير منها . ومع ذلك أروي لك

من تلك الأغلط مثالين اثنين لتتمكن من تكوين فكرة عنها . ورد في مطلع مرثية مهيار للطاهر ابي أحمد بالديوان :- « كذا تقضي الأيام حالا على حال » والصحيح : « كذا ينقص الاسازم » . وورد البيت التالي في الديوان هكذا :

وتقول للعذال مغضبةً شيبته من حيث لا يدري

والصحيح :

وتقول للعذال مرضيةً لسيته من حيث لا يدري

ولكي تتحقق وجاهة هذا التصحيح أروي لك البيت الذي يتقدم البيت المذكور وهو :

واستقيت لظماي ريقها فاستشهدت بالآي في الخمر

أفترى أن البيت « وتقول للعذال . . . الخ » يمكن أن يصح على الوجه الذي ذكره الديوان وبناءً على ما تقدم رأيت أن أعتد على ذاكرتي فيما أورد هنا من شعر مهيار ما أمكنني ذلك على أن أثبت وجوه الخلاف بين ذاكرتي وبين الديوان في هوامش الصفحات حرصاً على أمانة النقل وسأشير إلى طبعة مصر برمز (ط . م) . ويتألف شعر مهيار من الغزل والمديح والرثاء وشكوى الزمان والناس والوصف وتعرض فيما يلي لهذه الأبواب جميعاً .

غزله : ليس لمهيار غزل مستقل يعتد به ولكن له في مقدمات مدائحه

وهي تؤلف الكثرة الكبرى من شعره : غزل قلما تفتقت عن مثله قريحة شاعر ووجود هذا الغزل في مقدمات المدائح يعني بالطبع أنه لا يعبر عن صباية حقيقية ولكنه يستعيض عن العاطفة الصادقة بأمرين هما رقة

الخيال ودقة المعنى • فانت تقرأه دون أن تحس فيه ديب الحب
الصادق إلا أنه يستهويك بخيال كله لطف ورقة ومعنٍ رائعة بارعه تبلغ
منتهى الدقة أحياناً اسمع قوله :

أمكنك العاذل من قيادها فتتزع الرحمة من فؤادها
ولوت أخلاقها فقد غدا يباضا يشفت عن سوادها
والغانيات عطفةً وصدفةً يجنى لك الحنظل من شهادها
لا يملك الراقه من أحلامه إلا كما يملك من وودها
• • • • •

آه على الرقة في خدودها لو أنها تسري إلى أكبادها (١)
بالبان لي دين على ماطله يمس غصن البن في أبرادها
سلطت الوجد على جوانحي تسلط الخلف على ميعادها

• • •

فأيس من شك في أن هذه القطعة لا تعبر عن حب يدل على نفسه
كما يدل نفس اللطيمة على وجودها • ولكن أظن أنك توافقني على
أنها رقيقة الخيال دقيقة المعنى إلى حد بعيد وإعلك تشاطرني خاصة
إعجابي بهذين البيتين « آه على الرقة • • • » و « سلطت الوجد • • • »
البيت « فتمني سريان الرقة من الخدود إلى القلوب وتسلط الوجد على
جوانح المحب تسلط الخلف على مواعيد الحبيب معيان جميلان جديدان
هما على جانب عظيم من الرقة والدقة • وما أزعمه في هذه القطعة أزعمه
في الأبيات التالية التي أختارها لك من قصيدة أخرى قال مهيأ :

(١) في الديوان « ط • م • » فؤادها

بكر العارض تحدوه النعمى فسقيت الغيث يا دار أماما (١)
وتمت فيك أرواح الصبا يتأرجح بأنفاس الخزامى

.

أين سكانك ؟ لا أين هم أحجازاً يموها أم شأما؟ (٢)

صدعوا بعد التأم فعدت بهم أيدي المومني ترمي

.

يا لواء الدين عن ميسرة والضينات وما كنّ لثاما

قد وقفنا بعدكم في ربكم فنهناه استلاماً والثاماً (٣)

.

قل لجيران الغضا آه علي طيب عيش بالغضا لو كان داما

.

تحملوا ريح الصبا نشركم قبل أن تحمل شبحاً وخزامى (٤)

وابعثوا أشباحكم لي في الكرى إن أذتم لجفوني أن تاما

وقف الظامي على أبوابكم أفيضي وهو لم يشف أواما

(١) في الديوان « ط . م » فسقاك الري . النعمى بضم النون : ريح

الجنوب أو هي بينها وبين الصبا .

(٢) في الديوان « ط . م » أقبوها .

(٣) في الديوان « ط . م » :

قد وقفنا قبلكم في ربكم فنقضناه استلاماً والنزما

(٤) في الديوان « ط . م » وتاماً .

ما يبالي من سقيتهن اللمى منعكن الماء عذباً والمداما

.....

أشستكيكم وإلى من أشتكي أتم الداء فمن يشفي السقاما

.....

فتمنيات الشاعر لدار حبيبته لا تقل طيباً عما يتمنى لها من أنفاس
العبا العطرة وشكواه إلى اللواتي يزعم أنهن سحرن عقله وصرمن
حبله بالغة منتهى التلطف والترفق وتقييده زيارة الخيال بالأذن لجفونه
في أن تمام معنى لم يسبق إليه فيما أظن . واليك الآن مثلاً آخر من
هذا النسيب المطرب المرقص . قال مهيار :

أما وهوها عذرةً وتتصلاً لقد نقل الواشي إليها فأحلا (١)

سعى جهده لكن تجاوز حدّه وكثر فارتابت ولو شاء قللا

وقال واسم يقبل ولكن أسبته على أنه ما قال إلا ليقبلا (٢)

وطارحها أني سلوت فهل رأى - له الدم - مثلي عن هوى مثلها سلا

أنفض طوعاً حبها عن جوانحي وإن كان حباً للجوانح مثقلا ؟

أبى الله والقلب الوفيّ بعهده وإلف إذا عدّ الهوى كان أوّلا

أيا صاحبي نجواي يوم سويقةٍ أناة ! وإن لم تسعدا فتجملا

(١) تشير الأبيات الأولى من هذه القصيدة الى الوشاية الكاذبة التي
قادت الى سجن مهيار ليلة واحدة والى نظم هذه القصيدة كما أوضحنا ذلك في
حينه . وامجل ا كذب .

(٢) في الديوان (ط . م) :

وقال فلم تقبل ولكن تلومت على أنه ما قال الا لقبلا

سلاظية الوادي وما القبي مثلها وإن كان مصقول الترائب أكحلا
أنت أمرت البدر أن يصدع الدجى
وعلمت غصن البان أن يتميلا ؟
وحرمت يوم اليبين وقفه ساعة على عاشق ظن الوداع محلا ؟
جمعت عليه حرقة الدمع والجوى وما اجتمع السدءان إلا ليقتلا
هبي لي عيني واحمائي كلفة الأبي على القلب إن القلب أصبر للبلا
أراك بوجه الشمس والبعد بيننا فأقع تشبيهاً بها وتمثلا
وأذكر عذباً من رضاك مسكراً فما أشرب الصهباء إلا تعلا

* * *

ليس التحدث عن أقاويل الوشاة وأراجيفهم شيئاً جديداً في الأدب العربي ولكن يغلب على الظن أن هذا التحليل الذي أتى به مهيار لمسعى الواشي الأثيم جديد في بابهِ ولا سيما قوله بأن واشيه باء بالفنل ولكنه يسه على سوء نيته ، وليست المقارنة بين وجه الحبيبة وبين الشمس ، وبين ريقها وبين الصهباء معنى مستحدثاً ولكن قناعة مهيار « برؤية » حبيته « في وجه الشمس » تشبيهاً وتمثلاً « وتعلله بشرب الصهباء لحرمانه من لعمى تلك الحسناء زيادتان طرفتان غير مبتذلتين .

* * *

إخوانياته أو شعره في الزمان والناس :

وكثيراً ما شفع مهيار غزله في مدائحهِ بشكوى الزمان أو ذم الناس

أو بهما معاً وربما اشتد سخطه أحياناً فبدأ تصائده بشيء من هذه
الشكوى أو ذلك الذم كما فعل في بائته التي مطلعها :

« قالوا رضيت قلت ما أجدي الغضب » الخ . . .

وعني عن البيان أنه لم يكن أول من شكى انزمن والأخوان في
القريض العربي وإنما سبقه إلى ذلك في الجاهلية والاسلام شعراء
لا يحصون . ومع ذلك فشره في هذا الباب جدير بأن يقرأ وأن يتمثل به
لأنه مفعم إخلاصاً وحيوية . وقد رأيت أن غزله يستعيض من صدق
العاطفه بركة الخيال ودقة المعنى فلاحظ الآن أن إخوانيته أو كلماته
في ذم الزمن والناس تعتمد على الأمر الواقع ، والحقيقة الملموسة دون
أن تستغني عن طرافة الخيال ودقة التصوير . وما هي إلا أن تقرأها حتى
تبين خلالها النظرات المريية والابتسامات الخادعة والمجاملات المعسولة
الكاذبة والعبادة الأنيمة للمال والاستهانة المزرية بالفضيلة المملقة .
وأنت إذا تأملت شعر مهيار في هذا الباب رأيت أن نغمته الشديدة على
الناس ناشئة من سبين هما البخل والرياء . فمهيار شاعر متكسب ومعنى
هذا أنه يعتمد في حياته على كرم الناس ، ولكن الأسخياء بالمال
فيلبون وقليلون جداً ، وهذه القلة في عددهم تغيظ مهيار وتثير حنقه
وتدفعه إلى التذمر الشديد حيناً وإلى القنوط حيناً آخر . وقد مر بك
من شعره عند البحث عن أخلاقه ما يؤيد ذلك . وهو إذا صدقناه سليم
النية حسن السريرة يخلص لصديقه في البعد كما يخلص له في القرب
ويمحضه الود في السر كما يمحضه إياه في العلن :

ما أنا من صيغة أيامكم ولا الذي إن قلبوه انقلبا

ولا ابن وجهين أئثم حاضراً من الصديق وألوم الغيبا
قلبي للأخوان شطوا أو دنوا وللهوى ساعف دهر أو نبا

وهو يطلب إلى الناس أن يشاطروه حسن نيته ويشركوه في صفاء
طويته ولكن المخلصين من الناس أقل من الأسخياء منهم بالمال . وكان
هذا يسوء مهيار أيضاً ويحمله على الضيق بالناس وعلى المقمت لهم ما
وجد إلى مقتهم سيلا . ويظهر أن نقمة مهيار الشديدة على الناس
عادت عليه بأجزل الفوائد ، فقد انتهى به النفور من شحهم إلى القناعة ،
والاشمئزاز من ريائهم إلى الانفراد والعزلة . اسمع قوله في القناعة :

وجد الجميم فعافه وتبqلا وجرى له الوادي فصد وأوشلا (١)

ورأى الكبير مع المذلة هادماً حسب الكريم وعرضه فقللا (٢)

.

تلحو على البخل الضنين بماله أفلا تكون بماء وجهك أبخلا

أكرم يدك عن السؤال فانما قدر الحياة أول من أن تسألا

.

ولقد أضم إليّ فضل قناعتي وأبيت مشتملاً بها مترملا

وأرى العدو على الخصاصة شارة تصف الغنى نبيخاني متمولا (٣)

(١) الجميم : النبت الكثير : وتبقل طلب البقل وهو ما نبت في بذرة
لا في ارومة ثابتة وأوشل : طلب الوشل وهو القليل .

(٢) في الديوان (ط . م) من المذلة .

(٣) في الديوان (ط . م) العدو بدلا من العدو وتخالني بدلا من يخالي .

وقوله في الحث على القناعة والوحدة :

إني لأتعب زهداً والثرى عمم نبأً وأظما وغرب الغيث مسكوب
ولا أرق لحرص خاب صاحبه سعياً ويعلم أن الرزق مكسوب
عقبى الطماعة في مال يمن به عصاراة لا يغطي خبثها الطيب
طهرت خلالك من خل تعاب به واسلم وحيداً فما في الناس مصحوب

♦ ♦ ♦

وقوله وهو يتحدث عن وحدته :

يا من يلوم عليّ اشتمالي قاعداً والأرض واسعة الفروج لنهضي
ويرى الرجال وكلهم متكرر بصحابة فيلومني في وحدتي
إعذر أخاك فما تهجر مشمساً حتى تقلص عنه ظل الدوحة
كيف اعترافي بالصديق وكيف لي بالفرق بين محبتي من بغضتي
وقلوب أعدائي الذين أخافهم مغالوة لي في جسم أحبتي

♦ ♦ ♦

وصفه : ولم تشمل مدائح مهيّار على لطائف غزله ونقداته للحياة
والناس فحسب وإنما اشتملت على بدائع وصفه أيضاً وما أريد الطواف
بك في مدائح مهيّار كلها ولا أكثرها بل ولا في كثير منها بحثاً عما تطوي
عليه من بدائع الوصف ولكنني أقف بك عند قصيدة واحدة وصف فيها
بيتاً بناه أحد أصدقائه إذا قرأت وصفه خيل لك أنه بني بقوة السحر .
ولا بد من وصف هذا البيت لك ثراً لتذوق وصفه نظماً . وقد سبق

إلى هذا جامع الديوان فشرح عجائب البيت المذكور وغرائبه بكلام طويل أثبتته هنا كاملاً غير منقوص لفائدته : قال جامع الديوان : « واتخذ بعض أصدقائه من أولاد الرؤساء الكتاب في داره بيتاً من الخيش في وسطه بركة مئونة قد نصبت فيها صومعة للمحركات مربعة لها أربع منائر مجوفة في جوانبها الأربعة ، يتوسطها عمود عالٍ في صورة الأستطوانة ينزل إليه الماء من حوض مشرف مرفوع بناؤه على سماء البيت مضروب إليه بالمحركات حتى إذا استقر الماء في قرار البركة فاض منه ثم من الأربعة الجوانب فيضاً يعلو حتى يكاد بفضل قوته يلحق بسقف البيت وقد عملت لها تماثيل من الصفر يسمى كل واحدٍ منها باسم . فتؤخذ آلتها فتركب على ذلك العمود الأوسط ثم تدار بحركة من المحركات فترش الماء على سائر من يحويه البيت أو يقاربه فمن التماثيل صورة تسمى الخركاة (١) إذا نصبت وأديرت تشكل الماء عليها بشكل (الخركاة) وبقى معلقاً لا يفيض ولا يسيل حتى تقطع حركتها ويوضع عليها من جوانبها الشموع اللطاف المسرجة فتدور فيها من غير أن تطفئها ومنهن صورة تسمى « العروس » يجعل لها ذلك العمود كالكرسي فتدور راقصة عليه وتوصل في دورانها الماء إلى رأسها بيدها . ومنهن صورة تسمى « الجمل » على هيئته إذا نصبت سارت مسيره بالماء المحرك لها ومنهن صورة سموها (الطناب) في هيئة رجل فاشب (٢) إذا نصبت وأريد بعض حاضري البيت بالبلل صوب سهمه ذلك إليه فأصابه

(١) الخركاة (كما ورد في محيط المحيط) بالفارسية القبة التركية .
ويقال في تعريبها خرقاة وقد وردت في شعر مهيار بالهمزة كما سيجي .
(٢) الناشب الذي يحمل النشاب وهي السهام .

فكيفما هرول لينجو منه كان الماء تابعاً له مادام في عرصة البيت ثم يخرج الماء من هذه البركة إلى بستان في صحن الدار مشاء في الحين فيه صنوف النخل والسرو وغير ذلك من الشجر وأنواع الرياحين والزهر مما يروق مثله وهواء هذا البيت مجلوب من « بادهنج (١) » قد شيد على سطحه مفتوح الجناحين لمهب الجنوب والشمال . فدخل مهيار رحمه الله على هذا الصديق ذات ليلة ، فسأله التعريج على هذا البيت والنظر إلى نتجائه ففعل . ولما نصبت التماثيل وجاءت النبوة إلى المعروف (بالطنبلي) ركب نحوه وصوب إليه قبل ثيابه وكان فعله في قلة نفع الفرار منه على ما قدمناه فعند ذلك سأل ذكر البيت وما حواء ووصف الدار والبستان والبركة والبادهنج فقال واصفاً الحال بما يزيد حلاوة ويروق موضع الإصابة (٢) فيه عند مشاهدة الموضع ، ممازحاً للرجل بغرامة ما بله من ثيابه :

وفيحاً من دورهم (٣) زرتها	وأخلق بها جنة أن تزارا
تلجلج في وصفها المحدثون	وحدث رضوان عنها فحارا
تعرب قاسمها تبادلاً	فخط وتحسبه العين جارا
صحونا طوالاً كما تقتضي	شجاعتنا وحصوناً قصارا

(١) البادهنج : المنفذ الذي تجيء منه الريح وسماه بعضهم « راووق النسيم » وقد قال فيه أبو الحسن الأنصاري :

ونفحة بادهنج أسكرتنا

وجدت لروحها برد النعيم

صفا جري الهوي فيه رقيقاً

فسميناه راووق النسيم (الديوان)

(٢) في العبارة شيء من الغموض وربما كان ويروق لموضع الإصابة منه .

(٣) الضمير في دورهم غائب إلى الملوك في بيت سابق .

وشق لبستانها عن ثريّ
وقد بث في ظل شجرائه
تخفّر منها بمسوبةٍ
من الهيف حين يجور النسيم
نحول عرضت له بالسمان
ومنشورةٍ سترت نفسها
وعزت فصانت سوى ساقها
تشمر عنه جلايبها
فكادات تواريه ظناً به
تشككي وهي طوع الريا
أدنو لتعفني بالعا
وتجلو عليك بنات الفسيل
غدائر غيد يظفرنها
جلبنا له الماء من شاهق
وما سال حتى أسلنا اللجين
إذا ما تحلق مستعلياً
فتمور خمساً إذا ما نطقن
إذا جادهن ندى جدهن
هوّين الأمانة حتى اجتهدن
إذا طلع النبت فيه أنارا
عيون الأذى رقة ولستارا
سوى ورق الحفته أزارا
على غضنها لا تطيق انتصارا
وصغرى تجنبت منها كبارا
فخاطت قميصاً ولائت خمارا
وما إن أباحته إلا اضطاررا
لعادته أن يخوض الغمارا
ومن حسنها أنه لا يوارى
ح تتبعها يمنة أو يسارا
ق في مثلها أم تصد ازورارا؟
إذا كست السعفات الثمارا
وتأبى عليهنّ إلا انتشارا
جزانا بحسب الصعود انحدارا
ولا عز حتى أهنا النضارا
تعلق بالطبع يبغي الفرارا
بأخباره خلت نقعاً مثارا
وإن فرّ طرن إليه نفارا
ليقضيه ماء المستعارا

تروس (١) عليهن في وسطهن
كبرى تعول بناتاً صغارا
برزن يخيلن للناظرين
صوامع من حولها أو منارا
إذا سددت لطحان قناً
حذفن إليها نصولا طرارا
حوتهن معجزة الآتين
تجود الحيا وتمدأ البحارا
فمن بين خركاء مضروبة
على تلعة حملتها اغترارا
تولى مجاريها فوقها
من الماء شمحا كريماً نجارا
إذا ما أدير لها مرة
لتعجب جادت فدارت مرارا
لها آية لم تكن قبلها
ولكن ظهرنا عليها اقتدارا
تري ظلها جامداً مائناً
وتحمل ضدن ماء ونارا
ومثل العروس عروس تديم
يداها على منكيها الشارا
إذا ما جلوها أبت حسة
بكرسيها أن تطيق القرارا
طلبنا لها الكفاء من قومها
فعرز وكان سوى الكفاء عارا
فعدنا نزر عليها السجوف
فترضى بها عفة واحفارا
وكالظبي يظلم باسم الجمال
يُطغى إباء ويغضي اغتفارا
ويزبد فوه لغاماً إذا
تفرق عن شفثيه استطارا
يسير رويماً إذا ما اعتدت
كبود المطايا عطاشاً حرارا
ولولا الذي فعل الطنبب
لقد أنجد المدح فيه وغارا
ولكنه خافر للذما . . .
م جاورته فاساء الجوارا

بغاني فلم أنج مع نهضتي ورحب خطائي منه فرارا
رمانى فأصمى بسهم له بدور مع المتقي كيف دارا
إذا هو فوائده لأبياب القن جروحاً تضل السبارا
فردى ردائي وجات ابيـ ك دراعتي تبتغي منك ثارا
قتيلي لديك فلا تذهبن عليك دماء ثيابي جبارا
وبيت إذا الدهر ضام الشتاء نعوذ منه به فاستجارا
صحبت الخريف به في المصيف وذكروني الليل فيه النهارا
وأهدي الهواء له ناسر جناحين لو حملاه لطارا
تتصت للمريح مستفهما بأذنين لا يحملان السرارا
إذا عبرت مطلقات الرياح بسلكه ظنن فيه أسارى
فلفظ منها السموم الشرار ويلقى إلينا الزيم الخيارا
غراب روضت يا ابن الكرام برأيك منها الشموس النوارا (١)
وباهلت بالأرض فيها السما * فاعترفت خجلاً وانحصارا

هذه هي درة قلادة مهيأ في الوصف ، أما إذا أردت المزيد فاقراً
وصفه للعود ولقدح ذهبي بديع الصنع في دالية مطلعها : « أرى لمرفها
أن الخضابين واحد » ووصفه البحر في بائية أولها : « سلا دار البخيلة
بالجناب » ووصفه السفينة في رائية مطلعها : « بين الصفا ثنية الحجر »
وفي قافية أولها : « أروض الوادي أم ابيض الغسق » ووصفه خلعاً نفسه

(١) الشموس النوار : الممتعة النافرة .

أقيضت على الصاحب أبي القاسم ابن عبدالرحيم في بائية مطلعها :
« أفاح قوم إذا دعوا وثبوا » ووصفه خلعاً نفيسة كذلك بينها دواء
ذهبية تجية أنعم بها على عميد الكفاة أبي سعد بن عبدالرحيم في
ميمية مطلعها : « أيقظني للبرق وهو نائم » اقرأ هذا كله وما أشك
في أنك ستجد وصف مهيار على الدوام صادقاً دقيماً يجمع سعة الخيال
ونفاذ الحس إلى براعة في التصوير تبعث على الاعجاب ! قد تقول :
ولكن أليس لمهيار وصف سوى هذا الذي نجده في أثناء مدائحہ ؟

والحق أن له غرراً وصفية كثيرة صور فيها كل ما وقع تحت بصره
مما هو جدير بالوصف . فهذه قطعة تصف المرأة وهذه ثانية تصف
السرير وهذه ثالثة تصف النخلة وهذه رابعة تصف الرمان وهذه خامسة
تصف السمك وهكذا . ولكني أثرت الاقتصار على خير ما قال في هذا
الباب . وإليك مثلاً من وصفه المستقل عن مديحه وهو وصفه ملك
الشرنج :

ومؤمر بين الرجال مقدم	في الأرض وهو مدبر مأمور
باق يخاف الحتف وهو متى يمت	فله معاد عاجل ونشور
ويسير ما سار الجيوش أمامه	ويقودها فيقيم وهو يسير
كثرت منازلہ وضافت طرقہ	فكانہ بمكانہ مأسور

مديحه : ولكن ما قيمة مديح مهيار هذا الذي تقدمه طرائف
الغزل وترافقه الخواطر الاجتماعية القيمة وتتخلله بدائع الوصف ؟ :
أكذبك إذا قلت لك إنه صادر عن أي شيء آخر سوى الرغبة في
الحصول على المال . ومهيار يعلن ذلك ويؤكدہ بصراحة ما بعدها

صراحه كما رأيت . نعم !! إنه يعطيك فكرة صحيحة أو شبه صحيحة عن الممدوح لأن مهيار يتوخى قدر الامكان وصف ممدوحه بما هو فيه أو بما يتظاهر به أمام الناس . فإذا مدح وزيراً مخنكاً ذا خبرة سياسية واسعة وصفه بالحكمة والدهاء وبعد النظر وما إلى ذلك . وإذا مدح كاتباً ممتازاً من كتّاب الدواوين وصفه بأصالة الرأي وذكاء الطبع والقدرة على الانشاء وإذا مدح زعيماً شهماً غزير الجود شديد البأس وصفه بما يمثل شهامته ويدل على كرمه وشجاعته ، وإذا وفق ممدوح فاضل على سبيل الفرض الى الجمع بين كثير من هذه المزايا المخالفة صورته مهيار لقارئه بكل ما يمت إلى أخلاقه بصلة . فالوزير أبو الفرج مثلاً من حسن السياسة وحزم التدبير بحيث يجمع بين الأضداد فيتآخى في عهده الحمل والذئب والطبي والأسد ! « والاستاذ الجليل » أبو طالب محمد بن أيوب من حدة الذهن وصفاء الطبع بحيث « تكفيه أولى قدحة من رأبه » . وشهاب الدولة منصور بن ديبس « عربي في نسبه وكرمه » « فارسي في سيرته ومنزله » . على أن هذه الملاحظات تقريبية لأنه ليس هناك ممدوح يرضى أن يمدح بما هو فيه أو بما يتظاهر به فقط وإرضاء الممدوح ضروري للحصول على الجائزة كما تعلم . ومهما يكن من شيء فهناك مثلاً من مدح مهيار :

يا ساكناً نائر العزيمة مسّ الصلّ من تحت لينة شب
قد علم الملك إذ دعاك وجبل الرأي واه والشمل منشعب
أن قلوباً غشاً تميل مع الدولة أهواؤها وتنقلب
وأن سرّاً متى اصطفاك له أخلص ما في إنائه الذهب

لما تجلى وجه الحذار وليم ابن علي غدرة وخيف أب
رمى بك القصد سهم منجحة يسبق حرصاً حديده العقب
لم يشن قال الشهور عزمه لا صفر عائق ولا رجب

♦ ♦ ♦

مفرت فيها سمنارة البليث لا يرجع إلا في كفه العطب
لسعيه ما أهمه الدم والملحسم ولكن لثيره السلب
حتى استقامت على تأودها وانتظمت في رؤوسها العذب

رثاؤه : بيد أنه إن كانت لشعر مهيار ذروة يجب أن نبلغها في
الكلام عنه فهي رثاؤه . وليست مرثي مهيار كثيرة بالقياس إلى مدائحه
فإنها إحدى وعشرون مرثية بالضبط (١) بيتا تعد مدائحه بالمئات
ولكنها لباب شعره وخيرة إنتاجه لأنها تعبر عن أصدق عواطفه وتمثل
أرقى ما وصل إليه فنه من رعاية لوحدة الموضوع وعناية بترتيب الفكر
وكفاية في استيفاء الغرض وقد يبدو غريباً أن مهيار مدح الناس طول
حياته ثم لم يخرج بالمديح مما هو مألوف من تمهيد بالغزل وتطرق إلى
شكوى الزمان وذم الناس أو الفخر وانتقال موصول أو مقتضب إلى
النساء والاطراء ولكنه نظم في فترات مقطعة طائفة يسيرة من المرثي
فكانت واسطة عقده ومظهر شاعريته الأعلى إلا أنك لا تشعر

(١) اريد بمرثي مهيار تلك التي رثي بها من عز غايه من معاصريه .
أما مرثيه لأهل البيت عليهم السلام فإنها لا تدخل في هذه القائمة لأنها أشبه
بالمدائح نظراً لأبداؤها بالنسب وانتهائها بالمديح والرثاء معاً على أنه إذا
كان لابد من أن أقول كلمة في هذه المرثي فهي في زعمي من متوسط شعر
مهيار وما ظنك برثاء يبدأ بنسب ؟

بشيء من الاستغراب إذا وقفت على سرّ هذه الظاهرة : فسبب تفوق مهيار في رثائه إخلاصه ! وأنت تعلم أن الشاعر لا يشب الوثبات الخالدة ولا يحلق الى أوج شاعريته الا متى اندفع في تيار عواطفه وانفعالاته وشغل بها عن التفكير بالناس ، وبعبارة أخرى إلا متى أخلص لموضوعه اخلاصاً لا تشوبه شائبة . وقد علمت أن مهيار لا يقول المديح الا للعتاة فلاحظ الآن أنه قلما نظم الرثاء إلا للوفاء ! ومعنى هذا أنه شاعر كبير في المديح ولكنه مضوع ، وشاعر كبير في الرثاء ولكنه مضوع . وهو من هذه الناحية يشبه البحري الذي عاش قبله بنحو من ثمانين عاماً شهماً قوياً ، فقد مدح هذا الشاعر آل حميد وأحسن مديحهم كما أنهم أحسنوا جزاءه ثم توالى عليهم النكبات فرثاهم بميمته الخالدة التي مطلعها « أقصر حميد لا عزاء لمغرم » فكانت هذه خير ما قال فيهم على الإطلاق . وانتظم في حاشية المتوكل على الله فظل يمدحه ويناديه نحواً من خمس عشرة سنة مدحه في أثنائها بعدد ضخم جداً من نفائس الشعر فلما كانت فاجعته التي شهدها بعيني رأسه رثاه برائيته التي قال عنها المبرد « ما قيلت هاشمية مثلها » وليس لهذا التحليق المنقطع النظير في الرثاء مع الاجادة في المديح إجابة معتادة سوى سبب واحد هو ما ذكره البحري من أنه : « يمدح للعتاة ويرثي للوفاء »

والآن لننظر ماذا في مرثي مهيار على العموم ؟

في هذه المرثي خواطر وأفكار كثيرة مبتذلة منها ذم الدنيا والتزهيد في الحياة والقول بأنها ظل زائل وحلم كاذب ، ومنها التنويه بقوة الفقيده

الأدبية والمادية والزعم أنه لو كان من الممكن اتقاء خطر الموت بعلم أو عمل أو قوة بطش لاتقاء هو بما له من علم واسع وعمل صالح وبما تحت اشارته من خيل ملجئة وسيوف مصلثة ورماح مشرعة وغير ذلك ، ومنها تمنى السقيا لتربة الفقيده وإهداؤه في ختام القصيدة أطيب التسليمات والتهنئات ، ولكن الى جانب هذه الأقوال المكررة المألوفة نفثات حارة تنطوي على الاخلاص يصف بعضها مصيبة الناس بالفقيده وبعضها شخصيته ومواهبه ومناقبه ويعبر البعض الآخر منها عن شعور مهيار الخاص نحوه . وهذه النفثات النادرة المثال هي التي تعطي مراثي مهيار قيمتها الأدبية الممتازة . فمن تلك النفثات الملتهبة التي وصف فيها مهيار ما رأى من الفجائع التي أورت قلبه أسى وأجرت على لسانه نفائس الرثاء قوله في صدر ميميته التي رثى بها أستاذه الشريف .

من جبّ غارب هاشم وسنامها ولوى لؤياً فاستزل مقامها
وغزا قريشاً بالبطاح فلغها بيد وقووض عزّها وخيامها
وأناخ في مضر بكلكل خصفه يستام فاحتملت (١) له ماسامها
من حلّ مكة فاستباح حريمها

والبيت يشهد - واستحلّ حرامها

ومضى يشرب مزعجاً ما شاء من تلك القبور الطاهرات عظامها ؟

.....

الدين ممنوع الحمى من راعه والدار عالية البناء من رامها ؟

أتناكرت أيدي الرجال سيوفها فاستسلمت أم أنكرت اسلامها ؟

(١) في الديوان ط . م (واحتملت) .

أم غال ذا الحسين حامي ذودها قدر أبا ح (١) على الغدوّ سوامها ؟
• • • • •
كلح الصباح بموته عن (٢) ليلة نفقت على وجه الصباح ظلامها
صدع الحمام صفاة آل محمد صدع الرداء به وحل نظامها
بالفارس العلوي شق غبارها والناطق العربي شق كلامها

* * *

وقوله في داليتّه التي رثاه بها أيضاً :

أقريش لا لفسم أراك ولا يد

فتواكلي غاض الندي وخلا الندي

خولست فالتفتي بأوقص (٣) واسئلي

من بزّ ظهرك وانظري من أرمرد

وهبي الدخول فلدت رائدحاجة تقضي بمطرور ولا بمهند
خلاك ذو الحسين أنقاضاً (٤) متى تجذب على جبل المذلة تنقد
قمر الدنيا أضحت سماؤك بعده أرضاً تداس بحائر وبمهتدي
فاذا تشادقت الخصوم فلجلجي وإذا تصادمت الكماة فعردي
يا ناشد الحسنات طوّف فالياً (٥) عنها وعاد كأنه لم ينشد
إهبط الي مضر فدل حمراءها من صاح بالبطحاء يا نار اخمدي ؟

* * *

-
- (١) في الديوان (ط . م) أراح والسوام : الأبل في مرعاها .
(٢) في الديوان (ط . م) (من ليلة) .
(٣) الأوقص : العنق القصير .
(٤) الأناقض : جمع نقض وهو المهزول من السير ناقة كانت أم جملا .
(٥) فالياً : باحثاً .

وقوله من لامية رثى بها المفيد :

ما بعد يومك سلوة لمعلل بمنى (١) ولا ظفر بسمع معذل

سوى المصاب بك القلوب على الجوى

فيد الجليد على حشا المتملبل

وتشابه الباكون فيك لم بين دمع المحق لنا من المتعمل

كنا نغير بالحلوم اذا هفت جزعاً ونهزاً بالدموع الهمل

فاليوم صار العذر للعاني أسي واللوم للمتماسك المتجمل

رحل الحمام بها غنيمة فائز ما ثار قط بسئها عن منزل

كانت يد الدين الحنيف وسيفه فلا بكين على الأشل الأعزل



وقوله في رثاء « عميد الجيوش » صاحب أبي علي :

يا مستقيم الملك أين الحامي يا جذب ما فعل السحاب الهامي؟

حرم الامارة كيف حل سلوكه من غير تلبية ولا إحرام

ما للعراق عقيب صحته اشكى سقماً يجاذب من ذبول الشام

من غصن من دار السلام وإنما (٢)

هي حين تعمر بيضة الاسلام

أصيب بالشمس الضحى أم خولست فيها الليالي البيض بدر تمام

أم هل هوى بأبي علي نجبها رام تعود بالنجوم يرامي



(١) في الديوان (ط . م) « منى ولا ظفرت بسمع معذل »

(٢) في الديوان (ط . م) « من غصن في دار السلام وانما »

وقبل أن أنتقل بك إلى مرحلة أخرى من هذا الحديث أحب أن ألفت
نظرك إلى هذه الألوان المختلفة التي يسبغها مهيار على هذه النفثات :
وفوارة الشريف الرضي نكبة تهم فريش عامة وآل النبي خاصة • وفوارة المفيد
نكبة اسلامية عامة • وفوارة عميد الجيوش نكبة سياسية بحته •

والذي يهمني من هذا هو انطباق كلمات مهيار السالف ذكرها « على
مقتضى الحال » كما يقول البلاغيون انطباقاً تاماً •

أما ما يصف من هذه النفثات منزلة الفقيه وفضله وأدبه وسائر
ما يمتاز به وصفاً أصيلاً رائعاً فإنه موجود في أغلب مرثي مهيار إليك
منه قوله في أستاذه الشريف :

أبكيك للدينا التي طلقتها	وقد اصطفتك شبابها وعرامها (١)
ورميت غاربها بفضلة جبلها (٢)	زهداً وقد ألفت إليك زمامها
• • • • •	• • • • •
ولقولة عوصاء أرتج بابها	نفثته لما ولجت خصامها
وقلائد قذفت بحارك درها	وقضى لسانك رصفها ونظامها
هي آية العرب التي انفردت بها	راعت فيها عهدا وذمامها
• • • • •	• • • • •
حمت حتى قيل صبّ دماءها	وغزلت حتى قيل صبّ مدامها

(١) العرام : القوة •

(٢) في الديوان ط • م (بفضلة معرض) •

ماتت بموتك غير ما خلدته في الصحف اذ أمددته أقلامها
قد كنت ترضاني اذا سؤمتها تبعاً وأرضى أن تسير أمامها

♦ ♦ ♦

وقوله فيه من قصيدة أخرى :

رضي الموافق والمخالف رغبةً بك واقدي الغاوي برأي المرشد
ما أحرزت قصباتها وتراهنّت إلا ظهرت بفضلة من سيؤدد
تبعتك عاقدة اليك أمورها وعزى تميمك (١) بعد لما تعقد
ورآك طفلاً شبيهاً وكهولها فتزحزحوا لك عن مكان السيد
أنفقت عمرك ضائعاً في حفظها وعققت عيشك في صلاح المفسد
كالنار للساري الهداية والقرى من ضوئها ودخانها للموقد

♦ ♦ ♦

وقوله في المفيد :

يا مرسلًا ان كنت مبلغ ميت تحت الصفائح قول حيّ مرسل
فلح الثرى الراوي فقل لمحمدٍ عن ذي فؤاد بالفجيعة مشعل
من للخصوم اللد بعدك غصةً في الصدر لا تهوي ولا هي تعلي؟
من للجدال إذا الشفاه تقلصت وإذا اللسان بريقة لم يبل؟
من بعد فقدك رب كل غريبةٍ بكر بك افترعت وقولة فيصل؟

.

(١) التميم : جمع تميمه وهي خزرات تنظم في السير ثم تعقد في بمنق الصبي

من للطروس يصوغ في صفحاتها حلياً يققع كلما خرس الحلي؟
يبقين للذكر المخلد رحمةً لكفي فم الراوي وعين المجتلي
أين الفؤاد الندب غير مضعّف أين اللسان العضب (١) غير مفلل؟
نفدي به وتحز كل ضريبة ما كل حزة مفصل للمنصل

بقي أن نعرف وصف مهيار ما يشعر به من ألم ذاتي ناشيء عند فقد
من رثي من عظماء عصره وعلمائه وأدبائه ، وهذا سهل لأنه لا تكاد
تخلو مرتبة من مرثي الرجل من أبيات كثيرة أو قليلة تعبر عن مثل هذا
الألم الذاتي تعبيراً واضحاً قوياً . لكنني أؤثر أن أقصر على مثال مطول
واحد يخيل إلي أنه أبلغ وأروع ما جرى على لسان مهيار في هذا الباب .
وروايته على طوله لا تسمح بإيراد مثال آخر معه هذا المثال هو قوله
في رثاء أحمد بن عبدالله الذي تقدمت له الإشارة :

سل الموت : هل أودعته من ضغينة تنقم منها فهو بالوتر طالبي
له كل يوم حول سرحي غارة يشرد فيها بالصفايا النجائب
سلافة إخواني وصفوة إخوتي (٢)

ونخبة أحبابي وجل قرابي
فليت عفاً عن أحمد فادياً له بمصرمة (٣) مما اقتنيت وحالب
أألآن لما اشتد متني بوده وردت ملاء من نداء حقائبي
وجمت لآمالي العطاش حياضه وكانت تحلى عن نطاف المشارب
فجعت به غص الهوى حاضر الجدى
جديد قميص الود سهل المجاذب

(١) في الديوان « ط . م » : « الصب » .

(٢) هكذا في الديوان (ط . م) وربما كان الصواب أصعابي أو خلاني

لمكان (أخوة) من البيت .

(٣) المصرمة : الناقة كوي ضرعها فانقطع لبنها .

كأنني على العهد القريب اعتلقته
بطول اختياري أو قديم تجاربي
ففيد بميسان استوت في افتقاده
مشارك آفاق العلا بالمغرب
تفافوا عن جمر الغضا نادياته
كأن فؤادي في حلوق النوادب
بكت أدمعاً بيضاً ودمت جباهها
فتحسبها تبكي دما بالحواجب

وكت إذا ما الدهر شل معاطني (١)

ذخيرة أنسي يوم يوحشي أخي
دعوتك فاستفدت منه سلائي
سلام على الافراح بعدك إنها
وبابي إذا سدت علي مذاهبي
إذا دنس الحزن السلو غسلته
وإن أحدثت عندي يد الدهر نعمة
أداري عيون الشامتين تجلداً
وأبسم منهم في الوجوه القواطب
أريهم بأني ثابت الريش ناهض

وتحت جناحي جانقات (٢) المخالب

لا أريد أن أقول إن مهيار لم يسبق الي شيء مما ورد في هذه النفثات
ولكنني أدعي أنه أحس كل ما فيها وشعر به شعوراً تاماً حتى جرى
علي لسانه في غير ما تعمل ولا تكف . ولذلك فمن الحق أن نعتبر
هذه النفثات جديدة في مجموعها أو شبه جديدة علي أنني لا أستبعد أن

(١) معاطن : جمع معطن وهو مبرك الابل حول الحوض .

(٢) جانقات : جائرات .

يكون مهيار قد ابتكر كثيراً من المعاني التي مرت بك كقوله :

تنافثوا عن جمر الغضا نادباته كأن فؤادي في حلوق النوادب

وكقوله :

بكت أدمعاً بيضاً ودمت جباهها فتحسبها تبكي دماً بالحواجب

وكقوله :

فان أحدثت عندي يد الدهر نعمة ذكرتك فيها فاغدت من مصائب

فاذا أضفت الى هذا ما أسبغ على هذه النشآت من جمال اللغة ولطف
الأسلوب تبينت بوضوح أنني لم أجازف كثيراً باحلال مرثي مهيار أول
محل من شعره .

لغته وأسلوبه : وتسالني رأيي في لغة مهيار وأسلوبه فأقول لك : إنه
احتذى في هذا مثال أستاذه الشريف الرضي ونسج على منواله فكان له
صفاء ديباجته ورقة حاشيته ووضوح عبارته وخلو كلامه من الفضول
والحشو . وملاءمة لغته لموضوعاته واعتداله في استعمال المحسنات
البيانية . وقد مر بك من شعره ما يؤيد هذا كله تأييداً تاماً .

د - خاتمة

قلت لك مراراً عديدة إن مهيار تلميذ الشريف الرضي عنه أخذ وعليه
تخرج . فلتبين الآن أبلغ التلميذ مدى استاذه أم قصر عنه فلم يلحق له
شأواً ولم يدرك له مدى ؟ .

لا شك أن غزل مهيار على رقة خياله ودقة معانيه دون غزل الشريف

بمراحل ، لأن العاطفة الصادقة التي هي مصدر جمال غزل الشريف غير موجودة فيه - والعاطفة الصادقة كما تعلم - أول مصادر الجمال في الغزل . ولا شك كذلك أن إخوانيات مهيار دون أخوانيات أستاذه فلست أعرف له قصيدة في هذا الباب تبلغ من نبل الشعور وسمو العاطفة ما يبلغه تلك البائية الفذة التي كتب بها الشريف إلى أبي الحسن البتي والتي مطلعها :

أبا حسن أنحسب ان سُوقي يقل على معارضة الخطوب (١)

ومعلوم أنه بعيد كل البعد عن أن يجاري الرضي في الفخر بل لعل بعض كلماته فيه يدعو إلى الابتسام بدلا من الإعجاب ، من ذلك فخره في نونيته التي مطلعها : « أمن خفوق البرق ترزمين الخ ٠٠ » ولكننا قد لا نخطيء إذا لاحظنا أنه لا يقل كثيرا عن استاذه اجادة للرثاء ومهارة فيه . أما في الوصف فقد تكون كفة مهيار هي الراجحة .

(١) لم أتحدث عن إخوانيات الشريف في أثناء كلامي على شعره لأن ناقداً معاصراً كتب عنها ما فيه كفاية . ولم أتحدث كذلك عن وصفه لسبب مماثل .

الأدب العباسي ما له وما عليه

قلت لك عند الكلام على النثر العباسي انه نسج على منوال القرآن من حيث مذاهبه وأساليبه في الأداء . وعند الكلام على الشعر العباسي انه أنشئ على غرار الشعر الجاهلي من حيث صورته وأشكاله ، ومن حيث مقاصده وأغراضه في كثير من الأحيان . وأقول لك الآن ان النثر العباسي بقي بمكانه فلم يتقدم في مختلف العصور العباسية تقدماً يذكر بالنسبة الى ما كان عليه في القرن الأول للهجرة . فليس لابن المقفع ، ولا للجاحظ ، ولا للخوارزمي ، ولا لأحد غيرهم من كبار الكتاب العباسيين ما يضارع مختار خطب القرن الأول للهجرة ورسائله وحكمه ، خطورة معنى وبراعة مبنى . ولكن الشعر على علاقته تقدم تقدماً لا بأس به ، فتحدث عن الحرب والسياسة والشؤون الاجتماعية والفردية بأسلوب أقوى ونفس أطول وتفصيل أتم ولغة أسهل وأجمل مما كان عليه قبل ظهور الدولة العباسية .

أما أثر الموالي في كل من الشعر والنثر فقد كان ضئيلاً ، ذلك أن هؤلاء الغرباء كانوا يتقنون بالثقافة العربية ويصبغون عقولهم باللصغة العربية الخالصة ، ويعملون طوعاً أو كرهاً على أن يكونوا عرباً في أفكارهم وعواظهم كما كانوا عرباً في لغتهم .

وأنت تعلم أن بشاراً على شعوبيته كان يفاخر بأنه نشأ « في حجور

ثمانين شيخاً من فصحاء بني عقيل ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ» ،
وأن أبا نواس الذي لا يقل شعوبية عنه تخرج على والبته بن الحجاب
الشاعر الكوفي الأسدي ، واستكمل ثقافته اللغوية في بادية بني أسد
ودرس في البصرة دراسة عربية خالصة . وأن مهيار الديلمي ذهب في
انتحال العروبة إلى أبعد من هذا ، فادعى إيقاد النار تحت دياجر الليل
للسارين ، ونحر الكوم العشائر لهم تشبهاً بأجواد البادية كما انتحل مظاهر
الحب البدوي العذري ومميزاته وخصائصه . هذا إلى أنهم لم يغيروا قافية
ولم يستحدثوا وزناً ، ولم يصطنعوا أسلوباً خاصاً فضلاً عن أن يطقوا
موضوعاً جديداً ، أو يعالجوا غرضاً غير مألوف .

ومما ينبغي التنويه به لخير الأدب العباسي أن تأريخه عرف ثلثة من
كبار الشعراء في طليعتهم ابن المعتز وأبو فراس والشريف الرضي ، قرضوا
الشعر للشعر ، وخدموا الفن للفن ، وتركوا في الوصف والرثاء والغزل
والحكم والأمثال صفحات أصيلة رائعة يستطيع الأدب العربي أن يفاخر
بها . على أن الشعراء التقليديين الذين تكسبوا بالشعر واتخذوه صناعة
لا رسالة ، تركوا هم أيضاً غرراً ومحاسن لها من المزاي الأديسة
والتاريخية ما يجعلها جديرة بالتقدير والثناء .

وليس معنى هذا أن نقلد أولئك أو هؤلاء فنتحل مقاصدهم وأغراضهم
ونصنع مذاهبهم وأساليبهم كائنه هذه ما كانت . كلا ! فان مهمتنا الآن
هي أن ننهض بأدبنا نهضة قوية صادقة وان نجدده في موضوعاته وصوره .

وأغراضه تجديداً يجمع بين الجرأة والاعتدال . ويجمع كذلك بين
حسنة الماضي والحاضر وينبذ سيئاتهما على السواء . وقد فعلنا مثل ذلك
في الشر وبقى أن نفعله في الشعر . ولكننا نقول الذي نقوله في شعراء
السلف تقريراً للحقيقة وخدمة للتاريخ وتوحيهاً بالدور الحسن الذي
لعبوه في خدمة اللغة والأدب .

مصادر الكتاب

- ١ - ابن الرومي حياته من شعره للاستاذ العقاد . الطبعة الثانية . ١٩١٨-١٣٥٧ .
- ٢ - ابو فراس الحمداني : للسيد محسن الامين العملي : الطبعة الاولى . ١٩٤١ - ١٣٦٠ .
- ٣ - ابو نواس : للسيد محسن الامين العملي : الطبعة الاولى ١٩٤٧ .
- ٤ - اخبار ابي تمام لابي بكر الصولي : الطبعة الاولى ١٩٢٧ .
- ٥ - اخبار ابي نواس لابن منظور : الطبعة المصرية ١٩٢٤ .
- ٦ - ادباء العرب في العصر العباسية للاستاذ بطرس البستاني : الطبعة الاولى .
- ٧ - الادب العربي وتاريخه : للاستاذ محمود مصطفى الطبعة الثانية مصطفى البابي الحلبي ١٩٣٧-١٣٥٦ .
- ٨ - امراء البيان : للاستاذ محمد كرد علي : الطبعة الاولى
- ٩ - امراء الشعر في العصر العباسي : للاستاذ أنيس المقدسي : الطبعة الاولى .
- ١٠ - الاغاني : لابي الفرج الاصبهاني : طبعة مطبعة التقدم بمصر .
- ١١ - أمالي السيد المرتضى : الطبعة الاولى ١٢٢٤ هـ .
- ١٢ - الاوراق للصولي : الطبعة المصرية ١٣٦٤-١٩٤٥ .
- ١٣ - البديع لابن المعتز : الطبعة المصرية ١٩٤٥ .
- ١٤ - بشار للمازني : طبعة مصر ١٩٤٤ .
- ١٥ - البخلاء للجاحظ : طبعة دار الكتب المصرية ١٢٥٨-١٩٣٩ .
- ١٦ - البيان والتبيين للجاحظ : طبعة مطبعة الفتوح الادبية بمصر ١٣٢٢ .
- ١٧ - تاج العروس الطبعة الاولى ١٣٠٦ .

- ١٨ - تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان : طبعة مصر ١٩١٣ .
- ١٩ - تاريخ الامم والملوك للطبري : طبعة المطبعة الحسينية بمصر .
- ٢٠ - تاريخ بغداد للخطيب البغدادي : طبعة مطبعة السعادة بمصر . ١٣٤٩ .
- ٢١ - تطور الاساليب الثرية : للاستاذ أنيس المقدسي : الطبعة الاولى
- ٢٢ - حديث الاربعاء للدكتور طه حسين : طبعة البايع الحلبي ١٩٣٧
والمعارف ١٩٤٥ .
- ٢٣ - الحيوان للجاحظ : طبعة مطبعة البايع الحلبي بمصر .
- ٢٤ - خزانة الادب للبغدادي طبعة بولاق
- ٢٥ - ديوان المتنبي : طبعتي مطبعة صادر وعزام .
- ٢٦ - ديوان ابي تمام : طبعة مصر لسنة ١٩٤٢
- ٢٧ - ديوان ابي فراس : طبعة الدهان .
- ٢٨ - ديوان ابي نواس : طبعة المطبعة الحميدية بمصر ١٣٢٢ .
- ٢٩ - ديوان ابن المعتز : طبعة بيروت ١٨٩١ .
- ٣٠ - ديوان ابن الرومي : طبعتي كامل كيلاني الطبعة الاولى ١٩٢٤
ومحمد شريف سليم الطبعة الاولى ١٣٣٥ - ١٩١٧ .
- ٣١ - ديوان الشريف الرضي : طبعة بيروت ١٩١٠ .
- ٣٢ - ديوان المعاني لابي هلال العسكري : طبعة القاهرة ١٣٥٢ .
- ٣٣ - ديوان مهيبار : طبعة دار الكتب المصرية ١٣٤٣ - ١٩٣٠ .
- ٣٤ - ديوان البحتري : طبعة مطبعة هندية بمصر ١٣٢٩ - ١٩١١
- ٢٥ - ذكرى ابي الطيب بعد الف عام للدكتور عبدالوهاب عزام : طبعة
مطبعة الجزيرة - بغداد ١٩٣٦ .

- ٣٦ - رسائل البلغاء لمحمد كرد علي : طبعة مصر ١٣٣١ - ١٩١٣ .
- ٣٧ - رسائل بديع الزمان الهمذاني : طبعة مطبعة هندية ١٣١٥ - ١٨٩٨ .
- ٣٨ - رسائل الجاحظ للسندوبي طبعة مصر ١٣٥٢ - ١٩٣٣ .
- ٣٩ - رسائل الخوارزمي : طبعة المطبعة العثمانية بمصر ١٣١٢ .
- ٤٠ - الروائع للبستاني : عدد ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ .
- ٤١ - زهر الآداب : طبعة المطبعة الرحمانية بمصر .
- ٤٢ - شرح ابن ابي الحديد لنهج البلاغة : طبعة دار الكتب الكبرى بمصر
- ٤٣ - الشعر والشعراء لابن قتيبة : طبعة مطبعة التقدم بمصر ١٣٢٢ .
- ٤٤ - طبقات الشعراء في مدح الخلفاء والوزراء لابن المعتز : طبعة مطبعة جامعة كمبردج ١٩٢٩ .
- ٤٥ - الصبح المنبئ للبديعي : طبعة مطبعة الاعتدال بدمشق ١٣٥٠ .
- ٤٦ - ضحى الاسلام للدكتور احمد امين : الطبعة الاولى .
- ٤٧ - عبقرية الشريف الرضي للدكتور زكي مبارك : طبع بغداد ١٩٣٨ .
- ٤٨ - العقد الفريد : طبعة العريان ١٣٥٩ - ١٩٤٠ .
- ٤٩ - العمدة في صناعة الشعر ونقده لابن رشيق : طبعة مطبعة السعادة ١٩٠٧ - ١٣٢٥ .
- ٥٠ - عمدة الطالب في انساب آل ابي طالب : طبع النجف ١٣٥٠ .
- ٥١ - فصول التماثيل في تباشير السرور لابن المعتز طبعة مصر ١٩٢٥ .
- ٥٢ - فهرست ابن النديم : طبعة المطبعة الرحمانية سنة ١٣٤٩ .
- ٥٣ - فوات الوفيات : طبعة بولاق ١٢٩٩ .
- ٥٤ - القاموس المحيط للفيروزبادي : طبعة المطبعة الحسينية بمصر .
- ١٣٣٠ .

- ٥٥ - الكامل في التاريخ لابن الاثير : طبعة ١٢٩٠
- ٥٦ - الكامل في اللغة والادب للمبرد : طبعة مصر ١٣٥٦-١٩٣٧ .
- ٥٧ - كليلة ودمنة لابن المقفع : الطبعة المصرية الخامسة .
- ٥٨ - المجازات النبوية للشريف الرضي : طبعة مصر ١٣٥٦-١٩٣٧
- ٥٩ - معاهد التصيص : طبعة المطبعة البهية ١٣١٦ .
- ٦٠ - مع المتبني للدكتور طه حسين : طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٦
- ٦١ - معجم الأدباء لياقوت : طبعة مصر ١٣٥٧-١٩٣٨
- ٦٢ - مقامات الحريري : طبعة مصر ١٣٤٣-١٩٢٥
- ٦٣ - من حديث الشعر والنثر للدكتور طه حنين : طبعة مصر ١٩٣٦
- ٦٤ - المنتظم في تاريخ الملوك والامم : طبعة حيدر آباد ١٣٥٦
- ٦٥ - الموازنة بين ابي تمام والبحثري للآمدي : طبعة مصر ١٣٢٩
- ٦٦ - الوزراء والكتاب للجهمياري : الطبعة الاولى .
- ٦٧ - وفيات الاعيان لابن خلكان : طبعة المطبعة الميمنية بمصر ١٣١٠
- ٦٨ - يتيمة الدهر للثعالبي : طبعة دمشق .

الفهرست

الصفحة	الموضوع
٤ - ٢	المقدمة
	الباب الاول - في الكتاب المترسلين
٦ - ٥	تمهيد في تأثير النثر العباسي بمذاهب القرآن وأساليبه
- ٧	الفصل الاول - ابن المقفع
١٤ - ٨	حياته ..
١٦ - ١٤	اخلاقه
- ١٦	آثاره ..
٢٠ - ١٦	الأدب الصغير
٢٣ - ٢٠	الأدب الكبير
٢٢ - ٢٣	كليلة ودمنة
٣٣ - ٣٢	رسالة الصحابة
٣٨ - ٣٣	لغته واسلوبه
- ٣٨	سبب درسه
	مصدر شهرته
٣٩ - ٣٨	خاتمة - الفصل في أمره
- ٤٠	الفصل الثاني - الجاحظ
٤٦ - ٤٢	حياته ..
٤٩ - ٤٦	صفاته ..

٥٠- ٤٩	آثاره
- ٥٠	أقسامها
٥٢- ٥٠	مساوئها
٥٤- ٥٣	محاسنها
٥٨- ٥٤	لغته وإسلوبه
٥٩- ٥٨	عذره فيما يؤاخذ فيه من هنات
٦١- ٥٩	مثل من مختار كلامه
٦٢- ٦١	خاتمة - مقارنة بينه وبين عبدالله بن المقفع
							الباب الثاني - في كتاب الاسجاع والمقامات
- ٦٣	الفصل الاول - ابو بكر الخوارزمي
٦٧- ٦٤	حياته
٧٠- ٦٧	صفاته
- ٧٠	آثاره
	نثره
٧١- ٧٠	لغته واسلوبه
٧٢- ٧١	فارسيته
٧٥- ٧٢	مثل من احسن كتبه
	شعره
٧٧- ٧٥	مثل منه
- ٧٧	خاتمة - غلبه النثر على ادبه
- ٧٨	الفصل الثاني - بديع الزمان الهمداني
٨٦- ٧٩	حياته
٨٩- ٨٦	صفاته

٨٩ -	آثاره
	شره
٨٩ - ٩١	لغته واسلوبه
٩٤ - ٩١	مثل من مختار رسائله
	مقاماته
٩٤ - ٩٧	المقامة القزوينية
	شعره
٩٧ - ٩٨	مثل منه
٩٨ - ٩٩	خاتمة - الفصل بينه وبين الخوارزمي
١٠٠ -	الفصل الثالث - الحريري
١٠١ - ١٠٤	حياته
١٠٤ - ١٠٥	صفاته
	آثاره
	مقاماته
	راويتها
	خاصته
	بطلها
١٠٥ - ١٠٦	مميزاته
	تنازعهما وتصافيهما
١٠٦ - ١٠٧	حظوة هذه المقامات لدى القداماء
١٠٧ - ١٠٨	شروحها
	اهليتها لما نالت من الحظوة
١٠٨ - ١٠٩	قيمتها في العصر الحاضر

١١١-١٠٩	لغتها واسلوبها
..	احاسنها
..	مثل منها
١١٨-١١٢	المقامة الحرامية
-١١٨	خاتمة - الحريري والتاريخ
						الباب الثالث - في شعراء القرن الثاني للهجرة
١٢٠-١١٩	تمهيد في الشعر العباسي وتأثره بالشعر الجاهلي
-١٢١	الفصل الاول - بشار بن برد
١٣٦-١٢٢	حياته
١٤٠-١٣٦	صفاته
١٤١-١٤٠	شعره
١٤٤-١٤١	غزله
١٤٦-١٤٤	مديحه
١٥٢-١٤٦	هجاءه
	رثاؤه
١٥٤-١٥٢	فخره
١٥٦-١٥٤	حكيمه
١٥٧-١٥٦	خاتمة - مقارنة بينه وبين الحطيئة وجرير * هل كان مجدداً
-١٥٨	الفصل الثاني - ابو نواس
١٧٣-١٥٩	حياته
١٧٤-١٧٣	صفاته
١٧٦-١٧٤	شعره

١٧٨-١٧٦	غزله
١٨٢-١٧٨	مديحه
١٨٦-١٨٤	هجاؤه
١٩٣-١٨٦	خمرياتة
١٩٤	خاتمة - الفصل في شاعريته وقدرته على التجديد
						الباب الرابع - في شعراء القرن الثالث للهجرة
١٩٥	الفصل الاول - ابو تمام
٢٠٢-١٩٦	حياته
٢٠٥-٢٠٢	صفاته
٢٠٦-٢٠٥	مذهبه السياسي الديني
٢٠٧-٢٠٦	شعره
٢١٠-٢٠٧	فخره
٢١٤-٢١٠	وصفه
٢١٦-٢١٤	رثاؤه
٢١٩-٢١٦	مديحه
٢٢١-٢١٩	هجاؤه
٢٢٥-٢٢١	لغته واملوه
٢٢٦	خاتمة - ما يفيد وما لا يفيد من شعره
٢٢٧	الفصل الثاني - البحتري
٢٣٧-٢٢٩	حياته
٢٤١-٢٣٧	اخلاقه
٢٤٢-٢٤١	رأيه في الدين والسياسة
٢٤٢	شعره

٢٤٥-٢٤٢	غزله
٢٥٠-٢٤٥	مديحه
٢٥٥-٢٥٠	رثاؤه
٢٦٠-٢٥٥	فخره
٢٦٩-٢٦٠	وصفه
	هجاؤه
٢٧٠-٢٦٩	عتابه
٢٧١-٢٧٠	فلسفته
٢٧٤-٢٧١	لغته واسلوبه
٢٧٥	خاتمة - أهمية شعره وفائدته
٢٧٦	الفصل الثالث - ابن الرومي
٢٨١-٢٧٧	حياته
	اخلاقه
٢٨٢-٢٨١	شعره
٢٨٤-٢٨٢	غزله
٢٨٨-٢٨٤	مديحه
	هجاؤه
٢٩١-٢٨٨	عتابه
٢٩٣-٢٩١	رثاؤه
٢٩٥-٢٩٣	وصفه
٣٠٠-٢٩٥	لغته واسلوبه
	خاتمة - ابن الرومي من حيث هو رجل ومن حيث
٣٠١-٣٠٠	هو شاعر

٣٠٣	الفصل الرابع - ابن المعتز
٣٠٧-٣٠٣	حياته
٣١١-٣٠٧	صفاته
٣١٢-٣١١	كتبه
٣١٣-٣١٢	شعره
٣١٦-٣١٣	غزله
٣٢٠-٣١٦	وصفه
٣٢٧-٣٢٠	شعره السياسي
٣٢٨-٣٢٧	حكمه وخواطره
٣٢٩-٣٢٨	لغته واسلوبه
٣٣١-٣٣٠	خاتمة - منزلته بين الشعراء
الباب الخامس - في شعراء القرن الرابع للمهجرة					
٣٣٢	الفصل الاول - المتنبى
٣٥٥-٣٣٤	حياته
٣٦٣-٣٥٥	صفاته
٣٦٤-٣٦٣	آثاره
٣٦٧-٣٦٤	غزله
٣٦٨-٣٦٧	فخره
٣٧٢-٣٦٨	وصفه
٣٨٠-٣٧٢	مديحه
٣٨١-٣٨٠	هجاؤه
٣٨٢-٣٨١	عتابه
٣٨٤-٣٨٢	رثاؤه
٣٨٦-٣٨٤	فلسفته

٣٩١-٣٨٦	لغته واسلوبه
٣٩٢-٣٩١	خاتمة مقارنة بينه وبين ابي تمام والبحثري
٣٩٣-	الفصل الثاني - ابو فراس الحمداني
٤٠٣-٣٩٤	حياته
٤٠٥-٤٠٣	اخلاقه
..	علويته
٤٠٦-٤٠٥	شعره
٤٠٨-٤٠٦	غزله
٤١١-٤٠٨	مديحه
٤١٣-٤١١	فخره
٤١٤-٤١٣	اخوانياته
٤١٧-٤١٤	روميته
٤١٩-٤١٧	لغته واسلوبه
٤٢٠-	خاتمة - منزلته بين شعراء الفروسية
٤٢١-	الفصل الثالث - الشريف الرضي
٤٢٩-٤٢٢	حياته
٤٣٠-٤٢٩	اخلاقه
٤٣٢-٤٣٠	كتبه
..	شعره
٤٣٧-٤٣٢	غزله
٤٤٢-٤٣٧	رثاؤه
٤٤٣-٤٤٢	فخره
٤٤٤-٤٤٣	مديحه
٤٤٩-٤٤٤	لغته واسلوبه
٤٥٠-٤٤٩	خاتمة - منزلته بين شعراء اللغة العربية

٤٥١ -	الفصل الرابع - مهيار
٤٥٧-٤٥٢	حياته
٤٦٠-٤٥٧	اخلاقه
٤٦٣-٤٦٠	تعرّبه
٤٦٥-٤٦٣	شعره
٤٦٩-٤٦٥	غزله
٤٧٢-٤٦٩	اخوانياته
٤٧٨-٤٧٢	وصفه
٤٨٠-٤٧٨	مدححه
٤٨٩-٤٨٠	رثاؤه
..	لغته واسلوبه
٤٩٠-٤٨٩	خاتمة - مقارنة بينه وبين استاذہ الرضي
٤٩١ -	خاتمة الكتاب الادب العباسي ماله وما عليه
٤٩٧-٤٩٤	مصادر الكتاب

جدول الخطأ والصواب

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٦	١٥	عذا	هذا
٨	٤	ما المقفع	أما المقفع
٩	الحاشية	الادب أنه	الادب العربي أنه
١٩	الحاشية	ج ٢ ص ٨٢	ج ٢ ص ٢٨٤
٢١	الحاشية الثانية	ص ١٩	ص ١١٩
٢٨	الحاشية الاولى	ص ١٨	ص ١١٨
٢٩	١٢	أن	لئن
٣٠	الحاشية	ص ٢٩٦ - ٢٩٨	ص ٣٩٦ - ٣٩٨
٣٥	الحاشية الخامسة	ص ١٩	ص ٢٩ - ٣٠
٣٦	الحاشية الاولى	ص ١٠	ص ٩٠
٣٦	الحاشية الثالثة	ص ١٠١ - ١	ص ١١١ - ١١٤
٣٧	الحاشية الرابعة	ص ١٠٣	ص ١٣٠
٤١	الحاشية	ص ٩١	ص ٢٩١
٤٨	١١	فعاہ	دفعاه
٤٨	١٤	ون	دون
٤٨	١٦	عي	دعى
٨٢	الحاشية الاولى	وكفك	كفاك
٨٣	١١	يلفح	يلقح
٨٧	الحاشية الاولى	ص ١٩١ - ٩٢	ص ١٩١ - ١٩٢
٨٨	١٢	دن	دون
٨٨	١٣	ريت	رأيت
٩١	الحاشية الاولى	٢٠٠	٢٠٢

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٠١	١٢	الاسئلة الثلاث	الاسئلة الثلاثة
١٠٨	٩	برعة	براعة
١١١	٦	الاجر	الجرس
١١٥	٣	نامت	نادمت
١٢٧	٨	لي	إلي
١٣٢	٥	رهم	درهم
١٣٢	٥	ورها	وروها
١٣٣	٤	ون	دون
١٣٦	٨	جما	حماد
١٣٧	١	وخبار	وأخبار
١٣٧	٢	قلها	أقلها
١٣٧	١٨	نواره	نواده
١٣٨	١٥	بشا	بشار
١٣٩	١٣	يجزع	ونجزع
١٣٩	١٤	ري	روى
١٤١	١٠	أبها	أديها
١٥٢	١٩	له	لك
١٥٤	٨	بحد	بجد
١٥٥	٥	بشأ	بشاراً
١٥٦	١	صديقاً	صديقك
١٧١	٢	أدركني	أدركتني
١٨٢	١	تسبق	سبق
١٨٢	٢	البلغه	البالغة
١٨٥	٢	يعلموا	يعملوا

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٩٨	٢	الحفظ	الحفظ
١٩٩	١٥	وظاهر	والظاهر
٢٠٣	٧	كثير الاحيان	كثير من الاحيان
٢٠٧	١١	اجتبت	اجتبت
٢٠٧	١٣	تسقي	تسقي
٢٣١	٩	اقتبها	اقتبسها
٢٣٣	٩	دولتها	دولتهما
٢٥٠	٧	منكنا	منكبا
٢٥٦	١٩	واشجهم	واشجهم
٢٥٩		آخر الصفحة في الايات سفه	سفيه
٢٦١	٧	هذيري	عذيري
٢٦٦		آخر الصفحة	فيصف لنا عظمه آل
٢٧٠	١٨	في أيام عز واقناله	في أيام عزه واقباله
٢٧٦		بين أ - ج	ب - اخلاقه انحلالها
٢٧٨	١	لبت	ولبت
٢٨٨		آخر الصفحة	كل
٢٩٠		يقراً البيت وتمنيت . . . الخ بعد البيت (كنت في شبهة) وقبل البيت (تالله) بدلاً من الترتيب الموجود في الصفحة المذكورة .	كان
٢٩٢	٢	قتلته	فتنته
٢٩٥	١٠	فتيليت	فينلت
٢٩٦	١٤	فقد .	وقد
٢٩٩	١١	مخاطبة الجمع	مخاطبته الجمع
٣٠٢	١٠	حيه	حبسه

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٠٢	٢٦	قهر الرباب	قصر الرباب
٣٠٩	٤	على الدهر	عن الدهر
٣١١	١١	فصال التمايل	فصول التمايل
٣٢٠	آخر الصفحة	المؤلمة	المؤلمة التي
٣٢٧	آخر الصفحة	لاؤها	ولاؤها
٣٣٤	السطر الاول من الحاشية بأنهم	أنهم	أنهم
٣٣٤	السطر الاخير من الحاشية جعنى	جعف	جعف
٣٤٩	٢	وهو ولا يزيد	وهو لا يريد
٣٥٤	٣	أثناء	أثناء
٣٥٥	٣	٢٥٤	٣٥٤
٣٧٤	٢	وذلك	وذلك
٣٧٤	١٢	٢٧٤	٣٧٤
٣٨٩	٦	نسها	نسها
٤٠٩	آخر الصفحة	يحذف السطر الثاني من آخر الصفحة	
٤١٤	الحاشية الاولى (الشعر)	لدي النوم	لدي وللنوم
٤٢٥	٧	غبي	غبي
٤٣٠	١١	يستخلصه	يستخلص
٤٣١	السطر الثامن من الحاشية	ولا لغيرها	ولا لغير
٤٣١	السطر الثاني عشر من الحاشية	الصرح	الشرح
٤٣٢	٨	للحجاج	للحجاج
٤١٦	٣	اللغاغيد	اللغاغيد
٤٣٧		أضف جملة أبي على آل عميد الجيوش وواوآ الى أبي منصور المرزباني في الصفحة المذكورة سطر ١١	

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٤٤٧	السطر الاخير من الحاشية	الغيطا	الغيطان
٤٥٩	٣	وأفاهم	وأوفاهم
٤٦٣	٥	تأثراً	أثراً
٤٦٨	٧	فاحلا	فامحلا
٤٧٦	٦	شمحا	سمحا
٤٧٧	٣	للبياب	للثياب
٤٨٤	٥	لم	فلم
٤٨٦	١٢	فلح	فلج
٤٨٧	٤	نفدي	تفري
٤٨٨	السطر الرابع عشر	ولا تكف	ولا تكلف
٤٩٤	رقم ١٥	١٢٥٨ - ١٩٣٩	١٣٥٨ - ١٩٣٩

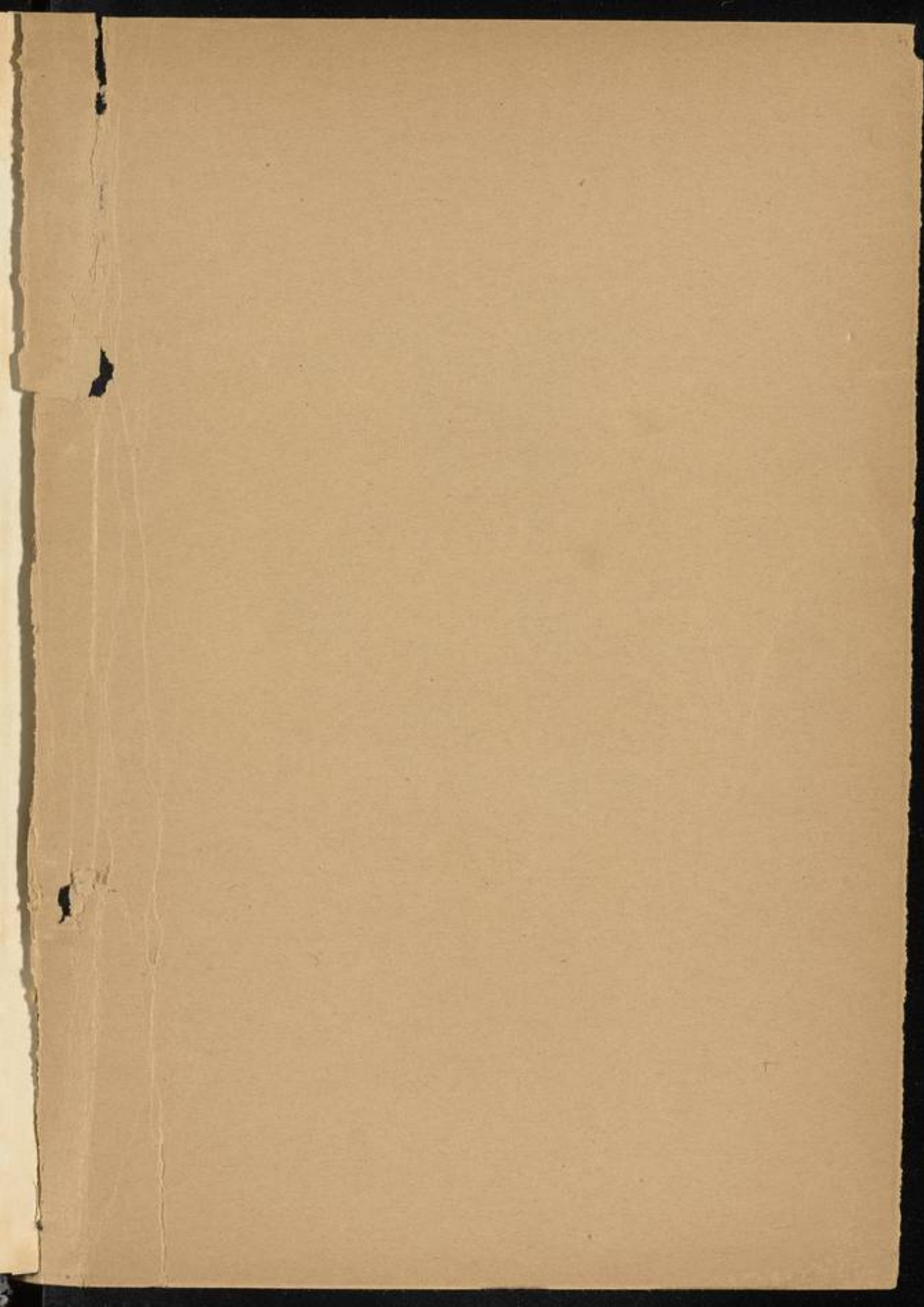
أهم كتب المؤلف المطبوعة

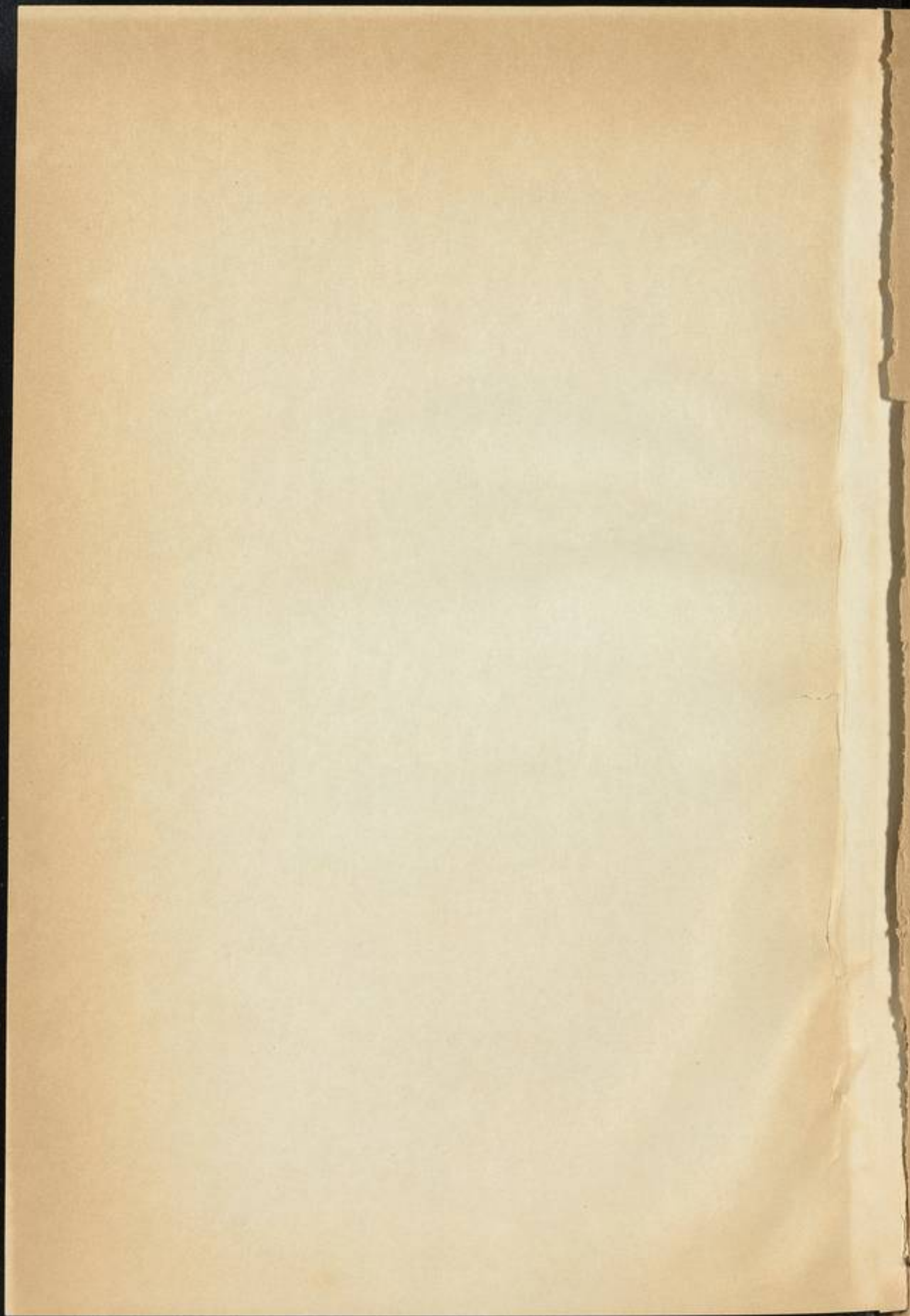
- ١ - تاريخ القضية العراقية (جزءان ظهر في بغداد في سبتمبر ١٩٢٣ و ١٩٢٤) .
- ٢ - شعر كورني الغنائي (بالفرنسية طبع مونيبييه سنة ١٩٣٧) .
- ٣ - بحث الشعر الجاهلي (طبع بغداد ١٩٣٩) .
- ٤ - نهضة العراق الأدبية في القرن التاسع عشر (طبع بغداد سنة ١٩٤٦) .
- ٥ - عصر القرآن (طبع بغداد سنة ١٩٤٧) .
- ٦ - الموشح في الأندلس وفي المشرق (طبع بغداد ١٩٤٨) .
- ٧ - في الأدب العباسي ، هذا .
- ٨ - خطرات (الجزء الأول) طبع في بغداد ١٩٥٢ .

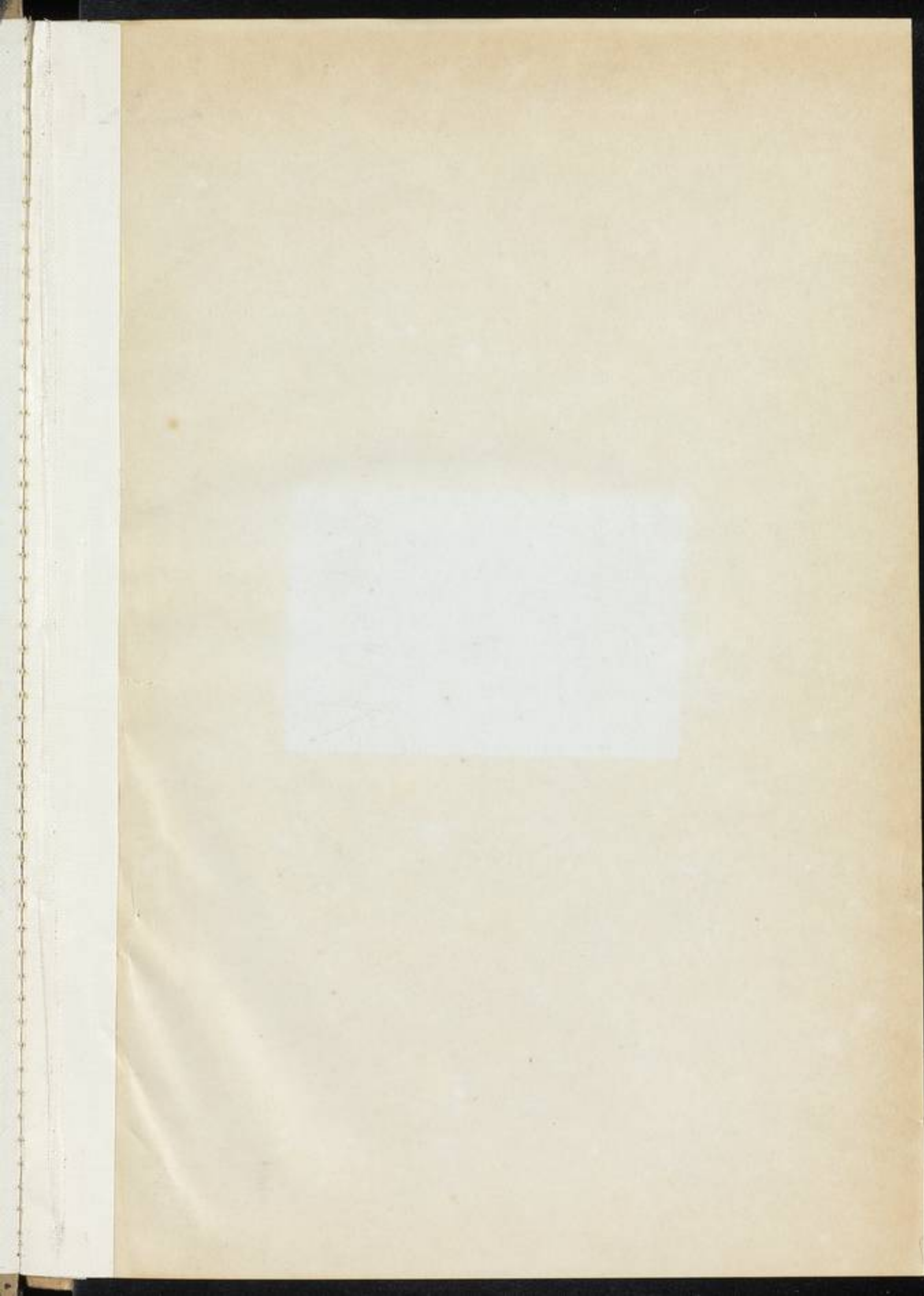
أهم كتب المؤلف المخطوطة

- ١ - البركان (ديوان شعر سياسي) .
- ٢ - همسات (ديوان شعر يحتوي على أغلب أنواع الشعر المعروفة) .
- ٣ - سوانح (مجموعة خطب ومقالات ومحاضرات في السياسة والاجتماع والأدب) .









LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

